

قصة الحضارة

ول وَايرئيل ديورانت

رُوسُو والثَّوْرَة

مُراجَعَة
عَلَمِيّ أَدَهَم

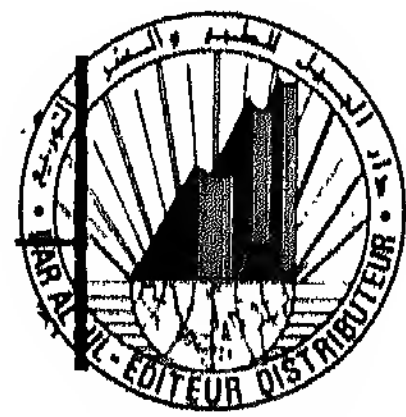
تَرْجَمَة
فُوَاد أُنْدَرَاوِس

الجزء الأول من المجلد العاشر

٣٩



تونس



بَيرُوت

قصة الحضارة - الجزء العاشر

روسيا والثورة

تاريخ الحضارة في فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا
من ١٧٥٦ وفي بقية أوروبا من ١٧١٥ إلى ١٧٨٩

بقلم

ول وإيريل ديورانت

إلى ابنتنا الحبيبة.

إثيل بنفسونا

التي كانت خلال هذه المجلدات كلها

عونا وإلهاما لنا

أيها القارىء العزيز

هذا هو المجلد الأخير فى قصة الحضارة التى كرسنا لها نفسينا عام ١٩٢٩ ، والتى كانت شغلنا اليومى الشاغل وسلوى حياتينا منذ ذلك التاريخ .

لقد كان هدفنا أن نؤلف « تاريخاً متكاملأ » أى أن نكتشف ونسجل ألوان النشاط الاقتصادى ، السياسى ، والروحى ، والخلقى ، والثقافى ، لكل حضارة ، فى كل عصر ، بوصف هذه الألوان عناصر وثيقة الترابط فى كل واحد يسمى الحياة ، ثم نضفى على القصة صبغة إنسانية بدراسات للأبطال فى كل فصل من فصول هذه المسرحية المتصلة الحلقات ومع أننا نسلم بأهمية الحكم والسياسة ، فقد سقنا التاريخ السياسى لكل حقبة ودولة كما تساق خلفية رويت من قبل غير مرة ، دون أن يكون لب القصة أرواحها ، وتركز جل اهتمامنا على تاريخ العقل . ومن ثم كان أكثر اعتمادنا فى شئون الاقتصاد والسياسة على المصادر الثانوية ، بعكس ما انتهجناه فى تناولنا للدين ، والفلسفة ، والعلم ، والأدب ، والموسيقى ، والفن ، فقد حاولنا الرجوع فيها إلى الأصول والمنابع : حاولنا أن نرى كل دين وهو يعمل فى منبته ، وأن ندرس أخطر الفلفسات فى مؤلفاتها الكبرى ، وأن نزور الفن فى موقعه الأصيل أو الجديد ، وأن نتذوق روائع الأدب العالمى ، فى لغاتها الأصلية فى كثير من الأحيان ، وأن تستمع إلى الألحان الموسيقية العظمية مراراً وتكراراً ، ولو باقتطاعها من جوها المعجز . وتحقيقاً لهذه الأهداف طفقنا بالعالم مرتين ، وبأوروبا مرات لاتحصى من ١٩١٢ إلى ١٩٦٦ . وسيدرك القارىء العطوف أنه يستحيل علينا فى الأجل الواحد الذى كتب لنا أن نرجع بالمثل إلى المصادر الأصلية فى الإقتصاد والسياسة ، خلال قرون التاريخ الستين ، وحضاراته العشرين

ولم نجد منذ وحة عن الرضى بالحدود والقيود ، والتسليم بما فينا من
عجز وقصور.

ويؤسفنا أننا سمحنا لإفتناننا بكل جزء في ملحمة الإنسان بأن يوقفنا
في رضى كثير ، حتى ألفينا أنفسنا في خاتمة المطاف منهوكى القوى حين
بلغنا الثورة الفرنسية . ونحن نعلم أن هذا الحدث لم يذ التاريخ ، ولكنه
نهينا . وما من شك في أن طريقتنا المتكاملة الشاملة أفضت بنا إلى إثقال
معظم هذه المجلدات بالطول المفرط . ولو أننا كتبنا تاريخاً ممزقاً — كقصصة
أمة ، أو فترة أو موضوع واحد — فلربما وفرنا على القارئ وقتاً وعتاده .
غير أن تصوير جميع الجوانب في قصة واحدة ، عن عدة أمم ، في فترة
معينة ، تطلب حيزاً للتفاصيل التي لم يكن معها بد لنفخ الحياة في الأحداث
والشخصيات . وسيشعر كل قارئ من جانبه بأن الكتاب مسرف في الطول ،
وأن تناوله لأتمته أو لتخصيصه مسرف في القصر.

فقد يرغب قراء الإنجليزية أو الفرنسية في أن يقصروا قراءتهم الأولى
لهذا المجلد على الفصول ١ — ٨ ، ١٣ — ١٥ — ٢٠ — ٣٨ ، ويرجئوا
الباقى إلى حين ، وقد يختار قراء لغات أخرى فصولهم على هذه الشاكلة .
غير أننا نأمل أن يسير بعض الأبطال الشوط كله معنا ، فيحاولوا أن يروا
أوروبا بوصفها كلاً في تلك السنين الثلاث والثلاثين المفعممة بالأحداث ،
والممتدة من حرب السنين السبع إلى الثورة الفرنسية ، على أننا ننفترق
هذا الأسباب مرة أخرى ، ولكن لو استطعنا أن نفلت من حاصد الأرواح
سنة أخرى أو سنتين ، فلإننا نرجو أن نقدم للقارئ مقالا ملخصاً في
« عظات التاريخ » .

ول لايريل ديورانت

لوس أنجيليس

أول مايو ١٩٦٧

الكتاب الأول

مقدمة

الفصل الأول

روسو جواب الآفاق

١٧١٢ - ٥٦

١ - الاعترافات

كيف حدث أن رجلاً ولد فقيراً ، وفقد أمه عند مولده ، ثم هجره أبوه بعد قليل وابتلى بمرض أليم مذل ، وترك يضرب في الآفاق إثني عشر عاماً بين مدن غربية ومذاهب دينية متناحرة ، مرفوضاً من المجتمع والحضارة ، رافضاً فولتير ، وديدرو ، والمسوعة ، وعمر العقل ، رجلاً طورد من مكان إلى آخر باعتباره ثائراً خطراً ، واتهم بالإجرام والجنون ، وشهد في شهور حياته الأخيرة تأليه خصمه الألد - نقول كيف حدث أن رجلاً كهذا ، بعد موته ، انتصر على فولتير ، وأحيا الدين ، وقلب التعليم رأساً على عقب ، ورفع أخلاقيات فرنسا ، وألهم الحركة الرومانية ، والثورة الفرنسية ، وأثر في فلسفة كانط وشوينهاور ، وتمثيلات شيلر ، وروايات جوته ، وشعر وردزورث وبيرون وشلي ، واشتراكية ماركس ، وأخلاق تولستوى ، وأنيح له - على الجملة - من التأثير على الأجيال التالية ما فاق تأثير أي كاتب أو مفكر آخر في ذلك القرن الثامن عشر ، القرن الذي فاق فيه تأثير الكتاب تأثيرهم في أي عهد سبقه ؟ هنا تواجهنا هذه

المشكلة أن كان لها أن تواجهنا في أى موضع : ما الدور الذى لعبته العبقريّة
في التاريخ ، ما دور الإنسان إزاء المجتمع والدولة ؟

كانت أوربا آنذاك مهيأة لأنجيل يبوء الوجدان مكاناً فوق الفكر
فلقد سئمت قيود التقاليد والأعراف ، والآداب ، والقوانين . وسمعت
ما يكفى عن العقل ، والجدل العقلي ، والفلسفة ، وبدأ أن كل هذه
الفوضى ، فوضى العقول التى أطلق حبلها على غاربها ، قد جردت الدنيا من
المعنى ، وعطلت النفوس من الخيال والرجاء ، وكان الرجال والنساء بينهم
وبين أنفسهم تواقين للعودة إلى حظيرة الإيمان . لقد ملت باريس ، ملت
الضجيج والعجلة ، وسجن حياة المدينة وتزاحمها المجنون ، وهفت الآن إلى حلم
حياة الريف الأكثر هوناً ، الحياة التى قد يجلب نظامها الرتيب البسيط للبدن
صحة وللعقل سلاماً ، والتي يرى فيها الإنسان من جديد نساء تزيّنهن الحشمة
والحفرة ، والتي تلتقى فيها القرية كلها في كنيسة الأبرشية في هانة أسبوعية .
ثم ما بال هذا « التقدم » الذى يزهون به ، و « تحرير العقل » هذا الذى
يفأخرون به — هل أحلا شيئاً محل مادماه ؟ هل أعطيا الإنسان صورة للعالم
ومصير الإنسان أكثر وضوحاً للأفهام أو إلهاماً للنفوس ؟ هل حسناحظوظ
الفقراء ، أو أتيا بالعزاء والسلوى للمحزونين على فقد الأعراء أو للمتألمين
المكروبين ؟ سأل روسو هذه الأسئلة ، وأضنى الشكل والإحساس على هذه
الشكوك ، فأصغت إليه أوربا بأسرها بعد أن أخذ صوته . وبينما كان فولتير
بعيد على المسرح في الأكاديمية (١٧٧٨) ، وبينما كان روسو الموبخ المزدرى
يختبئ في ظلام حجرة من حجرات باريس ، بدأ عصر روسو .

ولقد ألف أشهر ترجمة ذاتية في أخريات أيامه ، وهى كتابه « الاعترافات » .
ذلك أنه — وهو الرجل الحساس لكل نقد الظنون الذى خال جريم ، وديدرو ،
وغيرهما يأترون به ليشوهوا سمعته في صالونات باريس وفي « مذكرات »
مدام دينيه — هذا الرجل بدأ عام ١٧٦٢ ، بإلحاح من أحد الناشرين ،
كتابة قصته هو ليروى سيرته وخلقه . وكل التراجم الذاتية بالطبع غرور
في غرور ، غير أن روسو — الذى أدانتها الكنيسة ، وحرمته من حماية

القانون ثلاث دول ، وهجره أخلص أصدقائه - كان له الحق في الدفاع عن نفسه، بل في الدفاع المستغيث : وحين قرأ فقرات من هذا الدفاع على بعض المحافل في باريس حصل خصومه على أمر من الحكومة يحظر أى قراءة علنية أخرى لمخطوطته . فلما فت في عضده ، تركها عند موته مشفوعة برجاء للأجيال التالية قال فيه :

« إليكم هذه اللوحة الإنسانية الوحيدة - المنقولة بالضبط عن الطبيعة بكل صدق - الموجودة الآن أو التي ستوجد إطلاقاً في أغلب الظن . وأما كنتم ، يامن نصيبكم قدرى وثقى حكماً على هذا السجل ، فلأن استخلفكم بحق ما أصابني من خطوب وعن وبحق ما تشعرون به من أخوة البشر، وباسم الإنسانية جمعاء ، ألا تدمروا عملاً نافعاً فريداً في بابه ، قد يصلح بحثاً مقارناً من الدرجة الأولى لدراسة الإنسان . وألا تنزعوا من شرف ذكرى هذا الأثر الصادق الوحيد لخلقى ، الأثر الذى لم ينل من خصومى مسخاً وتشويهاً ^(١) .

والكتاب ، بمحاسنه ومآخذه ، نتاج لما فطر عليه مؤلفه من شدة الحساسية ، وقوة الذاتية ، ورهافة العاطفة . يقول روسو «إن قلبى الحساس كان أس بلائى كله . ^(٢) ولكن هذا القلب أضفى ألفة حارة على أسلوبه ، وحناناً على ذكرياته ، وفي كثير من الأحيان سماحة على أحكامه ، وكلها تذيب نفورنا ونحن نمضى في قراءة الكتاب . ففيه يغدو كل تجريد واقعاً شخصياً مجسداً ، وكل سطر شعوراً نابضاً بالحياة فهذا الكتاب أشبه بالنبع الذى تدفق منه نهر الاعترافات المستبطنة ، النبع الذى روى أدب القرن للتاسع عشر ، لا لأنه لم يكن له ضريب سابق من كتب الاعترافات ، ولكن حتى القديس أوغسطين لم يستطع أن يضارع كل هذه التعرية للذات ، أو يدعى دعواها في الأمانة والصدق . والكتاب يستهل بدققة من البلاغة التي تتحدى المقلدين :

« إننى مقبل على مغامرة لم يسبق لها نظير ، ولن يكون لتنفيذها مقلد ، أريد أن أظهر إخوانى في الإنسانية على إنسان في كل صدق الطبيعة ، وهذا

الإنسان هو أنا نفسي . أنا مجرداً عن كل شيء . أننى أعرف قلبى ، وأنا عليم بالناس . ولم أخلق كأى حى من الأحياء . وإذا لم أكن خيراً منهم ، فلأننى على الأقل مختلف عنهم . أما أن الطبيعة أحسنت أو أساءت بتعطيم القلب الذى صبيت فيه ، فذلك شيء لا يستطيع الحكم عليه إنسان إلا بعد أن يقرأنى .

« وأياً كان موعد الساعة التى سينفخ فيها فى صور يوم الحشر ، فسوف آتى وكتابى هذا فى يمينى لأمثل أمام الديان الأعظم وسوف أقول بصوت عال : كذلك سلكت ، وكذلك فكرت ، وكذلك كنت ، لقد تحدثت إلى الأبرار والأشرار بنفس الصراحة ، وما أخفيت شيئاً فيه سوء ، ولا أضفت شيئاً فيه خير . وقد أظهرت نفسى كما أنا : حقيراً خسيساً حين كنت كذلك ، وبخيراً سمحاً نبيلاً حين كنت كذلك ، لقد أمطت اللثام عن أعماق أعماق نفسى (٣) .

وتردد دعواه فى توخى الصدق الكامل فى الكتاب مراراً وتكراراً . ولكن روسو يسلم بأن تذكره لأشياء انقضت عليها خمسون عاماً كثيراً ما يكون تذكراً مبتوراً لا يمكن الركون إليه ، وللجزء الأول فى جملة جوه من الصراحة يشيع الطمأنينة فى القارىء . أما الجزء الثانى فتشوهه الشكاوى المملة من الاضطهاد والتآمر . وأياً كان الكتاب ، فهو من أعظم ما نعرف من الدراسات السيكولوجية كشفاً عن النفس ، وهو قصة روح حساسة شاعرة خاضت صراعاً أليماً مع قرن واقعى قاس . وعلى أية حال ، فإن كتاب الاعترافات ، لو لم يكن ترجمة ذاتية ، لكان من إحدى الروايات العظيمة فى العالم (٤) . (٥)

(*) ما زال الجدل حول صدق « الاعترافات » حاراً . وأهم ما يدور عليه هو اتهام روسو لجريم وديدرو بأنهما تأمرا على تزييف رواية علاقته بمدام ديبينيه ، ومدام دوديتو ، وبشخصيهما . وكانت كفة الرأى الناقد راجحة ضد روسو قبل ١٩٠٠ . ففى ١٨٥٠ قرر سانت بييف ، بغفالة غير معهودة فيه ، أن روسو لا يتردد فى الكذب أقل تردد أينما تعرضت كرامته وغروره المريض للخطر ، وقد خلصت إلى أنه كذب فيما يتصل بجريم ووافقه على هذا برأى قلب مؤرخى الأدب الفرنسيين ، جوستاف لانسون (١٨٩٤) ، فقال « إننا نفاجئ روسو فى كل صفحة متلبساً بأكاذيب مفضحوحة - كذب ، لا هرد -

خطأ ، ومع ذلك فالكتاب في جملته يتقد إخلاصا وصدقاً - لا صدق الوقائع بل صدق
المشاعر (٦). وقد سبق هذان الحكمان نشر كتاب السيدة فرديكا مكدونلد «جان جاك - روسو»
دراسة جديدة في النقد - (لندن ١٩٠٦) . Jean - Jacques Rousseau -
A New Study in Criticism ، الذي يثبت صواب اعتبار «المذكرات التي ألفتها
مدام ديبينيه متأثرة بموقف جريم وديدرو المنطوي على الحق ، إن لم تكن ملاحظة فعلا من هذا
الموقف . ودراستها للوثائق تغير ولا ريب كثيراً من المزاعم التي زعمها النقاد من قبل (٧) .
قارن كتاب ماسون Mason ديانة روسو (I, 184) La Religion de Rousseau
« نرى أن علينا أن نكون شديدي الحذر في الاعتماد على هذه الروايات التي أجري فيها ديدرو
قلمه بالكثير من التعديل والتبديل » . وقد وصل إلى أحكام مماثلة في صف روسو ، ماثيو
جوزفسن (Jean - Jacques Rousseau 434 - 35, 531) واميل فاجيه (حياة روسو
Vie de Rousseau, 189) ، وجول لوميتر (Jean - Jacques Rousseau, 9 - 10)
وفون C. E. Vaughn (كتابات روسو السياسية
(Political Writings of Rousseau II, 295, 547 - 552 f.)

٣ - الفتي الشريد : ١٧١٢ - ٣١

« ولدت بجنيف في ١٧١٢ ، ابنا لإسحاق روسو وسوزان برنار ،
المواطنين » . والكلمة الأخيرة كانت تعني الكثير ، لأن ألفا وستائة
فقط من بين سكان جنيف العشرين ألفا كانوا يملكون اسم المواطن
وحقوقه ، وسيشارك هذا العامل في تاريخ جان - جاك . وكانت أسرته
فرنسية الأصل ، ولكنها وُلدت في جنيف منذ ١٥٢٩ . وكان جده قسيسا
كلفنيا ، وقد ظل الحفيد في صميمه كلفنيا طوال تطويفه الديني كله ،
أما أبوه فكان من إقطاب صناعة الساعات ، رجلا خصب الخيال
لا يستقر له قرار ، أتاه زواجه (١٧٠٤) بصداق قدره ستة عشر ألف
فلورين . وبعد أن أنجب غلاما ترك زوجته (١٧٠٥) ورحل إلى الآستانة
حيث مكث ست سنوات ثم عاد لأسباب مجهولة ، « وكنت الثمرة الحزينة لهذه
العودة : (٨) وماتت الأم بحمى النفاس بعد أسبوع من مولد جان - جاك
« جئت إلى العالم أحمل أمارات قليلة جداً على الحياة ، بحيث لم يكن هناك
كبير أمل في الإبقاء على » . وكفلته نخالة له وأنزلته ، وهو عمل « أغتفره لك
دون تحفظ » على حد قوله . وكانت الخالة تجيد الغناء والترتيل ، ولعلها
بشت فيه ذلك الشغف بالموسيقى الذي لازمه طيلة حياته . وكان طفلا عبقريا ،
تعلم القراءة في زمن وجيز ، ولما كان أبوه إسحاق مولعا بالقصص
الرومانسية ، فقد راح الوالد والولد يقرءان معا الروايات المتخلفة في مكتبة أمه
الصغيرة . ونشأ جان - جاك على مزيج من القصص الغرامية الفرنسية ،
وتراجيم بلوتارخ ، والفضائل الكلفينية ، وجعله هذا المزيج قلقا مهزوزا .
وقد وصف نفسه وصفا دقيقا بأنه « أبي هش في وقت معاً ، في خلقي أنوثته
وهو مع ذلك خلق عات لا يقهر ، دأب على وضعي في موضع التناقض
مع نفسي لأنه متذبذب بين الضعف والشجاعة ، وبين الترف والعفة (٩) » .

وفي ١٧٢٢ تشاجر أبوه مع رجل يدعى الكابتن جوتييه ، فأسال الدم

من أنفه ، فاستدعاه القاضى المحلى ، ولكنه هرب من المدينة أتقاء السجن ، واتخذ مقره مدينة نيون على ثلاثة عشر ميلا من جنيف . وبعد سنوات تزوج ثانية . وكفل فرانسوا وجان - جاك خالهما جابريل برنار . وألحق فرانسوا بصانع ساعات ، فهرب ، وأختفى من التاريخ . وأما جان - جاك وابن خاله أبراهام برنار فقد أرسلوا إلى مدرسة داخلية يديرها القس لا مبرسييه فى قرية بوسيه القريبة . « هنا كان علينا أن نتعلم اللاتينية ، وكل اللغو التافه الذى أطلق عليه اسم التعليم . » (١٠) وكان التعليم المسيحى الكلفنى جزءا من صميم المنهج ؟

وأحب معلميه ، لاسيما أخت القسيس ، الأنسه لا مبرسييه ، وكانت فى الثلاثين ، وجان - جاك فى الحادية عشرة ، فوقع فى غرامها على طريقته العجيبة . كان إذا ساطته عقابا على سوء الأدب ، أبهجه أن يتعذب على يديها ، « فإن شيئا من الشهوانية أختلط بالألم والحزى ، مما خلف فى الرغبة فى تكرار العقوبة أكثر من الخوف منه » . (١١) فلما عاد إلى اللذب وضح التذاذه بالعقاب وضوحا صممت معه على ألا تعود إلى ضربه بالسوط ؟ وقد ظل عنصر مازوكى يلزم تكوينه العشق إلى النهاية .

« وهكذا قضيت سن المراهقة ، ببنية متقدمة ، دون أن أعرف أو حتى أشتهى أى أشباع آخر لرغباتى المشبوبة غير ما أوحى به إلى الأنسه لا مبرسييه فى براءة ، وحين بلغت مبلغ الرجال لم يخفف هذا الميل الصبيانى بل إتحد مع الميل الآخر . ولقد ظلت هذه الحماسة وما صاحبها من شدة حياء فطرى تحول دائما بينى وبين الاجترار مع النساء ، وهكذا كنت لأقضى أيامى أتحرق فى صممت شوقاً لمن أهمم بهن دون أن أجروء على البوح برغباتى . .

« وهانذا قد خطوت أول خطوة وأشقها فى تيه اعترافى الحالك الإليم . ذلك أننا لا نستشعر فى البوح بذنب ينطوى على الإجرام فعلا ذلك النفور الشديد الذى نستشعره فى البوح بذنب لا يثير غير السخرية » (١٢) .

ويجوز أن روسو ، في حياته اللاحقة ، وجد عنصر لذة في شعوره بالمقاومة والصمد من العالم ، ومن أعدائه ، ومن أصدقائه .

وبعد اللذة التي وجدها في عقوبات الآنسة لا مبرسيه وجد متعة في المنظر الطبيعي الرائع الذي أحاط به ، « كان في الريف من الفتنة . . . ما حبيب إلى الحياة الريفية حباً لم يستطع الزمن أن يطفئه » .^(١٣) ولعل هذين العامين اللذين أنفقهما في بوسيه كانا أسعد سني عمره رغم ما تكشف له من ظلم في هذه الدنيا . فقد عوقب مرة على ذنب لم يجنه ، فاستجاب بسخط لم يفارقه قط ، وبعدها « تعلم أن يرأى ، ويتمرد ، ويكذب ، وبدأت كل الرذائل المألوفة في حياتنا تفسد براءتنا السعيدة » .^(١٤)

ولم يجاوز قط هذه المرحلة من التعليم المدرسي أو الكلاسيكي وربما كان افتقاره إلى التوازن ، وصواب الحكم ، وضبط النفس ، واخضاعه العقل للوجدان . . . ربما كان هذا كله راجعاً لانهاء تعليمه المدرسي في فترة مبكرة . ففي ١٧٢٤ : حين بلغ الثانية عشرة ، أعيد هو وابن خالته إلى بيت أسرة برنار . وزار أباه في نيون ، وهناك هام بفتاة تدعى فولسون ، فصلته عنها ، ثم بأخرى تدعى جوتون « أثبت أن تسمح لي بشيء من التجاوز معها ، في حين أباحث لنفسها أشد الحريات معي » .^(١٥) وبعد عام من التردد والتذبذب ألحق صيباً لحفار في جنيف . وكان يحب الرسم ، وقد تعلم الحفر على ظروف الساعات ، ولكن معلمه كان يضربه بقسوة على ذنوب صغيرة . « فدفعني إلى رذائل كنت أحتقرها بفطرتي ، كالكذب ، والكسل ، والسرقة » . وانقلب الصبي الذي كان من قبل سعيداً إلى غلام منطو مكتئب كاره لعشرة الناس .

ووجد السلوى في الأدمان على قراءة الكتب التي استعارها من مكتبة قريبة ، وفي الرحلات الريفية يقوم بها في الآحاد . وحدث مرتين أنه تباطأ في الحقول حتى وجد أبواب المدينة مغلقة إذ حاول العودة ، فانفق الليل في العراء ، ومضى إلى عمله نصف مشدوه ، وكان جزاؤه علقه ساخنة .

وفي رحلة ثالثة من هذه الرحلات حملته ذكرى هذا الضرب على أن يقرر
إلا يعود إطلاقاً فضى قدما إلى كونفنيون في سافوى الكاثوليكية ، على
سنة أميال من بلدته ، وهو لم يبلغ بعد السادسة عشرة (١٥ مارس ١٧٢٨)
لا نقود معه ولا ثياب سوى ما يحمله على ظهره .

هناك طرق باب قسيس القرية الكاثوليكية الأب بنوا ديونفير ، ولعله
سمع أن هذا الكاهن الشيخ تواق لهداية الجنيبيين الشريدين ، فهو
يقدم لهم الطعام الطيب عملاً بالنظرية القائلة أن المعدة الممتلئة تعين على
التفكير المستقيم . وقد قدم لجان — جاك غذاء طيباً ، وقال له « اذهب
إلى آنسى ، حيث تجد سيدة صالحة خيرة يتيح لها كرم الملك أن تحول
النفوس عن تلك الخطايا التي إقفلت عنها لحسن الحظ »^(١٦) . ويضيف روسو
أن هذه السيدة هي « مدام دفران ، التي اهتدت إلى السكثلكة مؤخرًا ،
والتي رتب القساوسة أن يبعثوا إليها بأولئك التعساء المستعدين لبيع عقيدتهم ،
وكانت إلى حد ما مضطرة إلى أن تشارك هؤلاء معاشا قدره ألفا فرنك
أنعم بها عليها ملك سردانيا » . ورأى الفتى الشريد أن شطراً من ذلك المعاش
قد يستأهل تغيير العقيدة . وبعد ثلاثة أيام ، في آنسى ، مثل أمام مدام
فرانسوا — لويز دلاتور ، بارونة فاران .

كانت في التاسعة والعشرين ، امرأة حلوة ، كيسية ، دمثة ، سمحة
جذابة الملبس ، « ما رأيت وجهها أجل ولا جيداً أبدع ، ولا ذراعين
مليحتين أروع تكويناً »^(١٧) . وكانت في مجموعها أبلغ حجة تناصر
الكاثوليكية رآها روسو على الإطلاق . ولدت يفيقي لأسرة طيبة ،
وتزوجت وهي صغيرة جداً من المسيو (البارون فيما بعد) دفران اللوزاني
وبعد سنوات من التنافر الأليم تركته ، وعبرت البحيرة إلى سافوى ،
ونالت حماية الملك فكتور أمادو ، وكان يومها في إفيان . وبعد أن نزلت
آنسى ، قبلت اعتناق الكاثوليكية ، معتقدة أنها لو ادت شعائرها الدينية
على الوجه الصحيح لغفر الله لها غرامياتها التي تقع فيها بين الحين والحين ،

ثم لأنها لم تستطع أن تصدق أن يسوع الرقيق القلب سيقذف بالرجال — لها
بالك بامرأة جميلة — في النار الابدية^(١٨) .

وكان يطيب لجان — جاك أن يمكث معها لولا أنها كانت مشغولة ؛
فنفحته ببعض المال ، وأمرته بأن يمضى إلى تورين ويتلقى التعليم في « نزل
الروح المقدس » وقد استقبل هناك في ١٢ أبريل ١٧٢٨ ، وفي ٢١ أبريل
عمد في المذهب الكاثوليكي الرومانى . وحين استعاد ذكرى هذه الواقعة
بعد أربعة وثلاثين عاماً — وقبل عودته إلى البروتستانتية بثمانى سنوات — كتب
يصف في رعب تجربته في النزل ، بما فى ذلك محاولة للاعتداء على عفته من
زميل مغربى حديث الاهتداء ؛ وقد خيل إليه أن موقفه من اعتناق
الكاثوليكية كان موقف النفور ، والحزى ، والتسويق الطويل . ولكن
الظاهر أنه تكيف مع الظروف التى وجدها فى النزل لأنه مكث هناك
دون إكراه أكثر من شهرين بعد أن قبل فى كنيسة روما^(١٩) .

ثم ترك النزل فى يوليو ، مسلحاً بستة وعشرين فرنكا . وبعد أن أنفق
أياماً فى مشاهدة معالم المدينة وجد عملاً فى متجر جرده إليه جمال السيدة
الواقفة خلف منضدته . ووقع فى غرامها للتو والساعة ، وما لبث أن جثا
أمامها وبذل لها عهداً بالوفاء مدى الحياة . وابتسمت مدام بازيل ، ولكنه لم
تسمح له بأن يتجاوز يدها ، ثم أن زوجها كان وشيك الوصول فى أية
لحظة . يقول روسو « إن عدم توفيقى مع النساء نشأ دائماً عن أفراطى فى
حبين »^(٢٠) ولكن كان فى فطرته أن يجد فى التأمل اذة أعظم مما يجد فى
الإشباع وقد فرج عن ضيقه بتلك « التكلفة الخطرة التى تخدع الطبيعة
وتنقلد الفتيان ، الذين على شاكلى مزاجا ، من اضطرابات كثيرة ، ولكن
على حساب صحتهم ، وقوتهم ، وأحياناً حياتهم »^(٢١) .

ولعل هذه العادة ، التى تفاقمت حماها نتيجة النواهى المرهبة ، لعبت
دوراً خفياً فى زيادة نزقه ، وأهامه الرومانسية ، وشعوره بالقلق فى المجتمع ،
وحبه للوحدة . وهنا نجد « الاعترافات » تنوخى صراحة لم يسبق لها نظير .

« كانت أفكارى فى شغل شاغل بالفتيات والنساء ولكن بطريقى الخاصة . وقد أبقت هذه الأفكار حواسى فى نشاط دائم مؤذ ... وبلغ فى التبيج مبلغا جعلنى أهب رغباتى بأشد المناورات لإسرافا بعد أن عجزت عن اشباعها . فكنت التمس الأزقة المظلمة والأركان المنزوية ، حيث استطيع أن أتعرى عن بعد أمام اشخاص من الجنس اللطيف فى الوضع الذى إشتهيت أن أكون عليه بقربهم . لو لم يكن ما رأيته منى هو عورتى - فذلك ما لم يخطر لى ببال ، إنما كان العضو المثير للضحك (الأرداف) : ولا يمكننى وصف اللذة الحمقاء التى استشعرتها فى تعريتها أمام أعينهن . ولم تكن بين هذا وبين المعاملة المشتهاه (وهى الجلد) غير خطوة واحدة ؛ ولست أشك أن امرأة حازمة كانت فى مرورها مانحتى هذه المتعة لو إننى جرؤت على التماذى فى فعلتى .

« وذات يوم ذهبت لاقف فى مؤخرة حوش به بئر تستقى منها فتيات البيت . . . وعرضت عليهن مشهداً يثير الضحك أكثر مما يثر الغواية . أما أحكمهن فتظاهرن بأنهن لا يرين شيئاً ؛ وبدأ بعضهن يضحكن ، وأحس غيرهن بالأهانة فصحن مستغيثات . »

ولكن واحدة منهن لم تتقدم للأسف لتجلده - وبدلاً من ذلك حضر حارس يحمل سيفاً ثقيلاً وله شارب رهيب ، ومن خلفه أربع عجائز أو خمس مسلحات بالمسكانس . أما روسو فنجا بأن قال فى تعليل مسلكه أنه « شاب غريب من أسرة كريمة التاث عقله » ولكن ماله قد يمكنه فى المستقبل من مكافأتهم على غفرانهم فعلته ، « وتأثر الرجل المرعب » وخلى سبيله ، الأمر الذى اسخط العجائز غاية السخط (٢٢) .

وكان خلال ذلك قد وجد وظيفة تابع يرتدى زى الخدم فى بيت مدام دفرسلى ، وهى سيدة تورينية لها نصيب من الثقافة . هناك اقترف جريمة أثقلت ضميره طوال عمره . ذلك أنه سرق شريطاً من أشرطة المدام الزاهية الألوان ، فلما أنهم بهذه السرقة ادعى أن خادمة أخرى أعطته

المشريط . وويخته الخادمة — ماريون — البريئة تماماً من السرقة توبيخا أنطوى على نبوة ، فقالت له « إيه ياروسو ، ظننتك ذا طبيعة خيرة . أنك تجعلنى غاية فى التعاسة ، ولكننى لا ارضى أن أكون فى موقفك^(٢٣) » . وطرده كلاهما ، ويضيف روسو فى اعترافاته :

لست إدري ما أصاب ضحية إفترائى هذا ، ولكن كان الاحتمال ضعيفاً جداً فى أن تجد لها وظيفة حسنة بعد ذلك ، لأنها عانت من تهمة مؤذية لسمعتها من جميع الوجوه . . . ولقد ظلت الذكرى الإلئمة لهذا العمل . . . تثقل ضميرى إلى اليوم ، وفى وسعنى أن أقول صادقاً أن رغبتى فى التخفيف من ألم هذه الذكرى شاركت كثيراً فى تصميمى على كتابة اعترافائى^(٢٤) .

وقد تركت تلك الشهور الستة التى عمل فيها خادماً بصمتها على خلقه ، فهو لم يصل قط إلى احترام نفسه رغم كل وعيه بعقريته : وشجعه قسيس شاب لقيه وهو يخدم مدام دفرسلى على الاعتقاد بأن فى استطاعته التغلب على أخطائه إذا حاول مخلصاً القرب من أخلاقيات المسيح . وقال السيد جيم هذا إن أى دين صالح ما دام يشجع السلوك المسيحى ؛ ومن ثم فقد أوماً إلى أن جان — جاك يكون أهناً بالاً إن هو عاد إلى مسقط رأسه ومذهبه الأصيل . وقد استقرت هذه الآراء « لرجل من أفضل من عرفت من الرجال » طويلاً فى ذاكرة روسو ، وأوحت إياه بصفحات مشهورة فى كتابه « إميل » . وبعد عام التقي فى مدرسة سان — لازار اللاهوتية ، بنفس آخر هو إذ الأبىه جاتييه ، رجل له « قلب يفيض رقة وحناناً » فاته الترقى لأنه كان سبياً فى حمل عذراء فى أبرشيته . يقول روسو معقبا « لقد كانت هذه القماعة فضيحة رهيبة فى أمقضية شديدة التزمّت ، لا يصح فيها أبداً للمساوسة (الخاضعين لتنظيم حسن) أن يكون لهم أبناء — إلا من نساء متزوجات^(٢٥) » . ومن « هذين القسيسين الفاضلين ألفت شخصية قسيس صافوا » .

وفي مطلع صيف عام ١٧٢٩ ، عاود روسو — الذي بلغ الآن السابعة عشرة — الحنين إلى حياة الترحل ، ثم أنه علل نفسه بأنه قد يجد بمعونة مدام ديفاران وظيفة أقل إذ لا لا لكبريائه . فانطلق بصحبة غلام جنيني مرح يدعى باكل سيرا من تورين ، واخترقا عمر جبل سنيس في الألب إلى شامبري وآنسى . وقد صور قلمه الرومانسى تلك الإنفعالات التي بجاشت بها نفسه وهو يدنو من مسكن مدام ديفاران تصويرا رائعا « فقد ارتعشت ساقاي من تحتى وغامت عيناى ، فلم أبصر ولم أسمع ولم أذكر احدا ، واضطرت مرارا إلى الوقوف لألتقط أنفاسى وأمالك أحاسيسى المشدوثة (٢٦) » . ولا شك في أنه كان غير واثق من أنها سترحب بمقدمه . فكيف يستطيع أن يفسر لها كل ما طرأ على حياته من صروف وتقلبات منذ تركها ؟ على أن « نظرتها الأولى بددت جميع مخاوفى . ووثب قلبي لسماع صوتها . وألقيت نفسى عند قدميها ، وفي نشوة من الفرح العارم ضغطت شفתי على يديها (٢٧) » : ولم يسؤها هيأه بها ، فخصصت له حجرة في بيتها ، وحين بدأ البعض يتقولون كان جوابها « فليقولوا ما شاءوا ، ولكنى ما دامت العناية قد ردتني إلى ، فأنى عازمة على ألا اتخلى عنه » .



٣ — ماما : ١٧٢٩ — ٤٠

وتعلق بها تعلقاً شديداً ، كأي فتى يتعلق بامرأة الثلاثين كان يلثم سراً الفراش الذي تنام عليه ، والكرومي الذي تجلس عليه « بل الأرض ذاتها حين يخطر إلى أنها مشت عليها^(٢٨) » .

(هنا تخيل الينا أن المبالغة طغت على التاريخ)

وكان شديد الغيرة من كل من ينافسونه على الاستئثار بوقتها . وتركته يخرج كالحمر السعيد ، وكانت تدعوه تارة بالقط الصغير ، وتارة بالطفل ، وشيئاً فشيئاً أرتضى أن يدعوها « ماما » واستخدمته في كتابة رسائلها وإمساك حساباتها ، وجمع الأعشاب لها ، ومعاونتها في تجاربها الكيميائية . وأعطته كتباً ليقرأ — الاسبكتاتور ، ويوفندرف ، وسانت افرمون ، وملحمة فولتير الهريادة . وكانت هي نفسها تحب أن تتصفح « قاموس بويل التاريخي النقدي » وكانت لا تسمح للاهوتها بأن يضايقها ، ولعل استمتاعها بصحبة الأب جرو ، ناظر مدرسة اللاهوت المحلية ، مرجعه أنه كان يساعدها على إحكام عقد مشدها « وبينما كان مشغولاً بهذا كانت تجرى في أرجاء الغرفة ، هنا أو هناك كما تدعو الدواعي . وكان الأب ، ناظر المدرسة ، يتبعها متذمراً تجره الأربطة من خلفها ، وهو لا يفتأ يردد « أرجوك أن تقفي ساكنة ياسيدتي » . وكان هذا كله مشهداً مسلياً حقاً^(٢٩) .

وربما كان هذا القسيس المرح هو الذي أشار بأن جان — جاك قد يستوعب من التعليم قدراً يؤهله لأن يكون قسيس قرية ، وذلك على الرغم من كل أمارات الغباوة البادية عليه . ووافقت مدام دافران وهي مذبذبة بالعشور له على مهنة يرتزق منها . وعليه ففى خريف ١٧٢٩ دخل

روسو مدرسة سان - لازار اللاهوتية ليحضر للقسوسية . وكان قد ألف الكاثوليكية الآن بل شغف بها^(٣٠) ؛ احب فيها طقوسها المهمة ، ومواكبها ، وموسيقاها ، وبخورها ، واجراسها التي نخلها تعلن على المأكل يوم أن الله في سمائه ، وأن العالم بخير أو سوف يكون بخير ، أضف إلى ذلك أن مذهبا يستهوى مدام دفاران ويغفر لها خطاياها لا يمكن أن يكون سيئا . غير أن التعليم المدرسي الذي حصله من قبل كان من الضالة بحيث اقتضى الأمر أن يفرض عليه منهج مركز في اللاتينية . ولكنه لم يستطع صبرا على تصارييف أسمائها وصفاتها وأفعالها ، وبعد خمسة أشهر من الجهد والعرق رده معلموه إلى مدام دفاران بتقرير يقول أنه « غلام لا بأس بتقواه » ولكنه لا يصلح كاهنا .

وحاولت مساعدته من جديد . ودعاها ما لا حظته من ميله للموسيقى إلى تقديمه إلى نيكولوز لوميتير ، عازف الأرغن في كاتدرائية آنسى وذهب جان - جاك ليعيش معه طوال شتاء ١٧٢٩ - ٣٠ ، وعزاؤه أنه لا يبعد عن ماما سوى عشرين خطوة . وراح يرتل في فرقة الترتيل ويعزف على الفلوت ، وأحب الترانيم الكاثوليكية ، ووجد الغذاء الطيب ، وكان سعيداً . ولم يعكر عليه صفو العيش مع الميسيو لوميتير غير إسراف هذا العازف في الشراب . وذات يوم تشاجر رئيس فرقة الترتيل الصغير مع رؤسائه ، فجمع كراسات موسيقاه في صندوق ، ورحل عن آنسى . وامرت مدام دفاران روسو أن يصحبه حتى ليون . هناك سقط لوميتير على الطريق مغشياً عليه بفعل (البطاح) أى هذيان الحمى الذي يصيب مدمني الخمر . واستغاث جان - جاك بالمارة وقد أصابه الرعب ، وأعطاهم العنوان الذي كان مدرس الموسيقى يبحث عنه ، ثم فر راجعاً إلى آنسى وماماً . « أن تعلق بها بكل ما فيه من حساسية وصدق اقتلع من قلبي كل مخطط يمكن تصوره وكل حماقات الطموح . فلم أر سعادة في غير العيش بقرىها ، وما كنت لأخطو خطوة دون أن أشعر أن المسافة بيننا قد بعدت^(٣١) » . ولكن علينا أن نذكر أنه لم يتجاوز يومها الثامنة عشرة .

فلما وصل إلى آنسى وجد أن المدام قد رحلت إلى باريس ولا أحد يعرف متى تعود . وأحس أنه وحيد مهجور ، فراح ينفق اليوم تلو اليوم هائماً على وجهه في الريف ، يتأمل بالنظر إلى ألوان الربيع المشرقة وسماع زقزقة الطيور اللطيفة — هذه الطيور العاشقة بلا ريب . وكان أحب الأشياء إليه أن يستيقظ مبكراً ويرقب الشمس تطلع ظافرة فوق الأفق . ورأى في إحدى جولاته تلك آنستين راكبتين ، تحثان جواديهما المترددين على خوض غدير أمامهما . وفي نوبة من نوبات البطولة أمسك بعنان أحد الجوادين وعبره الماء والآخر يتبعه . وكان على وشك المضي إلى حال سبيله لولا أن الفتاتين أصرتا على أن يصحبهما إلى كوخ يجفف فيه حذاءه وجواربه ، فوثب على ظهر أحد الجوادين خلف الأنسه ج . تلبية لدعوتها « فلما اضطرت إلى الإمساك بها لأستقر في مكانى راح قلبي بدق وكانت دقاته من العنف بحيث أحسست بها » (٣٢) في تلك اللحظة بدأ يكبر على هيامه بدمام دفاران . وأنفق الشباب الثلاثة يومهم في رحلة خلوية معاً ، وتجرأ روسو فقبل يد إحدى الفتاتين ثم تركناه ، فقفل إلى آنسى منتشياً لا يكاد يعبأ بغياب ماما عنها . وقد حاول العثور على الأنستين ثانية ، ولكن دون جدوى .

وما لبث أن عاد يضرب في الأرض من جديد ، واصططحب هذه المرة خادمة مدام دفاران إلى فريبورج . وإذا اخترق جنيف « ألفيتنى متأثراً بالغ التأثير حتى لم أكد أقوى على المضي في طريقى . . . فقد رفعت صورة الحرية (الجمهورية) روحى إلى الذرى » (٣٣) . ومن فريبورج مشى إلى لوزان . ولم يعرف التاريخ كاتباً شديداً الولع بالمشى مثله . فمن جنيف إلى تورين إلى آنسى إلى لوزان إلى نوشاتل إلى برن إلى شامبيرى إلى ليون عرف الطريق واستمتع شاكراً بالمناظر والروائح والأصوات .

« يطيب لى أن أمشى على سجيتى ، وأن أقف حيث اشتهى ، فحياة المشى ضرورة لى . والسفر على الأقدام ، فى ريف جميل ، وجو بديع ،

ويهدف لطيف أختم به رحلتى - هذا أنسب ما يروى من ضروب العيش » (٣٤) .

ذلك أنه لعدم شعوره بالإطمئنان فى حضرة الرجال الذين أصابوا حظاً من التعليم ، وبالحجل والعى فى حضرة النساء الجميلات ، كان يسعد إذا انفرد بالغابات والحقول ، والماء ، والسماء ، فجعل من الطبيعة مستودع سره ونجواه وأفضى إليها بغرامياته وأحلامه فى حديث صامت ، وخيل إليه أن حالات الطبيعة المتقلبة تمتزج أحياناً فى تناغم صوفى مع حالته النفسية . ولم يكن أول من أشعر الناس بجمال الطبيعة ، إلا أنه كان أشد رسلها تحمساً لها وتأثيراً فيهم فنصف شعر الطبيعة منذ روسو هو جزء من قرائه ، لقد شعر هالدر من قبل بجلال جبال الآلب ووصفه ، ولكن روسو جعل من سفوح سويسرة على طول الساحل الشمالى لبحيرة جنيف ملكه الخاص ، وأورث الأجيال عبر كرومها المدرجة . فلما أراد اختيار موقع لبيت يسكنه شخصيتى جولى وفولمار أسكنهما هنا ، فى كلارنس بين فيفيه ومونرو ، فى فردوس أرضى امتزجت فيه الجبال والحضرة والماء والشمس والثلوج .

وانتقل إلى نوشاتل حين لم يصب نجاحاً فى لوزان « هنا . . . بفضل تدريسي للموسيقى اكتسبت بعض الإلمام بها دون وعى منى . » (٣٥)

وفى بلدة قريبة تدعى بودرى التقى بحبر يونانى يلتهمس بعض المال لرميم كنيسة القبر المقدس فى أورشليم ، فرافقه روسو مترجماً له ، ولكنه تركه فى سوليو ومشى خارجاً من سويسرة داخلاً فرنسا . وفى أثناء سيره دخل كوخاً وسأل صاحبه أيستطيع شراء طعام ، فقدم له الفلاح خبز الشعير واللبن ، وقال إن هذا كل ما يملك ، ولكنه حين رأى أن جان - جاك ليس جابى ضرائب فتح باباً مسحوراً نزل منه ثم عاد بخبز قمح ، وبيض ، ونبيد . وعرض روسو أن يدفع ثمن طعامه ، ولكن الفلاح أبى أن يقبله ، وعلل سلوكه بأنه مضطر إلى إخفاء خير الطعام مخافة أن يفرض عليه المزيد من الضرائب . « إن ما قاله لى .. خلف فى ذهنى أثراً لا يمحي ،

وبذر بذور تلك الكراهية التي لاتطفأ والتي نمت منذ ذلك الحين في قلبي ،
الكراهية لما يقاسيه هؤلاء النساء من عنت ، والسخط الشديد على
ظالمهم . (٣٦)

وفي ليون أنفق أياماً بغير مأوى ، يفترش المقاعد في الحدائق العامة ،
أوينام على الأرض ، واستخدم حيناً في نسخ الموسيقى . فلما سمع أن
مدام دفران .

تسكن شامبرى (على أربعة وخسين ميلاً إلى الشرق) ، انطلق لينضم
إليها من جديد . ووجدت له وظيفة سكرتير لملاحظ الأقاليم (١٧٣٢-٣٤)
وكان خلال ذلك يعيش تحت سقفها ، لا ينقص من سعادته بعض الشيء
غير ما كشف من أن مدير أعمالها كلود آنية هو أيضاً يعشقها . ويتضح
ما طرأ على غرامه من فتور من هذه الفقرة الفريدة في اعترافاته :

ولم أستطع أن أعلم ، دون ألم ، أنها تعيش في مودة أوثق مع شخص
غيري . . . ومع ذلك فبدلاً من أن أشعر بأى كراهية للشخص الذى تفوق
على على هذا النحو وجدت الود الذى أكنه لها يمتد فعلاً إليه ، فلقد
تمنيت لها السعادة فوق كل شيء وإذ كان معنياً بخطتها التى توسلت بها
للسعادة ، فقد رضيت له السعادة هو أيضاً واعتنق خلال ذلك أفكار
خليلته تماماً وشعر بصداقة مخلصه لى . . وهكذا عشنا فى وحدة أسعدتنا
جميعاً ، وحدة لا يقوى على فصم عراها غير الموت . ومما يدل على
سمو خلق هذه المرأة الودود أن كل الذين أحبوا أحبوا بعضهم بعضاً ،
فحتى الغيرة والتنافس أذعنا للعاطفة الأقوى التى ألهمتهم أياها وما رأيت
قط واحداً ممن أحاطوا بها يضمر أقل حقداً للآخرين . فليتوقف القارئ
هنيه عند هذا المديح ، وإذا استطاع أن يتذكر أى امرأة أخرى تستحقه
فليرتبط بها أن أراد لنفسه السعادة (٣٧) .

أما الخطوة التالية فى هذه الرواية الغرامية المتعددة الأطراف فكانت هى

أيضاً نقيضاً لكل قواعد الزنا . ذلك أن مدام دافاران حين أدركت أن جارة لها تدعى المدام دمانتون تتطلع إلى أن تكون أول من يعلم جان — جاك فنون الغرام ، عرضت نفسها عليه خليعة دون أن يكون في هذا الوضع إضرار بخدماتها المماثلة لآنية ، إما لأنها أبت أن تسلم بالتفوق لجارتها وإما لأنها أرادت أن تحمي الفتى من ذراعين أقل حناناً من ذراعها وأنفق جان — جاك ثمانية أيام يدير الأمر في رأسه ، فقد كان من أثر طول ألفته بها أن أفكاره عنها كانت بنوية أكثر منها شهوانية . يقول « لقد أحببتها حبا منغى من أن اشتبهها^(٣٨) » وكان آنشد يعانى من الأمراض التي قدر لها أن تطارده حتى النهاية ، وهي التهاب المثانة وضيق مجرى البول . وأخيراً ، وبكل الحياء المنتظر منه ، ارتضى العمل باقتراحها . يقول :

« وأخيراً جاء اليوم الذى كنت أخشاه أكثر مما أتوق إليه فلقد كان قلبي يجذب غرامياتي دون أن يشتهي الجائزه . ولكنى حصلت عليها رغم ذلك . ورأيتنى لأول مرة بين ذراعى امرأة ، وامرأة أعبدتها . أكنت سعيداً ؟ لا لقد ذقت اللذة ، ولكنى لا أدري أى حزن طاغ ميم هذه التعويذه فلقد شعرت كأنى أقترف سفاح المحارم . وبينما كنت أضربها بين ذراعى فى نشوة الفرح اغرقت صدرها مرتين أو ثلاثاً بدموعى . أما هى فلم تكن بالحزينة ولا بالفرحة ، بل كانت هادئة وهى تعانقنى وتقبلنى ولم تستشعر أى إنشَاء ، ولا أحست بالندم قط ، لأنها لم تكن شهوانية على الإطلاق ، ولم تكن تبحث عن اللذة بتاتا^(٣٩) .

وقد عزا روسو إلى سم الفلسفة مناورات هذه السيدة وهو يستحضر ذكرى هذا الحدث البارز فيما بعد . قال :

« أكرر أن كل مشاعرها كانت نتيجة خطئها لا نتيجة شهواتها . فلقد كانت كريمة المولد ، نقية القلب ، نبيلة السلوك ، وكانت رغباتها سوية فاضاة ، وذوقها رقيقاً مرهفاً . وبدا أنها خلقت لذلك الطهر الرائع — طهر الآداب — الذى أحبه على الدوام ولكنها لم تمارسه قط ، لأنها بدلاً من أن تصغى إلى أوامر قلبها اتبعت أوامر عقلها الذى ضللها ومن

سوء حظها أنها كانت تعزّز بالفلسفة ، وكان من أثر المبادئ الخلقية التي استخلصتها من هذه الفلسفة إفساد الفضيلة التي أشار بها قلبها^(٤٠) .

ومات آنيه في ١٧٣٤ . واستقال روسو من وظيفته في خدمة ملاحظ الإقليم ، وتولى إدارة أعمال المدام وقد وجدها في حال خطرة من الخلل تشرف على الأفلاس فحصل على بعض المسال بتدريس الموسيقى ، وفي ١٧٣٧ آلت إليه ثلاثة آلاف فرنك إستحققت له من ميراث أمه . فأنفق بعضها على الكتب . وأعطى الباقي لمدام دفاران . ثم لزم الفراش ، فرضته ماماً بحنان . ولما لم يكن لبيتها حديقة فقد استأجرت (١٧٣٦) كوخاً في ضاحية يسمى الشارميت هناك « سارت حياتي سيراً هادئاً غاية الهدوء » ومع أنه « لم يكن يحب قط أن يصلي في قاعة » فإن الحلاء خارج الكوخ حفزه لشكر الله على جمال الطبيعة وعلى مدام دفاران ، ولطلب البركة الألفية على رباطهما . وكان يومها شديد التعلق باللاهوت الكاثوليكي مع شائبة حزينة من الجانسنية « فكثيراً ما عذبنى خوف الجحيم^(٤١) » .

وكان يقلقه أكتئاب هو ضرب من الوهم كان رائجاً في ذلك العهد . وقد خيل إليه أن هناك ورماً في غشاء قريب من قلبه ، فقصد مونبلييه في مركبة البريد : وفي الطريق هدأ من أكتابه بما زعم أنه تحقيق لوصال بدمام دلارناج (١٧٣٨) وكانت أما لفتاه في الخامسة عشرة . فلما عاد إلى شامبري وجد أن مدام دفاران تجرب علاجاً مماثلاً ، وأنها اتخذت عشيقاً جديداً لها من صناع باروكات شاب يدعى جان فنتسنريد . واحتج روسو؛ فقالت له إنه يسلك كالأطفال ، وأكدت له أن في حبها متسعاً لاثنين باسم جان . ولكنه أبن أن « يخط من كرامتها على هذا النحو » ، فاقترح عليها أن يعود إلى وضعه القديم ، فزعمت أنها موافقة ، ولكن أستيائها من تخليه عنها بهذه السرعة أصاب محبتها له بالفتور . وأعتكف في شارميت وأقبل على دراسة الفلسفة .

ولأول مرة (حوالى ١٧٣٨) وعى بنسائم « التنوير » الهابة من باريس وسيريه . فقرأ بعض أعمال نيوتن ، وليبنز ، وبوب ، وقلب في مناهات

قاموس بيل . ثم عاد إلى درس اللاتينية ، وأحرز في ذلك بجهده وحده تقدماً أكثر مما أحرز من قبل على يد معلميه ووفق إلى أن يقرأ شذرات من فرجل ، وهوراس ، وتاسيتوس ، وترجمة لاتينية لمحاورات افلاطون . وطلع عليه لا بروبير ، وبسكال ، وفنيلون ، وبريفوست ، وفولتير ، وكانهم رؤيا أدارت رأسه « لم يفتنا شيء مما كتبه فولتير » ، والواقع أن كتب فولتير هي التي « أوحى إلى بالرغبة في أن أتألق في الكتابه ، وحملتني على محاولة تقليد تلوينات ذلك الكاتب الذي فتنت به أي فتنة^(٤٢) » وعلى خير وعى منه فقد اللاهوت القديم الذي كان من قبل إطار أفكاره ، شكله وصرامته ، فوجد نفسه يفكر دون رعب في عشرات الهرطقات التي كانت تبدو له في شبابه فاضحة شائنة . وحل محل إله الكتاب المقدس إيمان جار يوشك أن يكون مشبوباً هو الإيمان بوحدة الوجود . هناك إله ، نعم ، والحياة بدونها لا معنى لها ولا يطبقها الإنسان ، ولكنه ليس ذلك الإله الخارجي ، المنتقم ، الذي تصوره الناس القساة الجبناء ؛ إنما هو روح الطبيعة ، والطبيعة في صميمها جميلة ، والطبيعة البشرية في أساسها خير . وعلى هذا الإيمان ، وعلى بسكال ، سيقم روسو فلسفته .

وفي ١٧٤٠ وجدت له مدام دافاران وظيفة معلم خاص لولدى المسيوبونو دمايليه ، رئيس بلدية ليون وافترق عنها دون لوم ولا عتاب من أحد الطرفين ، وأعدت له ثياب الرحلة ، ونخاطت لها بعض الملابس بيديها اللتين كانتا فتنة له يوماً ما .



٤ — ليون والبندقية وباريس : ١٧٤٠ — ٤٩

كانت أسرة مابليه حافزا فكريا جديداً لروسو . وكان رئيس البلدية أكبر إخوة ثلاثة ناهين ، أحدهم نجابريل بونو دمايليه الذى اقترب من الشيوعية ، والآخر هو الأبيه إتيين بونو دكوندياك ، الذى أوشك أن يكون ماديا . وقد التقى روسو بثلاثتهم . وبالطبع وقع فى غرام مدام دمايليه ، ولكنها كانت من السماح بحيث لم تعر الأمر أهمية . واضطر جان — جاك أن ينصرف إلى مهمته ، وهى تعليم ولديها . فأعد للسيد دمايليه بيانا بأفكاره التربوية ، وكانت فى بعضها تتفق والمبادئ التحررية التى ستعرض عرضاً رومانسيا ممتازا فى كتابه « إميل » بعد اثنين وعشرين عاماً ، وفى بعضها تناقض رفضه اللاحق لـ « الحضارة » ، لأنها اعترفت بقيمة الفنون والعلوم فى تطوير النوع الإنسانى . وكان يلتقى مراراً برجال كالأستاذ بورد عضو أكاديمية ليون (وكان صديقاً لفولتير) ، فتشرب قدراً أكبر من « التنوير » ، وتعلم أن يهزأ بالجهل والخرافة الشائعين بين الجماهير . ولكنه ظل طوال حياته مراقباً . فذات يوم رأى شابة عارية تماماً إذ اختلس النظر إليها وهى تستحم فى الحمامات العامة ، وتوقف قلبه عن النبض ، فلما خلا إلى نفسه فى حجرته وجه إليها خطاباً جريئاً غفلاً من التوقيع قال فيه :

« لا أكاد أجرو على الاعتراف لك يا آنسة بالظروف التى أدين لها بسعادة رؤيتى أياك وعذاب حبي لك . فقد فتنتى فيك ما هو أكثر من ذلك الجسد النحيل اللطيف الذى لا ينتقص العرى من جماله ، وذلك القوام الأنيق ، وتلك الخطوط الرشيقه . . . ما هو أكثر من نضارة الزئبق المنثور على شخصك بهذا السخاء الكثير . . . أنها حمرة الخجل الناعمة التى رأيتها تكسو جبينك حين أسفرت عن وجودى لعينيك بعد أن جردتك بنخب شديد — بغناء بيتين من الشعر^(٤٣) .

وكان الآن قد شب إلى السن التى تغريه بعشق الصبايا ، فكادت كل

فتاة حسنة الطلعة تثير أشواقه وأحلامه ، ولكنه تعلق على الأخص بسوزان سر . « مرة - وأأسفاه ، مرة واحدة فقط في حياتها ؟ لمس فمى فيها . إيه أيتها الذكرى ؟ هل أفقدك في القبر ؟ » وبدأ يفكر في الزواج منها ، ولكنه اعترف لها قائلاً « ليس لدى ما أقدمه لك سوى قلبي »^(٤٤) ولما لم يكن قلبه عمارة قانونية ، فإن سوزان قبلت يد غديره ، وانكفأ روسو إلى إحلامه من جديد .

إنه لم يخلق ليكون عاشقاً ناجحاً ولا معلماً كفئاً .

« كان لدى من المعرفة القدر اللازم تقريباً لمدرس خاص . . . وبدأ أن رقة طبعي الفطرية تهيئني لهذا العمل ، لولا أن تعجل الأمور اختلط بهذا الطبع فإذا سارت الأمور رخاء ورأيت أن الجهود التي لم أضن بها أثمرت كنت ملاكاً ، إما إذا اخفقت فقد كنت أنقلب شيطاناً . فإذا لم يفهمنى تلميذاي تعجلت الشرح ، وإذا أظهرت أى أمارات على الطبع المشاكس كان ذلك يستفزنى استفزازاً يكاد يحملنى على قتلها وصممت على تركهما بعد أن اقتنعت بأننى لن أنجح أبداً في تعليمهما التعليم الصحيح : وتبين المسيو دمايليه هذا بالوضوح الذى تبينته به وأن كنت ميالاً إلى الاعتقاد بأنه ما كان ليطرذننى قط لولا أننى أعفيته من هذا العناء » .

وهكذا أستقل مركبة البريد قافلاً إلى شامبرى بعد أن أستقال وهو حزين ، أو طرد طرداً كريماً . والتمس العزاء من جديد بين ذراعى ماماً ، فاستقبلته هى فى تلافى وأفسحت له مكاناً على مائدتها مع عشيقها : ولكنه لم يكن سعيداً فى هذا الموقف ، فاغرق نفسه فى الكتب والموسيقى ، وابتكر طريقة للتدوين الموسيقى تستخدم الأرقام بدلا من الرموز . ولما عزم على الذهاب إلى باريس وعرض اختراعه على أكاديمية العلوم أثنى الجميع على قراره . وفى يوليو ١٧٤٢ عاد إلى ليون ملتصقاً بخطابات تقديم إلى الأعيان فى العاصمة . وأعطاه آل مابليه خطابات إلى فونتنيل

ولمكونت دكايلوس^٥ وقدمه بورد إلى الدوق درشليو . ومن ليون أستقل
المركبة العامة إلى باريس تداعب رأسه أحلام المجد

وكانت فرنسا آنذاك مشتبكة في حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠-٤٨)
ولكن الحرب كانت تدور رحاها على أرض أجنبية ، وعليه فقد سارت
باريس سيرتها الأولى وواصلت حياة المرح البهي والاضطراب الفكري ،
حياة المسارح الناطقة بمسرحيات راسين ، والصالونات المتألقة بالهرطقات
والسخریات ، والأساقفة الذين يقرءون فولتير ، والشحاذين الذين
ينافسون البغايا ، والباعة الجوالين الذين ينادون على بغنائهم ، والصناع
الذين يبذلون العرق في سبيل لقمة العيش إلى هذه الدوامة أقبل جان .
جاك روسو ، وهو في الثلاثين من عمره ، في أغسطس ١٧٤٢ ، وفي
كيسه من المال خمسة عشر جنيها . واستأجر حجرة في فندق سان . كنتان
بشارع الكوردلييه قرب السوربون . « شارع حقير وفندق تعس ،
وحجرة بائسه^(٦) » وفي ٢٢ أغسطس قدم إلى الأكاديمية « مشروعاً عن
علامات جديدة للتدوين الموسيقي » . ورفض العلماء مشروعه في مجاملة
لطيفة . وشرح له رامو رأيهم قائلاً « أن علاماتك حسنة جداً . . .
ولكن عليها اعتراض ، هو أنها تحتاج إلى إعمال الذهن ، وهو أمر لا يمكن
دائماً أن يرافقه سرعة التنفيذ . أما موضع علاماتنا فيصور للعين دون تزامن مع
هذه العملية » واعترف روسو بأن الاعتراض لا يمكن التغلب عليه^(٧) .

وأناحت له خطابات التقديم التي أخذها معه خلال ذلك الاتصال
بفونتييل الذي كان وهو في عامه الخامس والثمانين أحرص على طاقته من أن
يأخذ روسو مأخذ الجدل ، والاتصال بماريفو الذي قرأ مخطوطة مسرحية
روسو الهزلية « نارسيس » واقترح أن يدخل عليها تحسينات ، وذلك رغم
إنشغاله بنجاحه روائيا وكاتبا مسرحيا وقابل الوافد الجديد ديدرو ، الذي
لم يكن بعد قد نشر أى مؤلف يؤبه به ، وكان يومها يصغر جان .
جاك بعام واحد .

« كان ولوعا بالموسيقى ، يعرفها نظرياً . . . وقد حدثني ببعض

مشروعاته الأدبية . . . وسرعان ما وثق هذا بيننا صلة دامت خمسة عشر عاماً ، وأغلب ظنى أنها كانت ستدوم إلى اليوم لولا أننا لسوء الحظ... أبناء حرفة واحدة » (٤٨) .

وكان يصاحب ديدرو إلى المسرح أويلاعبه الشطرنج ، والتقى روسو فى تلك اللعبة بفيليدرو وغيره من مهرة لاعبيها ، و« لم يكن عندى شئ فى أنى فى النهاية سأتفوق عليهم جميعاً » (٤٩) ووجد سبيله إلى بيت مدام دوبان وصالونها ، وكانت ابنة المصرفى صموئيل برنار ، وعقد صداقة مع ابن زوجها كلود دوبان دفرائكوى وخلال ذلك أوشكت نقوده على النضوب .

وبدأ يبحث من حوله عن عمل يستكمل به جهود أصدقائه فى إطعامه . فعرضت عليه بنفوذ مدام بزنفال وظيفة سكرتير للسفارة الفرنسية فى البندقية . وبعد أن قطع رحلة طويلة مخوفة بالخطر بسبب الحرب ، وصل إليها فى ربيع ١٧٤٣ وقدم نفسه إلى السفير الكونت دمونتاجو . ويؤكد لنا روسو أن هذا الكونت كان أمياً تقريباً ، وكان على السكرتير أن يفك شفرة الوثائق وأن يحررها ، وكان يقدم رسائل الحكومة الفرنسية إلى مجلس شيوخ البندقية بشخصه لأنه لم ينس الإيطالية التى كان قد تعلمها فى تورين وكان فخوراً بمنصبه الجديد ، وشكا من أن مركباً تجارياً زاره لم يطلق المدافع تحية له مع أن هذه « التحية نالها من هم أقل شأناً » (٥٠) وتشاجر الرئيس والمرؤوس على أيهما يظفر بالرسوم التى تدفع نظير استخراج السكرتير لجوازات السفر إلى فرنسا . وقد صلحت حال روسو بفضل نصيبه من هذه الرسوم ، فتناول الطعام الطيب على غير العادة ، واختلف إلى المسرح والأوبرا ، ووقع فى غرام الموسيقى الإيطالية والفتيات الإيطاليات .

وذات يوم زار موسماً تسمى لابدوانا « لكيلا أبدو شديد البلاهة أمام رفاقي » وطلب إليها أن تغنى فغنت ، فنقدها دوكاتيه وهم بالإنصراف ، ولكنها رفضت أن تأخذ قطعة النقود دون أن تكون قد بذلت فى نيلها

جهداً . فأرضهاها ، وعاد إلى مسكنه « مقتنعا كل الاقتناع بأننى سأتجرع عواقب هذه الفعله ، فكان أول شيء فعلته أننى استدعيت جراح الملك لأتمس منه الدواء « ولكن الطبيب » أقنعنى بأن فى خلقتى ما يجعلنى لأقبل العدوى بسهولة « (٥١) وبعد فترة أقام له أصدقاؤه حفلة يثاب فيها بجائزة هى الغانية الجميلة زوليتا فدعته إلى حجرتها وخلعت ثيابها . « وفجأة ، بدلا من أن اضطرم بنار الشهوة أحسست ببرودة قاتله تسرى فى عروقى ، وباشمئزاز ينفذ إلى أعماقى ، فجلست وانخرطت فى البكاء كالأطفال » . وقد علل عجزه هذا فيما بعد بأن أحد ثديي المرأة كان مشوها . أما زوليتا فقد انقلبت عليه هازئة وقالت له « دع النساء وشأنهن . وانصرف إلى درس الرياضة » (٥٢) .

وأوقف المسيو دمونتاجو صرف راتب روسو لأن راتبه هو كان متأخراً . فعادا إلى الشجار ، ورفت السكرتير (١٧٤٤) وشكا روسو إلى أصحابه فى باريس وأرسل استفسار إلى السفير فأجاب « يجب أن أبلغكم كم كنا مخدوعين فى السيد روسو . ذلك أن حدة طبعه ووقاحته الناجمين عن شدة اعتداده بنفسه . وعن جنونه . هما اللذان أفضيا به إلى الحال الذى وجدناه عليه . لذلك طردته كما يطرد خادماً سيئ » (٥٣) وقفل جان — جاك إلى باريس (١١ أكتوبر) وطرح على الموظفين المختصين فى الحكومة وجهة نظره فى النزاع فلم ينصفوه . فلجأ إلى مدام دبرنفال . ولكنها رفضت أن تستقبله . فأرسل إليها خطاباً عنيفاً نستطيع أن نحس فيه لفحات الثورة الفرنسية البعيدة :

« كنت مخطئاً يا سيدتى ، فقد ظننتك منصفة فإذا بك « نبيلة » فقط ، وكان يجب على أن أذكر هذا وأن أدرك أنه لا يليق بى — وأنا رجل غريب أنتمى إلى طبقة العامة . — أن أشكر أحد السادة . ولو أن قدرى رمانى ثانية فى قبضة سفير بهذا الخلق لكابدت آلامى دون شكوى . فإذا كان مفتقراً إلى الإحساس بالكرامة ، ينقصه سمو النفس ، فذلك لأن النبالة فى غنى عن هذا كله ، وإذا اقترن بكل ما هو حقير دنىء فى بلد من أشد بلاد الله

فسادا ، فذلك لأن أجداده خلقوا له من الشرف ما يكفيه ؛ وإذا عاشر الأوغاد ، أو كان هو نفسه وغدا ، وإذا أكل على خادم أجره ، إذن ياسيدتى فلن أخلص إلا إلى هذا الرأى ، وهو أن من حسن حظ المرء إلا يكون وليد أفعاله هو . فهولاء الاجداد — من كانوا ؟ أشخاص لا شهرة لهم ، ولا مال ، نظرائى ، كان لهم موهبة من نوع ما ، وبنوا لأنفسهم سمعة ، ولكن الطبيعة التى تبذر بذرة الخير والشر ، اعطتهم نسلا حقيرا^(٥٤) .

ثم إضاف روسو فى « الإعرافات » :

« لقد خلفت عدالة شكواى وعدم جدواها فى ذهنى بذور السخط على نظمنا الاجتماعية الحمقاء التى تضحى فيها دائماً رفاهية الشعب والعدل الحقيقى فى سبيل مظهر للنظام ما أنزل الله به من سلطان ، لا ثمرة له إلا أنه يضيف موافقة السلطة العامة إلى ظلم الضعفاء وبغى الأقوياء^(٥٥) .

ولما عاد مونتاجو إلى باريس أرسل إلى روسو « بعض المال تسوية لحسابى . . . وتسلمت ما أعطانى وسددت كل ديونى ، وعدت يا هولاي كما خلقتنى . » واستقر ثانية فى فندق سان — كنتان وارترق بنسخ مدونات الموسيقى . ولما سمع النبيل الذى كان يحمل آئذ لقب دوق أوليان بفقره أعطاه كراسات موسيقى لينسخها مشفوعة بخمسين جنيها ذهبيا ، فاحتجز روسو منها خمسة ورد الباقي لأنه يزيد على حقه .^(٥٦)

وكان ما يكسبه أقل كثيراً مما يتيح له أن يعول زوجة ، ولكنه رأى أن فى استطاعته أن يعول خلية إذا أحكم التدبير وكان من بين من يؤاكلونه فى فندق سان — كنتان صاحبة الفندق ، وبعض الآباء الدينين الفيلسفين ، وشابة تخدم الفندق غسالة أو خياطة . وكان فى هذه المرأة ، وإسمها تريز لقاسير ، ما فى جان — جاك من إحجام وتردد ، ووعى بالفقر وأن لم تكن فخوره بفقرها مثله . وكان يدافع عنها إذا عاكسها الآباء . وانتهى بها الأمر إلى أن ترى فيه حاميا ، وسرعان ما وجد الواحد منهما سبيله إلى حضن صاحبه (١٧٤٦) وبدأت إصارعها بأننى لن أتخلى عنها ولن أتزوجها^(٥٧) . وإعترفت بأنها ليست عذراء ، ولكنها أكدت له أنها لم تأثم غير مرة واحدة ،

وكان ذلك منذ أمد بعيد . فصفحة عنها صفحاً جميلاً ، مؤكداً لها أن عذراء العشرين مخلوق نادر الوجود في باريس على أى حال .

وكانت مخلوقة بسيطة لا سحر فيها ولا دلال ، لا تستطيع الكلام في الفلسفة أو السياسة كنساء الصالونات ، ولكنها تعرف كيف تطهو ، وتدبر شئون البيت وتحتمل في صبر نزواته وعاداته الغريبة . وكان يتكلم عنها عادة باعتبارها « مديرة البيت » أما هي فتقول عنه « رجلى » وندر أن اصطحبها في زيارته لا صدقائه ، لأنها ظلت على الدوام مراهقة ذهنية ، كما ظل هو على الدوام مراهقاً خلقياً .

« حاولت أول الأمر أن أصلح عقلها ، ولكن جهودي ذهبت أدراج الرياح . ذلك أن عقلها بقي على ما فطرته الطبيعة ، فهو لا يقبل الثقيف . ولا ينجلنى أن أعترف أنها لم تعرف قط كيف تقرأ جيداً ، وإن كانت تكتب كتابة لا بأس بها . . . ولم تستطع قط أن تتلو شهور السنة بالترتيب ، أو تميز بين عدد وآخر رغم ما بذلت من عناء في محاولة تعليمها . وهى لا تعرف كيف تعد النقود ، ولا تحسب ثمن أى شىء فإذا تكلمت كانت الكلمة التى نخطر لها هى فى أحيان كثيرة عكس الكلمة التى تقصدها . وقد صنفته ، فيما مضى قاموساً بعباراتنا لأروح به عن المسيو دلكميسبورج ، وكثيراً ما ذاع أمر اغلاطها بين اخص اصحابى ^(٨٥) . »

فلما حملت « أرتبك أشد إرتباك » فإذا هو صانع بالأطفال ؟ وأكد له بعض اصحابه أنه من المؤلف إرسال الأطفال غير المرغوب فيهم إلى ملجأ للقطاء . فلما ولد الطفل فعل هذا رغم احتجاجات تريز ، ولكن بتعاون أمها (١٧٤٧) وخلال الاعوام الثانية التالية ولد له أربعة أطفال تصرف فيهم على هذا النحو . وقد ألمع بعض الشكاك إلى أن روسو لم يرزق أطفالاً ، وأنه اخترع هذه القصة ليخفى عجزه الجنسي ، ولكن كثرة دفاعه عن تنصاه هذا من المسئولية تجعل هذه النظرية بعيدة الاحتمال . وقد اعترف سراً بتصرفه فى هذا الأمر لديدرو ، وجريم ، ومدام ديبنيه ^(٨٦) ؛ واعترف به ضمناً فى كتابه « إميل » ؛ واستشاط غضباً على فولتير لأنه أذاع خبره ، ثم أقر به صراحة فى كتابه « الاعترافات » واعرب عن ندمه . إنه لم يخلق للحياة العائلية ، لأنه كان حزمة مرهقة من

الأعصاب ، وجواباً شريداً في الجسد والروح . وكان يعوزه ذلك الأهتمام بالأطفال الذى يجعل الأب صاحباً رزيناً ، ولم تكتمل رجولته قط .

في نحو هذه الفترة اسعده الحظ بأن يجد وظيفة مريحة . فقد أشتغل سكرتيراً لمدام دويان ، ثم لأبن أخيها . وحين أصبح دويان دفرانكوى أميناً عاماً للصندوق رقى روسو صرافاً براتب ألف فرنك في السنة . واتخذ الآن الضفيرة الذهبية ، والجوارب البيض ، والباروكة ، والسيف ، وكلها شارات حاكى بها الأدباء ثياب الطبقة الارستقراطية ليجدوا طريقهم إلى بيوت النبلاء^(٦١) . وفي وسعنا أن نتصور ضيقه بشخصيته المنقسمة على ذاتها . وقد أستقبل في عدة صالونات وصنع أصدقاء جدد ، منهم رينال ، وما رمونيتل ، ودوكلو ، ومدام دينيه ، ثم فريدرش ملشيور جريم ، الذى ارتبط به ارتباطاً حميماً جداً ومؤذياً جداً . واختلف إلى حفلات العشاء المثيرة في بيت البارون دولباخ حيث كان ديدرو يقتل الآلة بسلاح سمائه نخصومه فك خمار . في وكر الملحنين ذاك ذاب وتلاشى جل كتلكة جان — جاك .

وألف الموسيقى خلال ذلك . وكان قد بدأ في ١٧٤٣ مزيجاً من الأوبرا والباليه سماه « ربات الفنون الرشقات » يحيى به غراميات أنا كربون ، وأوفيد ، وتاسو ، وأخرجت الاوبرا في ١٧٤٥ محدثة بعض الضجة في بيت جابى الضرائب لابولفير ، وقد سخر منها رامو وزعم إنها محاكاة لانتحالات من الملحنين الإيطاليين ، ولكن اللدوق رشليو أعجب بها وعهد إلى روسو بتنقيح أوبرا وباليه تسمى « أعياد راسير » أعدها رامو وفولتير على سبيل التجربة . وفي ١١ ديسمبر ١٧٤٥ كتب روسو أول رساله لأمير أدباء فرنسا :

« لقد ظلمت خمسة عشر عاماً أكد وأكده لأجعل نفسي جديراً باحترامك وبالعطف الذى تحبوه به شباب الإدباء الذين تكتشف فيهم الموهبة . ولكى بفضل كتابتى موسيقى إحدى الأوبرات أجدننى قد انقلبت موسيقياً . وأيا كان النجاح الذى تحققه جهودى الضعيفة فإنها ستكون في نظرى جهوداً

رائعه لو كسبت لى شرف معرفتك أياى ، والأعراب عن الأعجاب
والاحترام العميق اللذين يشرفنى أن يكنهما لك نخادمك المتواضع
المطيع جداً^(٦١) .

وأجاب فولتير : « سيدى ، إنك تجمع فى شخصك موهبتين وجدتا
على الدوام منفصلتين حتى الآن ، فهذا مبرران طيبان يحملاننى على
تقديرك ومحبتك » .

وبهذين الخطابين من خطابات الحب بدأت خصومتها الشهيرة .

٥ — هل الحضارة مرض ؟

فى عام ١٧٤٩ سجن ديدرو فى فانسين عقاباً له على فقرات مهينة فى
كتابه « رسائل عن المكفوفين » وكتب روسو إلى مدام دىومبادور يلمس
الأفراج عن صديقه أو الإذن له بأن يشاركه سجنه . وخلال ذلك الصيف
قام غير مرة برحلة دائرية طولها عشرة أميال بين باريس وفانسين ليزور
ديدرو . وفى واحدة منها أخذ نسخة من مجلة المركير دفرانس ليقرأ أثناء
سيره . وهكذا وقع على الإعلان عن جائزة تقدمها أكاديمية ديجون لأفضل
مقال يجيب عن هذا السؤال « هل أعان إحياء العلوم والآداب والفنون على
إفساد الأخلاق أم على تطهيرها ؟ » وأغراه الإعلان بدخول المسابقة . فهو
الآن فى السابعة والثلاثين ، وقد آن الأوان ليحقق لنفسه الشهيرة . ولكن هل
بلغ من الإحاطة بالعلم أو الفن أو التاريخ مبلغاً يكفى لمناقشة مثل هذه
الموضوعات دون أن يفضح ما فى تعليمه من قصور ؟ وقد وصف فى
خطاب كتبه إلى مالزيرب فى ١٢ مايو ١٧٦٢ بحماسة العاطفية المتميزة
تلك الرؤيا التى تراءت له أثناء هذه المسيرة . قال :

« وفجأة أحسست أن مئات الأضواء المتلألئة تخطف بصرى . وتزاحمت
حشود من الخواطر النابضة بالحياة فى ذهنى بقوة واختلاط جعلانى اضطرب
اضطراباً لا يوصف واحسست برأسى يدوم فى دوار كأننى مخمور : وضاق

صدرى بخفقان عنيف . فلما عجزت عن السير لصعوبة التنفس أرتيمت تحت شجرة على الطريق وقضيت نصف ساعة في حال من الأنفعال الشديد حتى أننى قت وجدت مقدمة صدرى كلها مبللة بالدموع . . أواه ، لو أتيح لى أن أكتب ولو ربع ما رأيت وأحسست تحت تلك الشجرة ، فبأى وضوح كنت أميط اللثام عن كل تناقضات نظامنا الاجتماعى ! بأى بساطة كنت أبين أن الإنسان بفطرته خير ، وأن نظامنا هى التى جعلته شريراً (٦٢) » .

وهذه العبارة الأخيرة ستكون نشيد حياته المتردد ، وتلك الدموع التى تدفقت على صدريته كانت متبعاً من المنابع العليا التى أنبثقت منها الحركة الرومانسية في فرنسا وألمانيا . لقد كان في وسعه الآن أن يسكب قلبه في هجوم على كل تكلف باريس وتصنعها ، وفساد أخلاقها ، وزيف سلوكها المصقول ، وأباحية أدبها ، وشهوانية فنها ، وتعالى طبقيتها . وسفه أغنيائها الغليظ الذى تموله أبتزازاتهم من الفقراء ، وجفاف الروح لحلول العلم محل الدين . والمنطق محل الوجدان . إنه بإعلانه الحرب على هذا الانحلال يستطيع أن يبرر بساطة ثقافته ، وعاداته الريفية . وقلقه وضيقة في المجتمع ، ونفوره من حيث القيل والقال ، ومن الفكاهة التى تجردت من الاحترام . ويبرر احتفاظه المتحدى بإيمانه الدينى وسط إلحاد أصحابه . لقد عاد في أعماق نفسه كلفنيا كما كان ، وذكر بشيء من الحنين تلك العفة التى لقنها في صباه . إنه بدخوله مسابقة ديجون سيرفع وطنه جنيف فوق باريس . وسيشرح لنفسه ولغيره لم كان سعيداً في ليشارميت ، وشقياً غاية الشقاء في صالونات باريس ؟

فلما وصل إلى فانسين كاشف ديدرو بنيته في دخول المسابقة . فهلل ديدرو للفكرة ، وأشار عليه بأن يهجم حضارة جيلهما بكل ما وسعه من قوة . فلن يجرؤ متسابق آخر على اتخاذ هذا الموقف ، وسيكون موقف روسو فريداً في بابه (٦٣) وعاد جان -- جاك إلى مسكنه وهو يتحرق شوقاً

(٦٣) هناك جدل صغير بينهم القصة في هذه النقطة . فقد روى ديدرو في ١٧٨١ زيارة -

لهدم الآداب والعلوم التي كان ديدرو يستعد للإشادة بها في « الموسوعة أو القاموس العقلاني للعلوم والآداب والحرف : (١٧٥١ وما يليها) » وكتبت « المقال » بطريقة فريدة جدا . . . فكرست له ساعات الليل التي جفاني فيها النوم ، وكنت أتأمل في فراشي وجفناي مغمضتان ، وأدير في ذهني المرة بعد المرة عباراتي بعناية واهتمام لا يصدقان . . . وحالما فرغت من المقال دفعته لديدرو فرضي عنه ، وأشار ببعض تصويبات يجب في رؤية إجراؤها . . . وأرسلت المقال دون أن أخبر بأمره أحدا غيره ، اللهم إلا جريم فيما لا ذكر^(٦٥) .

أما أكاديمية ديشون فقد توجت مقاله بالجائزة الأولى (٢٣ أغسطس ١٧٤٠) — وهي مداليه ذهبية وثلاثمائة فرنك ، ولتخذ ديدرو الإجراءات بها عهد فيه من حماسة ، لنشر المقال الذي سمي « مقالا في الآداب والفنون والعلوم » وسرعان ما كتب إلى المؤلف يبلغه النبأ إن مقالك ساحر إلى حد فاق كل تصور ، فلم يكن لهذا النجاح ضريب على الإطلاق^(٦٦) . وكأني بباريس وقد أدركت أنه هاهنا ، في قلب حركة التنوير تماما ، قام رجل يتمحدي عصر العقل ، ويتحداه بصوت سيصغى إليه العالم .

أما المقال فقد بدا في استهلاله مشيدا بانتصارات عصره :

« أنه لمشهد جليل جميل أن نرى الإنسان يرفع نفسه — إن جاز هذا التعبير — من العدم بجهوده هو ؛ فيبدد بنور العقل كل السحب الكثيفة التي اكتنفته بالطبعة فسما فوق نفسه ، وحلق بالفكر إلى أجواز الفضاء ،

.. روسو له بطريقة يمكن التوفيق بينها وبين رواية روسو . قال : حين جاءني روسو يستشيرني في الموقف الذي ينبغي أن يتخذه قلت له : أن موقفك هو الذي سيرفضه الآخرون ، فقال إنك على حق (٦٣) « وسوالي عام ١٧٩٣ روى مارمونتيل عن ديدرو إنه نفي روسو عن إتخاذ موقف الموافقة ، فقال له روسو سأعمل بنصيحتك (٦٤) » .

وأشتمل بخطى عملاقة آفاق الكون الشاسعه كأنه الشمس ؛ وأجل من ذلك وأعجب أنه انكفأ إلى نفسه ليدرس الإنسان ويصل إلى معرفة فطرته وواجباته وهدفه . . كل هذه المعجزات رأيناها تجدد خلال الأجيال القليلة الأنخيره^(٦٧) .

ولابد أن فولتير جاد بابتسامة الرضى عن فرحة هذا الاستهلال ، فها هنا تلميذ جديد لجماعة « الفلاسفة » ؛ ولرفاق الطيبين الذين سيقضون على الخرافة « والعار » ؛ ثم ألم يكن لوشتنغار الفى هذا مساهما فى الموسوعة فعلا ؟ ولكن ما إن جاءت الصفحة التالية حتى إتخذت المناقشة وجهة مؤسفة . فقال روسو أن تقدم المعرفة هذا كله جعل الحكومات أعظم سطوة ، فسحقت حرية الفرد وإستبدلت بالفضائل البسيطة والكلام الصريح لعهد أكثر خشونه وبدائية ، نفاق اللباقة الاجتماعية .

« لقد أقصيت من بين الناس الصداقة المخلصة ، والاحترام الحقيقى ، والثقة الكاملة وتسترت الغيرة والريبة ، والخوف ، وبرودة العاطفة ، والتحفظ والكراهية ، والغش ، دائماً وراء ذلك القناع الواحد الخداع ، قناع التأدب ، والصراحة والكياسة اللتين يتباهى بها الناس ، ذلك القناع الذى ندين به لنور عصرنا وقيادته . . فلتطالب الآداب والفنون والعلوم بنصيبها الذى أسهمت به فى هذا العمل المفيد »^(٦٨) .

ويكاد فساد الفضائل والأخلاق نتيجة لتقدم المعرفة والفن أن يكون قانونا من قوانين التاريخ « لقد غدت مصرأم الفلسفة والفنون الجميلة ، وسرعان ما غزاها الغزاة » .^(٦٩) أما اليونان التى كان يسكنها الأبطال يوما ما فقد قهرت آسيا مرتين ، وكانت « الآداب » يومها فى المهد ، ولم تكن فضائل اسبرطة قد حلت محلها — مثلاً إغريقياً أعلى — تلك الثقافة الأثينية المهذبة ، وسفسطة السفطائين ، وتمائل براكستيلبس الشهوانية ؛ فلما بلغت تلك « الحضارة » أوجها ، أطاح بها قلب المكدونى بضربة واحدة ، ثم قبلت نير روما فى استكانة . أما روما فقد غزت عالم البحر المتوسط كله يوم كانت أمة من الفلاحين

والجند ، متمرسه بنظام صارم ، فلما أسلمت نفسها للذات الأبيقورية ،
وأشادت ببذاعات أوفيد وكاتلوس ، ومارتيال ، باتت مرتعاً للرديلة
« وهزوا بين الأمم ، وهدفاً لاحتقار الشعوب حتى الهميج منها »^(٧١) . وحين
عادت روما إلى الحياة في حركة النهضة الأوربية ، عادت الفنون والآداب
تنخر في عافية المحكومين والحاكمين ، ونخلفت إيطاليا أوهى من أن تثبت
للهجوم . فأخضع شارل الثامن ملك فرنسا توسكانيا ونابلى دون أن يمتشق
حساماً تقريباً ، وعزت حاشيته كلها هذا النجاح غير المتوقع إلى انصراف أمراء
إيطاليا ونبلاتها باهتمام أعظم إلى تثقيف عقولهم دون الاهتمامات الشيطنة
والأعمال العسكرية ^(٧١) . »

والأدب ذاته عنصر من عناصر الفناء :

« يحكى أن الخليفة عمر حين سئل في أمر مكتبة الاسكندرية وما يفعلها بها
أجاب : « وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه
غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها »
وقد ساق أدباؤنا هذا الأسلوب فى التفكير على أنه بلغ غاية السخف ، ولكن
لو أن البابا جريجورى الأكبر كان فى مكان عمر ، والإنجيل فى مكان القرآن ،
لأحرقت المكتبة رغم ذلك ، وأربما عد هذا أروع عمل قام به فى حياته »^(٧٢) .

أنظر إلى تأثير الفلسفة الممزق فبعض « محبى الحكمة » هؤلاء يخبروننا
بأنه ليس هناك شىء اسمه المادة ، وغيرهم يؤكدون لنا أنه لا وجود لشىء
إلا للمادة وليس إله آخر غير الكون ذاته ؛ وفريق ثالث يعلن أن الفضيلة
والرديلة ليستا سوى اسمين ، وأنه لا اعتبار لشىء إلا للقوة والمهارة فهؤلاء
الفلاسفة « يقوضون أسس إيماننا ويحطمون الفضيلة . إنهم يسخرون من
الكلمات القديمة التى نستعملها مثل « الوطنية » و « الدين » ويكرسون مواهبهم
لهدم وتشوية كل ما نقدسه غاية التقديس ^(٧٣) . ومثل هذا الهراء ما كان ليعمر
فى العصور القديمة بعد موت صاحبه ، أما الآن فبفضل الطباعة « ستبقى إلى
الأبد . تأملات هوبز وسينوزا المؤذية . إذن فانحتراع الطباعة كان من أفدح

الكوارث في تاريخ الإنسانية ، ومن السهل أن نرى أن الملوك في المستقبل سيحرصون على اقضاء هذا الفن الرهيب عن ممالكهم حرصهم من قبل على تشجيعه » (٧٤).

ولنلاحظ ما أوتيت الشعوب التي لم تعرف قط الفلسفة أو العلم أو الأدب من قوة وتفوق ؛ الفرس في عصر كورش أو الألمان كما وصفهم تاسيتوس ، أو « في زماننا هذا الأمة البسيطة (سويسرة) التي لم تقو حتى الشدائد والكوارث على قهر بسالتها المشهورة ، والتي لم يستطع أي مثال أن يفسد أمانتها » وأضاف الجنيني الفخور إلى هذه الشعوب « تلك الأمم السعيدة التي لم تعرف حتى أنباء الكثير من الرزائل التي يصعب القضاء عليها ، متوحشى أمريكا الذين لم يتردد مونتيني في تفصيل طريقة حكمهم البسيطة الفطرية ، لا على قوانين أفلاطون فحسب ، بل على أكمل الرؤى التي تستطيع الفلسفة أن تستشرفها » (٧٥).

إذن فأي نتيجة ينبغي أن نخلص إليها ؟ هي أن « الترف والإسراف ، والرق ، كانت في جميع الأجيال سوط عذاب سلط على جهود كبريائنا للخروج من حالة الجهالة السعيدة تلك التي وضعنا فيها حكمة العناية الإلهية . فليتعلم البشر ولو مرة أن الطبيعة كانت تحميهم من العلم ، تماماً كما تخطف الأم سلاحاً خطراً من يدي والدها » (٧٦).

والجواب عن سؤال الأكاديمية العالمة هو أن العلم إذا تجرد من الفضيلة كان فعلاً ، وإن التقدم الحقيقي الوحيد هو التقدم الخلقى ، وإن رقى العلم قد أفسد أخلاق البشر أكثر مما طهرها ، وإن الحضارة ليست ارتقاء الإنسان إلى وضع أسسمى ، بل سقوطه من بساطة ريفية كانت فردوس البراءة والسعادة.

وقبيل ختام المقال كبح روسو جراح قلمه وألقى ببصره في شيء من الخوف على أشلاء العلم ، والفن ، والأدب ، والفلسفة ، التي خلفها في إثره وتذكر أن صديقه ديدرو يعد موسوعة كرسها لتقدم العلم . فاكتشف فجأة أن بعض الفلاسفة — كبيكن وديكارت — كانوا « معامين عظاما » ورأى أن النماذج الحية من هذه السلالة ينبغي أن يرحب بهم حكام الدول مشيرين لهم . ألم يعين

شيشيرون قنصلاً لروما ، وأعظم الفلاسفة المحدثين قاضياً لقضاة انجلترا (٧٧) ؟
ولعل ديدرو وحشر تلك السطور في المقال ، وأكن جان جاك كان صاحب
الكلمة الأخيرة :

« أما نحن البشر العاديين الذين لم تشأ السماء أن تحبونا مواهب عظيمة
فانظر في جهالتنا . ولنترك لغيرنا مهمة تعليم الناس واجباتهم ، ولننصرف إلى
القيام بواجباتنا . أيتها الفضيلة أيتها المعرفة السامية للعقول البسيطة أليست
مبادئك منقوشة على كل قلب ؟ وهل نحن في حاجة ، لكي نتعلم نواميسك
إلى أكثر من . . الإصغاء لصوت الضمير ؟ هذه هي الفلسفة الصادقة التي
يجب أن نتعلم القناعة بها (٧٨) .

ولم تدر باريس أننا أخذنا هذا المقال مأخذ الجد ، أم تفسره على أنه محاولة
ماكرة في المبالغة والمفارقة كتبها المؤلف بنخب . وقال بعضهم (فيما روى
روسو) (٧٩) أنه لم يصدق كلمة واحدة مما كتب . أما ديدرو الذي آمن بالعلم
وضاق بقيود العرف والأخلاق فيبدو أنه استحسن مبالغات روسو باعتبارها
عقاباً افتقر إليه المجتمع الباريسي . وأما حاشية الملك فقد حبذت المقال
باعتباره توبيخاً للفلاسفة السفهاء الهدامين كانوا يستحقونه منذ أمد بعيد (٨٠)
ولابد أن نفوساً حساسة كثيرة ضاقت كهذا الكاتب البليغ بما في باريس من
ثرثرة حمقاء وبريق كاذب . وقد عبر روسو عن مشكلة تظهر في كل مجتمع
متقدم ، فهل ثمرات التكنولوجيا تستأهل مافي الحياة المصنعة من عجلة ،
وتوترات ، ومناظر ، وضحيج ، وروائح ؟ وهل التوتر يقوض الأخلاق ؟
وهل من الحكمة أن نمضي وراء العلم إلى خراب شامل ، ووراء الفلسفة
إلى اليأس من كل رجاء مشدد لاعتراثم ؟ .

وانبرى العديد من النقاد بالدفاع عن الحضارة منهم بورد عضو أكاديمية
ليون ، ولا ا عضو أكاديمية روان ، وفورمييه عضو أكاديمية برلين ،
ولا .س ستانسلاس لسكفنسكي ، الطيب القلب ملك براندن السابق ودوق
اللورين ، اللاحق . وأشار الأدباء إلى أن هذا الهجاء لم يزد على أن توسع

في الشكوك التي أعرب عنها مونتيني في مقاله « عن أكلة لحوم البشر ». وسمع غيرهم فيه صوت بسكال. يرتد من العلم إلى الدين ، وبالطبع كان مثبات من « اللاهوتيين والقديسين » قد أدانوا الحضارة منذ زمن بعيد باعتبارها مرضاً أو خطيئة . وكان في وسع اللاهوتيين أن يزعموا أن « براءة » الحالة الطبيعية وسعادتها التي قال بها روسو ، والتي سقط منها الإنسان ، ليست إلا قصة جنة عدن معادة ، فحلت « الحضارة » محل « الخطيئة الأصلية » علة في سقوط الإنسان ، وفي كلتا الحالتين قضت الرغبة في المعرفة على سعادة الإنسان . أما المفكرون المعتزون بعلمهم مثل فولتير فقد عجبوا لرحل في السابعة والثلاثين يكتب هذه المراثية الصبائية ليهاجم منجزات العلم ، ونعمة السلوك المهذب ، وإلهامات الفن . ولما الفنانون أمثال بوشيه فلعلهم كانوا يتلوون ألمات تحت سوط روسو ، ولكن فناني آخرين مثل شاردان ولا توركان في وسعهم أن يرموه بالتعميم العشوائي ، وأما الجنود فقد سخروا من إشادة هذا الموسيقار الرقيق بالصفات العسكرية وبالتأهب الدائم للحرب .

واعترض جريم ، صديق روسو ، على أي رجوع إلى « الطبيعة » فقال متعجباً « يا له من هراء شيطاني ! : ثم سأل سؤالاً شائكاً ، ما الطبيعة ^(٨١) ؟ » فلقد لاحظ بيل أنه لا تكاد توجد كلمة تستعمل استعمالاً أكثر غموضاً من كلمة ... الطبيعة . . . وليس من المؤكد « أنه لأن شيئاً ما مصدره الطبيعة فهو إذن خير وصواب : فنحن نرى في النوع البشري أشياء سيئة جداً مع أنه لا يتطرق إلينا شك في أنها من عمل الطبيعة » ^(٨٢) ولا ريب أن مفهوم روسو عن الطبيعة البدائية كان تصويراً رومانسياً للطبيعة في حالتها المثالية ، فالطبيعة (أي الحياة دون تنظيم وحماية اجتماعيين) « حمراء في الشاب والمخلب » وناموسها الأساسي هو : اقتل ولا تقتل . والطبيعة التي أحبا جان ... جاك ؛ كما يتجلى حبه في قتيقه أو كلارنس كان ضرباً متحضراً من الطبيعة ، روضها وهدبها الإنسان . والحق أنه لم يرد أن يرتد إلى الأحوال البدائية بكل ما انطوت عليه من قذارة ، وخطر ، وعنف بدني ، إنما أراد أن يعود إلى الأسرة الأبوية التي تفلح الأرض وتعيش على ثمارها ، وهفت

نفسه إلى التحرر من قواعد المجتمع المهذب وقيوده — ومن الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب الاعتدال والعقل . وقد أبغض باريس وحن إلى شارميت وقبيل ختام حياته ، فى كتابه « أحلام جوال وحيد » صور هذه الفكرة القاصرة تصويراً مثالياً فقال :

ولدت أكثر الناس ثقة بالناس ، ولم تخلد هذه الثقة ولو مرة واحدة طوال أربعين سنة . فلما وقعت فجأة بين صنف آخر من الأشخاص والأشياء انزلت إلى مثات الفخاخ .. واقتنعت أنه ليس فى مظهر الابتسامات المتكلفة التى أغدقت على غير الغش والكذب ، فانتقلت بسرعة من النقيض إلى النقيض وأصبحت أشمئز من الناس ... وأنا لم أعتد قط اعتياداً حقيقياً على المجتمع الحضرى الذى كل ما فيه هم وإكراه والزام ، والذى يجعلنى استقلالى الفطرى عاجزاً فيه على الدوام عن ألوان الخضوع التى لا مندوحة عنها لكل من يريد العيش بين الناس ^(٨٣) .

وفى « الاعترافات » سلم فى شجاعة بأن هذا « المقال » الأول (كان مفتقراً الافتقار كله إلى المنطق والنظام وإن زخر بالقوة والحرارة ؛ فهو أضعف ما كتبت إطلاقاً من حيث الحجج ، وأخلاه من الإيقاع والانسجام » ^(٨٤)

ومع ذلك فقد رد على نقاده بقوة ، وأكد مفارقاته من جديد . وبجاملة لستانسلاس استثنى شيئاً واحداً : فقال أنه بعد الروية قرر إلا تحرق المكتبات أو تغلق الجامعات والأكاديميات . « لأننا لن نجنى من وراء هذا إلا إغراق أوربامرة أخرى فى دياجير الهمجية ^(٨٥) ؛ و « حين يفسد البشر فإن من الخير لهم أن يكونوا متعلمين عن أن يكونوا جهلة » ^(٨٦) . ولكنه لم يعدل عن أى فقرة من اتهامه للمجتمع الباريسى . ودليلاً على انسحابه منه أقطع عن لبس السيف والصفيرة الذهبية والجوارب البيضاء ، وارتدى ما يرتديه رجال الطبقة الوسطى من رداء بسيط وباروكة أصغر . قال مارمونتيل « وهكذا منذ تلك اللحظة اختار الدور الذى سيلعبه ، والقناع الذى سيلبسه . » فإن كان هذا قناعاً فإنه أحسن لبسه ، وأصر عليه إصراراً شديداً ، حتى لقد أصبح جزءاً من صميم الرجل وغير وجه التاريخ .

٦ — باريس وجنيف ١٧٥٠ — ٥٤

في ديسمبر ١٧٥٠ اشتد على روسو مرض المثانة حتى ألزمه الفراش ستة أسابيع وزادته هذه المحنة نزوعا إلى الاكتئاب والعزلة ، وأرسل إليه معارفه الأغنياء أطباءهم ليعودوه ، ولكن تطيب ذلك الزمان لم يؤهلهم لمساعدته « فكلما امتثلت لأوامرهم ازدادت شحوبا ونحولا وهزالا . ولم يوح لي خيالي ... على هذا الجانب من القبر ، بغير الآلام المتصلة كابديتها من الرمل والحصاة وحصر البول ، وكان كل ما يخفف من آلام غيرى من المرضى كنفيع الشعير ، والحمامات والقصد — يضاعف من عذابي »^(٨٨).

وفي مطلع عام ١٧٥١ انجبت له تيريز طفلا ثالثا تبع أخويه إلى ملجأ اللقطاء . وقد علل هذا في فترة لاحقة بأنه كان أفقر من أن يربي أطفالا ، وأنه لو وكلهم إلى آل لقاسير لكان في ذلك بوارهم ، وأنهم كانوا سيعبثون عبثا منكرا بعمله كاتبا وموسيقيا وأكرهه المرض على الاستقالة من وظيفته صرفا لدويان دفرانكوى والتخلي عن دخله منها ، وراح منذ الآن يكسب معظم قوته بنسخ كراسات الموسيقى بواقع عشرة سنوات للصفحة . ولم يتلق روسو أى دخل من بيع « المقال » سواء كان السبب إهمال ديدرو أو شح الناشرين وتبين أن موسيقاه اكسب له من فلسفته .

وفي ١٨ أكتوبر ١٧٥٢ ، ويفضل نفوذ دوكلو ، مثلت أوبريت روسو « عراف القرية » أمام الملك والبلاط في فونتينبلو ، ولقيت من النجاح ما أتاح لها عرضا ثانيا بعد أسبوع وظفرت حفلة للجمهور في باريس (أول مارس ١٧٥٣) باستحسان أشمل ، ووجد المؤلف المعتكف نفسه مرة أخرى رجلا يشار إليه بالبنان . وكان هذا « الفاصل » الصغير ، الذي ألف روسو كلماته وموسيقاه ، أشبه باللحن المصاحب « المقال » : فالراعية كوليت ، التي احزنتها مغازلات كولان لفتيات المدينة ، يرشدها عراف القرية إلى استمالته ثانية بمغازلة غيره من الرجال ، فيغار عليها كولان ويعود

اليها ، ثم ينشدان معا أغاني راقصة تشيد بحياة الريف وتدم حياة المدينة .
وحضر روسو الحفلة الافتتاحية و كاد يرضى عن المجتمع بعد خصام .

« غير مسموح بالتصفيق أمام الملك ، وعليه فقد كان كل شىء مسموعا ،
وهذا يخدم المؤلف والتمثيلية . وسمعت من حولى همس النساء اللاتي بدون فى
حسن الملائكة . وكانت الواحدة تقول للأخرى فى صوت خافت : « هذا
رائع ، هذا خللاب ، ليس هناك لحن واحد لا ينفذ الى القواد » وقد أثار
دموعى سرورى بأننى أشعرت هذا العدد الكبير من الأشخاص اللطفاء بهذه
العاطفة ، ولم استطع أن أمسكها فى اللحن الثانى الأول حين لاحظت أننى لم
أكن الوحيد الذى يبكى » .^(٨٩)

فى ذلك المساء بعث اليه الدوق دومون كلمة يطلب اليه الحضور الى
القصر فى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد ليقدّم الى الملك ، وأضاف
الرسول أن من المتوقع أن ينفخ الملك المؤلف معاشا . ولكن مثانة روسو
أفسدت الخطة . يقول :

« أصدق أحد أن ليلة هذا النهار الرائع كانت لى ليلة عذاب وحيرة ؟
فقد كان أول خاطر لى لى بعد أن أقدم للملك سأضطّر الى الانسحاب غير
مرة وكانت هذه الضرورة قد سببت لى معاناه شديدة فى المسرح : وقد
تعذبنى فى الغد وأنا فى البهو أو فى حجرة الملك ، بين جميع العظماء ، منتظرا
خروج جلالته . لقد كانت علتى هى السبب الأهم فى الحيلولة بينى وبين
الاختلاط بالجماعات الراقية والاستمتاع بحديث الحسان ... ولا يستطيع غير
من خبر هذا الموقف أن يحكم بالفرع الذى يوحى به التعرض لخطره »^(٩٠)

وعليه فقد أرسل كلمة يعتذر من الحضور . وبعد يومين وبخه ديدرو على
تضييعه فرصة كهذه تتيح رزقا أنسب له ولتريز « وتحدث عن المعاش
بحرارة أكثر مما كنت أتوقع فى موضوع كهذا من فيلسوف ومع أننى
شكرت له تمنياته الطيبة ، فإننى لم استطع أن أسبغ مبادئه ، الأمر الذى أثار
بيننا نقاشا حاميا هو أول ما وقع بيننا من نزاع »^(٩١) على أنه لم يحرم كل

ربح من وراء تمثيلته . فقد أعجبت بها مدام ديومبادور إعجاباً حملها على أن تمثل هي نفسها دور كوليت في عرضها الثاني في البلاط ، وأرسلت له خمسين جنيهًا ذهبيًا ، وأرسل له لويس مائة. ^(٩١) وراح الملك نفسه ، « بأنكر صوت في مملكته يتغنى بلحن كوليت الحزين » لقد فقدت نخامى » — وكان هذا إرهاباً بظهور جلوك .

وكان روسو خلال ذلك يعد مقالات عن الموسيقى للموسوعة « وقد كتبها في عجلة شديدة ، وكتابة سيئة لهذا السبب ، في الشهور الثلاثة التي أتاحتها لي ديدرو . وقسا رامو في نقد هذه المقالات في كتيب سماه « أخطاء حول الموسيقى في الموسوعة » (١٧٥٥) وعدل روسو في المقالات ، وجعلها أساساً لـ « قاموس للموسيقى » (١٧٦٧) واعتبره معاصروه ، باستثناء رامو ، موسيقياً من أعلى طراز ^(٩٢) وينبغي أن نعهده الآن مؤلفاً مجيداً في فرع صغير من فروع الموسيقى ، ولكنه كان ولا شك أكثر من كتب عن الموسيقى طرافة وامتاعاً في ذلك الجيل .

ولما غزت فرقة من مغنى الأوبرا الإيطالية باريس في ١٧٥٢ تفجر الجدل حول مزايا كل من الموسيقى الفرنسية والإيطالية . وقفز روسو إلى المعركة بـ « رسالة في الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) يقول جريم إنه « يثبت فيها استحالة تلحين الموسيقى في الفاظ فرنسية ، وأن اللغة الفرنسية لا تصلح إطلاقاً للموسيقى ، وإنه لم يكن قط للفرنسيين ولن يكون لهم أبداً موسيقى ^(٩٤) » . وكان روسو بكلية في صف إتساق الألحان (الميلوديا) . كتب في روايته « أحلام جوال وحيد » « يقول » غنينا أغنية قديمة كانت أفضل كثيراً من النشاز الحديث ^(٩٥) » وأى جيل لم يسمع تلك الشكوى ؟ وفي مقاله « الأوبرا » الذي تضمنه قاموسه الموسيقى أعطانا إلماعاً لفاجنر ، فعرف الأوبرا بأنها « مشهد درامى غنائى يحاول الجمع من جديد بين جميع مفاتن الفنون الجميلة في تمثيل حركة عاطفية مشوبة . . . ومقومات الأوبرا هي القصيدة الشعرية ، والموسيقى ، والزخرفة : فالشعر يتحدث إلى الروح ،

والموسيقى إلى الأذن ، والصورة إلى العين . . . والدرامات اليونانية كان يمكن أن تسمى أوبرات (٩٦) .

وحوالى تلك الفترة (١٧٥٢) رسم موريس كنتان دلاتور صورة لروسو بالباستل (٩٧) ، التقط فيها ملامح جان - جاك مبتسماً : وسيماً ، أنيقاً ، وقد أنكر ديدرو الصورة لأنها لا تتفق والحقيقة (٩٨) . ووصف ماري مونتيل روسو كما رآه فى تلك السنوات فى حفلات عشاء دولباخ فقال « كان قد ربح لتوه الجائزة . . . فى ديجون . . . فيه تأدب يشوبه الإحجام ، قد . . . يبلغ من التواضع مبلغاً يقرب من التذلل . ترى عدم الثقة واضحة من خلال تحفظه المشوب بالخوف . وكانت عيناه المطرقتان ترقبان كل شىء بنظرة ملؤها الإرتياب الحزين . وقل أن شارك فى حديث ، وندر أن كشف لنا عن دخيلة نفسه (٩٩) » .

وغدا مركز روسو بعد تنديده بالعلم والفلسفه بهذا العنف خرجاً بين جماعة الفلاسفة الذين سيطروا على الصالونات . وكان مقالاه قد ألزمه بالدفاع عن الدين . وتروى مدام دينيه أنه فى عشاء دعت إليه مدام كينو ، وجدت المضيفة أن الحديث عن الدين أصبح نابياً ، فرجت ضيوفها « أن يحترموا على الأقل الدين الطبيعى » وبادر بالرد المركز دسان - لامبير ، الذى كان مؤخراً مزاحماً لفولتير على حب مدام دوشاتايه ، وسيكون عما قليل مزاحماً لروسو على حب مدام دوديتو فقال « أنه لا يستحق من الاحترام أكثر من أى دين آخر . » وتواصل مدام دينيه كلامها فتقول : « فلما سمع روسو هذا الرد غضب وتمم بكلام أضحك الجماعة عليه . قال « إذا كان من الجهن أن يسمح الإنسان لآخر أن يغتاب صديقاً فإن من الاجرام أن يسمح لأحد بأن يتحدث بسوء عن إلهه الذى هو حاضراً ، وأنا أو من بالله ياساده . . . وإتجهت إلى سان لامبير وقالت له « أنك ياسيدى وأنت شاعر ، ستوافقنى على أن وجود كائن خالد ، كلى السلطان ، عظيم الذكاء ، هو البذرة لأروع ضروب الحماسة » . فأجاب « اعترف بأنه جميل أن نرى هذا لإله يوجه وجهه إلى الأرض ، . . . ولكنها بذرة

للحماقات « ، وقاطعه روسو قائلاً « سيدى ، سأبرح الحجرة أن زدت كلمة واحدة » . والواقع أنه كان قد قام عن كرسيه وكان يفكر جدياً في الهروب لولا أن أعلن عن قدوم الأمير^(١٠١) » .

ونسى الجميع موضوع الجدل . وفي رواية وردت في مذكرات مدام دينيه ، أن روسو قال لها أن هؤلاء الكفرة يستحقون النار الابدية^(١٠١) .

وجدد روسو الحرب على الحضارة في مقدمة مسرحيته الهسزلية « نارسيس » ، التى مثلتها فرقة الكوميدي فرانسيز في ١٨ ديسمبر ١٧٥٢ « أن الميل إلى الآداب يكون دائماً إيذانا فى الشعب ببداية فساد سرعان ما يعجل به هذا الميل . ولا ينبعث هذا الميل فى أمة إلا من منبعين خبيثين . . . التبطل ، وشهوة الامتياز^(١٠٢) » . ومع ذلك استمر حتى عام ١٧٥٤ يختلف إلى « مجمع » دولباخ المؤلف من أحرار الفكر . هناك استمع مارمونتيل ، وجريم ، وسان - لامبير ، وغيرهم إلى الابيه بى يقرأ مأساة من تأليفه ، فوجدوها عملاً تافها يدعو للثناء ، ولكنهم أطروها اطراء جميلاً ، وكان الابيه قد ثمل بالخمير إلى حد أعماه عن إدراك ما فى ثنائهم من تهكم ، فأنتفخت أوداجه رضى وغبطة ، أما روسو الذى غاظه نفاق أصحابه فقد انقض على الأب بتقريع لا هوادة فيه ، فقال له « أن تمثيلايتك لا قيمة لها . . . وكل هؤلاء السادة يسخرون منك ، فانصرف وعد لتكون قسيساً فى قرينك^(١٠٣) » . ووبخ دولباخ روسو على نظائمه ، فانصرف غاضباً وانقطع عن الجماعة عاماً .

لقد دمر رفاقه كثلكته ، ولكنهم لم يدمروا إيمانه بمقومات المسيحية . وعادت بروتستنتية صباه تطفو فى الوقت الذى تغوص فيه كثلكته . فنصور جنيف صباه كاملة مبرأة من العيوب ، وخيل إليه أنه سيكون فيها أكثر راحة واطمئناناً منه فى بلد أضنى روحه كباريس . ولو عاد إلى جنيف لاكتسب من جديد لقباً يبعث على الفخر ، هو لقب المواطن ، ومع الامتيازات الخاصة التى ينطوى عليها هذا اللقب . وعليه ففى يونيو سنة ١٧٥٤ استقل مركبة البريد إلى شامبرى وهناك وجد مدام دافاران

فقيرة تعسة ، ففتح لها كيس نقوده ، ثم وأصل رحلته إلى جنيف ،
هناك رحب به القوم أبنا ضالاً قد تاب إلى رشده : ويبدو أنه وقع إقراراً
يؤكد فيه من جديد عقيدته الكلفنية^(١٠٤) ؛ واغتنبط رجال الدين الجنيفيون
باستعادتهم « موسوعيا » إلى حظيرة إيمانهم الانجيلي ورد إليه اعتباره
مواطناً ، وراح بعدها يوقع في فخر « جان ... جاك روسو ،
المواطن » : قال :

« تأثرت تأثراً بالغاً بما لقيت من عطف . . . المجلس (المدني)
والجمع (الكنسي) وعظيم احترام القضاة ، والوزراء ، والمواطنين ،
وحفاوتهم بي حتى إنني اقلعت عن فكرة العودة إلى باريس
إلا لفض إدارة البيت ، والعثور على عمل للسيد لفاسير وزوجته ،
أو تدبير أمر معاشهما ، ثم العودة مع تريز إلى جنيف لأستقر فيها
ما بقي لي من عمر^(١٠٥) » .

ولاستطاع الآن أن يتذوق جمال البحيرة وشواطئها تذوقاً أكمل مما فعل
في صباه « لقد احتفظت بذكرى حية . . . لطرف البحيرة الأبعد ،
وكتبت له وصفاً بعد سنوات في هلويز الجديدة » ودخل الفلاحون
السويسريون في حلم الفردوس الريفي الذي سيصفه في تلك الرواية : فهم
ملاك لمزارعهم لا يخضعون لضريبة رؤس أو سخرة ، يشغلون أنفسهم
بالحرف المنزلية في الشتاء ، ويقفون في قناعة بمنأى عن ضجيج العالم
وصراعه . وكانت ذكرى دويلات المدن السويسرية عالقة بذهنه وهز
يصف مثله السياسي الأعلى في كتاب « العقد الاجتماعي » .

وفي أكتوبر ١٧٥٤ قصد باريس على وعد بالعودة منها سريعاً .
ووصل فولتير إلى جنيف بعد رحيل روسو عنها بشهرين ، واستقر به
المقام في فيلا ديليس . واستأنف جان - جاك في باريس صداقته لديدرو
وجريم ، دون أن تبلغ من الثقة ما بلغته من قبل . ولما نعى إليه نبأ موت
مدام دولباخ كتب إلى البارون خطاب تعزية رقيقاً ، وتصلح الرجلان ،
وعاد روسو يواكل الزنادقة ، وظل ثلاثة أعوام آخر يبدو من جميع

الوجوه واحداً من جماعة الفلاسفة . ولم يبحث كثيراً في عقيدته الكلفية الجديدة . واستغرقه الآن الإشراف على طبع « مقالته » الثاني الذي قدر له أن يهز الدنيا أكثر مما هزها سابقه .

٧ - جرائم الحضارة

في نوفمبر ١٧٥٣ أعلنت أكاديمية ديجون عن مسابقة أخرى ، أما السؤال الجديد فكان « ما الأصل في عدم المساواة بين البشر ، وهل يقره قانون الطبيعة ؟ » يقول روسو « استرعى أنتباهي هذا السؤال الخطير ، وأدهشني أن الأكاديمية اجترأت على طرحه للنقاش ، ولكن مادامت قد أظهرت شجاعتها . . . فقد عكفت فوراً على مناقشته^(١٠٦) » . واختار لبحثه هذا العنوان « مقال في أصل وأسس عدم المساواة بين البشر » . وفي شامبري في ١٢ يونيو ١٧٥٤ أهدى هذا المقال الثاني « إلى جمهورية جنيف » وإضاف خطاباً موجهاً إلى « سادتها الحاكمين » الرفيعة الشرف والمجد . « يعرب عن بعض الآراء الفذة في السياسة :

« في بحوثي عن خير القواعد التي يمكن أن يرسبها الإدراك السليم عن تكوين الحكومة أدهشني أن أجدها كلها تحققت فعلاً في حكومتكم ، بحيث أني لو لم أولد بين أسوار مدينتكم لرأيتكم لزاماً على أن أقدم هذه الصورة عن المجتمع الإنساني إلى ذلك الشعب الذي يبدو أنه انفرد دون سائر الشعوب بحيازته لا عظم مزاياها ، ووفر لنفسه أفضل وقاية من مساوئها^(١٠٧) » .

ثم هنا جنيف بعبارات تصدق تماماً على سويسرة اليوم :

« بلد انصرف عن شهوة الغزو الهمجي لا فتقاره السعيد للقوة ، وأمن بفضل موقعه الأسعد حظاً من خوف الوقوع غنيمة في يد غيره من الدول : مدينة حرة تتوسط عدة أمم ، لا مصلحة لواحدة منها في العدوان عليها ، ومصلحة كل منها في منع غيرها من هذا العدوان^(١٠٨) » .

وبارك معبود الثورة الفرنسية المستقبل تلك القيود المفروضة على الديمقراطية في جينيف ، حيث لاحق في التصويت إلا لثمانية في المائة من السكان :

« لكي نتقّى خدمة المصالح الخاصة والمشروعات الطائشة وجميع البدع الخطرة التي انتهت بالقضاء على الأثنيين ، ينبغي ألا تطلق الحرية لكل رجل في اقتراح القوانين الجديدة على هواه ، بل يقصر هذا الحق على القضاة دون غيرهم . . . فقدم القوانين هو أهم عامل في إضفاء القدسية والاحترام عليها ، والناس سرعان ما يتعلمون الاستهانة بالقوانين التي يرونها تبدل وتغير كل يوم ، ولو اعتادت الدول أن تهمل تقاليدها القديمة بحجة التحسين والإصلاح ، جلبت من الشرور في الغالب ما هو أسوأ مما تحاول أن تقضى عليه^(١٠٩) » .

أكان هذا مجرد ذريعة ياتمس بها العودة إلى المواطنة الجنيقية ؟

أما وقد تحقق لروسو هذا الهدف فإنه قدم مقاله لأكاديمية ديجون . ولم يمنح الجائزة ، ولكن حين نشر المقال في يونيو ١٧٥٥ ، سره أن يصبح من جديد الحديث المثير لصالونات باريس . ذلك أنه لم يترك مفارقة إلا تناولها ليثير الجدل حولها . فهو لم ينكر عدم المساواة « الطبيعي » أو الإلزامي ، وسلم بأن هناك أفراداً هم بحكم مولدهم أصبح أو أقوى من غيرهم في البدن أو الخلق أو الذهن . ولكنه زعم أن كل ضروب عدم المساواة الأخرى — الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والخلقية ، غير طبيعية ، نشأت حين ترك البشر « الحالة الطبيعية » . وأقاموا الملكية الخاصة وأسسوا دولا تحمي الثروة والامتياز .

« فالإنسان بطبيعته طيب^(١١٠) » ، وأكثر ما يجعله شريراً تلك النظم الاجتماعية التي تقيد أو تفسد ميوله للسلوك الطبيعي . وقد صور روسو حالة فطرية مثالية كان معظم الناس فيها أقوىاء الأطراف ، خفاف الأقدام ،

حديدي البصر(*) ، يعيشون حياة الحركة والعمل ، حياة كان الفكر فيها دائماً أداة للعمل وتابعا له ، لا بديلا مضعفا عنه . ثم قارن بين هذه الصحة الفطرية وبين الأمراض المتكاثرة التي تنجم في الحضارة عن الثروة والأعمال التي تتطلب القعود الكثير :

« أن أغلب عللنا من صنعنا ، وكان يسيراً علينا أن نتجنبها ، كلها تقريبا ، بالتزام أسلوب الحياة البسيط ، المتماثل ، المنعزل ، الذي قرره الطبيعة . فإذا كانت الطبيعة قد قضت بأن يكون الإنسان سليماً صحيحاً ، فأني أجرؤ على الزعم بأن حالة التفكير والتأمل حالة تناقض الطبيعة ، وأن (l'homme qui médite est un animal dépravé.)

وحين نفكر في بنية المتوحشين القوية — على الأقل أولئك الذين لم ندمرهم بمشروباتنا الروحية — وفي أنهم لا يكادون يعانون من أى علة غير الجروح والشيخوخة ، يغرينا هذا بالاعتقاد بأننا في تتبعنا لتاريخ المجتمع المدني ، إنما نحن نروى تاريخ أمراض البشر^(١١٢) .

ويسلم روسو بأن هذه الحالة المثالية « الحالة الطبيعية ... ربما لم توجد قط ، وأغلب الظن أنها لن توجد أبدا^(١١٣) » . فهو لا يعرضها بوصفها حقيقة واقعة من حقائق التاريخ بل مقياسا للمقارنة . وهذا ما عناه بهذا الاقتراح المفزع « فلنبدا إذن بتنحية الحقائق جانباً لأنها لا تمس السؤال . والتحقيقات التي يصح أن نخوض فيها ... يجب ألا تعالج على أنها حقائق تاريخية ، بل حجج مشروطة وفرضية^(١١٤) » : على أننا قد نكون فكرة عن حياة الإنسان قبل قيام النظام الاجتماعي ، بملاحظة حال الدول الحديثة وسلوكها ، لأن « الدول اليوم مازلت في حالة طبيعية^(١١٥) » . فكل منها ذات سيادة فردية ، لا تعرف فعلاً أى قانون إلا قوانين المكر والقوة ، ويجوز أن نفرض أن الإنسان الذي سبق تكوين المجتمعات كان يحياً في حالة مشابهة من السيادة الفردية ، وعدم الأمان ، والفوضى

(*) « مالست أياه ، فإنه عندى الله والفضيلة » نيتشه^(١١١) الإنسان الذي يتأمل هو حيوان فاسد :

الجماعية ، والعنف بين الحين والحين . ولم يكن مثل روسو الأعلى هو هذه الحياة المتخيلة التي سبقت المجتمعات [لأن المجتمع قد يكون قديماً قدم الإنسان] . بل مرحلة لاحقة من التطور عاش فيها الناس في أسر أبوية النظام وجماعات قبلية ، ولم ينشئوا بعد نظام الملكية الخاصة « إن أقدم المجتمعات قاطبة ، والمجتمع الطبيعي الوحيد ، هو الأسرة »^(١١٦) .

ذلك كان العصر الذي بلغت فيه سعادة البشر أقصاها . حقاً أنه لم يدخل من عيوب ، وآلام ، وعقوبات . ولكنه خلا من القوانين . اللهم إلا السلطة الأبوية والنظام الأسرى ؛ « لقد كانت هذه الحالة في جملتها أفضل حالة يستطيع الإنسان ممارستها ، فلم يكن ليعدل عنها لولا أن أصابه خطب فادح »^(١١٧) . وهذا الخطب هو إقامة الملكية الفردية ، وما نجم عن ذلك من تفرقة اقتصادية ، وسياسية ، واجتماعية . ومعظم شرور الحياة الحديثة .

« أن أول رجل سور قطعة من الأرض ثم خطر له أن يقول « هذه ملكي » ووجد الناس من البساطة بحيث يصدقونه ؛ هذا الرجل كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المتمدن . ليت شعري كم من الجرائم ، والحروب ، والاضغتيالات ، كم من الفظائع والكوارث ، لم يكن في استطاعة أى إنسان أن ينقل البشرية منها باقتلاع الأوتاد المحددة للأرض أو ردم القناة المحيطة بها والصياح بإخوانه أن احذروا الاستماع إلى هذا النصاب ، إنكم إن نسيتم أن ثمرات الأرض ملك لنا جميعاً ، وأن الأرض ذاتها ليست ملكاً لأحد ، كان في ذلك هلاككم »^(١١٨) .

ومن هذا الأغتصاب الذي سمح به الناس انبعثت لعنات الحضارة : كالانقسامات الطبيعية ، والعبودية ، ورق الأرض ، والحسد ، والسرقه ، والحرب ، والظلم القانوني ، والفساد السياسى ، والغش التجارى ، والاختراعات ، والعلم والأدب ، والفن ، و « التقدم » ... وبكلمة واحدة ، الانحطاط . فلحماية الملكية الخاصة نظمت القوة ثم أصبحت هى الدولة ، ولتيسير الحكم طور القانون لتعويد الضعفاء الإذعان للاقوياء

بأقل قدر من الإكراه والتكلفة^(١١٩) . وهكذا نشأ هذا الوضع الذى نرى فيه « القلة المميزة تكتظ بالكماليات ، على حين تفتقر الجماهير الجائعة إلى أبسط ضروريات الحياة^(١٢٠) ». يضاف إلى هذه المظالم الأساسية طائفة أخرى متفرعة عنها « كالوسائل المخزية التى يمارسها الناس أحياناً لمنع ولادة البشر ، والأجهاض ، وقتل الأطفال ، وخصى الذكور ، والانحرافات الجنسية ، وترك الكثيرين من الأطفال الذين يقعون فريسة لإملاق أبويهم فى العراء أو قتلهم^(١٢١) ». هذه الكوارث كلها مفسدة مضعفة ، والحيوانات لا تعرفها ؛ وهى تجعل « الحضارة » سرطاناً ينهش جسد البشرية . وعلى نقيض هذا الفساد والانحراف المتعدد الأشكال ، نجد حياة المتوحشين صحيحة ، سليمة ، رحيمة . أينبغى أن نعود إذن إلى الهمجية ؟ « يجب أن تلغى المجتمعات إطلاقاً ؟ وتبطل عبارة « ملكى » و « ملكك » ، ونعود إلى الغابة لنحيا بين السباع ؟ » لم يعد هذا فى وسعنا ، فسم الحضارة يسرى فى دمائنا ، ولن ننزعه بالهروب إلى الغابات ، والقضاء على الملكية الخاصة ، والحكومة ، والقانون ، معناه الزج بالناس فى فوضى هى شر من الحضارة . « لن نستطيع الإنسان العودة أبداً إلى زمان البراءة والمساواة متى تركه^(١٢٢) ». وقد تبرر الثورة ، لأن القوة قد تطيح عدلاً بما إقامته القوة وساندته^(١٢٣) ، ولكن الثورة ليست مستحبة الآن . وخير ما نستطيعه هو أن ندرس الأناجيل من جديد ، ونحاول تطهير دوافعنا الشريرة بممارسة أخلاق المسيحية^(١٢٤) . وفى استطاعتنا أن نجعل من العطف الفطرى على أخواننا البشر أساساً للأخلاق والنظام الاجتماعى . ونستطيع العزم على أن نحيا حياة أقل تعقيداً ، نقنع فيها بالضروريات ، ونحتقر أسباب البذخ والترف ، ونجتنب سباق « التقدم » وحماه . نستطيع أن ننبد ما فى الحضارة من ضروب الزيف ، والنفاق ، والفساد ، واحداً بعد الآخر ، ونعيد تشكيل أنفسنا على الأمانة والطبيعية ، والاخلاص . نستطيع أن نترك ضوضاء مدننا وصخبها ، وأحقادها ، وفسقها ، وجرائمها ، ونذهب لنعيش فى بساطة الريف ومسئوليات

الأسرة وقاعاتها . نستطيع أن نطلق دعاوى الفلسفة ومسالكتها المسدودة .
ونعود إلى إيمان ديني يشد أزرنا حين نواجه الألم والموت » .

ونحن نحس اليوم شيئاً من التكلف في هذا السخط البار بعد أن سمعنا هذا كله مائة مرة . فلسنا على ثقة من أن الشرور التي وصفها روسو تنجم عن الأنظمة الفاسدة أكثر مما تنجم عن طبيعة البشر . وعلى أية حال فالطبيعة البشرية هي التي صنعت الأنظمة . ويوم كتب جان . جاك «مقاله» الثاني كانت الأشادة بذلك « الهمجي اللطيف المعشر . المتدفق العاطفة » قد بلغت ذروتها . ففي ١٦٤٠ كان ولتر هاموند قد نشر كتاباً « يثبت أن أهل مدغشقر أسعد شعوب الأرض »^(١٢٥) . وبدأ أن القصص التي رواها اليسوعيون عن هنود هورون وإيروكوا مصداق للصورة التي رسمها الروائي ديفو لحادم روينصن كروزو اللطيف « فرايداي » . أما فولتير فكان يسخر عموماً من أسطورة الهمجي الشريف . ولكنه إستخدمها بمرح في قصته « الساذج » وداعبها ديدرو في قصته « تذييل لإرحلة بوجانفيل » ولكن هلفينيوس هزأ بأشادة روسو بالهمجي مثلاً أعلى^(١٢٦) ، وزعم دوكلو . رغم أنه كان صديقاً وفياً لجان — جاك — أن « الهمج هم الذين تستشري بينهم الجريمة ، وطفولة أمة ما ليست عصر براءتها »^(١٢٧) . ويمكن القول على الجملة أن المناخ الفكري كان مواتياً لنظرية روسو .

أما ضحايا مطاعن روسو فقد هادأوا ضمائرهم بالزعم بأن هذا المقال الثاني متكافئ كسابقه . ووصفته مدام دود فان صراحة بأنه دجال^(١٢٨) . وسخر الشكاك من إدعاءاته بسلامة عقيدته المسيحية . وبتفسيره الحرفي لسفر التكوين^(١٢٩) وبدأ جماعة الفلاسفة يرتابون فيه لأنه يقاب نخططهم الرامية إلى إستمالة الحكومة إلى أفكارهم في الإصلاح الاجتماعي ، ولم يجذبوا إستثارة كراهيات الفقراء . وسلموا بحقيقة الاستغلال ، ولكنهم لم يروا أى مبدأ بناء في أحلال الغوغاء محل القضاة . أما الحكومة فلم تحتج على إتهامات روسو . والراجع أن القصر لم ير في المقال إلا تديرياً على الخطابة . وكان روسو فخور ببلاغته . فأرسل نسخة من المقال إلى فولتير . وترقب

فى شوق كلمة ثناء منه . وجواب فولتير درة من درر الأدب والحكمة وآداب السلوك الفرنسية . قال :

« تلقيت ياسيدى كتابك الجديد الذى يهاجم النوع الإنسانى . وأنى أشكرك عليه . وأنتك لتسر الناس الذين تخبرهم بحقائقهم ، ولكنك لن تقوم بذلك أعوجاجهم . إنك ترسم بألوان صادقة جداً فظائع المجتمع الإنسانى ، . . . وأن احداً لم يبذل قط مثل هذا الذكاء الكثير ليقنع الناس بأن يكونوا وحوشاً . والمرء حين يقرأ كتابك تتملكه الرغبة فى أن يمشى على أربع [marcher à quatre pattes] ولكن بما أنى فقدت تلك العادة منذ أكثر من ستين عاماً ، فأنى لسوء الحظ أشعر أنه يستحيل على استئنافها . . . »

« وإنى متفق معك على أن الآداب والعلوم كانت أحياناً علة الكثير من الشرور . . . [ولكنى] إقرر أنه لاشيرون ، ولا قارو ، ولا لوكريتيوس ، ولا فرجيل ، ولا هوراس ، كان لهم أقل نصيب فى تحريمات ومصادرات ماريوس ، وصلا ، وانطونيوس ، وليبدوس ، وأوكتافيوس . . . وعليك أن تعترف بأن بترارك وبوكاشيو لم يكونا السبب فيما عانته إيطاليا من متاعب داخلية ، وأن مزاح مارو لم يكن السبب فى مذبحه القديس برتولومى ، وأن مسرحية كورني « السيد » لم تثر حروب الفروند . إن الجرائم الكبرى قد إقترفها رجال مشهورون ولكنهم جهلة . والذى جعل هذه الدنيا ، وسوف يجعلها على الدوام . واديا للدموع هو جشع الناس الذى لا يشبع وغرورهم الذى لا يفتر . . أن الأدب يغذى الروح ، ويقومها ، ويعزىها . أنه يخلق مجدك فى ذات الوقت الذى تهاجمه فيه . . . »

« لقد انبأنى السد شابوى أن صحتك سيئة للغاية . فعليك أن تحضر وتستردها فى جو وطنك ، وتستمتع بالحرية . وتشرب معى لبن أبقارنا ، وتعيش على أعشابنا . وأنى ياسيدى بكل ، الفلسفة وكل التقدير المشرب بالمحبة ، نخادمك المتواضع جداً ، المطيع جداً (١٣١) . »

ورد روسو التحية بمثلها ، ووعده بأن يزور فيللا المباهج عند عودته إلى سويسرة^(١٣١) . ولكن حز في نفسه كثيراً ذلك الاستقبال الذي استقبل به مقاله في جنيف التي أهداها أياه بمثل هذا المديح السار . والظاهر أن الأوليغاركية الصغيرة المحكمة التي تسلطت على الجمهورية أوجعتها بعض تعليقات ذلك المقال اللاذعة . ولم تسخ تنديد روسو الشامل بالملكية ، والحكومة ، والقانون « لم أحس أن جنيفياً واحداً سر بما حواه المقال من حماسة قلبية^(١٣٢) . وعليه فقد قرر أن الوقت لم يحن بعد لعودته إلى جنيف .

٨ - المحافظ

شهد عام ١٧٥٥ ، الذي نشر فيه المقال الثاني ، ظهور مقال طويل بقلم روسو في المجلد الخامس من الموسوعة عنوانه ، مقال في الاقتصاد السياسي . وهو جدير بالملاحظة لأنه يخالف المقالين السابقين عليه في بعض تفاصيله الهامة . ففي هذا المقال نرى الكاتب يجمل المجتمع ، والحكومة ، والقانون ، باعتبارها نتائج طبيعية لفطرة الإنسان وحاجاته ، ويصف الملكية الخاصة بأنها عطية اجتماعية وحق أساسي . « من المؤكد أن حق الملكية أقدم حقوق المواطنة ، بل أنه من بعض الوجوه أهم من الحرية ذاتها . فالملكية هي الأساس الصحيح للمجتمع المدني ، والمضمان الحقيقي لتمهيدات المواطنين^(١٣٣) بمعنى أن الناس لن يعمروا فوق ما تتطلب أبسط حاجاتهم ما لم يحتفظوا بالنتائج الفائض لأنفسهم ، ليستهلكوه أو ينقلوه لغيرهم كما يشاءون . ويوافق روسو الآن على أن يورث الآباء ثروتهم لأبنائهم . ويقبل في اغتباط ما يتمخض عنه هذا من انقسامات طبقية . « ما من شيء أضر بالفضيلة وبالجمهورية من انتقال المراتب والثروات باستمرار بين المواطنين : ومثل هذه التغيرات هي الدليل على وجود مشات من ضروب الحلل والاضطراب ، وهي مصدرها في الوقت نفسه ، ومن شأنها أن تقلب كل شيء رأساً على عقب وتفسده^(١٣٤) .

ولكنه يواصل التنديد بالظلم الاجتماعي وبما في القانون من محاباة طبقية . فكما أن من واجب الدولة أن تحمي الملكية الخاصة ووراثتها القانونية ، كذلك

ينبغي أن يسهم أعضاء المجتمع ببعض ثروتهم لإعالة الدولة . وينبغي أن تفرض ضريبة صارمة على جميع الأشخاص بنسبة تصاعدية مع ثروتهم و « فائض ممتلكاتهم »^(١٣٥) ، وألا تفرض ضريبة على الضروريات ، وأن تفرض ضريبة مرتفعة على الكماليات ، وينبغي أن تمول الدولة نظاماً قومياً للتعليم . « أن الأطفال إذا نشئوا معاً (في مدارس قومية) في حضن المساواة وإذا أشربوا قوانين الدولة ومبادئ الإدارة العامة . . فلن نشك في أنهم سيحبون بعضهم بعضاً كما يفعل الإخوة . ليصبحوا في الوقت المناسب مدافعين وآباء الوطن الذي كانوا أبناؤه »^(١٣٦) . والوطنية خير من العالمية أو التظاهر الهزيل بالعطف العالمي^(١٣٧) . »

وكما طغت النزعة الفردية على المقالين الأولين ، طغت النزعة الاجتماعية على مقال الاقتصاد السياسي . وهنا يصرح روسو لأول مرة بعقيدته الغربية وهي أن في كل مجتمع « إرادة عامة » فوق المجموع العسدي لما يحبه الأفراد الذين يؤلفونه ومايكروهون . فالمجتمع ، في فلسفة روسو المقطورة ، كائن اجتماعي له روحه الخاصة ؛

« أن الدولة هي أيضاً كائن معنوي ، يملك الإرادة ، وهذه الإرادة العامة التي تنحو دائماً إلى صيانة ورفاهية الدولة كلها وكل جزء فيها ، هي مصدر القوانين ، وهي التي تشكل لجميع أعضاء الدولة ، في علاقاتهم بعضهم ببعض القاعدة التي تفرق بين العدل والظلم »^(١٣٨) .

وحول هذا المفهوم يقيم روسو الأخلاق والسياسة التي ستغلب منذ الآن على آرائه في الشئون العامة . فنرى الثائر الذي اعتبر الفضيلة تعبير الإنسان الحر الطبيعي يعرفها الآن بأنها « ليست سوى مطابقة الإرادات الفردية للإرادة العامة »^(١٣٩) . ونرى الرجل الذي كان ينظر إلى القانون مؤخراً جداً على أنه إثم من آثام الحضارة ، وأنه أداة مريخة لفرض النظام الطبع على الجماهير المستغلة ، يصرح الآن بأن القانون وحده هو الذي يدين له الناس بالعدل والحرية ، وهذا الجهاز النافع من أجهزة الإرادة الجماعية هو الذي يرسى ،

في الحق المدني ، المساواة الطبيعية بين البشر ، أنه الصورت السماوي الذي يملئ
على كل مواطن مبادئ العقل العام» (١٤٠) .

ولعل محرري الموسوعة المطاردين كانوا قد نهوا روسو إلى التخفيف
في هذا المقال من هجومه على الحضارة . وسنجد بعد سبع سنوات ، في كتابه
«العقد الاجتماعي» يدافع عن الجماعة ضد الفرد ، ويقيم فلسفته السياسية على
فكرة الإرادة العامة المقدسة السامية . على أنه لم يزل خلال ذلك فردياً وثائراً
يبغض باريس ، ويؤكد ذاته ضد أصدقائه ، ويصنع كل يوم أعداء جديداً .

٩ — الهروب من باريس ١٧٥٦

كان أصدقائه الحميمون الآن هم جريم ، وديدرو ، ومدام دينيه .
أما جريم فقد ولد في راتزبون عام ١٧٢٣ ، فكان بذلك يصغر روسو بأحد
عشر عاماً . وقد تعلم في ليبزج في العقد الأخير من حياة باخ ، وتلقى عن
يوهان أوجست إرنشتي أساساً مكيناً في لغتي اليونان والرومان وآدابهما .
فلما وفد على باريس في ١٧٤٩ تعلم الفرنسية بما عرف عن الألمان من اتقان
ودقة ، وما لبث أن وافى مجلة المركز بمقالاته . وفي ١٧٥٠ أصبح السكرتير
الخاص للكونت فون فريزن . وأغراه حبه للموسيقى بالتعلق بروسو ، كما
رماه جوع أكثر عمقاً تحت قدمي الأنسة فل المغنية بالأوبرا ، فلما أثرت عليه
المسبو كاهوزاك ، يقول روسو أن جريم :

«حز هذا في نفسه حتى أصبحت أمارات خطبه مأساوية — فكان ينفق الأيام
والليالي في تراخ وتبلى . ويرقد وعيناه مفتوحتان . لا يتكلم ، ولا يأكل ،
ولا يتحرك . . . وكنت والايه رينال نرعاه ، فالايه — وكان أشد مني
وأصبح — يسهر عليه ليلاً ، وأنا أرعاه نهاراً ، فلا نغيب عنه معاً في وقت
واحد» (١٤١) .

واستدعى فون فريزن طبيباً يعوده ، فأبى أن يصف له دواء غير الزمن .
وأخيراً ذات صباح ، قام جريم ، وارتدى ثيابه ، واستأنف نظام حياته
العادي ، دون أن يذكر يومها أو بعدها . . هذا التبلى الشاذ (١٤٢) .

وقدم روسو جريم الى ديدرو ، وراح ثلاثتهم يحلمون بالذهاب معاً الى إيطاليا . واستوعب جريم في نهم سيل الأفكار المتدفق من معين عقل ديدرو وتعلم لغة « الفلاسفة » الحالية من التوقير ؛ وألف كتاباً لا أدرياً « في التعليم الدينى للأطفال » وأشار على فون فريزن بأن يتخذ ثلاث خليلات في وقت واحد « تذكراً للثالوث الأقدس » (١٤٣) وأفلقت روسو تلك الألفة النامية بين جريم ، الذى سيصفه سانت بوف بأنه « أكثر الألمان فرنسية » ، وبين ديدرو « أكثر الفرنسيين ألمانية » (١٤٤) وقال روسو شاكياً « إنك تهملنى يا جريم ، وأنا أغفر لك هذا » وأخذه جريم عند كلمته . فقال لى إننى مصيب . . . ثم حطم كل قيد ، فلم أعد أراه إلا فى صحبة أصدقائنا المشتركين (١٤٥) .

وفى سنة ١٧٤٧ كان الابيه رينال قد بدأ يرسل للمكتتبين الفرنسيين والأجانب خطاب أتباء نصف شهرى سماه « الأنباء الأدبية » يورد فيه الوقائع فى دنيا الأدب والعلوم والفلسفة والفنون الفرنسية — وفى ١٧٥٣ عهد بالمشروع الى جريم الذى — واصله بمعونة من ديدرو وآخرين حتى ١٧٩٠ . وأثناء اضطلاع جريم بالمجلة كان من بين من وافوها بمقالاتهم أفراد بارزون . كملكة السويد لويزا أوريلكا وملك بولنده السابق ستانسلام لسكيزنسكى ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا ، وأميرة ساكس — جوتا ، وأمير وأميرة هيسى — دارمشتات ، ودوقة ساكس — كوبورج ودوق تسكانيا الكبير ، والدوق كارل أوجست أمير ساكس — فيمار . أما فردريك الأكبر فقد احجم حيناً عن المشاركة فيها لكثرة عدد من يبادلم الرسائل فى فرنسا وأخيراً وافق على أن يتسلم المجلة ، ولكنه لم يدفع لها مالا قط . وقد أذاع جريم العدد الأول من المجلة عقب اضطلاعه بأصدارها (مايو ١٧٥٣) :

فى الصفحات المطلوبة منا لن نضيع وقتاً على النشرات التى تفرق باريس كل يوم . . . بل سنحاول أن نعطى تقريراً دقيقاً ، وتحليلاً منطقياً (critique raisonnée) للكتب التى تستحق أن يهتم بها الجمهور ،

وستكون الدراما جزءاً هاماً من تقريرنا لأنها فرع رائع من فروع الأدب الفرنسي وعلى العموم لن نغفل شيئاً جديراً بفضول غيرنا من الشعوب (١٤٦).

وهذه الرسائل الأدبية المشهورة هي الآن سجل رئيسي نفيس لتاريخ فرنسا الفكرى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وقد استطاع جريم أن يكون صريحاً فى مقالاته النقدية ، لأنها لم تكن معروفة للجمهور الفرنسى أو للمؤلف الذى تناوله . وكان يتوخى الإنصاف عادة ، إلا مع روسو فى فترة لاحقة . وقد أصدر الكثير من الأحكام الصائبة ، ولكنه أساء الحكم على « كانديد » فزعم أنها لا تثبت — للنقد الجاد ، على أن هذا رأى لم يوفق إليه تحامل على فولتير ، فقد وصفه بأنه : « أعظم الرجال فى أوربا جاذبية وأكثرهم لطفاً ، وأبعدهم صيتاً » (١٤٧).

ورد فولتير التحية بطريقته الشيطانية فقال : « ما الذى يترأوى لهذا الروهيمى أن يزننا ذكاء وفطنة ؟ » (١٤٨) ورسائل جريم هذه هي التى أذاعت فى أرجاء أوربا أفكار التنوير الفرنسى أكثر من أى كتابات أخرى باستثناء مؤلفات فولتير . ومع ذلك خامرتة الشكوك فى جماعة الفلاسفة وفى إيمانهم بالتقدم ، فقال : « إنما العالم مركب من : شرور لا يحاول إصلاحها غير إنسان معتوه » (١٤٩) وفى ١٧٥٧ كتب يقول :

« يبدو أن القرن الثامن عشر فاق كل القرون فى المداخل التى كالمها لنفسه ولو تمادى فى هذا قليلاً لأقنع خيرة المفكرين أنفسهم بأن دولة الفلسفة ، الهادئة المسالمة ، أوشكت أن تسود بعد عواصف الجنون الطويلة ، وأن ترسى إلى الأبد سلام البشر وهدوهم وسعادتهم ولكن الفيلسوف الصادق ، لسوء الحظ ، لديه أفكار أقل تغزية ولكنها أصبح وأدق وهيئات أن أصدق أننا مقربون من عصر العقل ، وأكاد اعتقد أن أوربا تهددها ثورة مدمرة » (١٥٠) .

ونلمح هنا أثراً من الكبرياء والغرور اللذين كانا يغيظان إصديقاء جريم أحياناً . فلقد كان هذا المتفرنس أكثر من الفرنسيين ، ينفق الساعات فى

التزين ، وذو المساحيق على وجهه وشعره ، والأسراف في التعطر إسرافاً لقباً من أجله بدب المسك^(١٥١) . وهو يبدو في رسائله ينثر التحيات بمنة ويسرة بيد تتوقع الرد عليها . وقد اشترط فردريك للأشتراك في الرسائل أن « يعفني جريم من تحياته »^(١٥٢) . ومثل هذا التلق كان بالطبع جزءاً من أسلوب الرسائل في ظل « النظام القديم » .

واسترعى جريم أنباه باريس ، وهو الوجل البارد المتزن عادة ، بإشرافه على الموت هيأها بالآنسة فل ، وبدخوله في مبارزة من أجل مدام ديبنيه . وكانت هذه الأخيرة — لويز — فلورانس تارديوديسكلافيل — ابنه بارون من فالنسين مات في خدمة الملك عام ١٧٣٧ . وبعد ثمانية أعوام حين بلغت لويز العشرين ، تزوجت من دنيس — جوزف لاليف ديبنيه وكان ابن جاب غنى . وذهبا للعيش في قصر ريفي جميل يدعى الشاتو دلاشيفريت ، على تسعة أميال من باريس ، بقرب غابة مونمورنسى . وفاضت حياتها سعادة ، ففساءلت « أيسطيع قلبي أن يحتمل هذه السعادة ؟ وكتبت إلى أبنه عم لها تقول « كان يعزف على البيان القيثاري ، وأنا جالسة على مسند كرسية ويسراى على كتفه ، ومناى تقلب الأوراق ، فلم يفته قط أن يقبلها في كل مرة تمر أمام شفتيه »^(١٥٣) .

ولم تكن جميلة ، بل صغيرة الجسم أنيقة على نحو ساحر ، بديعة التكوين très bien faite (كما تنبئنا)^(١٥٤) ، وستفتن عيناها السودا وان النجلاوان فولتير بعد حين . ولكن « الأحساس دائماً بنفس الشيء يصبح بعد قليل » تماماً كالأحساس بلا شيء^(١٥٥) ، فلم يمض غير عام حتى كف ديبنيه عن ملاحظة هاتين العينين . لقد كان قبل الزواج فاسقا عربيداً فعاد الآن كما كان ، يسرف في الشراب ، ويسرف في القمار ، وينفق المال الطائل على الأختين فريير ، اللتين أسكنهما كوخاً على مقربة من لاشيفريت وولدت له زوجته خلال ذلك طفلين . وفي ١٧٤٨ عاد من رحلة في الإقليم ، وضاجع امرأته ، فنقل إليها عدوى الزهري . وحصلت على انفصال شرعى عن زوجها بعد أن أعتلت صحتها وتخطمت

روحها . ووافق على تسوية سخية ؛ وورثت هي ثروة عمها ، فاحتفظت بلاشيفريت ، وحاولت أن تنسى تعاسها في الحذب على طفلها ورعاية صديقاتها . فلما أصيبت احداهن — وهي مدام دجوللى — بالجدرى إصابتها حمية ذهب لويز لتمرصها ، ومكثت معها إلى النهاية ، معرضة نفسها لعدوى قد تودى بها أو تشوهها مدى الحياة .

وأجمعت صديقاتها على أنه يحسن بها أن تتخذ عشيقا . وجاء عشيق (١٧٤٦) وهو دوبان دفرانكوى ، الرجل الذى وظف روسو عنده . وقد بدأ بالموسيقى ، وانتهى بالزهرى ، ولم يلبث أن شفى من هذا الداء فى حين ظلت هى تعاني منه^(١٥٦) . وانضم إلى زوجها فى إقتسام الآنتين دفيرير . وقال لها دوكلو فى صراحة جافية « أن فرانكوى وزوجك يقتسمان الأختين فيما بينهما^(١٥٧) » . فأصيبت بحمى وهذيان داما ثلاثين ساعة . وحاول دوكلو الحلول محل دوبان ، ولكنها طردته . ثم كانت مأساة أخرى حين أعطتها مدام دجوللى وهى على فراش الموت حزمة أوراق تفصح غرامياتها وألحت عليها فى أن تحرقها ، ففعلت . واتهمها المسيو دجوللى بأنها أحرقت عن عمد شهادات مديونيتها هى له . وأنكرت التهمة ولكن القرائن كانت ضدها ، إذ كان معروفا أنها كانت تعين زوجها بالمال رغم انفصالها عنه .

فى هذه الأزمة دخل جريم الدراما ، وكان روسو قد قدمه إلى لويز فى ١٧٥١ ، وكثيراً ما إشتراك ثلاثتهم فى عزف الموسيقى أو الغناء معا . وذات مساء فى حفلة أقامها الكونت فون فريزن أعرب أحد الضيوف عن اعتقاده بأن مدام ديبييه مذنبه . . ودافع عنها جريم ، واحتد النقاش إلى حد المساس بالشرف ، وتبارز صاحب الاتهام والمدافع ، فجرح جريم جرحا طفيفا . وبعد حين وجدت الوثائق المفقودة ، وبرئت ساحة السيدة ، فشكرت جريم باعتباره « فارسها الهمام » ونما تقدير الواحد منهما لصاحبه فاكتمل حباً من أبقى وأثبت ما شهدته ذلك العصر القلب : وحين أتلّف الحزن همّة البارون دولباخ لموت زوجته ، وسافر جريم

« العناية به في الريف ، سألته لويز » ولكن من سيكون فارسي ياسيدي إن هاجمتي أحد في غيابك ؟ فأجاب جريم « هو ما كان من قبل - حياتك الماضية^(١٥٨) » . ولم يكن الجواب قاطعاً مانعاً ، ولكنه فاق حدود الثناء .

وكان روسو قد التقى بمدام ديبييه في ١٧٤٨ في بيت مدام دويان . ودعته إلى لاشيفريت . وفي « مذكراتها » وصف له :

« أنه يقدم التحيات والمحاملات ، ولكنه ليس مؤدباً ، أو على الأقل يعوزه مظهر التأدب . والظاهر أنه جاهل بعبادات المجتمع ، ولكن من الواضح أنه مفرط الذكاء . وله بشرة سمراء ، وعينان بيضاوان تتوهجان وتضيفان الحيوية على قسماته ويقال إنه عليل ، ويتجلد لعذاب يحرص على كتمانها وهذا في ظني هو الذي يفضي عليه أحياناً ، مظهر الأكتئاب^(١٥٩) » .

أما الصورة التي رسمها لها فلم تكن شديدة التألق :

« لم يكن حديثها الخاص ممتعاً ، وأن لم يعوزه اللطف في حضرة الجنسيتين وأسعدني أن أبدى لها بعض المحاملات ، وقبلتها قبلات أخوية صغيرة ، لم تبد أكثر شهوانية منها هي لقد كانت غاية في النحول ، والشحوب ، ولها صدر كظاهر يدها . وكان هذا العيب وحده كافياً للتخفيف من أحر رغباتي^(١٦٠) » .

وظل سبع سنوات يلتقي الترحيب في بيت مدام ديبييه . فلما رأت مبلغ ضيقه في باريس فكرت في سبل تقديم المعونة له ، ولكنها كانت تعلم أنه سرفض المال . وبينما كانا ذات يوم يسيران في حديثها خلف لاشيفريت ، أرته كوخا يسمى « الارميتاج (الصومعة) » كان من قبل ملكاً لزوجها . وكان مهجوراً متهدماً ، ولكن موقعه على حافة غابة مونمورنسي حمل روسو على أن يقول في انفعال : « يا له من مسكن مهيج ياسيديتي ! كأن هذا الملجأ أعد لي خصيصاً »^(١٦١) . ولم تجب السيدة ، ولكن حين عاودا السير إلى الكوخ في سبتمبر ١٧٥٥ ، أدهش روسو أن يجده قد رمم ، وأثبت

حجراته الست ، ونظفت الأرض المحيطة به ورتبت : وينقل عنها أنها قالت « يا عزيزى ، إليك ملجأك ، فأنت الذى اخترته ، أن الصداقة تقدمه لك . وأرجو أن يزيل هذا فكرتك القاسية ، فكرة الانفصال عنى » وكانت تعلم أنه فكر من قبل فى أن يقيم فى سويسرة ، وأعلمها لم تعرف ما طرأ من فتور على حمسه لجنيف . و « فاضت دموعى على اليد الكريمة » يد صديقه ، ولكنه تردد فى قبول عرضها . فأغررت تريز ومدام لفاسير بقبول خطتها ، و « أخيراً تغلبت على جميع قراراتى » .

وفى أحد القيامة ، ١٧٥٦ ، ولكى تجمل الهدية باللياقة ، جاءت باريس فى مركبتها ، وأخذت « دها » كما كانت تدعوه ، هو وخليلته وحماته ، إلى الارميتاج . ولم يلبذ تريز فراقها لباريس ، أما روسو ، فما إن استنشق هواء الحلاء حتى شعر بأنه أسعد منه فى أى وقت منذ أيام فردوسه الرينى مع مدام دفاران . « فى ٩ إبريل ١٧٥٦ بدأت أحيا » (١٦٢) ، ولكن جريم أفسد الفرحة بتحذير لمدام دينيه :

« إنك تضرين روسو ضرراً بليغاً بإعطائه الارميتاج ، ولكنك تضرين نفسك ضرراً أبلغ . فستكمل العزلة مهمة تسويد خياله ، وسيبدو كل أصدقائه فى عينيه ظلمة جاحدين ، وأنت أولهم ، إن رفضت ولو مرة واحدة أن تمتثل لأوامره » (١٦٣) .

وانطلق بعد ذلك جريم ، الذى أصبح الآن مكتريراً للمرشال دستريه ، ليلعب دوره فى الحرب التى سترسم خريطة العالم من جديد .



الفصل الثانى

حرب السنين السبع

١٧٥٦ — ١٧٦٣

١ — كيف تشعل نار الحرب

حين وافت سنة ١٧٥٦ كانت أوربا قد عرفت ثمانية أعوام من السلم . غير أن حرب الوراثة النمساوية لم تحسم شيئا . فقد تركت النمسا قلقة فى بوهيميا وإيطاليا ، وبروسيا قلقة فى سيليزيا ، وبريطانيا قلقة فى هانوفر ، وفرنسا قلقة فى الهند ، وأمريكا ، وعلى الرين . ولم تحقق معاهدة إكس لا شابل (١٧٤٨) تسوية للأراضى يمكن أن تقارن فى ثباتها بالتسوية التى حققتها معاهدة وستفاليا قبل قرن من الزمان . وتزعزع توازن القوى القديم نتيجة لنمو الجيش البروسى والبحرية البريطانية ؛ فقد ينطلق ذلك الجيش ليلتهم أقاليم جديدة ، ولا تحتاج تلك البحرية إلا إلى الرقت لتقتنص مستعمرات فرنسا : وهولندة ، وأسبانيا . وتغذت الروح القومية الصاعدة فى إنجلترا على أرباح التجارة وفرصها ، وفى بروسيا على الحرب الظافرة ، وفى فرنسا على تفرق ثقافى يشعر شعورا غير مريح بالاضمحلال العسكرى . وكان الصراع بين الكاثوليكية والبروتستنتية قد انتهى إلى مأزق ، فترقب الطرفان تحولا فى الحظ ليجددا حرب الثلاثين . طمعا فى الاستيلاء على الروح الأوربية .

وكانت النمسا بادئة بالاستعداد لرمية جديدة للفرد البشرى . ذلك أن ماريا تريزا ، التى لم تزل رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة الجميل رغم بلوغها التاسعة والثلاثين ، اجتمع لها كل كهرياء أجدادها المهابسروج ، وكل غضب المرأة المهانة ؛ فكيف تحيا بعد أن بترت سيليزيا من ملكها الموروث ، الملك الذى كفلت كل دول أوربا العظمى وحدة أراضيه ؟ كيف وهى المرأة التى سيثنى بعد حين ، حتى فردريك هذا الذى أذلها من قبل ، على

« بسالتها وكفايتها » ويمتدح الطريقة التي « فطنت بها هذه الحاكمة الأصغر سنا إلى سر الحكم وعدت الروح المسيطرة على مجلسها . . . حين بدا أن الأحداث تأتمر بها لتدمرها. ^(١) لقد جعلت من الصلح هدنة فقط بعد أن هزمت وسلمت سيليزيا ثمنا للسلام . ثم كرست نفسها للنهوض بالحكم : واصلاح جيوشها المحطمة ، واكتساب حلفاء أقوياء . فترددت على المعسكرات التي يتدرب فيها جيشها ؛ ولهذا الغرض سافرت إلى براغ في بوهيميا ، وإلى أولمütz في مورافيا ، وشجعت جنودها بالمكافآت والأوسمة ، وأكثر من ذلك بحضرتها ، حضرة الملكة والمرأة معا . ولم يكن هناك داع لأن يقسم قوادها بمن الولاء لها ، فالولاء في دمه وفروسيتهم ؛ وآية ذلك أن أمير ليشتنشتين أنفق ٢٠٠٠,٠٠٠ ايكو (١,٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) من ماله الخاص ليجهز لها سلاح المدفعية كاملا . وأنشأت قرب فيينا كلية حربية لصغار النبلاء ، وجلبت لها خيرة معلمى الهندسة ، والجغرافيا ، والتحصين والتاريخ . يقول فردريك « فى عهدنا بلغت العسكرية النمساوية درجة من الكمال لم يعرفها أسلافها قط ، وقامت امرأة بتنفيذ خطط جديرة برجل عظيم . » ^(٢)

وكانت الدبلوماسية هي الوجه الآخر لخطتها . فأرسلت مبعوثيها إلى كل بلد لتكتسب أصدقاء للنمسا وتثير العداء لفردريك . لاحظت قوة روسيا الصاعدة ، بعد أن نظمها بطرس الأكبر واطلعت بشؤونها الآن القيصرة اليزافيتا بتروفنا ؛ فعملت على أن تحصل تعليقات فردريك الساخرة على غراميات القيصرة إلى أذنيها . وكانت ماريا تريزا تتمنى لو جددت تحالفها مع إنجلترا ، ولكن ذلك التحالف كدره الصلح المنقصل الذي أبرمته إنجلترا مع بروسيا (١٧٤٥) والذي اكراه النمسا على التخلي عن سيليزيا . وكانت سياسة إنجلترا الخارجية تتجه الآن إلى حماية تجارتها في البحر البلطى من سطوة روسيا ، وإحكام قبضتها على هانوفر لتقيها أى خطر يهددها من بروسيا أو فرنسا . وقد اعتمدت على روسيا في تزويدها بما يلزم بحريتها من أخشاب ، واعتمدت على بحريتها في احراز النصر فى الحرب . ومن ثم وقعت إنجلترا فى ٣١ سبتمبر ١٧٥٥ معاهدة تعهدت فيها روسيا ،

نظير معونات مالية من إنجلترا ، بأن تحتفظ بجيش من ٥٥٠٠٠ مقاتل في ليفونيا ، وعلل الانجليز أنفسهم بأن هذا الجيش سيعوق فردريك عن أى مغامرات توسعية صوب الغرب .

ولكن كيف، تتصرف إنجلترا مع فرنسا ؟ لقد ظلت فرنسا عدوا لها مئات السنين ، وما أكثر ما أثارت فرنسا أو مولت الأعمال العدائية التي قامت بها أسكتلندة ضد إنجلترا ؛ وكم من مرة تأهبت لغزو الجزر البريطانية أو هددت بهذا الغزو . وقد أصبحت فرنسا الآن الدولة الوحيدة التي تتحدى بريطانيا في البحار أو المستعمرات ؛ فلو أن بريطانيا ألحقت بفرنسا هزيمة فاصلة لظفرت بمستعمراتها في أمريكا والهند ، ودمرت بحريتها أو شلت حركتها ، وعندها لن تكون الإمبراطورية البريطانية آمنة من الخطر فحسب ، بل سيبدأ غير منازع . كذلك كان وليم بت الأب يجادل البرلمان يوما بعد يوم ، بأبلغ ما سمع ذلك المحفل طوال عمره من خطب الخطباء ولكن أمكن أن تهزم فرنسا ؟ وقال بت ، أجل ، وذلك بحلف بين بروسيا وإنجلترا . وأليس خطر أكبر أن يسمح لروسيا بأن تزداد قوة على قوة ؟ وأجاب بت : لا ، فإن لروسيا جيشا عظيما سيساعد إنجلترا ، بناء على هذه الخطة ، على حماية هانوفر ، ولكن ليس لها بحرية ، ومن ثم لن تقوى على منافسة بريطانيا في البحر ، وبدا أن من الأحكم أن يسمح لروسيا البروستنتية بالحلول محل فرنسا الكاثوليكية ، أو النمسا الكاثوليكية ، قوة « غالبة في القارة » ، أن كان في هذا تمكينا لبريطانيا من « أن تسود البحار » وتستولى على المستعمرات . وأى انتصارات يحرزها فردريك في أوربا من شأنها أن تدعم قوة إنجلترا وراء البحار ، ومن هنا تفاخر بت بأنه سيكسب أمريكا والهند على ساحات القتال في القارة . فستقدم إنجلترا المال ، ويخوض فردريك معارك اليابس ، وتكسب إنجلترا نصف العالم . ووافق البرلمان ، وعرضت بريطانيا على بروسيا ميثاقا للدفاع المشترك .

واضطر فردريك لقبول هذه الخطة ، لأن تطور الأحداث حجب

بهاء انتصاراته . كان يعلم أن فرنسا تحاول التقرب من النمسا ، فلو أن فرنسا والنمسا ومعهما روسيا أيضاً ؛ وهو وضع أسوأ — اتحدت ضده لما استطاع أن يقاومها كلها ، وفي مأزق كهذا لن يقوى على نجدة غير إنجلترا . ولو أبرم الميثاق الذي عرضته عليه إنجلترا لاستطاع أن يطالبها بمنع روسيا من مهاجمته ولو كفت روسيا لجاز ثنى النمسا عن الحرب . وهكذا وقع فردريك في ١٦ يناير ١٧٥٦ معاهدة وستمنستر ، التي تعهدت فيها إنجلترا وبروسيا بمعارضة دخول الجيوش الأجنبية إلى ألمانيا ، وكان الخليفان يأملان أن تحمي هذه المادة الوحيدة بروسيا من روسيا ، وهانوفر من فرنسا .

وشعرت فرنسا ، والنمسا ، وروسيا جميعاً أن هذه المعاهدة خيانة من حليفتيهم . صحيح إنه لم يحدث لإنهاء رسمي للحلفين اللذين ربطا إنجلترا بالنمسا ، وفرنسا وبروسيا ، في حرب الوراثة النمساوية . وصعقت ماريا تريزا — كما قالت للسفير البريطاني — حين علمت أن أصدقاءها الانجليز أبرموا ميثاقاً مع « الخصم اللدود المقيم لشخصي ولأسرتي »^(٣) . وشكا لويس الخامس عشر من أن فردريك خدعه . ورد فردريك بأن المعاهدة دفاعية بحتة ويذبغي ألا تسيء إلى أى قوة لا تنوى الإساءة . أما مدام دبوبادور ، التي كانت تختار الوزراء الفرنسيين وتهيمن عليهم ، فقد تذكرت أن فردريك كان قد اتهمها بإيداع المبالغ الطائلة في المصارف البريطانية ، وسماها « الآنسة سمكة la demoiselle Poisson و Cotillon IV (الجولنة الرابعة — أى أربعة خليلات لويس الخامس عشر) . وأما لويس فقد تذكر أن فردريك سخر من أخلاق ملك فرنسا السوقية . ووقع هذا الخذلان لفرنسا على رأسها في وقت كانت فيه جيوشها مرهقة ، وخزائنها خاوية ، وبحريتها بادئة فقط بالإفاقة من الإهمال الذي لقيته في وزاره الكردينال فلورى المسالمة . ففي ١٧٥٦ كان لفرنسا خمس وأربعون بارجة ، وإنجلترا مائة وثلاثون بارجة^(٤) ، وكان تموين البحرية تعوقه الرشوة والسرقة ، ونظامها تفسده ترقية غير الأكفاء من ذوى الألقاب ترقية مثيرة للسخط كما يفسده

تعدد الهزائم . فالى من تتمجه فرنسا الآن حايفاً لها ؟ إلى روسيا ؟ ولكن إنجلترا سبقها إلى النمسا ؟ — ولكن في الحرب الأخيرة خرقت فرنسا تعهداتها بضمان ميراث مازيا تريزا ، وإنضمت إلى بروسيا في مهاجمتها ، وواصلت الهجوم عليها حتى بعد أن عقد فردريك الصلح معها . لقد كانت النمسا تحت حكم الهابسبورج ، وفرنسا تحت حكم البوربون ، عدوين قروناً عدة ، فكيف يمكن أن تصبحا صديقين هما وشعباهما بعد طول ما ألفا من كراهية متبادلة ؟

ومع ذلك كان هذا بالضبط « قلب الاحلاف » الذي إقترحته حكومة النمسا الآن على فرنسا . وقد ولدت هذه الخطة أول ما ولدت — على قدر ما تستطيع الآن تتبع تاريخها — في ذهن الكونت فنتزل أنطون فون كاونتز ، أقدر من أنجبته القسارة الأوروبية في القرن الثامن عشر من الدبلوماسيين وأثقبهم بصيرة وأشدهم إصراراً . وقد قدر لحرب السنين السبع أن تكون صراعاً في السلاح بين فردريك الأكبر والمارشال داوون ، وصراعاً في الدكاء بين كاونتز . بت . يقول فردريك « إن للأمر كاونتز أحكم رأس في أوربا^(٥) » .

كانت أسرة كاونتز قد طلبت إليه أن يعد نفسه للقسوسية لأنه الأبن الثاني ، أما هو فأصبح في دخيلة نفسه تلميذا لفولتير^(٦) . ولما كان أبوه سفيراً لدى الفاتيكان وحاكماً لمورافيا ، فقد ورث أبنه الدبلوماسية في دمه . وهكذا أصبح وهو في الحادية والثلاثين مبعوث النمسا في تورين . وكانت أول رسالة منه إلى حكومته مبنية منطقياً على ملاحظة للحقائق السياسية بلغت من الدقة مبلغاً حمل الكونت فون أولفلد على أن يقول لماريا تريزا وهو يعرضها : « هالك وزيرك الأول^(٧) » . وفي عامه السابع والثلاثين كان المفوض النمساوي في مؤتمر أكس لا شاييل . وهناك دافع عن مصالح ماريا تريزا بأصرار وبراعة جعلاً الإمبراطورة حتى في هزيمتها تشكر له خدماته وإخلاصه . ولما فاتحها في تاريخ مبكر (١٧٤٩) بخطة التحالف مع فرنسا ، تقبلت بذهن مفتوح فكرة معانقة العدو التقليدي لبيتها . لقد كانت

مصممة على هزيمة فردريك واستعادة سيليزيا ، ولكن كاونتز بين لها أن هذا محال بالتحالف مع إنجلترا التي ركزت قوتها في البحار ، إنما هو يتطلب التحالف مع فرنسا وروسيا اللتين تركزان قوتيهما في اليابس . وبين شقي الرحى هذين — فرنسا وروسيا من ناحية ، والنمسا من ناحية — يمكن أن يسحق فردريك . وأمرت الإمبراطورة كاونتز بأن يسعى لتحقيق هذا الهدف المنشود .

وفي ١٧٥١ بعث سفيراً إلى باريس . وأدهش جماعة النبلاء بهاء مقدمه الرسمي على المدينة ، وأبهج عامة الشعب بأحسناته ، ورفه عن الصالونات بثيابه الفاخرة ، وتنوع عطوره وأسباب تجمله ، ونحصل شعره المبذرة بعناية^(٨) . قال عنه كارليل « رجل شديد الخيلاء ، غريب الأطوار ، وقع بعض الشيء »^(٩) . ولكنه وقع في نفس الملك ، وخليته ، ووزرائهما ؛ موقعا طيباً بفضل اطلاعه على بواطن الأمور وحسن تقديره لشئون السياسة . وراح يعد أذهانهم بالتدريج للتحالف مع النمسا . فصور لهم إمكان اقناع روسيا ، وبولندا ، وسكسونيا ، بالإسهام في تأديب فردريك . وتساءل ما الذي جنته فرنسا من وراء تحالفها مع بروسيا — اللهم إلا تضخم قوة دولة برية تتحدى زعامة فرنسا على القارة ، ثم ألم يحنت فردريك المرة بعد المرة بعهدده حين وجد الحنت في صالحه ؟

وكان كاويتز يحرز تقدماً طيباً حين استدعته مارياتريزاً إلى فيينا ليكون مستشاراً لها ، وحولت له كامل الساطة في الشؤون الداخلية والخارجية (١٧٥٣) وعارض النبلاء الشيوخ في بلاط فيينا خطته طويلاً ، فشرحها ودافع عنها في صير ، وأيدته الإمبراطورة ؛ وفي ٢١ أغسطس ١٧٥٥ نال اقتراح التحالف مع فرنسا الموافقة الرسمية للوزارة الإمبراطورية . وصدرت التعليمات للكونت جيورج فون شتارهمبرج ، الذي خلف كاونتز سفيراً في باريس ، بأن يروج للخطة الكبرى في كل فرصة تتاح له لدى لويس الخامس عشر ومدام ديومبادور . وأرسل كاونتز خطاباً كلسه إطرأ إلى « التحليلة الرسمية » (٣٠ أغسطس ١٧٥٥) أرفق به مذكرة رجاها أن

تسلمها للملك سرّاً . ففعلت . وكانت المذكورة من هاريا تيزيزا ، وهذا نصها .

« إننى بصفتى إمبراطورة وملكة ، أعد بالأبد شئ على الإطلاق من كل ما سيعرضه الكونت شتارهمبرج باسمى على الملك المسيحى جداً ، وبأن يحتفظ دائماً بأعمق السرية فى هذا الأمر ؛ سواء نجحت المفاوضات أو فشلت . ومن المفهوم بالطبع أن الملك سيعطى إقراراً ووعداً مماثلين .
فيينا ، ٢١ يونيو ١٧٥٥^(١٠) .

وعين لويس الأبيه دبرنيس والمركيزة دجومبادور . للاجتماع سرا بشتارهمبرج فى جناحها « بابيول » . هناك اقترح السفير باسم الإمبراطورة أن تتخلى فرنسا عن تحالفها مع بروسيا ، وأن تتعهد بأن تقدم للنمسا على الأقل معونة مالية فى حالة نشوب الحرب . وقال إن فردريك حليف عديم الفائدة ، لا يركن إليه . ولمح بأن فردريك ، حتى فى تلك اللحظة ، مشغول باتصالات سرية مع الوزارة البريطانية . وتعد النمسا من جانبها بأن تمتنع عن أى عمل عدائى ضد فرنسا إذا دخلت فرنسا فى حرب مع إنجلترا ، وفى حالة نشوب هذه الحرب تسمح النمسا لفرنسا باحتلال أوستند ونيويورك ، وقد تسمح نهائياً بأن تكون الأراضى المنخفضة النمساوية من نصيب فرنسا .

ولاحظ لويس أن هذا الميثاق سيورطه فى حرب نمساوية ضد بروسيا ، ولكنه لا يلزم النمسا بأن تعين فرنسا على إنجلترا . وكان له عذر فى أن يخشى جيش فردريك أكثر من الجيش النمساوى — الذى طالما هزم ، والذي كانت قيادته فى الحرب الأخيرة غاية فى السوء . فأمر لويس أن يرد بأن فرنسا لن تغير تحالفها مع بروسيا ما لم تقدم لها البراهين على اتصالات فردريك بإنجلترا . ولم يستطع كاونتز حتى ذلك التاريخ أن يقدم هذه البراهين ، فتوقف سير خطته مؤقتاً . ولكن حين تلقى لويس اعتراف فردريك بمعاملة وستمنستر الانجليزية البروسية ، رأى أن تحالفه مع بروسيا مات فى الحقيقة والواقع . وربما خطر له ، وهو غارق فى آثامه ، أنه قد

يسترضى الله بتوحيد الدول الكاثوليكية — فرنسا ، والنمسا ، وبولندا ،
واسبانيا — في مخطط يهيمن به على مصائر أوروبا^(١١) . وعليه ففي أول مايو
١٧٥٦ أتمت معاهدة فرساي قاب الاحلاف رأسا على عقب . وأعلنت
ديباجة المعاهدة أن هدفها الوحيد هو المحافظة على سلام أوروبا وتوازن القوى .
فإذا تعرض أحد الطرفين المتعاقدين لتهديد في ممتلكاته الأوروبية من أى دولة
غير إنجلترا ، نخف الطرف الأخر لنجدته بالوساطة الدبلوماسية ، وبالمعونات
المالية أو الجيوش إذا اقتضى الأمر . ولا تعد النمسا بمساعدة فرنسا ضد
إنجلترا ، ولا تعين فرنسا النمسا على بروسيا ما لم تكن بروسيا هى المعتدية
على نحو واضح . وإذا لم ير لويس أى احتمال لأن تعرض بروسيا مكاسبها
للخطر بعودتها إلى مهاجمة النمسا ، فقد استطاع هو وخليته أن يوهما
نفسهما بأن الحلف الجديد يعين على السلام فى القارة .

لم يحقق كاوتز إلى الآن كل هدفه فى الحصول على المعونة الفرنسية
ضد بروسيا . ولكنه تزرع بالصبر ، فلعله يستطيع إثارة فردريك ليهاجم
النمسا ولم يجد أثناء ذلك صعوبة تذكر فى إقناع القيصرة بالانضمام إلى الحلف
الجديد ، فقد كانت الزايفينا تتوق إلى إزالة العقبة البروسية من طريق
توسع روسيا غربا . وعرضت أن تهاجم بروسيا قبل نهاية عام ١٧٥٦
إن وعدت النمسا بأن تهاجمها هى أيضاً ، ووعدت بأنها فى هذه الحالة
لن تعقد صلحا مع بروسيا إلا إذا ردت سيليزيا كاملة إلى النمسا . وأبهجها
أن تعلم بأن فرنسا أيرمت معاهدة فرساي . واضطر كاوتز إلى كبح
حماسها ، فهو يعلم أن جيوشها لن تكون مهيأة لخوض حملة كبرى
قبل ١٧٥٧ . فترى حتى ٣١ ديسمبر ١٧٥٦ ، ثم وقع الاتفاقية التى
أنضمت روسيا بمقتضاها إلى الحلف الفرنسى النمساوى .

وخلال ذلك كانت إنجلترا ؛ الواثقة من أن تحالفها مع فردريك
سيشل حركة النمسا ، قد بدأت فعلا عملياتها البحرية ضد فرنسا دون أى
إعلان للحرب . وراحت السفن الحربية الانجليزية من يونيو ١٧٥٥ تستولى على
السفن الفرنسية كلما استطاعت . وردت فرنسا بالاستعداد لغزو إنجلترا ،

وبتجريد أسطول من خمس عشرة سفينة تحت إمرة الدوق دريشليو ليهاجم جزيرة مينورقة التي كان البريطانيون قد أستولوا عليها في حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٩) . وتعزيزا للحامية البريطانية الصغيرة في الجزيرة أرسلت بريطانيا عشر سفن يقودها الأميرال جون بينج ، وأنضمت إليها ثلاث سفن إضافية في جبل طارق . وفي ٢٠ مايو ١٧٥٦ أشتبك الأسطولان العدوان قرب مينورقة . فهزم الفرنسيون ، ولكن الأسطول الإنجليزي أصيب بأضرار حملت بينج على العودة به إلى جبل طارق دون محاولة لانزال تعزيزات على بر مينورقة . وسلمت الحامية العاجزة ، وأصبح لفرنسا الآن موقع استراتيجي في البحر المتوسط . وأشاد القوم بريشليو بطلا في باريس وفرساي ، وإعدم بينج على سطح سفينته في ميناء بورتسموث (١٤ مارس ١٧٥٧) بتهمة عدم بذله قصارى جهده للانتصار . وعبثا تشفع له فولتير وريشليو ، وقال فولتير إن هذا هو الأسلوب الذي تتبعه إنجلترا في « تشجيع الآخرين » الذين يتولون القيادات البريطانية . وفي ١٧ مايو ١٧٥٦ أعلنت إنجلترا الحرب على فرنسا ، ولكن البداية الرسمية للحرب السنين السبع تركت لفردريك .

وكان عليا بأن فتحه لسيليزيا عرضه لمحاولة أستردادها في أى وقت تجد فيه ماريا تريزا موارد وحلفاء جددا . وكانت موارد هـو محدودة بشكل خطر ، ومملكته اخلاطا من الأوصال المقطعة ؛ فبروسيا الشرقية تفصلها بولندة عن بروسيا ، والإقاليم البروسية في وستفاليا وفرزيا الشرقية تفصلها الدويلات الألمانية المستقلة عن براندنبورج . وكان سكان بروسيا بما فيها هذه الاجزاء التناثرة وسيليزيا يبلغون نحو أربعة ملايين نسمة عام ١٧٥٦ ، وسكان إنجلترا ثمانية ملايين ، وسكان فرنسا عشرين مليونا . وكان شطر كبير من سكان بروسيا في سيليزيا ، التي ظل نصفها كاثوليكية متعاطفا مع النمسا . وعلى سبعة أميال فقط من برلين كانت حدود سكسونيا المعادية ، التي كان أميرها : الناخب ، أوغسطس الثالث ملك

بولنده الكاثوليكي ، ينظر إلى فردريك نظره إلى زنديق وقبح جشع ؟
فكيف السبيل إلى البقاء وسط هذا الرجل الذي يغلى بالعداء له ؟

ليس إلا بالعقل الراجح ، والاقتصاد ، والجيش القوي ، والقواد
الأكفاء ، أما عقله فقريع في حدة ذكائه لأي عقل آخر ، وهو أفضل
حكام عصره تعليماً ، وقد أثبت جدارته في رسائله وأحاديثه ، وجدله مع
فولتير . ولكن لسانه كان أحد من أن يسمح العقل باطلاقه على الناس ،
ولعل أموره كانت تجري بأيسر مما جرت لو أنه لم يصف الزافيتا بتروفا ،
وماريا تريزا ، ومدام دبومباور ، بأنهن « ثلاثة من كبار عاهرات
أوروبا » (١٢) ؛ ومن بواعث الغراء لنا أن نرى أنه حتى عظماء الرجال قد
يسلكون مسلك الحمقى بين الحين والحين . أما عن اقتصاد بروسيا ، فإن
فردريك أخضعه لسيطرة الدولة ولما رآه ضرورات لاغنى عنها لحرب
ممكنة . في هذه الظروف لم يجرؤ على تغيير الهيكل الإقطاعي للحياة
البروسية مخافة أن يختل التنظيم الإقطاعي لجيشه . فلقد كان الجيش خلاصه
ودينه . أنفق على صيانه تسعين في المائة من موارده (١٣) وسماه « أطلس »
الذي حملت كتفاه القويتان الدولة (١٤) . وزاده من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل
خلفهم له أبوه حتى بلغ به ١٥٠,٠٠٠ في ١٧٥٦ . ودربه بالعقوبات
الصارمة على الطاعة الفورية الصارمة ؛ وعلى السير في ثبات صوب
الخط المواجه له دون أن يطلق طلقة حتى يصدر إليه الأمر ، وعلى تغيير
إنجازه ، والمناورة بكتلته كلها ، وهو تحت نيران العدو . وكان على رأس
الجيش في بداية الحرب خيرة القواد في أوروبا بعد فردريك نفسه —
شفيرين ، وسيدلتز ، وجيمس كيث .

ولم يكن أقل من قواده أهمية أولئك الجواسيس الذين بشم بين أعدائه
ولم يترك له جواسيسه شكاً في أن ماريا تريزا تؤلف حوله نطاقاً من القوى
المعاداة . وفي ١٧٥٣ — ١٧٥٥ حصل جواسيسه في درسدن ووارسو على
نسخ من رسائل سرية تبادلتها الوزارتان السكسونية والتساروية ، أقنعتهم بأن
هذين البلاطين يأتمران للهجوم على بروسيا وتقطيع أوصالها أن حالهما الخط ،

وأن فرنسا تستر على المؤامرة^(١٥). وفي ٢٣ يونيو ١٧٥٦ أصدر أمره للقائد البروسي في كونيغزبرج بأن يستعد لمقابلة هجوم عليه من روسيا . وأبلغ الحكومة البريطانية بأن « لدى بلاط فيينا ثلاث خطط تشير إليها خطاه الحالية : أن يوطد حكمه الاستبدادي في الإمبراطورية ، وأن يقضى على البروتستنتية ، وأن يعيد فتح سيليزيا^(١٦) » . وعلم أن سكسونيا تدبر زيادة جيشها من سبعة عشر ألف مقاتل إلى أربعين ألفاً خلال الشتاء^(١٧) . وخمن أن الحلفاء يترقبون ربيع ١٧٥٧ ليزحفوا عليه من ثلاث جهات ، فصمم على أن يضرب ضربته قبل أن تكتمل تعبئة قواتهم .

وقد شعر أن فرصته الوحيدة للنجاة من الخطر الذي يهدده هي شل حركة عدو واحد على الأقل من أعدائه قبل أن يستطيعوا توحيد صفوفهم في مقاتلته . ووافق شقرين ، ولكن أحد وزرائه المسمى الكونت فون بوديفيلس رجاءه إلا يعطى أعداءه ذريعة لاثامه بأنه المعتدى . ولقبه فردريك « السيد صاحب السياسة الجبابة^(١٨) » وكان قبل ذلك بزمن طويل ، في « ميثاق سياسي » سرى (١٧٥٢) قد نصح خليفته بأن يفتح سكسونيا فيتيح بفتحها لبروسيا الوحدة الجغرافية ، والموارد الاقتصادية ، والقوة السياسية التي لاغنى عنها لمن يريد البقاء^(١٩) . ولكنه نحى الفكرة جانبا باعتبارها فكرة لا يقوى على تحقيقها . أما الآن فقد رآها ضرورة حربية فلا بد له من حماية حدوده الغربية بتجريد سكسونيا من السلاح .

وكان حتى في كتابه القريب من المثالية . « المعارض لمسكيافللى » (١٧٤٠) قد وافق على الحرب الهجومية إذا أريد بها الحيلولة دون هجوم داهم من العدو^(٢٠) . وأخبره متشل ، الوزير البروسي في إنجلترا ، أنه رغم رغبة الحكومة البريطانية القوية في الحفاظ على السلام في القارة ، فهي تدرك الضرورة القاهرة التي يواجهها فردريك ولن تعتبره « ملوما » على الإطلاق إذا هو حاول أن يسبق أعداءه بالهجوم بدلا من الانتظار حتى ينفذوا فيه نياتهم العدائية^(٢١) .

وفي يوليو ١٧٥٦ أوفد مبعوثاً إلى ماريا تريزا يطلب تأكيداً بأن النمسا

لا تنوى القيام بأى هجوم على بروسيا لا فى تلك السنة ولا فى السنة التالية. ورأى عضو فى الوزارة النمساوية أن الواجب إعطاء هذا التأكيد ؛ ولكن كاوتنز رفض إرساله ؛ فكل ما تود ماريا تريزا أن تقول هو أنه « فى الأزمة الراهنة أراه ضروريا أن أأخذ تدابير لتأمين نفسى وحلفائى ، وليس من شأن هذه التدابير الإضرار بأحد »^(٢٢) . وأرسل فردريك رسالة ثانية للامبراطورة يسألها جواباً صريحاً على طلب التأكيد ؛ فأجابت بأنها « لم تبرم حلفاً هجومياً ، ومع أن موقف أوروبا الدقيق يضطرها إلى التسليح ، فإنها لا تنوى خرق معاهدة درسدن (التى تعهدت فيها بمسألة فردريك) ، ولكنها إن تربط نفسها بأى وعد يمنعها من التصرف وفقاً لمقتضيات الظروف »^(٢٣) . وكان فردريك يتوقع هذا الجواب ، وقبل أن يصله قاد جيشه إلى سكسونيا (٢٩ أغسطس ١٧٥٦) . وهكذا بدأت حرب السنين السبع .

٢ ... طريق المانون

١٧٥٦ - ١٧٥٧

وبذل فردريك محاولة فائرة ليجند ناخب سكسونيا حايها له ، فعرض عليه بوهيميا رشوة . . وكانت ملكا لماريا تريزا . ولكن أغسطس احتقر هذا التصديق بمال الغير ، وأمر قواده بوقف زحف فردريك ، ثم فر إلى وارسو . وكانت القوة السكسونية أصغر من أن تقاوم أعظم جيش فى أوروبا ، فانسحبت إلى القلعة فى بيرنا ، ودخل فردريك درسدن دون مقاومة (٩ سبتمبر ١٧٥٦) وأمر عملاءه للفور بأن يفتحوا المحفوظات للسكسونية ويأتوه بأصول تلك الوثائق التى كشفت من قبل عن اشتراك سكسونيا فى الخطة المرسومة لتأديب بروسيا وربما لتقطيع أوصالها . ووقفت الملكة الناجبة العجوز بشخصها لتحول دون الوصول إلى المحفوظات ، وطالبت فردريك بأن يحترم حقها فى عدم العدوان عليها . أما هو فأمر بازالتها من الطريق ، ففرت ، ووضع يده على الوثائق .

وأرسلت ماريا تريزا جيشا من بوهيميا لازاحة الغازي من مكانه ،
فالتقى به فردريك وهزمه في لوبوزيتس ، على الطريق من براغ إلى درسدن
(أول أكتوبر) وعاد ليحاصر بيرنا ، فسلمت له (١٥ أكتوبر) ،
وحشد الأربعة عشر ألف جندي من أسرى السكسونيين في فرقه ، وحجته
أن هذا أرخص له من اطعامهم وهم أسرى حرب ، فلقد كان شره
الألمان للطعام أمرا مشهورا ولا فخر . وأعلن أنه فتح سكسونيا ، واستخدم
مواردها لتلبية حاجاته . ونشر على الملأ خلال الشتاء الوثائق السكسونية .
فزعمت ماريا تريزا أنها مزيفة ، واستنجدت بفرنسا وروسيا وكل
المسيحيين الذين يخافون الله واستعدتهم على ذلك الرجل الذي زج بعدوانه
الصارخ أوربا في خضم الحرب من جديد .

واتفقت أوربا عموما على ادانة فردريك . وأعلنت الإمارات الألمانية الحرب
على بروسيا (١٧ يناير ١٧٥٧) مخافة أن يحقق بها ما حاق بسكسونيا إذا
انتصر فردريك ، وجمعت جيشا امبراطوريا لقتال ملك بروسيا . ولم يضيع
كاونتز وقتا في تذكر لويس الخامس عشر أن فرنسا قد وعدت النمسا
بالمعونة إذا تعرضت للخطر . وألحت اللوقينة ؛ ابنة ناخب سكسونيا ، على
حميها في أن ينقذ أباهما . أما مدام دهبومبادور ، التي عللت نفسها من قبل
بأمل الاستمتاع بملكها في سلام ، فقد مالت الآن إلى الحرب . وتفديرا
لمعوناتها أهدتها ماريا تريزا صورة ملكية رصعت بالجواهر وقدرت بمبلغ
٧٧,٢٧٨ جنيه ،^(١٤) وانقلبت دهبومبادور امرأة حربية . أما لويس
الذي كان عادة بطيء الحسم ، فقد اتخذ قراره بعزيمة لا تنثنى . والتزمت
فرنسا الآن بمقتضى معاهدة فرساي الثانية (أول مايو ١٧٥٧) بتحالف
دفاعي هجومي مع النمسا ، وتعهدت لها بمعونة سنوية قدرها اثني عشر
مليون فلورين ، ووافقت على تجهيز جيشين ألمانيين ، وعرضت تخصيص
قوة فرنسية قوامها ١٠٥,٠٠٠ مقاتل لتدمير بروسيا تدميرا تاما . «
ووعدت ألا تعقد صلحا على الاطلاق مع بروسيا حتى ترد سيليزيا إلى
النمسا . فإذا ردت حصلت فرنسا على خمس مدن حدود في الأراضي الواطئة

النمساوية ، ونقلت ملكية هذه الأراضي الواطئة الجنوبية إلى ولية عهد أسبانيا البوربونية لقاء دوقيات أسبانية في إيطاليا . ولعل فرنسا كانت تتخلى على وعى منها عن مستعمراتها للفتح البريطاني بشكريس مواردها كلها تقريبا لالتهم « بلجيكا » . واستطاع كاونتز أن يحس بأنه أحرز نصرا دبلوماسيا عزيزا .

ولم يجد الآن مشقة في أن يستميل روسيا إلى مديد العون النشيط إلى النمسا . وتعهدت إروسيا والنمسا بمقتضى اتفاقية سانت بطرسبورج (٢ فبراير ١٧٥٧) بأن تضع كل منها ثمانين ألف جندي في الميدان ، وأن تخوض الحرب إلى أن توحد سليزيا مع النمسا من جديد وتختزل بروسيا إلى دولة صغيرة . ثم اتجه كاونتز إلى السويد فأدخلها الحلف بأن كفل لها في حالة الانتصار كل الشطر البومراتي الذي سلم لها في معاهدة وستفاليا . وفرض على السويد أن تقدم ٢٥٠.٠٠٠ مقاتل ، وعلى النمسا وفرنسا أن تمولا هذا الجيش . وتعهدت بولندة التي كان يحكمها الملك اللاجئ أوغسطس الثالث بتقديم مواردها المتواضعة إلى الحلف الفرنسي النمساوي ، وهكذا تكثلت ضد فردريك كل أوروبا باستثناء إنجلترا ، وهانوفر ، والدنمرك ، وهولندة ، وسويسرة ، وتركيا ، وهسي — كاسل .

ووجدت إنجلترا من الأسباب ما يغريها بترك فردريك لمصيره . ذلك أن جورج الثاني رأى في فزع أن موطنه المحبوب هانوفر الإمارة الناجبة التي قدم منها أبوه ليحكم بريطانيا ، وقفت عاجزة عن الدفاع عن نفسها في طريق جيش عرمرم ، بينما كان فردريك أعجز من أن يقدم لها عونا ذا بال وبينه وبينها هذه الشقة والأعداء بشددون عليه النكير . وأصبح هذا الاغراء أمرا لا يكاد يقاوم حين عرض كاونتز عدم المساس بهانوفر إذا ظلت إنجلترا بمعزل عن الحرب القارية ، في تلك اللحظة كان مصير فردريك في خطر . وكان بت ، الذي عين وزيرا للخارجية في ١٩ نوفمبر ١٧٥٦ ميلا أول الأمر لترك بروسيا وهانوفر تدودان عن نفسيهما دون عون من الخارج ، بينما تركز إنجلترا كل مواردها الحربية على

الصراع على المستعمرات ، لا عجب إذن أن يبغض جورج الثاني المتعلق بهانوفر وزيره بت ولكن بت لم يلبث أن غيّر رأيه . وصرح أن فرنسا المنتصرة على فردريك ستغدو سيدة على أوروبا ، وعلى إنجلترا أيضاً بعد قليل ، فعلى البرلمان إذن أن يوافق على إرسال المال لفردريك والجنود لهانوفر ، ولابد من أكرامه فرنسا على استنزاف قوتها في أوروبا ، بينما تنزع إنجلترا المستعمرات والأسواق من البحار التي تفتحها .

وعليه في يناير ١٧٥٧ ، أبرمت بريطانيا حلفاً ثانياً مع بروسيا ، تعهدت فيه بالعون المالي لفردريك ، وبالجنود لهانوفر . ولكن حدث أن أقبل بت فجأة (٥ أبريل) وأربكت أهواء السياسة حكمتها ، وتعطل إرسال العون لفردريك ، وظل عاماً تقريباً يقف وحيداً ، ومعه ١٤٥,٠٠٠ مقاتل ، أمام جيوش تحديق به من كل صوب ، ففي القرب ١٠٥,٠٠٠ مقاتل من فرنسا ، ٢٠,٠٠٠ من الدويلات الألمانية ، وفي الجنوب ١٣٣,٠٠٠ من النمسا ، وفي الشرق ٦٠,٠٠٠ من روسيا ، وفي الشمال ١٦,٠٠٠ من السويد . في ذلك اليوم الذي شهد سقوط بت ، وسم الإمبراطور فرانسيس الأول — زوج ماريا تريزا ، اللطيف الوديع عادة — فردريك رسمياً بأنه خارج على القانون ، ودعا كل الرجال الصالحين إلى تعقبه وتصيده لأنه عدو للنوع الإنساني عاص فاجر .

من براغ إلى روسباخ (١٧٥٧)

في ١٠ يناير أرسل فردريك إلى وزرائه في برلين تعليمات سرية : « يجب أن تجري الأمور مجراها دون أدنى تغيير إن قتلت ، وإن تعثر حظي فأسرت ، فلائى أمنع أقل اعتبار اشخصى ، أو أدنى التفات لأى شيء قد أكتبه وأنا في الأسر . (٢٥)

وكانت لفظة عديمة الجدوى ، لأن بروسيا كانت ضائعة لا محالة بدون عبقريته الحربية . وكان أمله الوحيد في ملاقات أعدائه كل على حدة قبل أن يستطيعوا التجمع عليه . ولم يكن الفرنسيون مستعدين للمعركة ، وربما

استطاعت الفرق التي ترسلها انجلترا لمانوفر اعاقهم برهة . أما النمساويون فيحشدون في بوهيميا ومورافيا القريبتين مخازن هائلة من الأسلحة والمؤن لتجهيز جيوشهما لغزو سيليزيا . وقرر فردريك أن يبدأ بالاستيلاء على هذه المخازن الثمينة ، ومقاتلة النمساويين ، ثم العودة للملاقاة الفرنسيين . فقاد قوته من سكسونيا ، وأمر دوق برنزويك — بيفرن من المانيا الشرقية ، والمرشال شيفرين من سيليزيا ، بالزحف في بوهيميا وملاقاته في التلال المشرفة على براغ من الغرب . وقد تم هذا ، واستولى فردريك على المخازن ، وفي ٦ مايو على مقربة من براغ ، التقى ٦٤ر٠٠٠ بروسي بجيش نمساوي عدته ٦١ر٠٠٠ مقاتل تحت إمرة شارل أمير اللورين في فاتحة المعارك الكبرى في هذه الحرب .

ولم يكن الفاصل في المعركة هو الكثرة ، ولا الاستراتيجية ، بل الشجاعة . ذلك أن فرق شيفرين زحفت تحت نيران النمساويين مخترقة المستنقعات والماء يغطي نصوص الجند ثم اكتافهم . وأدركهم اليأس حيناً وهموا بالفرار ، فجمع شملهم شيفرين البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً ولف العلم حول بدنه ، وركب رأساً في مواجهة العدو ، فضرب بخمسة رصاصات في وقت واحد ، وخر صريعاً ، أما رجاله الذين كاد حبهم له يفوق خوفهم من الموت ، فقد حملوا على العدو في غضبة مضرية ، وحولوا الهزيمة نصراً . وكان التقتيل في الجانبين رهيباً ، وشملت خسائر فردريك أربعمائة ضابط وخير قائد عنده ، في هذه الحرب لم يكن القواد يموتون حتف أنوفهم ، وتقهر من بقي من النمساويون وعددهم ٤٦ر٠٠٠ إلى القلعة في براغ ، وتهيأوا لمقاومة الحصار .

ولكن فردريك وجد الحصار عسيراً ، لأن المرشال ليوبولد فون داون ، أكفأ القواد النمساويين ، كان قادماً من مورافيا على رأس ٦٤ر٠٠٠ مقاتل آخرين . فسار فردريك شرقاً يقود ٣٢ر٠٠٠ مقاتل بعد أن ترك جزءاً من جيشه ليحاصر القلعة ، والتقى بالجحافل الزاحفة

عند كولن (١٦ يونيو) ، وكانت ميزة العدو عليه كبيرة جدا وبراعة داون الحربية في هذه الحالة تفوق براعته . وعصى اثنان من قواد فردريك أوامره فأحدثوا خللا في الجيش ، وفقد فردريك أعصابه وصاح بفرسانه المتقهقرين « هل أنتم مغلدون ؟ » (٢٦) . أما المشاه فرفضوا الزحف وقد هالهم التقتيل . وانسحب فردريك من ساحة القتال جزعا ، بعد أن ترك عليها ١٤٠٠٠ بروسى ما بين قتيل وجريح وأسير . وعاد بالأحياء وعددهم ١٨٠٠٠ إلى براغ ؛ وأقلع عن الحصار ورجع بما بقى له من جيشه صوب سكسونيا .

وفي لايميريتس أراح جيشه ثلاثة أسابيع . وفي ٢ يوليو تلقى هناك نبأ موت أمه صوفيا دوروتيا . وانهار رجل الحرب الفولاذى ، وبكى ، واعتزل الناس يوما ، ولعله ساءل نفسه الآن ألم يكن هجومه على سيليزيا قبل سبعة عشر عاما إغراء أحق زينته له ربة الانتقام . وشاطرته الحزن شقيقته فلهلميني ، أميرة بايرويت ، التى أحبها أكثر من أى مخلوق آخر ، ففى ٧ يوليو أرسل إليها نداء يائسا بعد أن أوشكت كبرياؤه على النضوب :

ما دمت يا شقيقتى العزيزة تصرين على الاضطلاع بمهمة السلام العظمى فأرجوك أن تتفضلى بالكتابة الى المسيو ديمرابو . . . ليعرض على السيدة المقربة (مدام دبومبادور سابقا كوتيون الرابعة) مبلغا يصل إلى ٥٠٠٠٠٠ كراون ثمنا للصلح . . . إني أترك الأمر كله لك . . . أنت التى أعبدها ، والتى هى ذاتى الثانية ، وأن كنت أكثر منى كياسة بما لا يقاس (٢٧) .

ولكن المحاولة لم تأت بنتيجة . فجربت فلهلميني طريقة أخرى : كتبت إلى فولتير الذى كان يقيم فى سويسرا ورجته أن يستعمل نفوذه . ونقل فولتير اقتراحها الى الكردينال دتانسان ، الذى كان قد عارض فى الحلف

الفرنسي — النمساوي ، وحاول تانسان ولكنه أخفق (٢٨) ، فقد كان الحلفاء يشمون ريح النصر وراحت ماريا تريزا تتحدث عن تمزق أوصال ملك فردريك إربا ، فلا يكفي أن ترد لها سيليزيا وجلاتز ، بل يجب أن تعطى مجدهورج وهالبرشتات إلى أوغسطس الثالث وتعود بومرانيا إلى السويد ويكافأ ناخب البالاتين بكليفز ورافنسبورج .

وقد بدت آمالها معقولة . ذلك أن « جيش الدوفينة » الفرنسي كان قد دخل ألمانيا ، وكان شطر منه بقيادة أمير سويس ، القائد الأثير لدى بومبادور ، في الطريق للانضمام إلى الجيش الإمبراطوري عند إوفورت ، وزحف شطر آخر بقيادة المرشال دستربه ليلتقى بقوة هانوفرية يقودها الدوق كمبرلاند ، وهو ابن جورج الثاني . وعلى مقربة من قرية هاشتنيك هزم الفرنسيون هذه القوة هزيمة منكرة (٢٦ يوليو) أكرهت الدوق على أن يبرم في كلوستر — تسيفين (٨ سبتمبر) « اتفاقاً » تعهد بمقتضاه أن يمنع جنوده الهانوفرين من أى اشتباك مع فرنسا .

وربما بلغ فردريك نبأ هذا التسليم المذل تقريباً في نفس الوقت الذى بلغته فيه الأنباء بأن جيشاً سويدياً نزل أرض بومرانيا ، وجيشاً روسيا عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة المرشال ستيفان أبراكسين غزا بروسيا الشرقية وسحق قوة من ٣٠,٠٠٠ روسى عند جروس — ييجرزدورف (٣٠ يوليو) وكادت هذه الهزائم بالإضافة إلى الكارثة التى أصابته في يوهيميا تقضى على أمل فردريك في قهر أعداء بهذه الكثرة وهذا التعزيز باحتياطيات من العتاد والرجال . أما وقد كفر بفضائل المسيحية كما كفر بلا هوتها ، فإنه لحأ إلى أخلاقيات الرواقين وفكر في الانتحار . وظل إلى نهاية الحرب يحمل معه قنينة سم اذ عقد النية على ألا يضع أعداؤه أيديهم عليه إلا جثة هامدة . وفي ٢٤ أغسطس أرسل الى فلهلميني خطابا يسبح فيه بـمحمد الموت فيما يشبه الهستيريا :

« والآن يا مروجى الأكاذيب المقدسة ، امضوا فى سحب الجبناء من أنوفهم . . . أما أنا فقد انتهت فى نظرى سحر الحياة واختفت تعويذتها . ولست أرى فى الخلق جميعاً غير ألعوبة فى يد القدر ، فإن كان هناك حقاً كائن عابس لا يرحم ، يسمح لقطيع محتقر من المخلوقات بأن يتكاثروا هنا ، فهو لا يرى لهم وزناً ، وهو ينظر من عليائه إلى مخلوق مثل فالاريس متوجهاً ، أو مثل سقراط مكبلاً بالأغلال ، إلى فضائلنا وورذائلنا ، إلى أهوال الحرب والأوبئة الرهيبة التى تدمر الأرض ، وكأنها أشياء لا تهمه . لذلك كان ملجأى الوحيد وملأذى الذى لا ملاذ غيره يا شقيقى العزيزة ، إنما هو فى حضن الموت » . (٢٩)

وردت على خطابه (١٥ سبتمبر) بأن أقسمت أن تنتحر مثله :

يا شقيقى العزيز ، لقد كاد يقتلنى خطابك ، والخطاب الذى بعثت به إلى فولتير . يا إلهى القدير ، أى قرارات رهيبة ! أواه يا أخى العزيز ، تقول إنك تحببى ، ومع ذلك فأنت تغمد خنجرأ فى قلبى . إن خطابك جعلنى أذرف أنهاراً من الدموع . وأنا الآن خجلة من هذا الضعف . . . ومصيرك سيكون مصيرى . فلن أعيش بعد عشرات حظك وحظ البيت الذى أنتمى إليه ، ولك أن تعتبر هذا قرارى الذى لن أحيده عنه .

« ولكن بعد هذا العهد دعنى أتوسل إليك أن تعود بفكرك إلى ما كان عليه العدو من حال سيئة وأنت مرابط أمام براغ . إنها دورة الحظ الفجائية تصيب الفريقين . لقد كان قيصر مرة عبداً للقراصنة ، ثم أصبح سيداً على العالم . وإن عبقرية هائلة كعبقريةك لتجد لها المنافذ حتى حين يبدو أن كل شىء ضاع . إننى أقاسى أكثر ألف مرة مما أستطيع ذكره لك ، ومع ذلك لا يفارقنى الأمل . . . على أن أختتم الآن ، ولكنى سأظل دائماً ، مع أعمق الاحترام ، أختك فلهلمينى » . (٣٠)

ولجأت إلى فولتير ليعزز رجاءها ، فأمن على حبسها فى مطلع أكتوبر فى أول خطاب كتبه لفردريك منذ ١٧٥٣ . وقال :

« ان المقاتلين من أمثال كاتو وأوتو ، الذين ترى جلالتم أن موتهم كان شرفاً لهم ، ما كان في استطاعتهم أن يفعلوا شيئاً آخر غير القتال أو الموت . » . يجب أن تذكر كم من بلاط يرى في غزوك لسكسونيا انتهاكا للقانون الدولي . . . وأن أخلاقنا ومركزك في غير حاجه اطلاقاً لهذه الفعلة (الانتحار) وحياتك ضرورية وأنت تعلم كم هي غالية في نظر أسرة كثيرة العدد . . . وأحوال أوروبا لاتستقر طويلاً على أساس واحد ، والواجب على رجل مثلك أن يتماسك استعداداً للأحداث . . . ولو أن بسالتك أفضت بك إلى ذلك التطرف البطولي لما استحسنا الناس فانصارك سيدينونها ، وخصوصك سينتصرون (٣١) » .

وأجاب فردريك ثورا وشعراً وقال :

« أما أنا المهدد بالغرق ، فعلى وأنا أتصدي للعاصفة أن أفكر ، وأحيا وأموت ملكاً (٣٢) » .

وبين قصائد الشعر (التي نظمها دائماً بالفرنسية) راح يبحث عن الجيش الفرنسي ، وتناقت نفسه الآن إلى معركة تحسم له مشكلة الحياة أو الموت. وحين كان في ايزج ، في ١٥ اكتوبر أرسل في طلب يوهان كرسstof جوتشيد (الذي كان يقرض الشعر بالألمانية) وحاول اقناعه بأن الشعر الألماني ضرب من المحال . ففيه فرقعات كثيرة جداً - وحتى في اسم الأستاذ هناك خمسة في صف واحد ، فكيف تحدث اتساقاً في الأصوات من لغة كهذه ؟ واحتج جوتشيد . وكان على فردريك أن يعد لزحف جديد ، ولكن بعد عشرة أيام ، حين عاد إلى ليزج ، استقبل الشاعر الشيخ ثانية ، ووجد متسعاً من وقته ليستمع إلى قصيدة غنائية بالألمانية من نظم جوتشيد ، وأهداه علبة نشوق ذهبية عربون الرضى وهو يودعه .

وخلال ذلك الفاصل الأدبي جاءت أنباء أسوأ : فقوة من الكروات يقودها الكونت هاديك تزحف على براين ، والشائعات ترجف بأن الكتائب السويدية والفرنسية تزحف لتطبق على العاصمة البروسية . وكان

فردريك قد ترك فيها حامية ولكنها أصغر كثيرا من أن تصد هذا السيل العارم : ولو سقطت برلين لوقع في يد العدو أهم مصدر لامداداته من السلاح ، والبارود ، والملابس ، وهرع بجيشه لينقذ المدينة وأسرته . وخلال زحفه أنبىء بأن ليس هناك قوات فرنسية ولا سويدية تزحف على برلين ، وأن هادريك توقف في ضواحي العاصمة واقتضى فدية قدرها ٢٧٠٠٠ جنيه من برلين ، ثم رحل بجنده الكروات راضيا (١٦ أكتوبر) . وجاءه نبأ آخر سرى عنه ، هو أن الروس بقيادة أبراكسين انسحبوا من بروسيا الشرقية إلى بولندا بعد أن نال منهم المرض والجوع .

وأنته رسائل لم تشرح صدره ، تقول إن الجيش الفرنسى بقيادة سوبيز دخل سكسونيا ، ونهب المدن الغربية ، وانضم إلى الجيش الأمبراطورى الذى يقوده دوق ساكس - هيلدبورجهاوزن . وعاد الملك المرهق ادراجيه ، وقاد جنسده إلى قرب روسباخ ، على نحو ثلاثين ميلا غربى ليزج .

هناك التقى جيشه المتعب الذى تقلص إلى ٢١٠٠٠ مقاتل فى خاتمة المطاف وجها لوجه بجيوش فرنسا والرايش وعدتها ٤١٠٠٠ مقاتل . ورغم هذا أشار سوبيز بعدم المجازفة بخوض المعركة ، وقال أنه خير منها المضى فى تجنب الإلتحام بفردريك وارهاقه بمسيرات عقيمة حتى يكرهه تفوق الحلفاء عددا وعدة على التسليم . وكان سوبيز عليما بانهيال النظام فى صفوف جيشه ، وافتقار جنود الرايش ومعظمهم من البروتستنت إلى الحماسة فى مقاتلة فردريك (٢٣) . غير أن هيلبورجهاوزن الح فى طلب القتال ، فأذعن سوبيز . وقاد القائد الألمانى جيشه على منعطف طويل ليهاجم البروسيين على ميسرته . فما كان من فردريك وهو يرقب العدو من سطح بيت فى روسباخ إلا أن أمر فرسانه بقيادة سيدلتز أن يقوموا بحركة مضادة على ميمنة العدو . وحمل الفرسان البروسيون ، وعدتهم ٨٠٠ و ٣ مقاتل ، تحجبهم التلال وهم يسرون بسرعة مدربة ، على وجود الحلفاء من تحتهم وهزموهم قبل أن يستطيعوا إعادة تشكيل صفوفهم .

وأقبل الفرنسيون بعد الأوان ، فمزقتهم المدفعية البروسية أشد تمزق ، وما مضت تسعون دقيقة حتى انتهت معركة روسباخ الفاصلة (٥ نوفمبر ١٧٥٧) . وتقهقر الحلفاء في فوضى تاركين ٧٧٠٠ قتيل في ساحة القتال ، أما البروسيون فلم يفقدوا غير ٥٥٠ رجلا . وأمر فردريك بالرفق بالأسرى : ودعا الضباط المأسورين إلى مائذته : وفي كياسه وظرف فرنسيين اعتذر عن قلة الطعام قائلا :

Mais, messieurs, Je ne vous attendais pas si tot, en si grand nombre.

« ولكنى أيتها السادة لم أتوقع مجيئكم بهذه السرعة ، وهذه الكثرة (٣٤) »

وتعجب العسكريون من جميع الأطراف من ذلك البون الشاسع في الحسائر ، ومن براعة القيادة التي أتاحت هذه النتيجة : وحتى فرنسا اعترفت باعجابها ، ولم يستطيع الشعب الفرنسى الذى كان حليفا لبروسيا حتى الأمس القريب أن ينظر بعد إلى فردريك نظرتة إلى عدو لهم : ألم يكن يجيد الحديث والكتابة بالفرنسية ؟ دهشت جماعة الفلاسفة لانتصاراته وأشادوا به . مكافحا عن حرية الفكر أمام الظلامية الدينية التي يحاربونها في وطنهم (٣٥) واستجاب فردريك لعواطف الفرنسيين النبيلة فقال : (لم أعتبر الفرنسيين أعداء لى) (٣٦) ولكنه كتب سرا — بالفرنسية — قصيدة أعرب فيها عن اغتباطه بأن ركل الفرنسيون في (إستم) وهى كلمة ترفق كارليل فترجمها (مقعدة الشرف) (٣٧) .

واغتبطت إنجلترا معه ، وجددت ايمانها بحليفها . واحتفلت لندن بعيد ميلاده بالصواريخ في شوارعها ، وأشاد المثوديون الأتقياء بهذا الزنديق منقادا للمذهب الحق الوحيد . وكان بت قد أعيد ليرأس الحكومة (٢٩ يوليو ١٧٥٧) ، فغدا منذ الآن النصير الثابت الوفي للملك البروسى . وقال فردريك (لقد أنفقت إنجلترا وقتا طويلا لتنجب رجلا عظيما كفتا لهذا الصراع ، ولكن هاهو قد جاء في النهاية (٣٨)) ، وندد بت باتفاقية كلوستر — تسيفين لأنها ليست إلا جبنا وخيانة — وذلك رغم

أن ابن الملك وقعها ، ثم أقنع البرلمان بأن يرسل جيشاً أفضل لحماية هانوفر ومعاونته فردريك (أكتوبر) ، وبينما كان المبلغ الذى أقره البرلمان من قبل لحيش كمبرلاند (جيش المراقبة) لايزيد عن ١٠٠ر١٦٤ جنيه ، وافق الآن على ١٠٠ر٢٠٠ر١ جنيه لتمويل (جيش عمليات) ، واتفق بت وفردريك على أن يختار لقيادة هذه القوة الجديدة صهر فردريك وتلميذه الحربى ، الدوق فرديناند البرنزويكى ، البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً ، الرجل الوسيم ، المثقف ، الشجاع ، الذى قال عنه بيرنى أنه يجيد العزف على الكمان إجادة كان يمكن أن يجمع من ورائها ثروة طائلة (٣٩) . هاهنا أداة صالحة صلاحية رفيعة لمصاحبة ناي فردريك .

٤ - الثعلب يكره على الدفاع

١٧٥٧ - ١٧٦٠

لم يتح لفردريك متسع من الوقت للابتهاج ، فما زال جيش فرنسى بقيادة ريشليو واضعاً يده على جزء كبير من هانوفر . وفى اليوم الذى وقعت فيه معركة روسباخ ضرب ٤٣,٠٠٠ نمساوى الحصار على شفايدنتز ، أهم معقل ومستودع للبروسيين فى سيليزيا . وكان فردريك قد ترك بها ٤١,٠٠٠ رجل ولكن عددهم تناقص إلى ٢٨,٠٠٠ نتيجة الهروب أو الموت ، وكان على رأسهم قائد غير كفء هو دوق برنزويك - بيفرن ، الذى تجاهل أمر الملك بمهاجمة المحاصرين ، وفى ١١ نوفمبر سلم الحصن ، وسلم للنمساويين ٧,٠٠٠ أسير ، و ٣٣٠,٠٠٠ طالر ، ومؤناً تكفى لإعاشة ٨٨,٠٠٠ رجل مدى شهرين . وواصل المنتصرون السير إلى برزلاو ، بعد أن زاد ، عددهم إلى ٨٣,٠٠٠ بفضل انضمامهم إلى قوات يقودها الأمير شارل والمارشال داوون ؛ وفى ٢٢ نوفمبر قهروا قوة صغيرة من البروسيين ، وسقطت برزلاو ورد معظم سيليزيا الآن إلى ماريا تريزا الظافرة . وحق لفردريك أن يشعر أن انتصاره فى روسباخ قد بطل مفعوله .

ولكن ذلك الانتصار كان قد جدد شجاعته ، فلم يعد يتحدث عن الانتحار . كذلك كان جيشه قد أفاق من مسيراته ومعاركه ، وبدأ ساخطاً على الغارات التي دنس بها الجنود الفرنسيون الكنائس الكاثوليكية في سكسونيا وناشد فردريك رجاله أن يعينوه على استرداد سيليزيا . فساروا ١٧٠ ميلاً في إثني عشر يوماً قارسة البرد ، مخترقين أرضاً وعرة . وانضم إليهم في الطريق غلول القوات البروسية التي هزمت في شفايدنتز وبرزلاو . وفي ٣ ديسمبر لمح فردريك ومعه ٤٣ ألف مقاتل نمساوياً من ٧٢,٠٠٠ مقاتل يعسكر قرب لويتن على الطريق إلى برزلاو . في ذلك المساء خطب فردريك في كبار ضباطه سبق به خطب نابليون الحربية الرنانة ، قال :

« أيها السادة ، أنكم لا تجهلون أي نكبات حلت بنا هنا بينما كنا مشتبكين مع الجيوش الفرنسية والامبراطورية . فلقد ضاعت شفايدنتز . . . وضاعت برزلاو ومعها كل مستوعاداتنا الحربية ، وضاع أكثر سيليزيا . ولولا ثقتي التي لاحد لها بشجاعتكم وولائكم وحبكم لوطنكم ، لما أفقت من عوامل ضيقي وارتباكى . . فليس بينكم رجل لم يبرز بعمل ممتاز من أعمال البطولة لذلك أعال نفسي بأنكم في الفرصة القادمة لن تضنوا بأى تضحية يطالبكم بها الوطن .

والفرصة سانحة الآن . وإنني لأشعر أنني لم أحقق شيئاً أو تركت سيليزيا في قبضة النمسا . فدعوني إذن أخبركم إنني أنوى مهاجمة جيش الأمير شارل — وهو ثلاثة أضعاف جيشنا — أينما لقيته ، متحدياً في ذلك جميع قواعد فن الحرب . فليست العبرة بكثرة جنده أو قوة موقعه ، فأنا آمل — بفضل بسالة جنودنا ، وتنفيذ خططنا بعناية — أن أذل هذا كله . ولا مندوحة لي عن اتخاذ هذه الخطوة ، وإلا دفنا تحت مدافعه . كذلك أرى الموقف ، وكذلك سأصرف .

فأبلغوا تصميمي إلى جميع ضباط الجيش ، وأعدوا الجنود للعمل الذي لا بد آت ، وأخبروهم أنني أشعر بأن لدى من الأسباب ما يبرر مطالبتى إليهم بتنفيذ الأوامر بكل دقة . أما أنتم ، فهل بخطر بيالي — وأنا أذكر

أنكم بروسيون — أنكم ستصرفون تصرفاً غير نبيل ، ولكن إذا كان بينكم رجل يخاف أن يشاطرنى جميع المخاطر (وهنا تفرس فردريك فى كل وجه بدوره) فى استطاعته أن يسرح هذا المساء ، دون أدنى لوم منى

كنت عليا بأن أحداً منكم لن يتركنى . وعليه فأنا معتمد كل الاعتماد على معونتكم الصادقة ، وعلى النصر الأكيد . فإن مت قبل أن أجزيكم على إخلاصكم فلا بد أن الوطن فاعل . عودوا الآن إلى معسكركم وانقلوا إلى جنودكم ما سمعتموه منى .

وسأجرد فرقة الفرسان التى لاتلقى بنفسها فور سماع الأمر على العدو بمجرد انتهاء المعركة ، وأحيلها إلى فرقة حامية . أما كتيبة المشاة ، حتى أن بدأت تردد ، أياً كان الخطر الذى تواجهه ، فإنها ستفقد رايتها ، وسيوفها ، والنوط الذهبى من ستراتى .

« الآن طابت ليلتكم أيها السادة . عما قليل سنكون قد هزمنا العدو ، وإلا فلن يرى بعضنا البعض بعد اليوم »^(٤١) .

وكان النمساويون إلى الآن يتحاشون الالتحام فى معركة مع فردريك متبعين فى ذلك سياسة فايوس الرومانى ، وترددوا فى وضع جنودهم وقوادهم أمام انضباط الجيش البروسى وعقبرية فردريك التكتيكية ، أما الآن بعد أن شجعهم كثرة جيوشهم وانتصاراتهم الأخيرة ، فقد قرروا مواجهة الملك فى المعركة متحالفين فى ذلك نصيحة المرشال داو. وعليه . فى ٥ ديسمبر ١٧٥٧ . زحفت هذه البيادق فى لعبة المنافسة بين الأسر المالكة — ٤٣,٠٠٠ مقابل ٧٣,٠٠٠ — على سيوف بعضهم بعض ومدافعهم فى أعظم معارك هذه الحرب . يقول نابليون : « كانت تلك المعركة آية من الآيات وهى وحدها تبوى فردريك مكاناً فى الطليعة بين القواد »^(٤٢) وقد استهلها بمحاولة الوصول إلى التلال تمكيناً للمدفعيته من إطلاق نيرانها فوق رؤس مشاته لتصيب صفوف العدو . ووزع جنوده بنظام منحرف استعمله قديماً إهامينونداس الطبى ، بحيث تتحرك طوابير منفصلة بزاوية ٤٥ درجة تقريباً

لتضرب العدو من الجنب فتشيع الخلل في خط دفاعه . وتظاهر فردريك بأنه يوجه أقوى ضغوطه إلى الميمنة النمساوية ، فأضعف الأمير شارل ميسرته تعزيزا للميمنة ، وهنا صب فردريك خيرة رجاله فوق الميسرة التي تناقصت ، فدمرها ، ثم انقلب ليهاجم الجناح الأيمن في جيشه ، بينما هبط الفرسان البروسيون على الجناح ذاته من مخبئهم في التلال . وانتصر النظام على الفوضى ، فسلم النمساويون أو لازوا بالفرار ، وأسر منهم ٢٠٠٠ - وهو صيد لم يسبق له نظير في تاريخ الحرب (٤٢) ، وترك ٣٠٠٠ آخرون قتلى ، ووقعت ١١٦ قطعة من قطع المدفعية في أيدي البروسيين . كذلك كانت خسائر البروسيين كبيرة - ١٤١ ر١ قتل ، و ١١٨ ر٥ جرحى ، و ٨٥ أسرى . فلما انتهت المذبحة شكر فردريك قواده قائلا : (هذا اليوم سيديع أسمكم واسم أمتكم إلى آخر الدهر (٤٣)) .

وواصل المنتصر انتصاره في عزيمة صادقة ليسترد سيليزيا : فلم يمضي يوم على المعركة حتى حاصر جيشه الحامية النمساوية في برزلاو . وأقام قائدها شبريشر اللافتات في أرجاء المدينة ينذر فيها بالموت الناجز كل من يهمس بكلمة تسليم ، ولكن لم ينقض اثنا عشر يوما حتى سلم (١٨ ديسمبر) واستولى فردريك هناك على ١٧٠٠٠ أسيرا وعلى مخازن حربية ثمينة . وما لبثت سيليزيا كلها أن عادت إلى قبضة البروسيين باستثناء شقايدنتز ذات الحامية الكبيرة والحصون المنيع . واعتكف الأمير شارل في ضيعته بالنمسا بعد أن وجد نفسه ذليلا أمام لوم داون الصامت ، ونصح برنيس وغيره من الزعماء الفرنسيين لويس الخامس عشر بعقد الصلح ولكن دبلوماسيا لم يتغلب عليهم ، وأحلت الدوق دشوازيل وزيرا للشئون الخارجية محل برنيس (١٧٥٨) ، بيد أن فرنسا فقدت حماسها للحرب إذ خامرها الشعور بأنها تحارب دفاعاً عن النمسا بينما تضحى بمستعمراتها . أما ريشليو فلم يبد حماسه تذكر ، ولا رغبة صادقة في مواصلة الافادة من ميزته في هانوفر ، بحيث استدعى من قيادته للجيش (فبراير ١٧٥٨) وعين بدلا منه الكونت دكليرمون ، وهو رئيس دير صرح له البابا بأن

يحتفظ بدخل منصبه الدينى وهو يلعب دور القائد (٤٤) : وأخلى الفرنسيون هانوفر أمام خطى الزحف المصممة التى تقدم بها الدوق فريناند البرنزويكى ، فسلموا له ميندن فى مارس ، وما لبثت وستفاليا كلها أن حررت من قبضة الفرنسيين الذين بغضوا الشعب فيهم هنا أيضاً بأعمال النهب والتدمير (٤٥) . وزحف فرديناند غربا وهزم قوة كليرمون الرئيسية بقوة لا تزيد على نصف رجال العدو فى كريفيلد على الرين (٢٣ يونيو) ، وسلم كليرمون موقعه للدوق دكونتا ، وانضم سوبيز إلى الجيش المهزوم بامداد فرنسية جديدة وفلول من مقاتلى معركة روسباخ ، وأمام هذه القوة المتحدة تقهقر فرديناند إلى مونستر وبادربورن .

وتشجعت إنجلترا بموسم الانتصارات هذا ، فأبرمت (١١ أبريل) معاهدة ثالثة مع فردريك ، ووعدته فيها بمعونة قدرها ٦٧٠,٠٠٠ جنيه قبيل أكتوبر ، وتعهدت بعدم إبرام صلح منفرد (٤٦) . وفرض فردريك أثناء ذلك ضرائب على سكسونيا وغيرها من الأقاليم التى فتحها ، مسويا فى ذلك بينهما وبين بروسيا التى أرهقت بالضرائب : وأصدر عملات مغشوشة ، واستأجر (كفولتير) المالىين اليهود ليعقدوا له صفقات رابحة بالعملة الأجنبية (٤٧) . فما حل ربيع ١٧٥٨ حتى كان قد أعاد بناء جيشه فأبلغه ١٤٥,٠٠٠ مقاتل . وفى أبريل هاجم شقايدنتز واستردها ، وتحرك صوب الجنوب على رأس ٧٠,٠٠٠ مقاتل إلى أولوتز فى موافيا متحاشيا الإلتقاء بالجيش النمساوى الرئيسى (الذى نظم من جديد تحت قيادة داون) وعمل نفسه بالزحف على فيينا ذاتها إذا استطاع الإستيلاء على هذا الحصن النمساوى .

ولسكن فى نحو هذا الوقت ذاته اكتسح ٥٠,٠٠٠ روسى يقودهم كهننت فيرمور بروسيا الشرقية وهاجموا كوسترين ، التى لا تبعد عن برلين شرقا سوى خمسين ميلا ، وترك فردريك حصارا أولوتز وهرع الى الشمال على رأس ١٥,٠٠٠ مقاتل . وفى الطريق ننى إليه بناء مرضى

فلهمينى الذى بلغ مرحلة التأزم ، فتوقف فى جروساو ليرسل لها رسالة قلقة قال فيها « يا أعز أهلى ، يا أقرب إلى قلبى فى هذه الدنيا - لأجل كل ما هو غال عزيز لديك ، احتفظى بحياتك ، ودعبنى اتعزى بزرف الدموع على صدرك » (٤٨) .

وبعد أن واصل السير أياماً وليالى انضم إلى قوة بروسية يقودها الكونت تسودولا قرب كوسترين . وفى ٢٥ أغسطس ١٧٥٨ ، وبقوة قوامها ٣٦,٠٠٠ رجل التقى بجيش فيرمور وعدته ٤٢,٠٠٠ روسى عند تسورندورف . واستحال عليه هنا استعمال تكتيكة المفضل ، وهو الهجوم على الجناح ، بسبب الأرض المليئة بالمنافع ، وتبين أن فيرمور لا يقل عن فردريك براعة فى القيادة وقاتل الروس ببسالة وإصرار ندر أن عرفها البروسيون فى النساءوين أو الفرنسيين وكسب سيدلتز وفرسانه ما أمكن أن يقع لهم من أعجاد يوم تنافس فيه العدوان فى الثقليل . وتقهقر الروس فى نظام حسن تاركين ٢١,٠٠٠ بين قتيل وجريح وأسير ، وخسر البروسيون ١٢,٥٠٠ بين قتيل وجريح و ١,٠٠٠ أسير .

ولكن منذ الذى يستطيع مواصلة القتال على كل هذه الجبهات فى وقت واحد ؟ بينما كان فردريك فى الشمال قاد داون جيشه إلى نقطة اتصل فيها بالفرق الإمبراطورية ، وشرع الآن فى حصار درسدن التى كان فردريك قد ترك فيها حامية بقيادة الأمير هنرى . وزحفت قوة من ١٦,٠٠٠ سويدي مختربة بوميرانيا ، وانضمت إلى الروس فى تدمير شطركبير من إمارة برندنبورج ، وربما استطاعت معهم تهديد برلين ثانية . ودخل جيش جديد من ٣٠,٠٠٠ نمساوى ومجرى ، يقودهم الجنرال هارش ، سيليزيا واتجه إلى برزلاو . فأى هذه العواصم الثلاث يجب الدفاع عنها أولاً ؟ وزحف فردريك بجيشه بسرعة اثنين وعشرين ميلاً فى اليوم مخترقاً بروسيا إلى سكسونا ، بعد أن أعاد تنظيم جنوده الذين ثببت همهم وأخذوا الآن يتمردون ، فوصل إلى صهره المحاصر فى الوقت المناسب لثنى داون عن الهجوم وبعد أن أراح رجاله أسبوعين ، انطلق ليطرد هارش من سيليزيا وعند هونككيرش بسيليزيا سد عليه داون الطريق . فضرب فردريك خيامه قرب العدو ، وانتظر

أربعة أيام وصول المؤن من درسدن . وفجأة ، في الخامسة من صباح ١٤ أكتوبر ١٧٥٨ ، هاجم داوون جناح البروسيين الأيمن ، وكان فردريك قد اطمأن إلى أنه سيتجنب المبادأة . وتخفت حركة النمساويين وراء ضباب كثيف ، وأخذ البروسيون على غرة وهم نيام فعلا ، فلم يتسع الوقت لتكوين الخطوط التكتيكية التي رسمها فردريك . وعرض فردريك نفسه للخطر في تهور وهو يحاول استعادة النظام ، فوفق في ذلك ، ولكن بعد أن فات أوان لإصلاح الموقف . وبعد خمس ساعات من قتال اشتبك فيه ٣٧,٠٠٠ بيدق مع ٩٠,٠٠٠ ، أعطى الإشارة للتقهقر ، تاركا ٩,٤٥٠ رجلا على ساحة المعركة مقابل ٧,٥٩٠ خسرهم النمساويون .

وعاد يفكر في الانتحار . فأمام قائد كفء كداوون يقود النمساويين ، وأمام قائد كفء كسالتيوكوف يحشد جيشاً روسياً جديداً ، وأمام قواته المضمحلة عدداً ، ونوعاً ونظاماً ، في الوقت الذي يستطيع فيه أعداؤه تعويض أى خسارة ، أمام هذا كله وضح أن لا أمل في انتصار البروسيين إلا بمعجزة ، وفردريك لا يؤمن بالمعجزات ، ففي غداة هونخكيرش اطلع قارئه ديكات على « دفاع عن الانتحار » كان قد كتبه ، وقال له « في استطاعتي أن أختم الأساة حين أشاء »^(٤٩) . في ذلك اليوم (١٥ أكتوبر ١٧٥٨) ماتت فلهلميني تاركة تعليمات بأن توضع خطابات أخيها على صدرها في قبرها^(٥٠) . وناشد فردريك فولتير أن يكتب شيئاً في ذكراها ، فاستجاب فولتير ، ولكن قصيدته « للنفس الباسلة النقية »^(٥١) لم تستطع أن ترقى إلى مستوى الحرارة والبساطة اللتين نجدهما في رثاء الملك الذي ضمنه « تاريخ حرب السنين السابع » قال :

« إن طيبة قلبها ، وأريحتها وسماحتها ، ونبل روحها وسموها ، وحلاوة طبعها ، جمعت فيها مواهب العقل اللامعة مع أساس من الفضيلة المكيمة . وكان يربط الملك (وقد استعمل فردريك لفظ الغائب) بهذه الشقيقة الفاضلة أرق صداقة وأثبتها وقد تكونت هذه الروابط في بواكير صباهما ، ثم وثق بينهما اشتراكهما في تربية واحدة وعواطف واحدة ، وأصبحت هذه الروابط لا تقبل الانفصام بفضل وفائهما المتبادل في كل امتحان يبتليان به »^(٥٢) .

(م ٧ - قصة الحضارة ج ٣٩)

وأقرب الربيع بمزيد من الجيوش الفرنسية في ساحة القتال. وفي ١٣ أبريل ١٧٥٩ في بيرجن (قرب فرانكفورت على المين) أذاقت قوة يقودها دبرولي بكفاية فرديناند البرنزويكي طعم الهزيمة . ولكن فرديناند كفر عن هزيمته في مندن ، فهناك (أول أغسطس) بجيش قوامه ٤٣,٠٠٠ ألماني ، وإنجليزي ، واسكتلندي هزم ٦٠,٠٠٠ فرنسي يقودهم برولي وكونتار هزيمة منكرة ، وبخسارة قليلة جداً نسبياً ، بحيث استطاع أن يرسل ١٢,٠٠٠ جندي إلى فردريك ليعوض عما حل بجيش الملك من ضعف إثر حملة مشثومة في الشرق .

ذلك أنه في ٢٣ يوليو قهر جيش سالتيكوف المؤلف من ٥٠,٠٠٠ روسي وكروات وقوازي ، عند تسوليشاو ، جيشاً بروسيا قوامه ٢٦,٠٠٠ مقاتل كان فردريك قد تركهم لحراسة مداخل البلاد من بولندة إلى برلين ، ولم يقف الآن شيء في طريق سيل روسي عزم قد يتدفق على العاصمة البروسية . ولم يكن أمام الملك إلا سبيل إلا الاعتماد على صهره ليدافع عن درسدن أمام داون ، بينما سار هو بنفسه للقاء الروس ، ووصلته التعزيزات في الطريق ، فاستطاع أن يحشد ٤٨,٠٠٠ مقاتل ، ولكن ١٨,٠٠٠ تمساوي يقودهم الجنرال لاودون كانوا أثناء ذلك قد انضموا إلى الروس ، فبلغ مجموع جيش سالتيكوف ٦٨,٠٠٠ . وفي ١٢ أغسطس ١٧٥٩ التحم هذان الجيشان — اللذان كانا أضخم كتلتين من اللحم البشري القابل للاستهلاك منذ المذابح التي تبارى فيها الأعداء في حرب الوراثة الاسبانية — ونحاضا عند كونرزدوف (٢ على ستين ميلا شرقي برلين) أقصى معارك هذه الحرب — وأفجعها على فردريك . فبعد قتال دام اثنتي عشرة ساعة لاح أن الحظ في جانبه ، وهنا هجم رجال لاودون الاحتياطيون — وعددهم ١٨,٠٠٠ — على البروسيين المهوكي القوى وطاردهم في هزيمة نكراء . واقتحم فردريك كل خطر ليلم شعث جنوده ، وقادهم بشخصه ثلاث مرات في الهجوم ، وضربت بالنار ثلاثة جياد من تحتها ، وأوقفت علبة ذهبية صغيرة في جيبه رصاصة كان يمكن أن تودي بحياته . ولم يكن سعيداً بفكرة الهروب ، فصاح « هلا أصابتنى طلقة لعينة ؟ » (٥٣) وتوسل إليه جنوده أن ينجو بنفسه ،

ولم يلبثوا أن ضربوا له المثل بأنفسهم فناشدهم قائلاً : « يا أبنائي لا تتركوني الآن ، أنا ملككم ، وأبوكم ! » ولكن مامن حض كان قادراً على اقناعهم بالتقدم مرة أخرى . فلقد حارب الكثيرون منهم ست ساعات تحت شمس محرقة ، دون وقت أو فرصة يتناولون فيها قدحاً من الماء . فلاذوا بالفرار وأخيراً لحق هو بهم ، مخلفاً وراءه ٢٠,٠٠٠ مابين أسير ، وجريح ، وقتيل مقابل خسارة للأعداء قدرها ١٥,٧٠٠ . وبين الذين جرحوا جروحاً مميتة إيفالد فون كلايست ، أعظم شعراء العصر الألماني .

وحالماً وجد فردريك مكاناً يستريح فيه أرسل إلى الأمير هنري رسالة يقول فيها « لم يبق لي في هذه اللحظة سوى ٣,٠٠٠ من جيش بلغ ٤٨,٠٠٠ مقاتل ، ولم أعد السيد المسيطر على قواتي .. أنها لكارثة فادحة ، ولن أعيش بعدها » . وأبلغ قواده أنه يوصى بالقيادة للأمير هنري . ثم أرمى على بعض القش واستغرق في النوم .

وفي الغد وجد أن ٢٣,٠٠٠ من الهاربين من المعركة عادوا إلى فرقهم خجولين من هروبهم ، مستعدين للعودة إلى خدمته إن لم يكن شيء فلاثمهم يتوقون إلى الطعام . ونسى فردريك أن يقتل نفسه ، وبدلاً من هذا أعادتنظيم هؤلاء وغيرهم من الجنود المساكين في جيش جديد بلغ رجاله ٣٢,٠٠٠ ، واتخذ له موقعاً على الطريق من كونرزدورف إلى برلين ، متوقفاً أن يبذل آخر محاولة للحماية عاصمته . ولكن سالتيكوف لم يأت . فرجاله أيضاً يجب أن يطعموا ، لأنهم كانوا في أرض العدو ووجدوا الحصول على الطعام مخفوفاً بالخطر ، وخطط المواصلات مع بولندية طويل وغير مأمون . ورأى سالتيكوف أن قد آن الأوان ليأخذ النمساويون دورهم في قتال فردريك . ومن ثم أصدر أمره بالتقهقر .

ووافق داوون على أن الخطوة التالية يجب أن تكون خطوته وأحس بأن هذا هو وقت الاستيلاء على درسدن . وكان الأمير هنري قد سحب قوة من المدينة لتنجد فردريك ، ولم يترك سوى ٣٠,٠٠٠ مقاتل لحراسة القلعة ، ولكن التحصينات القوية كانت قد أقيمت لصد الهجوم . وكان القائد الجديد

في درسدن ، وهو كورت فون شمتاو ، خادماً وفياً للملك ، ولكنه حين تلقى كلمة من فردريك ذاته ، بعد كونرزدورف ، بأن كل شيء قد ضاع ، يثس من المقاومة المجدية . وكان جيش امبراطوري عدته ١٥,٠٠٠ مقاتل قادماً على درسدن من الغرب ، وداون ماض بهمة في قذف المدينة بالمدافع من الشرق . وعليه ففي ٤ سبتمبر سلم شمتاو ، وفي ٥ سبتمبر جاءته رسالة من فردريك تأمره بالمقاومة لأن المدد في الطريق إليه . وأحال داون ، ومعه ٧٢,٠٠٠ مقاتل ، درسدن مقرأ شتوياً لجيشه الآن . ووصل فردريك إلى فرايبورج القريبة منها وعسكر في الشتاء بنصف هذا العدد .

وكان شتاء ١٧٥٩ - ١٧٦٠ قارس البرد جداً . فظل الثلج يكسوا الأرض إلى الركب أسابيع عديدة . ولم يجد غير الضباط مأوى في البيوت ، أما عامة جنود فردريك فسكنوا أكشاكاً مؤقتة ، وراحوا يحتضنون النيران ليتدفأوا ، ويكدون في قطع الخشب وجلبه وقوداً لها ، ولا يكادون يصيدون من الطعام غير الخبز وكانوا ينامون متلاصقين طلباً للدفء ، واقتضى المرض المعسكرين من الأرواح ما كاد يعدل ما اقتضته المعركة من قبل ، ففي ستة عشر يوماً فقد جيش داون على هذا النحو أربعة آلاف رجل^(٥٤) . وفي ١٩ نوفمبر كتب فردريك إلى فولتير يقول : « لو طالبت هذه الحرب لارتدت أوروبا إلى دياجير الجهل ، ولأصبح معاصرونا أشبه بالوحوش الضارية »^(٥٥) .

وأشرفت فرنسا على الإفلاس على عظم ثرائها عن بروسيا في المال والرجال ومع ذلك جهز شوازيل أسطولاً ليغزو إنجلترا ، ولكن الإنجليز دمروه في خايج كويبيرون (٢٠ نوفمبر ١٧٥٩) وضوعفت الضرائب بكل ما أوتيت الحكومات ورجال المال من براءة . وفي ٤ مارس ١٧٥٩ كانت المركيزة دمبادور قد وفقت في تعيين إثيين دسلوويت مراقباً عاماً للمالية . فاقترح اختزال المعاسات ، وفرض الضرائب على ضياع النبلاء ، وتحويل فضيلاتهم نقوداً ، وحتى فرض ضريبة على الملتزمين العاميين بجمع الضرائب . وشكا الأغنياء من أنهم يحالون إلى مجرد « ظل » لما كانوا عليه من قبل ، ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة Silhouette دليلاً على شكل اختزل إلى أبسط صورته .

وفي ٦ أكتوبر أوقفت الحكومة الفرنسية دفع التزاماتها . وفي ٥ نوفمبر صهر لويس الخامس عشر أطباقه القضية ليكون الأسوة الحسنه لشعبه ، ولكن حين اقترح سلوويت أن يستغنى الملك عن المبالغ التي تخصص عادة لقماره وألعابه ، وافق لويس ولكن في ألم واضح جداً ، مما حمل شوازيل على الاعتراض على الفكرة . وفي ٢١ نوفمبر أقيـل سيلوويت .

وأحس الملك كما أحس الفرنسيون جميعاً أنه شبع حرباً ، وكان على استعداد للاستماع إلى مقترحات للصلح . وكان فولتير قد جس نبض فردريك في أمر الصلح في يونيو ، فأجاب فردريك (٢ يوليو) : « أنى أحب الصلح بقدر ما تتمنى ، ولكن أريده حسناً ، متيناً ، شريفاً » ، وفي ٢٢ سبتمبر أضاف في رسالة أخرى لفولتير هناك شرطان للصلح لن أحيد عنهما أبداً : أولاً : أن يبرم مشاركة مع حلفائى الأوفياء . . . ثانياً : أن يكون صلحاً شريفاً مجيداً ^(٥٦) . ونقل فولتير هذه الردود الأبية (التي كتب احدها بعد هزيمة كورنرزدورف الساحقة) إلى شوازيل الذى لم يجد فيها ما يعين على المفاوضة . ثم هناك الحليف الوفى بت ، المشغول بالتهام المستعمرات الفرنسية فكيف يبرم الصلح قبل أن يبنى الامبراطورية البريطانية ؟

٥ - بناء الامبراطورية البريطانية

أن أهم طور من أطوار حرب السنين السبع لم يقاتل فيه الخصوم في أوروبا ، ففى أوروبا لم يحدث غير تغييرات صغيرة في خريطة القوة . ولكنهم اقتتلوا على الأطلنطى ، وفي أمريكا الشمالية ، وفي الهند . في تلك المناطق كانت نتائج الحرب هائلة طويلة البقاء .

كانت أول خطوة تكوين الامبراطورية البريطانية قد اتخذت في القرن السابع عشر ، وذلك بانتقال التفوق البحرى من أيدي الهولنديين إلى أيدي الانجليز . أما الثانية فحددها ماهدة أوترخت (١٧١٣) التي منحت البحارة احتكار توريد العبيد الأفارقة للمستعمرات الأسبانية والانجليزية

في أمريكا . وكان العبيد ينتجون الأرز والتيغ والسكر ، وكان جزء من السكر يحول إلى شراب الروم ، وشاركت تجارة الروم في إثراء تجارة إنجلترا (القديمة والجديدة) ومولت أرباح التجارة التوسع في الأسطول البريطاني . فما حلت سنة ٥٨^(٥٧) حتى كان للانجليز ١٥٦ سميثة حربية ، ولم يكن لفرنسا غير ٥٧٧٧ ومن ثم كانت الخطوة الثالثة في بناء الإمبراطورية هي اضعاف القوة الفرنسية في البحار . وقطع هذه العملية انتصار ريشيليو في مينورقة ، ولكنها استؤنفت بتدمير أسطول فرنسي أمام لاجوس ، بالبرتغال (١٣ ابريل ١٧٥٩) ، وأسطول آخر في خليج كويبيرون . ونتيجة لذلك هبطت تجارة فرنسا مع مستعمراتها من ثلاثين مايونا من الجنيهات في ١٧٥٥ إلى أربعة ملايين في ١٧٦٠ .

أما وقد تمت السيادة على الأطلنطي ، فقد انفتح الطريق أمام البريطانيين ليفتحوا أمريكا الفرنسية ، ولم تقتصر هذه على حوض نهر سانت لورنس واقليم البحيرات العظمى ، بل شملت حوض المسيسيبي من البحيرات إلى خليج المكسيك ، لابل أن وادي نهر أوهايو كان في قبضة الفرنسيين . وسيطرت القلاع الفرنسية على شيكاغو ، وديترويت ، وبتسبرج - التي كان تغيير اسمها من فوردوكين رمزا لنتائج الحرب . وكانت الممتلكات الفرنسية تقف عقبة أمام توسع المستعمرات الانجليزية في أمريكا نحو الغرب . ولولم تنتصر إنجلترا في حرب السنين السبع لانقسمت أمريكا الشمالية إلى إنجلترا جديدة في الشرق ، وفرنسا جديدة في الوسط ، وأسبانيا جديدة في الغرب ، ولتكررت نسخة من انقسامات أوروبا وصراعاتها في أمريكا . وقد حذر بنيامين فرانكلين المسالم المستعمرين الانجليز من أنهم لن يكونوا آمنين في ممتلكاتهم ، ولا أحرارا في نموهم ، مالم يوقف الفرنسيين في توسعهم الأمريكي ، وقد دخل جورج واشنطن التاريخ بمحاولته الاستيلاء على فوردوكين .

كانت كندا ولويزيانا مدخلى أمريكا الفرنسية ، وأقربهما إلى إنجلترا

وفرنسا هي كندا فعن طريق السنت لورنس كانت تصل المؤن والجنود إلى « المستوطنين » ؛ وكانت تحرس ذلك الباب قلعة لوبيجورج الفرنسية على رأس جزيرة بريتون عند مصب النهر العظيم . وفي ٢ يونيو ١٧٥٨ حاصر لوبيجورج اسطول انجليزي صغير من اثنين وأربعين سفينة تحمل ١٨٠٠٠ جندي يقودهم الأميرال إدورد بوسكاون . ودافع عن الحصن عشر سفن و ٦٢٠٠ مقاتل ، واعترض الأسطول البريطاني التعزيزات المرسلة من فرنسا . وقاتلت الحامية ببسالة ، ولكن سرعان ما حطمت المواقع البريطانية وسائل دفاعها . وكان تسليم الحصن (٢٦ يوليو ١٧٥٨) بداية الفتح البريطاني لكندا .

ولم تفلح استراتيجية المركز دمونكالم وبطولته في تعطيل سير العملية إلا قليلا . فبعد أن أوفدته فرنسا (١٧٥٦) ليقود الجنود النظاميين في كندا ، ظفر بالنجاح تلو النجاح إلى أن احبطه ما تفشى في الإدارة الفرنسية — الكندية من فساد وخلل ، وما تبين من عجز فرنسا عن موافاته بالمدد ؛ وفي ١٧٥٧ حاصر قلعة وليم هنري واستولى عليها ؛ وهي تقع على رأس بحيرة جورج . وفي ١٧٥٨ هزم ١٥٠٠٠ من جنود بريطانيا والمستعمرات عند تبكوند روجا بقوة قوامها ٣٨٠٠ مقاتل . ولكنه التقى بقريعه حين دافع عن كوبيك بقوة قوامها ١٥٠٠٠ رجل ضد القائد الانجليزي جيمس وولف الذي لم يكن تحت قيادته أكثر من ٩٠٠٠ جندي . وتقدم وولف بنفسه جنوده في تسلق المرتفعات إلى سهول ابراهام . وجرح مونكالم جرحا مميتا وهو يدير الدفاع ، وجرح وولف جرحا مميتا على ساحة النصر (١٢ - ١٣ سبتمبر ١٧٥٩) . وفي ٨ سبتمبر ١٧٦٠ سلم فودربي — كافانيال ، حاكم كندا الفرنسي ، وبسطت بريطانيا سلطتها على هذا الاقليم الكبير .

وبعد أن وجه الانجليز مراكبهم صوب الجنوب هاجموا الجزر الفرنسية في البحر الكاريبي . فاستولوا على جودلوب في ١٧٥٩ ، وعلى المارتنيك في ١٧٦٢ ، ووقعت كل الممتلكات الفرنسية في جزر الهند الغربية —

باستثناء سان — دومنج — في قبضة بريطانيا . وطلبوا للمزيد من مكاسب النصر أرسلت الأساطيل إلى أفريقيا للاستيلاء على محطات النخاسة الفرنسية على الساحل الغربي ، فاستولت عليها ، وانهارت تجارة الرقيق الفرنسية ، واضمحلت ثغرها الرئيسي في فرنسا وهو نانت . وارتفع ثمن العبيد في جزر الهند الغربية ، وحقق تجار الرقيق البريطانيون ثروات جديدة يتلبيه الطلاب على العبيد^(٥٨) . وينبغي أن نضيف هنا أن الانجليز لم يكونوا أكثر قسوة في هذه العملية الأميركية من الأسبان أو الفرنسيين ، إنما كانوا أكفأ منهم وفي إنجلترا بدأت حركة مقاومة الرق تتخذ شكلا فعالا .

وفي غضون ذلك كانت روح المغامرة البريطانية — الحربية والبحرية ، والتجارية — مشغولة بالتهام الهند — فقد أقامت شركة الهند الشرقية الانجليزية معاقل لها في مدراس (١٦٣٩) ، وبمباي (١٦٦٨) وبوندشيري ، جنوبي مدراس (١٦٨٣) ، وفي شندرناجور شمال كالكتا . كل مراكز القوة هذه اتسعت في الوقت الذي اضمحل فيه حكم المغول في الهند ، واستعمل كل فريق الرشوة والقوة العسكرية لمد منظمة نفوذه وكانت فرنسا وإنجلترا قد اشتبكتا معاً في الهند ابان حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ — ٤٨) ولم يفعل صالح لكس لا شابل أكثر من قطع الصراع فترة ، والآن جددته حرب السنين السبع . ففي مارس ١٧٥٧ استطاع أسطول إنجليزي يقوده الأميرال تشارلز وطسن ، ويعاونه جنود شركة الهند الشرقية بقيادة غلام من شرويشير يدعى روبرت كلايف أن يهزم شندرناجور من الفرنسيين ، وفي ٢٣ يونيو ، وبقوة لا تزيد على ٣٢٠٠ جندي ، هزم كلايف ٥٠٠٠٠ هندوكي وفرنسي عند بلاسي (على ثمانين ميلا شمال كالكتا) في معركة أكدت السيادة البريطانية على شمال شرق الهند . وفي أغسطس ١٧٥٨ طرد أسطول إنجليزي بقيادة الأميرال جورج بوكوك من المياه الهندية الأسطول الفرنسي الذي كان يحمي الممتلكات الفرنسية على طول الساحل . بعد ذلك بفضل ما امتاز به البريطانيون على الفرنسيين من القدرة

على جلب الرجال والمؤن ، لم يكن انتصار إنجلترا إلا مسألة شهور. ففي ١٧٥٩ أحبط وصول المؤن والامداد البريطانية بحرا الحصار الفرنسي الذي فرضه على مدراس الكونت دلالى . وهزم الفرنسيون هزيمة فاصلة في واندويوش في ٢٢ يناير ١٧٦٠ ، وسلمت بوندتشرى للبريطانيين في ١٦ يناير ١٧٦١ وقد ردت هذه المحطة الأمامية ، وهى آخر المحطات الفرنسية إلى فرنسا ١٧٦٣ ولكن كان مفهوما للجميع أن بقاء السيادة للفرنسية رهن برضاء بريطانيا .

وظلت الهند وكندا حتى عصرنا هذا معقلين ، فى الشرق والغرب ، لامبراطورية بنيت بالمال والشجاعة ، والقسوة والدكاء ، فى توافق تام مع أخلاقيات القرن الثامن عشر الدولية . ونحن ندرك الآن فى استعراضنا للماضى بعد هذه الفترة الطويلة أن تلك الامبراطورية كانت نتاجا طبيعيا للطبيعة البشرية والأحوال المادية . وأن البديل لها لم يكن استقلال الشعوب العاجزة بل امبراطورية نظيرها تؤسسها فرنسا . ويمكن القول إنه فى المدى الطويل ، برغم رجال من أمثال كلايف وهيستنجز وكبانج ، فإن حكم نصف العالم بواسطة البحرية البريطانية — أى الحفاظ على النظام حفاظا انسانيا وحسما نسبيا وسط الفوضى المهددة أبداً — كان نعمة لا نقمة على البشر .

٦ — الأعياء : ١٧٦٠ — ٦٢

ترى ماذا كان الشعب البروسى المطارد يفعل فى شتاء ١٧٥٩ — ٦٠ القارس؟ كان يجمع المال ويزيف العملة ، يجند الرجال ويدربهم ، ويقرض الشعر ويذيعه على الناس . فى يناير أصدر ناشر باريسى لص « أعمال فيلسوف صان — سوسى » وطبع فى اغتباط تلك القصائد المستهتره التى كان فواتير قد حملها معه من بوتسدام عام ١٧٥٣ والتى بسببها أوقفت رحلته بأمر فردريك وحبس فى فرانكفورت — على المين . وقدر الناشر أن تلك القصائد ستضحك الرؤوس غير المتوجة ، ولكنها ستجعل الباروكات الملكية ترتعد غضبا ، بما فيها باروكات جورج الثانى حليف فردريك . وأكد فردريك أن المطبوع المسروق

شوهته إضافات مدسوسة خبيثة ، وأمر صديقه المركز دارجانس (مدير الفنون الجميلة في أكاديمية برلين) بأن يصدر للفور « طبعة صحيحة » منقاة بعناية . فما لبثت الطبعة أن صدرت في مارس ، واستطاع فردريك أن يفرغ للحرب من جديد . وفي ٢٤ فبراير كتب إلى فولتير يقول :

لقد نشر الحديد والموت بيننا الخراب الرهيب والحزن أننا لم نباغ بعد نهاية المأساة . ومن السهل أن تتصور أثر هذه الصدمات القاسية في نفسى . وأنا ألوز بالرواية ما استطعت . لقد غدت عجوزاً ، محطماً ، أشيب الشعر مجرد البشرية ؛ وأنا أفقد أسناني ومرحى ^(٥٩) .

وكانت الحشود الهائلة من الجند تساق للفصل في أى الحكام سيضئ أكثر الرجال . كان سالتيكوف عائداً من روسيا في إبريل على رأس ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وكان للأودون ٥٠,٠٠٠ نمساوى في سيليزيا مقابل ٣٤,٠٠٠ يقودهم الأمير هنرى ؛ وكان داون في درسدن بمقاتليه المائة ألف يأمل أن يشق له طريقاً وسط رجال فردريك البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ والمعسكرين الآن قرب مايسن ؛ وكان الفرنسيون وعدتهم ١٢٥,٠٠٠ ينتظرون للزحف على ٧٠,٠٠٠ يقودهم فرديناند ، وبلغت جملة المقاتلين الموجهين إلى برلين ٣٧٥,٠٠٠ رجل . وفي ٢١ مارس ١٧٦٠ جددت النمسا وروسيا تحالفهما وأضافتا مادة سرية تعطى بروسيا لروسيا بمجرد رد سيليزيا إلى النمسا ^(٦٠) .

وكان لاودون البادى بإراقة دماء عام ١٧٦٠ ، إذ سحق ١٣,٠٠٠ بروسى عند لاندشوت (٢٣ يوليو) . وفي ١٠ يوليو شرع فردريك في حصار درسدن بمدفعية ثقيلة ، فدمر الجزء الأكبر من أجمل مدينة في ألمانيا ، ولكن القصف لم يجده شيئاً ، فلما نعى إليه أن لاودون يقترب من برزلا وأقلع عن الحصار ، وسير رجاله مائة ميل في خمسة أيام والتقى بجيش لاودون في ليبرج (١٥ أغسطس ١٧٦٠) وكبده خسارة ١٠,٠٠٠ رجل ، ثم دخل برزلاو . ولكن في ٩ أكتوبر أستولى جيش قوازي يقوده فرمور على برلين ، ونهب مستودعاتها الحربية ، وفرض عليها فدية مقدارها مليوناً طالر — وهذا يساوى نصف المعونة المالية التى كان فردريك يتلقاها سنوياً من بريطانيا . وخف لنجدة عاصمته ، ففر

الروس حال سماعهم بقدومه ، وقفل فردريك إلى سكسونيا ، وفي طريقه كتب إلى فولتير (٣٠ أكتوبر) يقول « إنك محظوظ باتباعك نصيحة كانديد والاكتفاء بزرع حديقتك وماكل إنسان يتاح له أن يفعل مايفعل . فعلى الثور أن يحرق الأرض ، وعلى البلبل أن يغنى ، وعلى الدرفيل أن يسبح ، وعلى أن أقاتل» (١١).

وعند تورجاو على نهر الألب (٣ نوفمبر) التقى رجاله وعددهم ٤٤,٠٠٠ بجيش نمساوى قوامه ٥٠,٠٠٠ ؛ وأرسل فردريك نصف جيشه بقيادة يوهان تسيتن ليطوق العدو ويهاجمه في المؤخرة ؛ ولكن المناورة أخفقت لأن فصيلة للعدو عطلت تسيتن في الطريق . وقاد فردريك كتائبه بشخصه إلى وطيس المعركة ؛ هنا أيضاً أطلقت النار على ثلاثة جياد من تحته وأصابته قذيفة في صدره ، ولكنها كانت قد فقدت مفعولها ، وصرع على الأرض فاقد الوعي ولكنه سرعان ماأفاق فقال : « حادث تافه» ثم عاد إلى المعركة . وكان انتصاره غالى الثمن ، فقد ارتد النمساويون بعد أن فقدوا ١١,٢٦٠ رجلا ولكن فردريك ترك ١٣,١٢٠ بروسيا على أرض المعركة ، وانسحب إلى برزلاو التى أصبحت الآن أهم مركز لامداداته . وكان داون لا يزال محتفظاً بدروسدن منتظراً في صبر موت فردريك . ثم منح الشتاء الأحياء مهلة ثانية .

وكانت سنة ١٧٦١ سنة دبلوماسية أكثر منها سنة حرب . ففى إنجلترا كان موت جورج الثانى (٥٥ أكتوبر ١٧٦٠) الذى كان عميق الاهتمام بهانوفر ، وإرتقاء جورج الثالث العرش ، وكان اهتمامه بها الأقل بكثير ، بمثابة تصديق ملكى على كراهية الشعب لحرب تكلف المالية الإنجليزية عبثاً باهظاً . وجرب شوازيل أن تجس فرنسا نبض إنجلترا لعقد صلح منفرد ، ولكن بت رفض ، وظل على وفائه المطلق لفردريك ، ولكن القوة البريطانية فى هانوفر خفض عددها ، واضطر فرديناند إلى التخلي برنزويك وفولفنبوتل للفرنسيين . واتجه شوازيل إلى أسبانيا ، وعقد معها « ميثاقاً عائلياً » بين الملكين البوربونيين ؛ أغراها فيه بالإنضمام إلى الحلف المعادى لروسيا ، وتضافرت التطورات الحربية مع هذه النكسات الدبلوماسية لدفع فردريك مرة

أخرى إلى شفا الهزيمة النكراء . فقد استطاع لاودون بجيش من ٧٢,٠٠٠ مقاتل أن ينضم إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل روسي ، فعزلوا فردريك عن بروسيا عزلاً تاماً ، ووضعوا الخطط للاستيلاء على برلين والاحتفاظ بها . وفي أول سبتمبر ١٧٦١ عاد النمساويون للاستيلاء على شقايدنتز ومستودعاتها . وفي ٥ أكتوبر استقال بت ، مؤثراً الاستقالة على خيانة فردريك بعد أن غلبته على أمره مطالبة الشعب بالصلح . ورأى خالفه لايرل بيوت أن قضية فردريك ميثوس منها ، وأن المفاوضة للصلح وسيلة لدعم مركز جورج الثالث ضد البرلمان . فألح على فردريك في أن يسلم بالهزيمة ولو إلى حد التنازل عن جزء من سيليزيا للنمسا . وتردد فردريك ، وقبض عنه بيوت المزيد من العون المالي ودعت أوروبا كلها تقريباً ، بما فيها الكثير من البروسيين ، فردريك إلى بذل التنازلات . وكان جنوده قد فقدوا كل أمل في النصر ، وأندروا ضباطهم بأنهم لن يهاجموا العدو مرة أخرى ، وأنهم يستسلمون إذا هوجموا^(٦٢) وما انختم عام ١٧٦١ حتى وجد فردريك نفسه يقف وحيداً أمام أكثر من عشرة أعداء . واعترف بأن لا خلاص إلا بمعجزة .

وقد أنقذته معجزة . ففي ٥ يناير ١٧٦٢ ،^(٦٣) ماتت القيصرة الزافيتا التي تمقت فردريك ، وخلفها بطرس الثالث الذي كان يعجب به مثلاً أعلى للفاتح والملك . فلما سمع فردريك النبأ أمر أن يكسى جميع الأسرى الروس ويعطوا نعلاً ويطعموا ويطلق سراحهم . وفي ٢٣ فبراير أعلن بطرس نهاية الحرب مع بروسيا . وفي ٥ مايو وقع معاهدة صلح وضعها فردريك بنفسه بناء على طلبه . وفي ٢٢ مايو حذت السويد حذو روسيا . وفي يونيو دخل بطرس الحرب من جديد ، ولكن حليفاً لبروسيا ، وارتدى حلة عسكرية بروسية وتطوع للخدمة « تحت قيادة مولاي الملك » . فكان هذا من أعجب الانقلابات في التاريخ .

ولقد أدفا صدر فردريك ، ورفع روح جيشه ، ولكنه وافق أعداءه بعض الشيء على أن بطرس رجل مختل العقل ، وأفرعه أن يسمع برغبة بطرس في مهاجمة الدنمرك ليستعيد هولشتين . فبذل فردريك قصارى

جهده ليشنيه ، ولكن بطرس أصر ، وأخيرا — فى رواية فردريك — « اضطررت لإلتزام الصمت ، وترك هذا الملك المسكين إلى هذا الاعتداد بالنفس الذى دمره » (٦٤) .

أما بيوت ، الذى انقلب الآن عدوا نشيطاً لفردريك ، فقد طلب إلى بطرس أن يترك العشرين ألف روسى الموجودين فى الجيش النمساوى حيث هم . وأرسل بطرس نسخة من الخطاب إلى فردريك ، وأصدر أمره للجند الروسى بالانضمام إلى فردريك والخدمة فى صفوفه ، وعرض بيوت على النمسا صلحا منفردا ، واعدة اياها بتأييد التخلي لها عن أقاليم بروسية ، ولكن اونتر رفسر ، وندد فردريك ببيوت لأنه وغد (٦٥) . وسره أن يسمع بأن فرنسا أنهت معونتها المالية للنمسا ، وأن الترك يهاجمون النمساويين فى المجر (مايو ١٧٦٢) .

وفى ٢٨ يونيو عزل بطرس بانقلاب أجلس على العرش كاترين الثانية « امبراطورة للأقاليم الروسية كلها ، وفى ٦ يوليو اعتقل بطرس ، وأصدرت كاترين الأمر لكزرنيكيف ، الذى تولى قيادة الروس تحت فردريك ، بأن يعود بهم إلى أرض الوطن فورا . وكان فردريك يتجهز لهجوم على داون . فطلب إلى كزرنيكيف أن يخفى نبأ تعليمات القيصرة الثلاثة أيام . وهزم فردريك داون فى بوركرزدورف (٢١ يوليو) دون أن يستخدم هؤلاء الروس الاحتياطيين . وسحب كزرنيكيف الآن جنوده ، ولم تعد روسيا تشارك بأى دور فى الحرب . أما وقد خف الخطر عن الملك فى الشمال ، فإنه ساق النمساويين أمامه ، واسنولى من جديد على شفايدنتز وفى ٢٩ اكتوبر هزم الأمير هنرى ، بجيش من ٢٤٠٠٠ مقاتل ، ٣٩٠٠٠ نمساوى وجندى امبراطورى عند فرايبورج بسكسونيا . وكانت هذه هى العملية الحربية الكبرى الوحيدة التى انتصر فيها البروسيون دون أن يكونوا تحت قيادة فردريك . وكانت أيضا آخر المعارك الهامة فى حرب السنين السبع .

٧ - الصلح

لقد أدرك الأعياء غرب أوروبا كلها ، وأولها بروسيا ، التي جند فيها الصبية ذوو الأربعة عشر ربيعا ، ودمرت المزارع ، وأفلس التجار من جراء خنق التجارة ، أما النمسا فكانت تملك من الرجال أكثر مما تملك من المال ، وقد فقدت المعونة الروسية القيمة . وأما أسبانيا فقدت هافانا ، ومانيلا لاستيلاء الانجليز عليهما ، فضلا عن تدمير بحريتها كلها تقريبا . وأما فرنسا فقد أفلست ، وضاعت مستعمراتها ، وأوشكت تجارتها أن تختفى من البحار . وأما إنجلترا فقد احتاجت إلى السلام لتدعم مغامرها .

وفي ٥ سبتمبر ١٧٦٢ أوفد بيوت دوق بدفورد إلى باريس ليفاوض شوازيل في تسوية للصراع . فاذا نزلت فرنسا عن كندا والهند فان إنجلترا سترد جواديلوب والمارتنيك ، وفرنسا أن تحتفظ ، بموافقة بريطانيا ، بإقليمى فردريك الغربيين ، وهما فيزل وجلدولاند^(٦٦) . ونددت بهذه المقترحات ببلاغة ملهية ، ولكن رأى العام أيد بيوت ، وفي ٥ نوفمبر وقعت إنجلترا والبرتغال مع فرنسا وأسبانيا صلح فونتنبلو . ونزلت فرنسا عن كندا ، والهند ، ومينورقة ، وردت إنجلترا لفرنسا وأسبانيا فتوحها في البحر الكاريبي . ووعدت فرنسا بأن تلتزم الحياد من بروسيا والنمسا ، وأن تسحب جيوشها من الأراضي البروسية في غرب ألمانيا . وأكد هذه الترتيبات صلح آخر يسمى صلح باريس (١٠ فبراير ١٧٦٣) ، ولكنه ترك لفرنسا حقوق صيدها قرب نيوفوندلند ، وبعض المحطات التجارية في الهند ، ونزلت أسبانيا عن فلوريدا لانجلترا ، ولكنها أخذت لويزيانا من فرنسا . وكانت هذه الترتيبات ، من الناحية القانونية انتهاكا لتعهد بريطانيا بالألا ترم صلاحا منفردا ، ولكنها من الناحية العملية كانت نعمة لفردريك . لأنها أسفته من جميع خصومه إلا اثنين ، النمسا والرايش ، وكان على ثقة الآن بأن في استطاعته أن يثبت لهذين العدوين اللذين ثبطت همتهما .

وراضت ماريا تريزا نفسها على الصلح مع أبغض أعدائها إلى قلبها .
فقد تخلى عنها جميع حلفائها الكبار ، وكان ١٠٠,٠٠٠ تركى يزحفون على
الحجر ، فأوفدت مبعوثا لفردريك يعرض عليه الهدنة ، فقبلها ، وفى
هوبرتوزبرج (قرب ايبزج) ، فى ٥ - ١٥ فبراير ١٧٦٣ ، وقعت
بروسيا ، والنمسا ، وسكسونيا ، والأمراء الألمان ، المعاهدة التى أنهت
حرب السنين السبع . وبعد كل ما أريق من دماء ودوقاتيات ، وروبيلات ،
وطالرات وكرونات ، وفرنكات ، وجنيهات ، أعيد «الوضع السابق للحرب»
فى القارة . واحتفظ فردريك بسيليزيا ، وجلاتز ، وفيزل ، وجلدرلاند ،
وأخلى سكسونيا ، ووعد بأن يؤيد ترشيح جوزيف ابن ماريا تريزا ملكا
على الرومان ، وإذن امبراطورا مستقبلا . وعند التوقيع النهائى هنا فردريك
مساعده على « أسعد أيام حياتك » ، فأجاب بأن أسعد أيام حياته
سيكون آخرها (٦٧) .

ماذا كانت نتائج الحرب ؟ على النمسا فقد سيليزيا نهائيا مع دين حرب
قدره ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ إيكو . وقضى على هيبة الحكام النمساويين باعتبارهم
الأصحاب التقليديين للقب الأمبراطورى ، وقد عامل فردريك ماريا تريزا
معاملته لحاكمة لامبراطورية نمساوية - مجرية ، لا رومانية مقدسة ، وترك
أمراء الأمبراطورية الألمان الآن وشأنهم ، وسرعان ما سيخضعون لزعامه
بروسيا فى الرايش ، لقد اضمحل سلطان آل هابسبورج وصعد سلطان
آل هوهنتسولرن ، وأصبح الطريق ممهدا لبسمارك . وبدأت النزعتان
الوطنية والقومية تفكران تفكير ألمانيا الموحدة بدلا من تفكير الدولة المعترزة
باستقلالها عن غيرها من الدويلات . وحفز الأدب الألمانى فأنجب شتورم
ودرانج ، ثم صعد إلى جوته وشيلر .

أما السويد ففقدت ٢٥,٠٠٠ رجل ، ولم تغنم غير الديون . وأما
الروسيا ففقدت ١٢٠,٠٠٠ رجل بين المعارك ، والشدائد ، والأمراض ،
ولكنها استعوضهم عما قليل ، ولقد فتحت عهدا جديدا فى تاريخها الحديث
بزحف جيوشها فى الغرب ، وأصبح تقسيم بولندة الآن أمرا لا مناص منه ،
وأما فرنسا فلم تجن غير الخسائر الفادحة فى مستعمراتها وتجارتها ، وحالة

قريبة من الافلاس دفعتها خطوة أخرى إلى الأمام . وأما إنجلترا فكانت النتائج بالنسبة لها أعظم حتى مما قدر زعمائها ، السيطرة على البحار ، والسيطرة على عالم المستعمرات ، وتأسيس امبراطورية عظيمة ، وبداية ١٨٢ سنة من السيادة في العالم . وأما بروسيا فخسرت خراب أراضيها وتدمير ثلاثة عشر ألف منزل فيها ، وإحراق مائة مدينة وقرية سويت بالتراب ، واقتلاع آلاف الأسر من مواطنها ، ومات ١٨,٠٠٠ بروسى (حسب تقدير فردريك) ^(٦٨) في المعارك أو المعسكرات أو الأسر ، ومات حتى أكثر من هؤلاء لنقص الدواء أو الطعام ، وفي بعض المناطق لم يبق غير النساء والشيوخ ليزرعوا الحقول ، وهبط السكان من ٤,٥٠٠,٠٠٠ في ١٧٥٦ ، إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ في ١٧٦٣ .

وغدا فردريك الآن بطل ألمانيا بأسرها (عدا سكسونيا ا) فدخل برلين دخول الظافر بعد غياب ستة أعوام . وتوهجت المدينة بالأضواء ترحيبا به ، وأشادت به منقلبا لها ، وذلك رغم عوزها وفجيعة كل أسرة فيها . ولانت روح هذا المحارب القديم التي قدت من فولاذ فهتف « عاش شعبي العزيز طويلا ! عاش أبنائي طويلا . » ^(٦٩) لقد كان في قدرته أن يتواضع ، وفي الساعة التي تملقه فيها الجميع لم ينسى الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها قائداً — مع أنه أعظم القواد الذين أنجبهم العصر الحديث باستثناء نابليون . ولم يغب عن بصره آلاف الشبان البروسيين الذين بذلوا دماءهم ثمناً لسيليزيا . ولقد بذل هو أيضاً الثمن ، فشاخ قبل أوانه وهو بعد في الحادية والخمسين ، واحدودب ظهره ، وهزل وجهه وجسمه ، وسقطت أسنانه ، وشاب أحد مفرقيه ، واضطربت أحشائه بالمغص ، والإسهال ، والبواسير ^(٧٠) وقال معقبا « إن أصلح مكان له الآن هو ملجأ للعجائز ذوى العلل المزمنة : وقد عمر ثلاثة وعشرين عاما آخر ، وحاول أن يكفر عن آثامه محكم يتسم بالسلام والنظام .

أما أهم نتائج حرب السنين السبع من الناحية السياسية فهي ظهور الامبراطورية البريطانية ، وإنبعاث بروسيا دولة من الطراز الأول ، أما من الناحية الاقتصادية فهي التقدم صوب الرأسمالية الصناعية : فقد كانت

تلك الجيوش العملاقة أسواقاً رائعة للاستهلاك الجماعى للسلع المنتجة بمقادير كبيرة ، فأى زبون أفضل من ذاك الذى يعد بتدمير السلع المشترى فى أقرب فرصة وطلب غيرها ؟ وأما من الناحية الخلقية فأن الحرب أعانت على التشاؤم ، والكلبية ؛ والفوضى الخلقية ، فالحياة رخصت ، والموت قريب ، والعذاب هو القاعدة ، والنهب مباح ، واللذة تقتنص حينها وجدت ولو لحظة . قال جريم فى وستفاليا عام ١٧٥٧ « لولا هذه الحملة لما أدركت نعط إلى أى مدى بعيد يمكن أن تبلغ أهوال الفقر وظلم الإنسان ، (٧٢) ولم تكن الحرب إلا فى بدايتها . وقد أعان العذاب الدين كما عوقه . فإذا كانت قلة من الناس تحولت إلى الكفر لواقعية الشر الصارخة ، فأن الكثرة دفعت إلى التقوى لحاجتها إلى الإيمان بانتصار الخير فى النهاية . وعمّا قليل ستكون عودة إلى الدين فى فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا وقد أنقذت البروتستنتية فى إنجلترا من الدمار ، ولو أن فردريك خسر الحرب لحل بروسيا فى أغلب الظن ما حل ببوهيميا بعد عام ١٦٢٠ ، فأكرهت على العودة إلى المذهب والقوة الكاثوليكين ؛ أن انتصار الخيال على الواقع ثروة من نزوات التاريخ .

الكتاب الثاني

فرنسا قبل الطوفان

١٧٥٧ - ١٧٧٤

الفصل الثالث

حياة الدولة

١ - رحيل الخليفة

كانت مدام دېومبادور إحدى ضحايا الحرب . فقد ظل سحر شخصيتها حينما يسترق لب الملك بينما الأمة تنوح ، ولكن بعد أن حاول داميان إغتياله (٥ يناير ١٧٥٧) أرسل إليها لويس الخامس عشر كلمة يأمرها فيها بالرحيل فوراً ، وكأنه شعر فجأة بوجود الله . ولكنه أرتكب غلطة إنسانية حين أتى ليودعها ، ووجدها تحزم حقائبها هادئة حزينة ، فغلبه بعض ما بقي له من رقة وحنان ، وطلب إليها أن تبقى^(١) . وسرعان ما ردت إليها كل امتيازاتها وسلطاتها السابقة ، فكانت تفاوض الدبلوماسيين والسفراء ، وترفع الوزراء والقواد وتخفهم . وكان مارك بيير دفواييه ، كونت دارجنسون ، قد قاومها في كل خطوة ، وحاولت أن تسترضيه قصبدا ، فأفلحت الآن في أن تحصل الأبيه دبرنيس محله وزيراً للشئون الخارجية ، ثم شوازيل (١٧٥٨) . واحتفظت بحنانها لأقربائها وللملك فقط ، وواجهت غير هؤلاء بقلب من حديد في هيكل مريض ، وزجت ببعض خصومها في الباستيل وتركهم فيه سنوات^(٢) . وفي غضون ذلك راحت تدخر لغدا ، وزينت قصورها ، وأمرت بتشيد ضريح فخيم لها تحت ميدان فاندوم .

وقد حملت في نظر الشعب ، وفي البرلمان ، وفي القصر ، أكثر التبعة على هزائم فرنسا في الحرب ، ولكنها لم تنل أى ثناء على انتصاراتها ، فاعتبرت مسئولة عن الحلف البغيض مع النمسا ، وأن لم تكن سوى عامل صغير من عوامل ذلك الزواج ، وأدينّت بسبب الكارثة التي حاقت بالجيش في روسباخ حيث قاد الفرنسيين رجلها سوبيز ، ولم يعرف نقادها - أو رآوه غير ذى صلة بالموضوع - أن سوبيز أشار بعدم خوض المعركة • وأنه أكره عليها بنهور القائد الألماني . ولو أن الأمر كان بيد سوبيز ، ولو اتبعت خطته التي أشار بها - وهي تدويغ فردريك بالمسيرات وبهروب الجند من جيشه - ، ولو أن القيصرة اليزافيتا لم تمت في هذا الطرف غير المواتي ولم تترك روسيا لفتى من عباد فردريك - لو أن هذا حدث فربما أنهارت مقاومة بروسيا ، ونالت فرنسا الأراضي الواطئة النمساوية ، وحملت بومبادور فوق بحر من الدماء لتهتف لها الأمة . ولكنها أخفقت في استرضاء إله الصدفة العظيم .

وأبغضها البرلمان لأنها شجعت الملك على أن يتجاهله ، وأبغضها الأكليروس لأنها صديقة لفولتير ولكتاب الموسوعة ، وقال كرسطوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، أنه « يتمنى أن يراها تحرق بالنار ^(٣) » . وحين عانت الجماهير الباريسية من غلاء الخبز صاحت « أن تلك البغي التي تحكم المملكة تجر عليها الخراب » . وارتفع صوت من الغوغاء في اليون دلا تورنل يقول « لو وقعت في أيدينا هنا لما تخلف منها ما يكفي لاحتالها إلى رفات ^(٤) » . ولم تجرؤ على الظهور في شوارع باريس ، وكان الأعداء يحيطون بها في فرساي . وكتبت للمركيزة دفونتناي تقول « أني وحيدة تماما في وسط هذا الحشد من صغار النبلاء ، الذين يبغضونني والذين احتقرهم . أما أكثر النساء فحديثهن يصيبني بصداع أليم . فغرورهن ، وخيلاؤهن ، وسفالتن ، وخياناتهن ، تجعلني لا أطيعهن ^(٥) » .

فلما استطلت الحرب ، ورأت فرنسا كندا والهند تختطفان منها ، وضيق فرديناند البرنزويكي الحناق على الجيش الفرنسي ، وظهر الجنود العائدون ،

جرحي أو مشوهين ، في شوارع باريس ، وضح للملك أنه ارتكب خطأ
محزنا بالأصغاء لكاونتز وبومبادور ، وفي ١٧٦١ التمس العزاء في أحضان
خليفة جديدة هي الآنسة رومان ، التي ولدت له الولد الذي سيصبح الآبيه
دهوربون . وأرجفت الشائعات أن بومبادور ثارت نفسها بقبول شوازيل
عشيقة لها^(٦) ، ولكنها كانت أضعف ، وشوازيل كان أذكى ، من أن
يسمحا بهذا الغرام ؛ لقد أسامت لشوازيل قوتها لاجبها ، ولعلها فاهت
الآن بهذه النبوة اليائسة « بعدى الطوفان^(٧) » .

كانت على الدوام واهنة الجسد ، بصقت الدم حتى في شبابها ، ومع
أننا لسنا واثقين من أنها كانت تشكو السل ، فأننا نعلم أن سعالها ازداد
ازديادا مؤلما وهي تقترب من الأربعين ، واستحال الصوت المرئم الذي كان
يوما ما يأسر قلب الملك وحاشيته صوتا مبحوحا متوترا . وأفزع هزالها
إصدقائها . وفي فبراير ١٧٦٤ لزمت فراشها بحمى مرتفعة والتهاب دموى
في الرئتين . وفي إبريل ساءت حالتها حتى أنها إستدعت موثقا لتكتب
وصيتها الأخيرة . فتركت فيها هبات لأقربائها ، وأصدقائها ، وخدمها ،
وأضافت « أن كنت قد نسيت أيا من أقربائي في هذه الوصية فأني أرجو
أخي أن يدبر معاشهم » . وأوصت للويس الخامس عشر بقصرها الباريسي ،
الذي يشغله الآن رئيس جمهورية فرنسا باسم قصر الإليزيه . وكان الملك
ينفق الساعات الكثيرة بجوار فراشها ، ونذر أن ترك حجرتها في أيامها
الأخيرة ، وكتب الدوفين (ولي العهد) الذي كان عدوها دليماً إلى أسقف
فردان يقول « إنها تموت بشجاعة يندر أن توجد بين الرجال أو النساء
ورثتها مملوئتان ماء أو صديدا ، وقابها محتقن أو متضخم . إنه موت قاس
مؤلم إلى حد لا يصدق^(٨) » . وكانت — حتى لهذه المعركة الأخيرة ، ترتدى
الثياب الفاخرة وتحمر خديها بالخافين . وظلت تملك حتى النهاية تقريبا .
وأحاط أفراد الحاشية بأريكتها ، وراحت توزع الأنعامات ، وتعين
الأشخاص في المناصب الكبرى ، وكان الملك ينفذ الكثير من توصياتها .

وأخيرا سلمت بالهزيمة . ففي ١٤ أبريل تلقت شاكرة القربان الأخير

الذى حاول التخفيف من الموت بالرجاء . وحاولت الآن ، وهى التى ظلت طويلا صديقة للفلاسفة ، أن تستعيد أيمان طفولتها . فصلت كما يصلى الطفل :

« أستودع الله روحى ، متوسلة إليه أن يرحمها ، وأن يغفر لى آثامى ، وأن يمنحنى نعمة الندم عليها والموت جديرة بمراحمه ، راجية أن أَرْضَى عدله ببهاء الدم الثمين ، دم يسوع المسيح مخلصى ، وبشفاعة العذراء مريم وجميع القديسين فى الفردويس^(٩) » .

وهمست فى إذن القسيس الذى كان يبرح الحجرة وهى تعالج سكرات الموت : « إنتظر لحظة » سبرح البيت معاً^(١٠) . وماتت فى ١٥ أبريل ١٧٦٤ مَحْتَنَقة باحتقان فى رثتها ، وكانت فى عامها الثانى والأربعين .

وليس صحيحاً أن لويس تقبل موتها فى غير مبالاة ، فهو إنما أخفى حزنه فقط^(١١) قال الدوفين : « أن الملك فى كرب شديد وإن تمالك نفسه أمامنا وأمام جميع الناس^(١٢) » . وفى ١٧ أبريل ، حين حمل جثمان المرأة التى ظلت نصف حياته طوال عشرين عاماً ، من قصر فرساي فى يوم قارس البرد شديد المطر ، خرج إلى الشرفة ليطل عليها وهى تبرح القصر وقال لتابعه شامبلوست « ستلقى المركيزة جواً رديئاً جداً » ولم تكن هذه ملاحظة عابثة ، فقد روى شامبلوست أن فى عيني الملك دموعاً تترقرق ، وأن لويس إضاف قائلاً فى حزن « هذه هى التعزية الوحيدة التى أستطيع تقديمها لها^(١٣) » . ودفنت بناء على رغبتها جنباً إلى جنب مع طفلتها الكسندرين ، وفى كنيسة الكبوشيين التى اختفت الآن — فى ميدان فاندوم . واغتبط البلاط لتحرره من سلطانها ، أما الشعب الذى لم يحس بسحرها فقد لعن إسرافها الشديد ، ولم يلبث أن نسيها ، وأما الفنانون والكتاب الذين ساعدتهم فقد حزنوا لفقد صديقة منعمة متفهمة . على أن ديدرو كان قاسياً فى حديثه عنها إذ قال : « إذن ماذا بقى من هذه المرأة التى كلفتنا هذا الثمن الغالى فى المال والرجال ، وتركتنا دون شرف ولاهمة ، وقلبت نظام أوربا السياسى بأسره ؟ حفنة من تراب » وأما فولتير فقد كتب من فرنیه يقول :

« يحزننى جداً موت مدام دبومبادور . كنت مدينا لها بالفضل ، وأنا ابكيها عرفانا بصنيعها . ويبدو من السخف أنه في الوقت الذي يظل فيه على قيد الحياة كاتب عجوز لا يكاد يقوى على المشي ، تموت امرأة حسناء في عنفوان مجدها وهي بعد في الأربعين . ولو أنها استطاعت أن تعيش كما أعيش في هدوء ، فربما كانت اليوم حية . . . لقد أوتيت إنصافاً في عقلها وقلبها . . . إنها نهاية حلم . . . »^(١٤)

٢ - انتعاش فرنسا

لم تفق فرنسا عن حرب السنين السبع إفاقة كاملة حتى جاء نابليون . ذلك أن الضرائب الثقيلة كانت قد ثبّطت الزراعة أيام لويس الرابع عشر ، وظلت تثبّطها أيام لويس الخامس عشر ، فتركت آلاف الأفدنة التي كانت تزرع في القرن السابع عشر بوراً في ١٧٦٠ وأخذت تتحول إلى براري قاحلة.^(١٥) واستنزفت الماشية والأغنام ، وشححت المخصبات ، وجفت التربة . وتشبّث الفلاحون بطرق الفلاحة القديمة الرديئة ، لأن الضرائب كانت تزداد مع كل تحسين يزيد من ثروتهم . وافتقر كثير من الفلاحون إلى الدفء في بيوتهم في الشتاء إلا أن يلتمسوه من الماشية التي تسكن معهم . وأتلفت نوبات شاذة من الصقيع في ١٧٦٠ و ١٧٦٧ المحاصيل والكروم خلال نموها . وكان محصول سيء واحد كفيلاً بأن يقرب قرية من المجاعة ، ومن الخوف من الذئاب الجائعة الرابضة حولها .

ومع ذلك بدأ الانتعاش الاقتصادي بمجرد توقيع الصلح . كانت الحكومة عاجزة فاسدة ، لكن إجراءات كثيرة اتخذت لاعانة الفلاحين . فوزع نظار الزراعة المملكون البذار وشقوا الطرق ، ونشرت الجمعيات الزراعية المعلومات الزراعية ، وأقامت المسابقات ، ومنحت الجوائز^(١٦) . واستجاب الكثير من السادة الاقطاعيين لحفز جماعة الفريوقراطيين فاهتموا بتحسين وسائل الزراعة ومنتجاتها . وازداد عدد الملاك من الفلاحين . ففي عام ١٧٧٤ كان هناك ٦ ٪ فقط من السكان الفرنسيين يرزحون تحت نير القنية .^(١٧) ولكن كل زيادة في الانتاج كانت تجلب معها زيادة في

السكان ، فالأرض غنية ، ولكن متوسط ملكية الفلاح صغير ، وهكذا ظل الفقر جاثماً على الصدور .

ومن أصلاب الفلاحين جاء الفائض البشرى الذى زود الصناعات فى المدن النامية بالرجال . وكانت الصناعة باستثناءات قليلة لا تزال فى المرحلة البيتية واليدوية . وسيطرت منظمات رأسمالية واسعة النطاق على صناعة المعادن ، والتعدين ، وصناعة الصابون ، والمنسوجات . وكان بمرسيليا عام ١٧٦٠ خمسة وثلاثون مصنعا للصابون تستخدم ألف عامل . (١٨) وكانت ليون معتمدة فى رخائها على السوق المتقلبة لنتائج أنوالها . وقد أدخلت آلات التمشيط الانجليزية حوالى عام ١٧٥٠ ، وحوالى عام ١٧٧٠ بدأ دولاب الغزل الذى يدير ثمانية وأربعون مغزلا فى وقت واحد يحل محل عجلة الغزل فى فرنسا . وكان الفرنسيون أسرع فى الاختراع منهم فى التطبيق ؛ فقد أعوزهم رأس المال الذى استطاعت إنجلترا بفضل ثرائها من التجارة أن تستخدمه فى تمويل التحسينات الميكانيكية فى الصناعة . وكانت الآلة البخارية قد عرفت فى فرنسا منذ ١٦٨١ . (١٩) واستعملها جوزف كونيو عام ١٧٦٩ لتشغيل أول سيارة معروفة ؛ وبعد عام استعملت هذه السيارة لنقل الاحمال الثقيلة بسرعة أربعة أميال فى الساعة ، ولكن الآلة أفلت زمامها فهدمت جدارا ، وكان يجب وقفها كل خمس عشرة دقيقة لتزويدها بالماء (٢٠) .

وكانت وسيلة النقل ، غير هذه الاستثناءات الغريبة ، هى الحصان ، أو عربة الجحر ، أو عربة الركوب ، أو المركب ، وكانت الطرق والترع تفضل نظائرها فى إنجلترا كثيرا ، ولكن الفنادق كانت أسوأ . وقد أسست خدمة بريدية منظمة عام ١٧٦٠ ؛ ولم تكن سرية تماما ، فقد أمر لويس الخامس عشر مديرى البريد بأن يفتحوا الخطابات ويباغوا الحكومة بأى محتوى مريب فيها (٢١) . وتعطلت التجارة الداخلية من جراء المكوس ، والتجارة الخارجية نتيجة للحرب وضياع المستعمرات . وأفلست شركة الهند وحلت (١٧٧٠) . ولكن التجارة مع الدول الأوربية زادت زيادة كبيرة

خلال القرن ، فارتفعت من ١٠٠٠ر٦٠٠ر١٧٦ جنيه في ١٧١٦ إلى ١٠٠٠ر٣٠٠ر٨٠٤ جنيه في ١٧٨٧ ، غير أن بعض هذه الزيادة لم يكن إلا انعكاساً للتضخم ، وازدهرت التجارة مع جزر الهند الغربية الفرنسية في السكر والعبيد .

وكان للتضخم التدريجي ، الراجع بعضه إلى تزييف العملة ، وبعضه إلى إنتاج العالم المتزايد من الذهب والفضة ، أثر مشجع للمغامرة الصناعية والتجارية فكان رجل الأعمال يستطيع عادة أن يتوقع بيع ناتجه بسعر أعلى مما اشترى به عرق العمال ومواد الصناعة . وهكذا تضخمت ثروات الطبقة الوسطى ، في حين بدلت الطبقات الدنيا ماوسعها من جهد لتقرب بين دخولها وبين الأسعار . على أن هذا التضخم الذي مكن الحكومة من غش دائئها هبط بقيمة دخلها ، فارتفعت الضرائب بنزول قيمة الجنيه ، وأصبح الملك معتمداً على كبار الصيارفة أمثال إخوان باري ، لاسيما باري - دوفرنيه ، الذي أبهج بومبادور كثيراً بشعورته المالية حتى استطاع خلال الحرب أن يرفع الوزراء والقواد ويخفضهم .

وكان أهم تطور اقتصادي في فرنسا القرن الثامن عشر انتقال معظم الثروة من ملاك الأرض إلى المسيطرين على الصناعة ، أو التجارة ، أو المال ، ولاحظ فولتير في ١٧٥٥ « نظراً إلى مغنم التجارة المتزايدة . . نقصت ثروة كبار القوم عن ذي قبل ، وزادت الثروة في الطبقة الوسطى . وأسفر هذا عن تقريب الفجوة بين الطبقات » (٢٢) واستطاع رجال أعمال مثل لا بولنيير أن يشيدوا قصوراً يحسدهم عليها الأشراف ، وأن يزينوا موائلهم بأعظم الشعراء والفلاسفة في المملكة ، وغدت البرجوازية راعية الآداب والفنون . وعزت الاستقرارية نفسها بالتشبث بامتيازاتها والظهور بمظهرها الرفيع . وأصرت على نبال المولد شرطاً للانخراط في وظائف ضباط الجيش أو الأساقفة ، وتباهت بشعارات نبالتها وأنسابها المتكاثرة ، وكافحت - عبثاً في كثير من الأحيان - لتقصي أفراد الطبقة العامة الأكفاء أو النابهين عن الوظائف الإدارية العليا وعن البلاط . وطالب البرجوازي الغني بأن يفتح مجال الترقى للموهبة أيّاً كان نسب صاحبها ، فلما أغفل مطلبه راودته فكرة الثورة .

وإذا استثنينا من حرب الطبقات جانب الفلاحين ، فإن جمع الجوانب المشاركة فيها اتخذت لها شكلا مرثياً في ضحيج باريس وفخامتها . فنصف تروة فرنسا انسابت إلى عاصمتها ، ونصف فقر فرنسا تقيح فيها ، وقال روسو إن باريس « ربما كانت المدينة الوحيدة في العالم التي تعظم فيها فوارق الثروات ، والتي يسكن فيها الثراء الصارخ والفقر المدقع جنباً إلى جنب » (٢٣) . وكان ستون من الفقراء المعانين جزءاً من الحرس الرسمي المرافق لجثمان ابن الدوفين البكر في ١٧٦١ (٢٤) . وحوالي عام ١٧٧٠ كانت باريس تحوى ٦٠٠,٠٠٠ نفس من بين سكان فرنسا البالغين ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ (٢٥) . وتؤوى أكثر أهل أوربا نشاطاً ، وأوسعهم إطلاعاً ، وأشدهم فجوراً . وفيها أفضل الشوارع رصفاً ، وأفخم الطرق المشجرة والمتنزهات ، وأزحم حركات المرور ، وأجمل الحوانيت ، وأفخر القصور ، وأظلم الأكواخ ، وطائفة من أبدع الكنائس في العالم . وقد تعجب منها جولدوني الذي وفد عليها من البندقية في ١٧٦٢ فقال في وصفها :

« يالها من حشود ! وأي تجمع للناس من جميع الأوصاف ! .. وأي منظر مدهش استرعى حواسي وذهني وأنا أدنو من التوبلري ! رأيت اتساع رقعة تلك الحديقة الهائلة ، التي لا نظير لها في الدنيا ، والتي لم تستطع عيناى أن تقيس طولها . ثم نهراً جليلاً ، وكبارى عديدة مريجة ، وأرصعة شاسعة ، وحشوداً من العربات ، وزحاماً من الناس لا آخر له » (٢٦) .

وكانت مئآت المتاجر تغرى الأغنياء والمفلسين ، ومئآت الباعة يسرحون ببضائعهم في الشوارع ، ومئآت المطاعم (وقد ظهرت الكلمة restaurants أول ما ظهرت في ١٧٦٥) تعد بتعويض الجوع restore عن جوعهم ، ومئآت التجار يجمعون التحف القديمة أو يزيّفونها أو يبيعونها ، ومئآت الحلاقين يقصون ويبدرون الشعور أو الباروكات حتى لطيفة الحرفيين . وفي الأزقة الضيقة كان الفنانون والحرفيون ينتجون الصور ، والأثاث ، والثياب ، والحلى المبهجة لأثرياء القوم . وهنا كانت عشرات المطابع تطبع الكتب ، متعرضة أحياناً لخطر شديد ، وفي ١٧٧٤ قدرت تجارة الكتب في باريس بمبلغ

٤٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو أربعة أمثال تجارة لندن فيها . (٢٧) قال جاريك : « إن لندن تصلح للإنجليز ، أما باريس فتصلح لكل إنسان » (٢٨) وقال فولتير : في ١٧٦٨ « لدينا أكثر من ثلاثين ألف شخص في باريس يهتمون بالفن » . (٢٩) هناك كانت عاصمة العالم الثقافية دون منازع .

٣ — الفزيوقراطيون

في شقة بفرساي تحت مسكن مدام دبومبادور وعينها الراحية ، تكونت تلك النظرية الاقتصادية التي قدر لها أن تحرك الثورة وتصوغها ، وتشكل رأسمالية القرن التاسع عشر .

وكان الاقتصاد الفرنسي يكافح منذ زمن طويل ليشب عن الطرق برغم ما قيد به من أقمطة اللوائح والنظم — التي وضعها طوائف الحرفيين وكولبير ، ومن خرافة كخرافة الملك ميداس ، خرافة « المراكنتلية » التي خالت الذهب هو الثروة . فسعى إلى زيادة الصادرات ، والتقليل من الواردات وأخذ « الفرق الذي في صالح الدولة فضة وذهباً لدعم القوة السياسية والحربية » كانت فرنسا وإنجلترا قد أخضعتا اقتصاديهما القوميين لشرك من القواعد والقيود أعانت على التنظيم الاقتصادي ولكنهما عطلت الإنتاج بتعطيلها الابتكار والمغامرة والمنافسة . كل هذا — كما قال رجال مثل جورنيه وكزنيه ، وميرابو الأب ، ودوبون دثمور ، وطورجوا — مناقض كل المناقضة للطبيعة ، فالإنسان بطبيعته محب للاقتناء ، والتنافس ، فاذا حررت طبيعته من الاغلال التي لاداعى لها أدهش العالم بمقدار ما ينتج ، وتنوعه ، وجودته . يقول الفزيوقراطيون « إذن فلنترك الطبيعة (وهي بالاغريقية Physis) تحكم (Kratein) ولنترك الناس يخترعون ، ويصنعون ، ويتجرون وفق خرائزم الطبيعة » ، أو كما قال جورنيه فيما روى « اتركهم يفعلون Laissez faire ما يرونه هم أصوب ما يكون » . وكانت هذه العبارة قديمة فعلاً ، فحوالي عام ١٦٦٤ ، حين سأل كولبير رجل الأعمال لجاندر « ما الذي يجب أن نفعله نحن (أي الحكومة) لمساعدتك ؟ أجابه « Nous laisserfaire » اتركونا نفعله . . . اتركونا وشأننا . (٣٠)

وكان صوت جان - كلود فانسان دجورنيه أول صوت واضح للفيديويقراطيين في فرنسا . ولاشك في أنه كان يعلم بالاحتجاجات التي قدمها بواجلبير وفوبان اللويس الرابع عشر على القيود الخانقة التي فرضت على الزراعة في ظل النظام الاقطاعي . وقد أعجب بكتاب السرجوسيا تشايلد « ملاحظات موجزة عن التجارة والفائدة » (١٦٦٨) إعجاباً حملاً على ترجمته إلى الفرنسية (١٧٥٤) ، وأغلب الظن أنه قرأ كتاب رتشارد كانتلون « مقال عن طبيعة التجارة » (حوالي ١٧٣٤) في طبعته الفرنسية (١٧٥٥) . ويؤرخ البعض من هذا الكتاب مولد الاقتصاد بوصفه « علماً » - أي تحليلاً منطقياً لمصادر الثروة ، وانتاجها ، وتوزيعها . قال كانتلون « أن الأرض هي المصدر أو المادة التي تؤخذ منها الثروة ، ولكن الجهد البشري هو الشكل الذي ينتج الثروة » ، ولم يعرف الثروة بأنها الذهب أو النقود ، بل « صيانة الحياة ، ووسائل الراحة وأسبابها » (٣١) وكان هذا التعريف في حد ذاته ثورة في النظرية الاقتصادية .

وكان جورنيه تاجراً ميسوراً يعمل أول الأمر (١٧٢٩ - ١٧٤٤) في قانس . وبعد أن اشتغل بمعاملات تجارية واسعة النطاق في إنجلترا ، وألمانيا ، والأقاليم المتحدة ، استقر في باريس ، وعين « ناظراً للتجارة » (١٧٥١) . وفي رحلاته الفتيشية في أرجاء فرنسا لاحظ بشخصه القيود التي فرضتها اللوائح النقابية والحكومية على المشروعات الحرة والتبادل الاقتصادي ، ولم يخلف لنا صيغة مكتوبة لأرائه ، ولكن لخصها بعد موته (١٧٥٦) تلميذه طورجو . وقد حث على التخفيف من النظم واللوائح الاقتصادية القائمة ، أن لم يكن الغائها . فشكل إنسان يعرف خيراً بما تعرف الحكومة الإجراء الذي يلائم عمله خير ملائمة ، فإذا كان حراً في السعي إلى مصلحته لزداد إنتاج السلع ونمت الثروة (٣٢) .

« هناك قوانين فريدة أزلية ، مؤسسة على الطبيعة وحدها ، بمقتضاها توازن جميع القيم الموجودة في التجارة بعضها بعضاً وتثبت نفسها عند سعر مقرر ، تماماً كما تنظم الأجسام المتروكة لثقلها نفسها وفق وزنها النوعي (٣٣) » .

أى أن القيم والأسعار تحددها العلاقات بين العرض والطلب ، وهى علاقات تحددها بدورها طبيعة الإنسان . ونخلص جورنيه إلى أن الدولة يجب ألا تتدخل فى الاقتصاد إلا لتحمى الحياة ، والحرية ، والملكية ، ولتشجيع الإنتاج كما وكيفاً بأسباب التشريف والمكافآت . وقد قبل ميسو ترودين رئيس مجلس التجارة هذه المبادئ ، ونخاع عليها طور جو قوة بلاغته وإستقامته المعترف بها .

أما فرانسوا كزنيه فقد أتبع خطأ فزيوقراطيا مختلفا إختلافا طفيفا . فهو لم ينس قط إهتمامه بالأرض لأنه مالك للأرض ، ولو أنه أعد ليكون طبيباً ، وقد جمع لنفسه ثروة بحذقه فى الطب والجراحة ، وارتقى حتى أصبح طبيباً لمدام دېومبادور وللملك (١٧٤٩) . وقد جمع فى مسكنه بفرساي لفيفا من الزنادقة - دوكلو ، وديدرو ، وبوفون ، وهلفتيوس ، وطورجو . . . هناك كانوا يناقشون كل شىء فى غير تخرج إلا شخص الملك ، الذى كانوا يحلمون بأن يجعلوا منه « حاكماً مطلقاً مستنيراً » يكون إداة للأصلاح السلمى ، وشعر كزنيه الغارق إلى إذنيه فى عصر العقل ، أن قد آن أو ان إستخدام العقل فى الاقتصاد . ومع أنه كان دجماطيقياً شديداً إلا اعتداد بنفسه فى كتبه ، فإنه كان فى شخصه إنساناً رقيقاً يتميز بالنزاهة فى محيط لا يقيم الأخلاق وزناً .

وفى ١٧٥٠ ألتى بجورنيه ، وسرعان ما فاق أهتمامه بالاقتصاد أهتمامه بالطب . وقد شارك بمقالات فى موسوعة ديدرو تحت أسماء مستورة بعناية . وقد عزا فى مقاله « المزارع » هجر الزراع لها إلى الضرائب المرتفعة والتجنيد الإجبارى . ولاحظ مقاله « الغلال » (١٧٥٧) أن المزارع الصغيرة تعجز عن الأفادة من أكثر الوسائل إنتاجاً ، وحيد المزارع الكبيرة التى يديرها « المقاولون » - وهذا سبق للشركات الزراعية العملاقة فى عصرنا . وقال إن على الحكومة أن تحسن الطرق ، والأنهار ، والقنوات ، وأن تلغى كل المكوس على النقل ، وتحرر حاصلات الزراعة من جميع قيود التجارة .

وفي عام ١٧٥٨ نشر كزنيه « جدولاً اقتصادياً » أصبح البيان الرسمي الأساسي للفيديوقراطيين . ومع أنه طبع في المطبعة الحكومية بقصر فرساي بأشراف الملك ، فإنه إدان الترف بأعباءه استعمالاً مبدداً للأثروة كان يمكن إستخدامه في إنتاج مزيد من الثروة . وقد قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات : « طبقة منتجة من الزراعة ، والمعدنين ، وصيادي الأسماك ؛ وطبقة قابلة للتوجيه (disponibles) من الأشخاص الذين يستخدمون في الوظائف العسكرية أو الإدارية ، وطبقة غير مثمرة Classe stérile من مهرة الصناع الذين يحولون حاصلات الأرض إلى أشياء نافعة ، والتجار الذين يوصلون الحاصلات إلى المستهلك . وإذا كانت الضرائب المفروضة على الطبقة الثانية أو الثالثة تقع في النهاية (في رأى كزنيه) على ملاك الأرض ، كانت أكثر الضرائب تمشياً مع العلم وانسبها هي ضريبة واحدة (impot unique) تفرض على صافي الربح السنوي لكل قطعة من الأرض . ويجب أن تجمع الضرائب مباشرة بواسطة الدولة ، ولا تجمع أبداً بواسطة المالكين من الأهالي (الملزمون العموميون) ، ويجب أن تكون الحكومة ملكية مطلقة وراثية .

وتبدو مقترحات كزنيه اليوم وقد أفسدها الغض من قدر العمل ، والصناعة ، والتجارة ، والفن ، ولكن بعض معاصرة رأوا فيها الهاماً منيراً . وفي رأى أكثر أتباعه حيوية وهو فسكتور ريكيثي ، مركيز ديمرابو ، أن « الجدول الاقتصادي » نافس الكتابة والنقود في كونه من أجل ابتكارات التاريخ . وقد اجتاز هذا المركيز عصر فولتير من أوله لآخره بالضبط ، لأنه ولد في ١٧١٥ ومات في ١٧٨٩ . ورث ثروة طيبة ، وعاش عيشة الأمراء ، وكتب كما يكتب الديموقراطيون ، وعنون أول كتاب له « صديق الناس » ، أو مقال في السكان (١٧٥٦) وإستحق بذلك الاسم الذي اتخذه « صديق الإنسانية » . وبعد أن نشر رائعته تأثر بكزنيه ، فراجع بناء على ذلك كتابه وزاده ، إلى بحث من ستة مجلدات طبع أربعين طبعة وشارك في إعداد فكر فرنسا لثورة ١٧٨٩ .

ولم يقلق تكاثر البشر المركز كما سيقلق مالتوس في ١٧٩٨ . فقد آمن بأن الأمة تعظم بكثرة سكانها ، وأن هذا يسيره « توالد الناس كما تتوالد الفيران في جرن إذا توفرت لها أسباب الحياة^(٣٤) وهو ما زلنا نراه إلى الآن . ونخلص إلى وجوب تشجيع المنتجى الطعام بكل الوسائل . وذهب إلى أن الثروة في توزيع الثروة تثبط إنتاج الطعام ، لأن ضياع الأغنياء تشغل الأرض التي كان في الأمكان أن تصبح مزارع خصبة . وقالت مقدمة ميرايو للملك أن الفلاحين :

« هم أكثر الطبقات إنتاجا ، الذين لا يرون من تحتهم غير مرضعتهم ومرضعتك - الأرض الأم ، والذين يرزحون لبدا تحت ثقل أشق الأعمال والذين يباركونك كل يوم ، ولا يسألونك شيئا غير السلام والحماية . وبفضل عرقهم ، بل ودمهم ذاته (وهو ما لا تعرفه !) تشبع مطامع ذلك الحشد من البشر غير النافعين الذين لا يفتأون يقولون لك أن عظمة الملك في قيمة وعدد : . . . النعم التي يقسمها على أفراد حاشيته . لقد رأيت مساعد جاب للضرائب يقطع يد امرأة فقيرة تشبث بقدرها لتمنع إستيلاءه عليها وفاء للدين ، وكانت آخر ما في بيتها من آنية . فماذا كنت تقول في هذا أيها الملك العظيم^(٣٥) ؟ »

وقد هاجم المركز الثائر في كتابه « نظرية الضرائب » (١٧٦١) الملزمين العمومين بحماية الضرائب لأنهم طفيليون يقاتلون أقوات الأمة : وحرص المليون الغاضبون لويس الخامس عشر على أن يحبس في الشاتو دفانسين (١٦ ديسمبر ١٧٦١) ولكن كزنيه أقنع مدام دېومبادور بأن تشفع له ، وأطلق لويس سراح المركز (٢٥ ديسمبر) ولكنه أمره بأن يلزم ضيعته في لوبنيون . وأحال ميرابو الضرورة إلى فضيلة ، فدرس الزراعة دراسة عملية مباشرة . وفي ١٧٦٣ أصدر كتاب « الفلسفة الريفية » الذي قيل فيه إنه « أشمل بحث في الاقتصاد قبل آدم سميت^(٣٦) » ، ووصفه جريم بأنه « الأسفار الموسوية للمذهب الفزيوقراطي^(٣٧) » . وبلغت جملة مؤلفات

هذا المركيز ، الذى كان نسيج وخده ، أربعين كتابا حتى عام وفاته — وذلك رغم المتاعب التى سببها له أبنه الذى زجه فى السجن حين أعيته الخيل عسى أن يكون فى ذلك سلامة لكليهما . وكان كابنه ذاك عنيفا فاسقا ، تزوج للمال ، وأتهم امرأته بالزنا ، وتركها تعود إلى أبوبها ، واتخذ له خليله : وقد ندد بأوامر الاعتقال الملكية باعتبارها ضربا من الظلم لا يطاق ، وبعد ذلك حمل الوزارة على أن تصدر خمسين أمرا منها لتعينه على تأديب أسرته (٣٨) .

وليس من اليسير علينا أن ندرك اليوم ذلك الهيجان الذى أثارته مطبوعات الفزيوقراطيين ، والحماسة التى اصطبغت بها حملاتهم . وتطلع تلاميذ كزنيه إليه كأنه سقراط الاقتصاد : وعرضوا عليه كتاباتهم قبل طبعها ، وفى كثير من الحالات كان يشارك فى كتبهم . وفى ١٧٦٧ أصدر لومرسويه دلا ريفير ، الذى حكم المارتنيك فترة ، كتابا عده آدم سميث أوضح شرح للمذهب وأفضله ترابطا (٣٩) وأسمه « النظام الطبيعى الأساسى للمجتمعات السياسية » يقول فيه أن فى العلاقات الاقتصادية قوانين تقابل تلك التى وجدها نيوتن فى الكون ، والعلل الاقتصادية منشؤها أغفال تلك القوانين أو انتهاكها :

« أتريدون لمجتمع ما أن يبلغ الغاية فى الثراء ، والسكان ، والقوة ؟ أتركوا مصالحه إذن للحرية ، وليكن هذا قانونا عاما . فبفضل هذه الحرية (التى هى العنصر الأساسى للصناعة) وبفضل الرغبة فى التمتع — التى تحفزها المنافسة وتبهرها الخبرة والقدرة — تضمنون أن يسعى كل إنسان على الدوام لأقصى مصلحة مستطاعة له ، ومن ثم يسهم بكل ما فى مصلحته الخاصة من قدرة فى الخير العام ، سواء للحاكم ولكل فرد فى المجتمع (٤٠) » .

وقد لخص بيير — صموئيل ديون هذه الدعوة فى كتابه « الفزيوقراطية » (١٧٦٨) الذى خلع على المذهب اسمه التاريخى . كذلك نشر ديون النظرية فى دوريتين كان نفوذهما محسوسا من السويد إلى توسكانيا . وقد عمل مفتشا

عاماً للصناعات تحت رئاسة طورجو ، وسقط بسقوطه (١٧٧٦) . وعاون على المفاوضة مع إنجائره على عقد المعاهدة التي أقرت باستقلال إمريكا (١٧٨٣) . وانتخب عضواً بمجلس الأعيان (١٧٨٧) والجمعية التأسيسية (١٧٨٩) . وتميزا له في هذه الجمعية عن عضو آخر يدعى ديون ، سمي ديون دنمور ، نسبة للمدينة التي مثلها . وقد عارض اليقاقة فتعرض للخطر حين تقلدوا زمام الأمور ، وفي ١٧٩٩ نفي نفسه إلى إمريكا ، ثم عاد إلى فرنسا عام ١٨٠٢ ، ولكن في ١٨١٥ اختار الولايات المتحدة وطناً نهائياً له ، وهناك أسس أسرة من أشهر الأسر الأمريكية .

وبدا في ظاهر الأمر أن مذهب الفريوقراطيين يناصر الاقطاع ، لأن السادة الاقطاعيين كانوا إلى ذلك الحين يملكون أو يتقاضون الرسوم الاقطاعية من ثلث أرض فرنسا على الأقل . ولكنهم - وهم الذين لم يكونوا يدفعون أي ضرائب تقريباً قبل ١٧٥٦ - هالتهم فكرة تحميل ملاك الأرض جميع الضرائب ، كذلك لم يستطيعوا أن يقبلوا إلغاء المكوس الاقطاعية على نقل البضائع داخل أملاكهم . أما الطبقات الوسطى ، التي كانت تنوق إلى تشريعات جديدة ، فقد ساءها زعم الفريوقراطيين أنها شطر عقيم غير منتج من الأمة ومع أن جماعة الفلاسفة كانوا في الغالب يوافقون الفريوقراطيين على الاعتماد على الملك أداة للإصلاح إلا أنهم لم يستطيعوا موافقتهم على مصالح الكنيسة^(١) . وقد ذهب ديفد هيوم ، الذي زار كزنية في ١٧٦٣ ، إلى أن الفريوقراطيين أكثر ما يوجد اليوم من الجماعات تعلقاً بالأوهام وخيلاء منذ تدمير الصوريون . وسخر منهم فولتر (١٧٦٨) في قصيدته اللاذعة المسماة « الرجل ذو الأربعين أيكوه »^(٢) . وفي ١٧٧٠ أصدر فرديناند وجالياني ، وهو ايطالي من المترددين على « مجمع » الملحدون الذين كان يجمعهم دولباخ في بيته كتاباً اسمه « حوار حول تجارة الغلال » ترجمه ديدرو إلى الفرنسية في السنة نفسها . وقال فولتير أن أفلاطون ومولير لابد قد شاركوا في كتابة هذا المؤلف في الاقتصاد الذي كان « علماً يقبض الصذر » . وقد هزأ جالياني بخفة روح باريسية بزعم الفريوقراطيين أن الأرض وحدها مصدر الثروة . وقال أن تحرير تجارة الغلال عن جميع

اللوائح والنظم معناه خراب بيوت مزارعي فرنسا ، وقد يجر إلى المجاعة في أرض الوطن في الوقت الذي يصدر فيه التجار الأذكىاء الغلال إلى الدول الأخرى . وهذا ما حدث بالضبط في ١٧٦٨ و ١٧٧٥ .

ويروى أن لويس الخامس عشر سأل كزنيه ماذا يصنع إن كان ملكاً فأجاب « لا شيء » . « فمن يحكم إذن ؟ » « القوانين » — وكان الفزيوقراطي يقصد بذلك « القوانين » الملازمة لطبيعة الانسان والتي تتحكم في العرض والطلب ووافق الملك على أن يجربها . ففي ١٧ سبتمبر ١٧٥٤ الغت وزارته جميع المكوس والقيود المفروضة على بيع الغلال — القمح ، والجاودار ، والذرة — ونقلها داخل المملكة . وفي ١٧٦٤ شملت هذه الحرية تصدير الغلال إلا إذا بلغت ثمننا مقررًا . وهبط سعر الحبز حينًا نتيجة تركه عملية العرض والطلب ، ولكن محصولا رديثا في ١٧٦٥ رفع سعره فوق السعر العادي بكثير جدا . وبلغ نقص الغلال مرحلة المجاعة في ١٧٦٨ — ٦٩ ، فكان الفلاحون ينبشون عن الطعام في زرائب الخنازير ، ويأكلون العشب والحشيش . وفي أبرشية تعد ٢٨٠٠ نسمة راح ٢٢٠٠ يستجدون الحبز . وشكا أفراد الشعب من أن المضاربين يصدرون الغلال بينما هم يواجهون المجاعة . واتهم الناقدون الحكومة بأنها تتكسب من عمليات هؤلاء المحتكرين في « ميثاق المجاعة » وامتد رنين هذه النقمة المرة التي تعزف على ميثاق المجاعة . هذا الذي وقع عام ١٧٦١ ، خلال السنوات التالية ليتهم — حتى لويس السادس عشر الرحيم بالكسب من غلاء الحبز . وكان بعض الموظفين مدنين فيما يبدو ، أما لويس الخامس عشر فلم يندب . فلقد كلف بعض التجار بشراء الغلال في السنين الطيبة ، وخزنها ، ثم عرضها في السوق في السنين العجاف ، ولكن حين بيعت هذه الغلال ارتفعت أسعارها ارتفاعا أعجز فقراء الشعب عن الشراء . واتخذت الحكومة تدابير متأخرة لعلاج الحالة ، فاستوردت القمح ووزعته على أفقر الأقاليم . وطالب الشعب برد هيمنة الدولة على تجارة الغلال ، وشارك البرلمان في هذه المطالبة . في هذه الأزمة نشر فولتير قصيدته المسماة الإنسان ذو الأربعين

ايكو . وأذعنت الحكومة ، وفي ٢٣ ديسمبر ١٧٧٠ ألغيت المراسيم التي أباحت حرية الاتجار في الغلال .

على أن أفكار الفزيوقراطيين شقت طريقها رغم هذه النكسة ، سواء في فرنسا أو خارجها . وكان مرسوماً قد صدر في ١٧٥٨ وقرر حرية التجارة في الصوف ومنتجاته . وزار آدم سميث كزنية في ١٧٦٥ ، وراعه منه « تواضعه وبساطته » ورسخ مبادئه إلى الحرية الاقتصادية . وكان رأيه « أن أكبر غلطة لهذا النظام . . . في اعتباره طبقة الصناع ، ورجال الصناعة والتجارة طبقة عقيمة غير منتجة على الإطلاق » ، ولكنه خلص إلى « أن النظام ، بكل ما فيه من عيوب ، ربما كان أقرب ما نشر إلى الآن من الحقيقة حول موضوع الاقتصاد السياسي »^(٤٥) . وقد انسجمت أفكار الفزيوقراطيين مع رغبة إنجلترا — التي أصبحت الآن أعظم الأمم المصدرة في خفض رسوم التصدير والاستيراد . ووجد هذا المذهب القائل بأن الثروة تنمو نمواً أسرع في ظل التحرر من القيود الحكومية على الإنتاج والنوزيع ، آذانا صاغية في السويد تحت حكم شارل الثالث . وكان حب جفرسون للحكومة التي تمارس أقل قدر من الحكم ، من بعض النواحي ، صدى للمبادئ الفزيوقراطية . وقد أقر هنري جورج بتأثير الفزيوقراطيين على دعوته لضريبة واحدة تفرض على العقار . واستهوت فلسفة حرية المشاريع والتجارة طبقة رجال الأعمال الأمريكيين ، وأعطت دفعة جديدة للتطور السريع الذي حظيت به الصناعة والثروة في الولايات المتحدة . وفي فرنسا أتاح الفزيوقراطيون أساساً نظرياً لتحرير الطبقات بالوسطى من العقبات الإقطاعية والقانونية التي عرقلت التجارة الداخلية والتقدم السياسي ، وقبل أن يموت كزنيه (١٦ ديسمبر ١٧٧٤) كان عزاء له أن يرى أحدهم أصدقائه بعين مراقباً للمالية وأو أفسح له في الأجل خمسة عشر عاماً آخر لشهد انتصار الكثير من الأفكار الفزيوقراطية في الثورة الفرنسية .

٤ - ظهور طورجو ١٧٢٧ - ٧٤

أكان طورجو فزيوقراطيا ؟ إن خلفيته الفنية المتنوعة تمنع كل تخصيص يلصق به ، فلقد ولد في أسرة عريقة « من أصل طيب *une bonne race* كما قال لويس الخامس عشر - شغل أفرادها المناصب الهامة أجيالا عديدة بكل كفاية . وكان أبوه مستشارا للدولة وسر تجار باريس ، وهو أرفع منصب إداري في باريس ، وأخوه الأكبر امينا للالتباسات والمطابخ في برلمان باريس وعضوا بارزا فيه . وكانت النية توجيه طورجو (آن روبير - جاك) ، وهو الابن الأصغر إلى وظيفة القسوسية .

واجتاز بتفوق جميع الامتحانات في كلية لوى - لجران ، وفي مدرسة سان - سوليس اللاهوتية ؛ وفي الصوروبون ، وأصبح « الأبيه دبروكور » وهو بعد في التاسعة عشرة . وتعلم قراءة اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، والأسبانية ، والإيطالية ، والألمانية ، والانجليزية ، والكلام بثلاثة من هذه اللغات على الأقل بطلاقة . وفي ١٧٤٩ انتخب رئيسا للصوريون ، وبوصفه هذا ألقى محاضرات أثارت اثنتان منها ضجه خارج نطاق اللاهوت .

ففي يوليو ١٧٥٠ ألقى محاضرة على الصوروبون باللاتينية في « الفوائد التي أفاد بها توطيد المسيحية الجنس البشرى » ، وقال إنها أنقذت العالم القديم من سلطان الخرافة ، وصانت الكثير من الآداب والفنون والعلوم ، وقدمت للبشر المفهوم المحرر لقانون العدالة يسمو فوق كل ألوان التعصب والأنانية البشرية . « أفيستطيع الإنسان أن يطمع في هذا من أى مصدر آخر غير الدين ؟ . . . إن الدين المسيحى دون غيره . . . هو الذى أخرج إلى النور حقوق الإنسان . »^(٧) وفي هذه التقوى تسمع صدى الفلسفة ؛ وواضح أن الرئيس الشاب كان قد قرأ مونتسكيو وفولتير ، وتأثر لاهوته بعض الشيء بما قرأ .

وفي ديسمبر ١٧٥٠ ألقى محاضرة في الصوروبون عنوانها « جدول فلسفى بالتقدم المطرد للعقل البشرى » . وكان هذا التعبير عن ديانة التقدم الجديدة

انجازا رائعا من فنى فى الثالثة والعشرين . وقد سبق كونت — وربما هذا
حدو فيكو — فقسم تاريخ العقل البشرى إلى ثلاث مراحل : مرحلة
لاهوتية ، وأخرى ميتافيزيقية ، وثالثة علمية . قال : —

« قبل أن يفهم الناس العلاقة العلية بين الظواهر الطبيعية ، كان طبيعيا جداً
أن يفترضوا أنها صادرة عن كائنات عاقلة ، غير مرئية ، شبيهة بهم
فلما أدرك الفلاسفة سخف هذه الخرافات عن الأرباب دون أن يكتسبوا
بعد بصراً بالتاريخ الطبيعى ، حاولوا تفسير أسباب الظواهر بعبارات تجريدية
مثل الجواهر والقوى . ولم توضع الفروض — التى أمكن تطويرها بالرياضيات
وابتائها بالتجربة ، بملاحظة التفاعل الميكانيكى المتبادل للأجسام — إلا فى
فترة متأخرة » (٤٨) .

وقال الشاب الألمى إن الحيوانات لا تعرف التقدم ، فهى تظل كما هى
جيلا بعد جيل ، أما الإنسان فبفضل تعلمه بجميع المعرفة وتوصيلها يستطيع
تحسين الأدوات التى يستخدمها فى التعامل مع بيئته وفى إثراء حياته . مادام
هذا التجميع والتوصيل للمعرفة والتكنولوجيا مستمرا فلأمندوحة عن التقدم
وأن عطلة أحيانا الكوارث الطبيعية أو تقلبات الدول . وليس التقدم متائلا ،
ولا هو عام ، فبعض الأمم يتقدم وبعضها يتقهقر ، وقد يركد الفن فى حين
يتحرك العلم قدما ، ولكن الحركة فى جملتها حركة إلى الأمام . وفضلا
عن هذه الآراء ، تنبأ طورجو بالثورة الأمريكية فقال « أن المستعمرات
أشبه بالفاكهة التى تتشبث بالشجرة إلى أن تنضج ، وحين تغدو مستكنية
بناتها تفعل ما فعلته قرطاجة ، وما ستفعله أمريكا يوما ما » (٤٩) .

وقد خطط طورجو لكتابة تاريخ للحضارة وهو بعد فى الصوريون
مستوحيا فى ذاك فكرة التقدم . ولم يبق من مشروعه هذا سوى مذكرات
خطها لبعض فصول الكتاب ، ومنها يتبين أنه قصد أن يضمه تاريخ اللغة ،
والدين ، والعلم ، والاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، كما يضمه
قيام الدول وسقوطها (٥٠) . فلما ورث عن أبيه دخلا كافيا قرر أواخر
عام ١٧٥٠ أن تترك الوظيفة الكنسية والح عليه زميل من الآباء الدينيين فى

البقاء وأعدا اياه بالترقى السريع ، ولكن طورجو أجاب على ما روى دبون
دئمو « لا أستطيع أن أفرض على نفس لبس قناع طوال حياتي^(٥١) » .

ولم يكن قد رسم إلا لوظيفة كهنوتية صغيرة ، لذلك كان حرا في
الاشتغال بالسياسة . وفي يناير ١٧٥٢ أصبح نائبا عاما مناوبا ، وفي ديسمبر
أصبح مستشارا في البرلمان ، وفي ١٧٥٣ اشترى منصب « أمين الالتماسات
والمطالب » ، الذي اشتهر فيه بالاجتهاد والعدل . وفي ١٧٥٥-٥٦ رافق
جورنيه في جولات تفتيشية في الأقاليم ، وتعلم الاقتصاد الآن بالاتصال
المباشر مع الزراعة والتجار ، والصناع ، وعن طريق جورينه التي بكزنيه
وعن طريق كزنيه التي بميراو الأب ، ودبون دئمو ، وآدم سمث .
ولم ينخرط قط في زمرة المدرسة الفريوقراطية ، ولكن ماله وقلمه كانا أهم
سند لمجلة دبون المساماة التقاويم .

وفي غضون هذا (١٧٥١) استطاع بفضل ذكائه وسلوكه الملهذب أن يلقى
الترحيب في صالونات مدام جوفران ومدام دجرافيته ، ومدام دوديفان
والآنسة دلسبيناس . وهناك التقى بدالامبير ، وهافتيوس ، ودولياخ ،
وجريم ، ومن بين الثمرات المبكرة لهذه الاتصالات كتاب (١٧٥٣) من
رسالتين « في التسامح » . وكتب لموسوعة ديدرو مقالات في الوجود ،
والاشتقاق اللغوي ، والمهرجانات ، والأسواق ، ولكن حين أدانت
الحكومة مشروع الموسوعة كف عن موافاتها بمقالاته . وخلال جولاته في
سويسره وفرنسا زار فولتير (١٧٦٠) وبدأ صداقة معه دامت حتى وفاة
فولتير . وكتب حكيم فرنيه إلى دالامبير يقول : (قل أن رأيت طوال
حياتي رجلا ألطف منه أو أوسع اطلاعا^(٥٢)) . وأدعى جماعة الفلاسفة
أنه واحد منهم ، وراودهم الأمل في أن يؤثروا على الملك عن
طريقه .

وفي ١٧٦٦ كتب لطالبيين صينيين على وشك العودة إلى الصين مجملًا
للاقتصاد من مائة صفحة عنوانه « تأملات في نشوء الثروة وتوزيعها » .
فلما نشر في مجلة « التقاويم » (١٧٦٩ - ٧٠) أشاد به الناس شرحاً من أكثر

شروح النظرية الفريوقراطية لإحكاماً وقوة . قال طورجو أن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وكل الطبقات فيما عدا زراع الأرض يعيشون على الفائض الذى ينتجه الزراع فضلاً عن حاجاتهم : وهذا الفائض يؤلف « صندوق أجور » تدفع منه أجور طبقة مهرة الصناع . ثم يسوق صيغة مبكرة لما أصبح فيما بعد يطلق عليه « قانون الأجور الحديدى » يقول :

إن أجر العامل يحدده مستوى معيشتة بالمنافسة بين العمال ، والعامل المحرد الذى لا يملك غير ذراعيه وجدته ، لا يملك شيئاً إلا بقدر ما يوفق فى بيع كده لغيره ، وصاحب العمل ينقده أقل مما يستطيع من أجر ، وبما أنه يستطيع الاختيار من بين العديد من العمال ، فإنه يفضل أقلهم أجراً . ومن ثم يضطر العمال إلى خفض سعرهم فى المنافسة فيما بينهم ، وفى كل أنواع العمل لا بد أن يحدث هذا ، وهو يحدث فعلاً . وهو أن أجر العامل يحدده ما هو ضرورى لإعاشته » (٥٣) .

ويسترسل طورجو مؤكداً أهمية رأس المال . فلا بد أن يوفر شخص ما ، بمخدراته ، أدوات الإنتاج ومواده قبل أن يتسنى له استخدام العامل ، ولا بد له من إعاشة العامل قبل أن يرد بيع الناتج له رأسماله . وإذا لم يكن هناك ضمان على الإطلاق لنجاح مشروع ما ، فيجب السماح بربح ليوازن خطر فقد رأس المال . « فحركة رأس المال هذه انطلاقة ورجوعاً هي قوام دورة النقود ، تلك الدورة النافعة المثمرة التى تشيع الحياة فى جميع جهود المجتمع ، والتى شبت بكل حق بدورة الدم فى الجسم الحيوانى » (٥٤) . ويجب عدم التدخل فى هذه الدورة ، وأن يسمح للأرباح والفائدة : كما يسمح للأجور ، بأن تصل إلى مستواها الطبيعى حسب العرض والطلب . ويجب أن يعفى من الضرائب أصحاب رؤوس الأموال ، وأرباب المصانع ، والتجار ، والعمال ، فلا تفرض إلا على ملاك الأرض الذين سيستردون مادفعوه بتقاضى ثمن أعلى لمحاصيلهم . وينبغي ألا يفرض أى رسم على نقل أو بيع أى سلعة من سلع الاستهلاك .

فى هذه « التأملات » أرسى طورجو الأساس النظرى لرأسمالية القرن التاسع عشر قبل التنظيم الفعال للعمل . فهذا الرجل الذى كان من أرحم وأنبل

رجال زمانه لم يستطع أن يتطلع إلى مستقبل العمال أفضل من أجرور الكفاف . ومع ذلك أصبح هذا الرجل خادماً للشعب متفانياً في عمله . ففي أغسطس ١٧٦١ عين ناظراً ملكياً لمديرية ليموج ، وهي من أفقر أقاليم فرنسا ، وقد قدر أن ٤٨ ٪ إلى ٥٠ ٪ من دخل الأرض فيها يضيع ضرائب للدولة وعشوراً للكنيسة . وكان في فلاحى الإقليم كآبة وفي نبلائه فظاظة . كتب إلى فولتير يقول : « من سوء حظى أن أكون ناظراً ملكياً . وأقول من سوء حظى لأن السعادة في هذا الزمان الممتلئ بالتناحر واللوم لا تتوافر إلا في حياة الفلسفة بين الكتب والأصدقاء » . ورد عليه فولتير قائلاً : « ستكسب أهل ليموج وجيوبهم ؛ وفي اعتقادى أن الناظر الملكى هو الشخص الوحيد الذى يمكنه إفادة الناس . ألا يستطيع إصلاح الطرق ، وزرع الحقول ، ونصريف المستنقعات ، وتشجيع الصناعات ؟ » .

وقد فعل طورجو هذا كله . فكافح بهمة طوال ثلاثة عشر عاماً ، اكتسب فيها محبة الشعب وكرهية النبلاء . فالتمس مراراً ، ودون جدوى ، من مجلس الدولة أن يخفض معدل الضريبة ، وحسن توزيع الضرائب ، ورفع المظالم ، ونظم خدمة موظفى الحكومة ، وحرر تجارة الغلال ، وشق ٤٥٠ ميلاً من الطرق ؛ وكانت هذه الطرق جزءاً من برنامج إنشاء الطرق الذى ينتظم البلاد كلها (والذى بدأته الحكومة الفرنسية في ١٧٣٢) والذى ندين له بالفضل في هذه الطرق الجميلة ذات الأشجار الوارفة الظلال التى تنتشر اليوم في ربوع فرنسا . وكانت الطرق قبل طورجو تشق بالسخرة ، فألغى السخرة في ليموج ، ودفع أجر العمال من ضريبة عامة على الكافة . وأقنع الفلاحين بأن يزرعوا البطاطس غذاء للإنسان لا للحيوان فقط . وقد ظفر بإعجاب الناس جميعاً لما اتخذ من تدابير فعالة لإغاثة الشعب في فترات المجاعة التى امتدت بين سنتي ١٧٦٨ ر ١٧٧٢ .

وفي ٢٠ يوليو ١٧٧٤ دعاه الملك الجديد للانضمام إلى الحكومة المركزية واغتبطت فرنسا كلها وتطلعت إليه منقذاً مرجواً للدولة المتداعية .

٥ - الشيوعيون

بينما كان الفزيوقراطيون يرسون الأساس النظري للرأسمالية ، كان موريللى ومايلى ، ولانجيه ، يشرحون الاشتراكية والشيوعية . فقد عزت الطبقات المتعلمة نفسها بمتع هذه الأرض بعد أن تخلت عن آمالها في السماء : فتجاهل الأغنياء منهم المحظورات الدينية ، وأطلقوا العنان لرغباتهم في الثروة والقوة والنساء والحمر والفن ، ووجد العامة عزاء في عالم مثالي تقسم فيه خيرات الأرض بالقسط بين البسطاء والموهوبين ، وبين الضعفاء والأقوياء .

ولم تقم في القرن الثامن عشر حركة اشتراكية ، ولا جماعة محددة مثل جماعة المسوين في إنجلترا كرومويل ، أو يسوعى براجواى الشيوعيين . واقتصر الأمر على أفراد متفرقين أضافوا أصواتهم إلى صيحة متصاعدة ستصبح في « جراكوس » بابوف عاملاً في الثورة الفرنسية . ونذكر القراء بأن الكاهن الشكوكى جان ميزلييه طالب في كتابه « الميثاق » الذى أصدره عام ١٧٣٣ بمجتمع شيوعى يقسم فيه الناتج القومى بالتساوى بين الناس ويتزوج فيه الرجال والنساء وينفصلون كما يشاءون ، ثم ألمع إلى أنه مما يعين في هذا الباب أن يقتل بعض الملوك .^(٥٥) وبعد سبعة أعوام من طبع هذه الدعوة ندد روسو في « مقالته » الثانى (١٧٥٥) بالملكية الخاصة لأنها أس جميع شرور الحضارة ، ولكنه حتى في صيحته تلك أنكر أى برنامج اشتراكى . وما وافى عام ١٧٦٢ حتى كان ابطال كتبه أفرادا ينعمون بالثروة .

وفي نفس العام الذى صدر فيه كتاب روسو « مقال في أصل عدم المساواة » ظهر كتاب عنوانه « ناموس الطبيعة لراديكالى مخمور لانكاد نعرف عنه شيئاً غير أسمه الأخير ، إذا استثنينا كتبه ، وهو موريللى Morelly » ولا نخلط بينه وبين أندريه موريلليه Morellet الذى التقينا به مشاركاً في تحرير الموسوعة . وقد بدأ موريللى بإيقاظ الأفهام بكتابه « رسالة في فضائل ملك عظيم » (١٧٥١) الذى صور ملكاً شيوعياً . وفي ١٧٥٣ أضفى على حلمه الشعاعية بقصيدته « غرق الحزر الطافية ، أو الملحمة الملكية . » وهنا نرى الملك الطيب ، ربما بعد أن قرأ الكاتب مقال روسو الأول ، يعود بشعبه

إلى حياة بسيطة فطرية . وكان خير عرض للمثال الشيوعي وأكمله كتاب موريللى « ناموس الطبيعة » (١٧٥٥ — ٦٠) وقد نسبته الكثيرون إلى ديدرو ، وصرح المركيز دارجانسون بأنه يفوق كتاب مونتسكو « روح الشرائع » (١٧٤٨) . وقد ذهب موريللى ، كما ذهب روسو ، إلى أن الإنسان خير بطبعه وإلى أن غرائزه الاجتماعية تحمله على السلوك الطيب ، وأن القوانين أفسدته بتقرير الملكية الخاصة وحمايتها . وامتدح المسيحية لميلها إلى الشيوعية ، وأسف لأن الكنيسة أقرت الملكية ، فإقامة الملكية الخاصة أورثت البشر « الغرور ، والحمق ، والكبرياء ، والحشع ، واللؤم ، والنفاق ، والشر .. وكل شىء شرير ينتهى إلى هذا العنصر الخفى المؤذى ، وأعنى به شهوة التملك ^(٥٦) » . ثم ينتهى السفسطائيون إلى أن طبيعة البشر تجعل الشيوعية ضربا من المحال ، فى حين إن الذى حدث فى التابع الواقعى للأحداث هو أن انتهاك الشيوعية هو الذى أفسد الفضائل الفطرية للإنسان . ولولا الحشع والأنانية ، والمزاحمات ، والأحقاد التى ولدتها الملكية الخاصة لعاش الناس معا فى إخوة مسالمة متعاونة .

ولا بد للبدء فى إعادة البناء من إزالة العوائق من طريق التعايش الحر فى الأخلاق والسياسة « فتعطى كامل الحرية للعقلاء من الناس فى مهاجمة الأخطاء والأهواء التى تدعم نزعة التملك » وينبغى أن يؤخذ الأطفال من آبائهم وهم فى السادسة وينشأوا تنشئة مشتركة بواسطة الدولة حتى يبلغوا السادسة عشرة ، وعندها يعادون إلى ذويهم بعد أن تكون المدارس قد دربتهم على التفكير بلغة الصالح العام لا التملك الشخصى . وينبغى ألا يسمح بالملكية الخاصة إلا فى أخص خصائص الحاجات الشخصية « فتجتمع كل النواتج فى مخازن عامة لتوزع على كل المواطنين لسد حاجات الحياة » ^(٥٧) . ويجب أن يعمل كل قادر على العمل ، فيساعد فى المزارع من الحادية والعشرين إلى الخامسة والعشرين . وينبغى ألا يكون هناك طبقة عاطلة ، ولكن لكل فرد الحرية فى أن يمتزل فى الأربعين على أن تدير الدولة رعايته فى شيخوخته . وتلقسم الأمة إلى مدن حدائق لها مركز للبيع والشراء وميدان عام . ويحكم

كل جماعة مجلس من الآباء الذين تزيد أعمارهم على الخمسين ، وتنتخب هذه المجالس مجلس شيوخ أعلى يحكمها كلها وينسق فيما بينها .

ولعل موريلى يحس قدر النزعة الفردية الفطرية في البشر : وقوة غريزة الاقتناء ، ومقاومة التعطش للحرية وللإستبداد اللّازم للبقاء على حاله من مساواة غير طبيعية ومع ذلك كان تأثيره كبيراً . فصرح بابيف بأنه تشرب شيوعيته من كتاب موريلى « ناموس الطبيعة » والد اجح أن شارل فورييه استمد من نفس المصدر خطة المستعمرات التعاونية (الكتائبية phalansteries) (١٨٠٨) التي أفضت بدورها إلى تجارب شيوعية من أمثال مزرعة بروت (١٨٤١) . وفي « ناموس » موريلى نلتقى بذلك المبدأ الشهير الذي انحدر ليلهم الثورة الروسية وينكها ، ونعني به « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجاته » . (٥٨)

أما جماعة الفلاسفة فقد رفضوا بوجه عام نظام موريلى باعتباره غير عملي ، وقبلوا الملكية الخاصة نتيجة لا مناص منها للطبيعة البشرية . ولكن في ١٧٦٣ وجد موريلى حليفاً قوياً في سيمون — هنري لانجيه . وهو محام هاجم القانون والملكية جميعاً . فبعد أن شطب اسم لانجيه من جدول المحامين نشر (١٧٧٧ — ٩٢) « حوليات سياسية » وهي مجلة اطلق فيها وابلا من النيران على الشرور الاجتماعية . فالقانون في رأيه قد أصبح أداة لتحليل وصيانة المقتنيات التي كسبت أصلاً بالقهر أو الغش :

« إن القوانين يقصد بها أولاً تأمين الملكية . وبما أنه يمكن الآن أن يؤخذ من الغنى أكثر مما يؤخذ من الفقر ، فمن الواضح أنها ضمان يعطى الأغنياء ضد الفقراء . وقد يعسر علينا أن نصدق — وإن كان هذا يمكن بيانها بجلاء — أن القوانين من بعض نواحيها مؤامرة على الكثرة العظمى من البشر » . (٥٩)

ويترتب على ذلك أن حرباً طبقية لا مندوحة عنها تستمر بين أصحاب الملكية أو رأس المال ، وبين العمال الذين لا بد لهم من بيع كدهم لأرباب العمل

الملاك ، منافسين في ذلك بعضهم بعضا ، وقد احتقر لانجبه دعاوى
الفريوقراطيين بأن تحرير الاقتصاد من سيطرة الدولة سيجلب الرخاء تلقائياً ،
لأنه على النقيض من ذلك يعجل بتركز الثروة ، فترتفع الأسعار ، وتتخلف
الأجور . وسيطرة الأغنياء على الأسعار من شأنها الإبقاء على عبودية
الآجير حتى بعد « إلغاء » الرق قانوناً ، « فكل ما جنوه (أى العبيد السابقون)
هو العذاب الدائم من خوف الموت جوعاً ، وهو خطب أعفى منه على الأقل
أسلافهم ممن تردوا في هذا الدرك الأسفل للإنسانية » (٦٠) . فقد كان العبيد
يسكنون ويطعمون على مدار السنة ، أما في الاقتصاد غير المقيد فإن رب
العمل حر في أن يقدف بالعمال في مهاوى التسول إذا لم يستطع جنى الربح
من ورائهم ، ثم يجعل التسول جريمة . وفي رأى لانجيه أنه لا دواء لهذا كله
إلا الثورة الشيوعية . على أنه لم يوصى بها بلحيلة ، لأنها ستفضي على الأرجح
إلى الفوضى لا إلى العدالة ؛ ولكنه أحس بأن الأحوال المواتية لثورة كهذا
آخذة في التشكل السريع ؛ يقول :

« لم يحدث قط إن كان الفقر أعم ولا أشد فتكا بالطبقة التي تبلى به ،
ولعل أوربا لم تكن في يوم من الأيام أقرب منها اليوم إلى الانقلاب التام
وسط هذا الرخاء الظاهر ... ولقد بلغنا بالضبط ، بطريق عكسي تماماً ،
تلك النقطة التي بلغها إيطاليا حين اغرقها حرب العبيد (التي قادها سبارتاكوس)
في حمام من الدم ، وحملت النار والقتيل إلى أبواب عاصمة الدنيا
ذاتها » . (٦١)

وقد نشبت الثورة وهو حي بعد رغم نصيحته وقذفت به إلى الحلوتين
(١٧٩٤) .

وأما الأييه جابريل بونردمايل نو فقد احتفظ برأسه لأنه مات قبل الثورة
بأربع سنوات وكان سليل أسرة كريمة في جرينوبل ، وأخذ أخوته جان
بونو دمايل الذي عاش روسومعه في ١٧٤٠ ، والآخر كوندياك الذي أثار
ضجة بأبحاثه السيكلوجية . ثم قريب مشهور آخر هو الكردينال دتنسان ،
حاول أن يجعل من جابريل قسيساً ، ولكنه لم يجاوز مراتب الكهانة الصغرى ،

واختلف إلى صالون مدام تنسان في باريس ، ثم استسلم لإغراء الفلسفة . وفي ١٧٤٨ تشاجر مع الكردينال ، وانصرف إلى الدرس في خلوته ، وبعدها كانت أهم أحداث حياته هي كتبه ، وكماها ذاع صيته في الماضي .

وقد أفاد من الأعوام السبعة التي قضاها في باريس ولرساى علماً بالسياسة ، والعلاقات الدولية ، والطبيعة البشرية . وأسفر هذا كله عن مزيج فذ جمع بين التطلعات الاشتراكية والشكوك المتشائمة . وقد أصر مايلي على أن المعايير الخلقية التي تطبق على الأفراد يجب أن تطبق على سياسة الدول (وهو عكس ما قال به مكيافللي) ، ولكنه أدرك أن هذا يتطلب نظاماً من القانون الدولي يمكن فرضه . وكان كفولتير وموريللي موحداً بغير مسيحية ، ولكنه آمن بأنه لا سبيل إلى صيانة الفضيلة إلا بديانة قوامها العقاب والثواب فوق الطبيعيين ، لأن أكثر الناس « قضى عليهم بطفولة العقل الدائمة » (٦٢) . وقد أثر أخلاقيات الرواقين على أخلاقيات المسيح ، والجمهوريات الإغريقية على الماكنيات الحديثة . وأتفق مع موريللي على أن رذائل البشر مبعثها الملكية لا الطبيعة ؛ فهي « أس جميع البليات التي نكب بها المجتمع » (٦٣) . وقد تربعت شهوة الغنى على عرش متضخم في قلب الإنسان ، فعنقت كل ما فيه من حب العدل والانصاف (٦٤) ، وكما ازدادت التفرقة بين حظوظ البشر تأججت هذه الشهوة . فالحسد ، والطمع ، والفوارق الطبقيّة ، تسمح ما في طبيعة البشر من مودة فطرية . فيستكثر الأغنياء من أسباب الترف والبدح ، ويردى الفقراء في مهاوى الذل والهوان . فأى خير في الحرية السياسية مادامت العبودية الاقتصادية قائمة ؟ « ن الحرية التي يحسب كل أوربي أنه يستمتع بها ليست سوى حرّيته في أن يترك عبوديته لسيد ويسلم نفسه إلى سيد آخر » (٦٥) .

وكم يكون البشر أسعد وأهنأ إذا اختلفت الفاظ « هذا ملكي » « وذلك ملكك » . وزعم مايلي أن الهنود الحمر كانوا أهنأ بالاً في ظل شيوعية اليسوعيين في برجواي من فرنسي جيله ، وأن السويديين والسويسريين في ذلك الحيل ، الذين تخلّوا عن الجري وراء المجد والثراء قانعين برخاء معتدل ، هم أسعد حالاً من الإنجليز الذين يغزون المستعمرات والتجارة . وذهب إلى

أن الأخلاق في السويد تحظى بمقام أعظم من الشهرة ، وأن القناعة آتية في نظر القوم من الثراء الطائل^(٦٦) . أن الذين يملكون الحرية الحقيقية هم أولئك الذين لا تهفو نفوسهم للغنى . ولن تتوافر السعادة في مجتمع كذلك الذي يدعو إليه الفريوقراطيون ، لأن الناس ستثيرهم على الدوام الرغبة في أن يتساووا في مقتنياتهم مع من يفوقونهم ثراء .

وهكذا خلاص مايلي إلى أن الشيوعية هي النظام الاجتماعي الوحيد الذي يدعم الفضيلة والسعادة . « أقيموا اشتراكية السلع ، وعندها لن يكون أيسر من إقرار المساواة بين أحوال العيش ، وارساء رفاهية الإنسان على هذا الأساس المزدوج . »^(٦٧) ولكن كيف السبيل إلى إقامة شيوعية كهذه والناس على مثل هذا الفساد ؟ هنا يرفع الشكوكى في مايلي رأسه ، ويسلم في قنوط بأنه ليس في قدرة أى قوة بشرية اليوم أن تعيد إقرار المساواة دون أن تحدث من ضروب الخلل والأضطراب ما يفوق تلك التي تحاول تفاديها^(٦٨) . فالديمقراطية رائعة نظريا ، أما عمليا فهي تفشل بسبب جهل الجماهير وحبها للاقتناء^(٦٩) . وقصارى ما نستطيعه هو أن نعرض الشيوعية مثلاً أعلى ينبغى أن تسعى إليه الحضارة شيئاً فشيئاً في حذر ، وتغير ببطء عادات الإنسان الحديث من التنافس إلى التعاون . ويجب ألا يكون هدفنا الاستكثار من الثروة ، ولا حتى الاستكثار من السعادة ، بل إنماء الفضيلة ، فالفضيلة وحدها هي تجلج السعادة . وأول خطوة في سبيل الحصول على حكومة أفضل هي دعوة مجلس طبقات الأمة ، الذي ينبغى أن يضع دستوراً يحول الساطة العليا لجمعية تشريعية (وهذا ما تم . في ١٧٨٩ - ٩١) . وينبغى تحديد مساحة الأطيان التي يملكها الفرد ، وتقسيم الضياع الواسعة للاستكثار من ملكية الفلاحين للأرض ، ووضع القيود الصارمة على إرث الثروة ، وإلغاء « الفنون عديمة الجدوى » كالتصوير والنحت .

وقد تبنت الثورة الفرنسية كثيراً من هذه المقترحات . ونشرت مجموعة أعمال مايلي في ١٧٨٩ ، ثم في ١٧٩٢ ، ثم في ١٧٩٣ ، ورتب كتاب نشر عقب الثورة هلفتيوس ، ومايلي ، وروسو ، وفولتير . وفرانكلن ، بهذا الترتيب ، بوصفهم أكبر ملهمي ذلك الحدث ، وقديسي الدين الجديد الحقيقيين^(٧٠) .

٦ — الملك

أما لويس الخامس عشر فقد أبتسم سخرية من هؤلاء الشيوعيين — على قدر علمه بهم — لأنهم قوم حاملون لا وزن لهم ، وواح يتنقل في ود من فراش إلى فراش . وأما البلاط فواصل قماره المستهتر وزهوه المسرف ، من ذلك أن أمير سوبيز أنفق ٢٠٠,٠٠٠ جنيه على توفير أسباب اللهو للملك في يوم واحد ، وكان كل إنتقال لجلسلته إلى أحد مقاره الريفية يكلف دافعى الضرائب ١٠٠,٠٠٠ جنيه . وكان خمسون من كبار القوم يملكون « أوتيلات » أى قصوراً في فرساي أو باريس ؛ وكان عشرة آلاف خادم يبذلون العرق في كبرياء وفخر لتلبية حاجات النبلاء ؛ والأحبار ، والتحليلات ، والأسرة المالكة واشباع غرورهم . وكان للويس نفسه ثلاثة آلاف جواد و ٢١٧ مركبة ، و ١٥٠ غلام يرتدون حلا من المخمل والذهب ، وثلاثون طبيباً يقصدونه وينظفون أمعائه ويسممونه . وقد أنفق البيت الملك في سنة واحدة (سنة ١٧٥١) ٦٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو ما يقرب من ربع إيراد الحكومة^(٧١) وشكا الشعب ولكن أكثر شكواهم كانت غفلا من التوقيع ، وفي كل عام كشفت عشرات النشرات والمصقات ، وأغاني الهجو ، عن كراهية الملك . وقد جاء في أحد الكتيبات « إذا كنت يا لويس مرة موضع حبنا فما ذلك إلا لأن رذائلك كانت لا تزال مجهولة لنا . وفي هذه المملكة ، التي نضبت من أهلها بسبك ، وأسلمت نهبا للمشعوذين الذين يحكمون معك ، إن بقى فرنسيون ، فانما يبقون ليكرهوك^(٧٢) » .

فكيف انقلب لويس المحبوب ملكا محتقرا مهانا ؟ أننا لو صرفنا النظر عن إسرافه ، وإهماله ، وفواحشه ، لم نجد في ذاته بالسوء الذى صور به التاريخ الحقود . كان في بنيته رجلا وسيما ، طويلا ، قويا ، قادرا على الصيد طوال المساء واللاهو مع النساء في الليل . أفسده معلموه ، فأفهمه فيلرو أن فرنسا كلها ملكه بالوراثة والحق الألهى . وقد خفف من كبرياء الملكية وشوشها الظل الذى خافه لويس الرابع عشر وتقاليده ، إذ ألح على الملك الحدث إلحاح الهاجس ، وأورثه الحبس ، إحساسه بالعجز عن الارتفاع

إلى ذلك المستوى الجليل من الفخامة وقوة الإرادة ؛ فأصبح عاجزا سر البت في الأمور ، وترك مهمة اتخاذ القرارات لوزرائه مغتبطا . وأتاحت له قراءاته وهو غلام ، وذاكرته القوية ، بعض الإلام بالتاريخ ، واكتسب مع الوقت معرفة لا يستهان بها بالشئون الأوروبية ؛ واحتفظ سنوات كثيرة بمراسلاته الدبلوماسية السرية . كان ذكيا في تراخ وفتور ، يحكم حكما شديدا ولا رحمة فيه على أخلاق من أحاط به من الرجال والنساء ؛ في وسعه أن يجارى خير العقول في بلاطه حديثا ونكته ، ولكن يبدو أنه قبل حتى أسخف العقائد اللاهوتية التي تبثها فيه فلورى وهر صبي . وبات الدين عنده أشبه بالحمى المتقطعة إذ راح يتذبذب بين التقوى والفجور . فكان يعاني من خوف الموت والجحيم ، ولكنه يقامر على هفران خطاياهم وهو في النزاع الأخير . وقد أوقف اضطهاد الجانسينيين ، وإذا نستحضر تاريخ تلك الحقبة نتبين أن جماعة الفلاسفة استمتعوا في حكمه بين الحين والحين بقدر كبير من التسامح .

كان يقسو أحيانا ، ولكنه في الأكثر رحيم . تعلمت بومبادور ودورباري أن تحباه من أجل شخصه كما أحبته من أجل السلطة التي منحهما أياها . وكانت برودة عاطفته وتحفظه جزءا من حياته وانعدام ثقته بنفسه ، ولكن وراء ذلك التحفظ عناصر من الحنان والرقّة أعرب عنها خاصة في محبة لبناته ، وقد أحيينه أباً منحهن كل شيء إلا القدوة الحسنة . وكان في سلوكه عموما تلمظ وكياسة ولكنه كان قاسي الفؤاد أحيانا ، ويتكلم في هدوء مفرط على امراض أفراد حاشيته أو موتهم الوشيك . وقد نسي تماما أن يسلك مسلك الرجل المهذب وهو يقيل فجأة دارجانسون ، وموريا ، وشوازيل ؛ ولكن هذا أيضا ربما كان نتيجة عدم ثقته بنفسه . فقد شق عليه أن يقول لا لإنسان في وجهه . ومع ذلك كان قادرا على أن يواجه الخطر بشجاعة كما كان يفعل في الصيد أو في فونتنوا .

وكان على ظهوره بمظهر الوقار أمام الناس لطيفا حلو العشرة بين أخصائه ، يعد لهم القهوة بيديه الكريمتين . وقد راعى قواعد السلوك المعقدة التي أرساها لويس الرابع عشر للملكية ولكنه أنكر الشكلية التي فرضتها

على حياته . وكثيراً ما كان يستيقظ قبل تقليد « الاستيقاظ » المقرر رسمياً ويوقد ناره بنفسه لكيلا يوقظ خدمه ، ويغلب عليه أن يلبث في فراشه حتى الحادية عشرة . أما في الليل ، فإنه بعد أن يحتفل رسمياً بذهابه إلى فراشه ، قد يتسلل ليلهو بمحفظته أو حتى ليتفقد مدينة فرساي متنكراً وكان يلوذ بالصيد من مراسم البلاط المنكلفة ، وفي الأيام التي لا يهرب فيها للصيد كانت بطانته تقول « أن الملك لا يعمل اليوم شيئاً^(٧٣) » . وكان يعرف عن كلاب صيده أكثر مما يعرف عن وزرائه ؛ إذ رأى أن في قدرة وزرائه أن يعنوا بشئون الدولة خيراً منه ، فلما نبه إلى أن فرنسا في طريقها إلى الأفلاس والثورة ؛ عزى نفسه بهذه الفكرة « ستسير الأمور على هذه الوتيرة حتى ينتهى أجلي » .

أما من الناحية الجنسية فقد كان وحشاً فاسقاً . ولقد تغتفر له إتخاذه المحظية التي إتخذها حين ضاقت الملكة ذرعاً بفحولاته ، وقد نفهم اقتنائه ببرمبادور ؛ وحساسيته لحمال المرأة وظرفها وحيويتها المشرقة ، ولكن قل في تاريخ الملوك ما أشبه حقارة تنقله بين الفتيات اللاتي إعددن لفراشه في البارك أوسبر واحدة تلو أخرى . وكان مجيء دويارى بالقياس إلى هذا رجوعاً إلى الحالة السوية .

٧ - دويارى

بدأت حياتها في قرية من قرى شهبانيا تدعى نوكلير حوالى ١٧٤٣ باسم ماري - جان بيكى . أبنه الآنسة آن بيكى ، التي يبدو أنها لم تمط اللثام قط عن شخصية أبي الفتاه . ومثل هذه الخفايا كانت مألوفة بين الطبقات الدنيا . وفي ١٧٤٨ أنتقلت آن إلى باريس وأصبحت طاهية للمسيو دومونسيه الذى رتب إلحاق جان ، وهى فى السابعة ، تلميذة داخلية بدير سانت - آن للراهبات . هناك مكثت الفتاة الحميلة تسع سنوات ، يلوح أنها لم تعوزها فيها السعادة ؛ وقد احتفظت بذكريات حلوة عن هذا الدير المنظم . وتلقت فيه تعليماً فى القراءة والكتابة والتطريز ، واحتفظت طوال حياتها بتدين بسيط لا يتشكك ، وباجلال للراهبات والقساوسة ، وكان إيواؤها للقساوسة المطاردين فى الثورة من العوامل التى أفضت بها إلى الجيلوتين^(٧٥) ؛

فلما خرجت من مدرسة الدير إتخذت اسم صديق أمها الحديد ،
المسيورانسون ، لقباً لها وأرسلت إلى حلاق لتتعلم منه ، ولكن هذا الفن
أشتمل على الإغواء ، وجان - الحميلة جمالا لا يقاوم - لم تعرف كيف
تقاوم . ونقلتها أمها وصيفة لمدام دلاجارد ، ولكن ضيوف هذه السيدة
غالوا في الاهتمام بجان ، فما لبثت أن طردت . واجتذب دكان القبعات
الذى التحقت به بائعة عددا غير عاды من الزبائن الذكور . فاصبحت
نخيلة تختص بها سلسلة من الفجرة . وفي ١٧٦٣ تلقاها جان دوبارى ؛
وهو مقامر كان يجلب النساء للفاسقين من النبلاء . وخدمت هذا القواد -
متخذة اسم جان دفوبرنية الأنيق - خمس سنوات مضيضة في حفلاته ،
وأضافت شيئاً من التهذيب والصقل لمفاتنها . ثم رأى دويارى أنه هو أيضاً ،
كدام بواسون ، قد اكتشف « طبقةً شهيّاً للملك » .

وبيان ذلك أن الملك الطيب ستانسلاس مات عام ١٧٦٦ في اللورين
فأصبح بذلك اقليما من أقاليم فرنسا . وانهارت صحة ابنته مارى (ملكة
فرنسا التقية المتواضعة) انهيارا سريعا بعد موته لأن حبهما المتبادل
كان سندا لها في حياة العبودية الطويلة التى عاشتها مع زوج خائن العهود
الزوجية ، في بيثة غريبة . وفي ٢٤ يونيو ١٧٦٨ لفظت أنفاسها الأخيرة
فبكاهها الجميع حتى الملك . وقد عال بناته بالأمل في أنه لن يتخذ المزيد
من التحليلات . ولكن في شهر يوليو رأى جان التى كانت سائرة بالصدفة
على غير هدى في قصر فرساي في براءة كبراءة لايومبادور وهى راكبة في
أرض الصيد . « سينار » قبل أربع وعشرين سنة .

وراعه فيها جمالها الشهوانى ومرحها وطبعها اللعوب . فهاهنا امرأة
تستطيع أن توفر له اللهو من جديد وتدفع قلبه البارد الحزين ، فأرسل
إليها تابعه لبيل . ولم يتردد (الكونت) دوبارى في التفريط فيها لقاء
مقابل ملكى . ورغبة في تهدئة المظاهر أصر لويى على أن تزوج الفتاة .
فزوجها الكونت بسرعة لأخيه جيوم ، الكونت دوبارى الحقيقى ، المفتقر ،
بعد أن استقدمه لهذا الغرض من لفينياك بغسفونية . وحيته تحية الوداع

عقب حفل الزفاف مباشرة (أول سبتمبر ١٧٦٨) ، ولم تقع عليه عيناها بعد ذلك قط . وكوفيء جيوم بمعاش قدره ٥٠٠٠ ريه جنيه ، فاتخذ له خلية واصطحبها إلى لفنيك حيث عاشها خمسة وعشرين عاما ، ثم تزوجها حين علم أن زوجته أعدمته بالجلوتين .

ولحقت جان ، التي اتخذت الآن اسم الكونتس دوبارى ، بالملك سرا في كومبيين ، ثم علانية في فونتينيلو . وسأل الدوق ريشليو لويس ماذا يرى في هذه اللعبة الجديدة ، فأجاب جلالته « لا أكثر من أنها تنسينى اننى سأبلغ الستين بعد قليل . »^(٧٦) وريعت بطانته . فقد كان في استطاعتهم أن يفهموا في غير ضياء حاجة الملك إلى خلية ، أما أن يأخذ امرأة عرفها العديدون منهم مومسا ، ثم يرفعها إلى مقام يعلو على المركيزات والدوقات !! وكان شوازيل قد منى نفسه بأن يقدم أخته للملك (خلية تحمل لقباً) ، فراحت هذه النبيلة المرفوضة تعرض أنخاها - الذى كان الحذر من طبعه - على العداء الصريح لهذه الدعية الجميلة ، ولم تغتفر له دوبارى فعلته قط .

وسرعان ما تقلبت الخلية الجديدة في الذهب والجواهر . ونخلع عليها الملك معاشاً قدره ١٣٠٠٠٠ فرنك بالإضافة إلى راتب سنوى قدره ١٥٠٠٠ فرنك ، تفرض على مدينة باريس وولاية برحندية . وهرع الجواهريون إلى تزويدها بالجواهر والعقود والأساور والتيجان وغيرها من أسباب الزينة المتألقة التي اقتضوا الملك ثمنها لها ٢٠٠٠٠٠ فرنك في أربع سنوات . وبلغت جملة ما تكلفته الخزانة في تلك السنوات الأربع ٣٧٥٠٠٠٠ ريه جنيهاً^(٧٧) . وسمع أهل باريس بجمالها المتألق ، وحزنوا لأن يومبادور جديدة اقبلت لتبتلع ضرائبهم .

وفي ٢٢ ابريل ١٧٦٩ قدمت رسمياً في البلاط ، وطلعت على أفرادها في شعلة متوهجة من الحلى والجواهر وهي تتكىء على ذراع ريشليو . وأعجب الرجال بمفاتنها ، أما النساء فاستقبلنها بما جرؤن عليه من فتور . واحتملت هذه الالهات في هدوء ، وأرضت بعض الحاشية بتواضع سلوكها والضحك الرخيم الذى كانت تشرح به صدر الملك . ولم تبد أى ضغينة حتى لأعدائها (باستثناء شوازيل) ، واكتسبت الرضى باستمالة

جلالته لاصدار قرارات عفوا أكثر مما كان يصدر من قبل . وشيئاً فشيئاً جمعت حولها رجالاً ونساء من النبلاء الذين تشفعوا بها عند الملك . وقد حرصت على رعاية أقاربها كما فعلت يومبادور من قبل ، فاشتريت أملاكاً ولقبا لأمرها ، وحصلت على معاشات لحالاتها وأبناء حالاتها ، ثم دفعت ديون جان دوبارى ، وخلفت عليه مالا كثيراً ، واشترت له فيلا أنيقة في لبل - جوردان . وظفرت لنفسها من الملك بالشاتو لوفسيين الذى كان أمير لامبال وأميرتها يشغلانه ، على حافة الحديقة الملكية فى مارلى ، واستخدمت أعظم معمارى الحيل ، جاك - انج جابرييل ، ليعيد بناء القصر على هواها ، وصانع الأثاث المدقق بيير جوتير ليزخرفه بأثاث وتحف فنية باع ثمنها ٧٥٦,٠٠٠ جنيه .

وكانت تعوزها خلفية التعليم والاختلاط التى جعلت من يومبادور راعية مختارة ذواقة للأدب والفلسفة والفن . بيد أنها جمعت عدداً كبيراً من الكتب الأنيقة التجليد ، من هومر إلى كتب الفحش ، ومن تأملات بسكال الورعة إلى رسوم فراجونار البديئة . وفى ١٧٧٣ أرسلت تحيتها وصورتها إلى فولتير مع قبلة على كل وجنة وأجاب بأبيات فيها ذكاء شعره المعهود :

« ماذا ! أقبلتان فى ختام حياتى ! أى جواز تفضلين بأن ترسلينه لى ! قبلتان ! إن واحدة تسكنى وزيادة ، أى إيجيريا المعبودة ، لأننى ساموت فرحاً فى القبلة الأولى^(٧٨) . »

وطلبت إلى لويس الخامس عشر أن يسمح لفولتير بالعودة إلى باريس فرفض ، وكان عليها أن تقنع بشراء أشكيلة من الساعات من فرنيه ، وفى ١٧٧٨ . حين أتى الاقطاعى العجوز إلى باريس ليموت ، كانت من بين الكثيرين الذين صعدوا سلم بيته فى شارع بون لتقدم له احترامها . وقد فتن بزيارتها ، وختمها بالهوض من فراشة ليصحبها إلى الباب . وفى تزولها التقت بجاك بيير بريسو ، رجل الثورة المستقبل ، وكان يرجو أن يقدم إلى فولتير مخطوطة فى القانون الجنائى ، وحاول الدخول إليه بالأمس ففشل ، وكان يعيد الكرة الآن ، فقادته عوداً إلى باب فولتير

وربت له أن يدخل . وقد استعاد في مذكراته « ابتسامتها المفعمة دفئا ولطفاً »^(٧٩) .

لقد كانت طيبة القلب سمحة النفس ما في ذلك ريب . احتملت دون رد عدااء الأسرة المالكة ورفض ماري انطوانيت التحدث اليها . وكان شوازيل دون غيره هو الذى لم تستطع الصفع عنه لأنه لم ين عن محاولة طردها من البلاط . وسرعان ما وضح أن واحداً منهما لابد أن يرحل .

٨ - شوازيل

كان سليل أسرة لورينية عريقة ، وأصبح في مطلع حياته الكونت دستانفيل ، وقد ظفر بالتشريف لبلائه في حرب الوراثة النمساوية . وفي ١٧٥٠ حين كان في الحادية والثلاثين استعاد لأسرته ثراها بزواجه من وارثة غنية . وسرعان ما ظفر بمكان مرموق في البلاط بفضل ذهنه الوقاد وذكائه المرح ، ولكنه عطل رقيه بمعارضته لبومبادور . وفي ١٧٥٢ نقل ولاءه فاكسب عرفانها بصنيعه حين أفشى لها سر مؤامرة دبرت اطردها . فحصلت له على وظيفة سفير في روما ثم فينا . وفي ١٧٥٨ دعى إلى باريس ليحل محل برنيس وزيرا للخارجية ، ورقى دوقا ونبيلاً من نبلاء فرنسا . وفي ١٧٦١ نقل وزارته هذه لأخيه سبزار ، ولكنه واصل توجيه السياسة الخارجية ، أما هو فاتخذ لنفسه وزارتي البحرية والبحرية . وتعاضم ساططانه حتى كان يتغلب أحياناً على الملك ويخيفه^(٨٠) . وقد أعاد بناء الجيش ، والبحرية ، وقلل من المضاربة والفساد في المدفوعات البحرية وفي تموين الجيش ، وأعاد النظام إلى صفوف الجيش ، وأحل ذوى الكفايات من غير حملة الألقاب محل حملتها ممن شاخوا في سلاح الضباط . وطور المستعمرات الفرنسية في جزر الهند الغربية ، وأضاف كورسيكا إلى ممتلكات التاج الفرنسي ، وتعاطف مع جماعة الفلاسفة ، ودافع عن الموسوعة ، وأيد طرد اليسوعيين (١٧٦٤) وأغضى عن إعادة تنظيم الهييجونوت في فرنسا . وقد حمى أمن فواتيز في فرنيه ، وأيد حملته دفاعاً عن أسرة كالاس ، وظفر من ديدو بمديح قال فيه « أى شوازيل العظيم ، انك لتسهر على مقدرات الوطن »^(٨١) .

ويمكن القول على الجملة إن سياساته أنقذت فرنسا إلى حد معتدل من الكارثة التي جرها إليها الحلف النمساوي المنحوس . فخفض الإعانات المالية التي كانت تدفعها عادة إلى السويد ، وسويسرة ، والدنموك ، وبعض الأمراء الألمان . وشجع الجهود التي بذلها شارل الثالث ليدخل أسبانيا إلى حظيرة القرن الثامن عشر ، وحاول أن يعزز قوة فرنسا وأسبانيا بميثاق الأسرة (١٧٦١) الذي أبرمه الملكان البوربونيان . وقد تعثرت الحطة ، ولكن شوازيل فاوض إنجلترا على صلح بشروط تفضل كثيراً ما كان الموقف العسكري يبرره . وقد تنبأ بثورة المستعمرات الإنجليزية في أمريكا ، ودعم مركز فرنسا في سان دومينج والمارتنيك ، وجواديلوب ، وغيانا الفرنسية ، أملاً في إرساء سلطان استعماري جديد يعوض فرنسا عن فقد كندا . وقد تبنى النابليونان هذه السياسة في ١٨٠٣ و ١٨٦٣ .

ويجب أن نضع مقابل هذه المنجزات إخفاقه في وقف التغلغل الروسي في بولندا وإصراره على قيادة فرنسا وأسبانيا في أعمال عدائية مجددة مع إنجلترا . وكان لويس قد سئم الحرب ، فاستمع بذهن مفتوح لأولئك الذين يعملون على إسقاط شوازيل . وقد فتن الوزير الأريب الكثيرين بمجاملته للبلاط ، واستضافته المشرقة للأصدقاء ، وسعة حيلته وجهاده في خدمة فرنسا ، ولكنه قوى المنافسات فأحاطها عداوات بنقده الصريح وحديثه المستهتر . وأتاحت معارضته لدوباري معارضة لا هوادة فيها لإعدائه سبيلاً إلى أذن الملك . وأيد ريشيلو — الذي لا يكل — دوباري ، وكان ابن أخيه الدوق ديجيون يتحرق شوقاً للحلول محل شوازيل رئيساً للحكومة . ونزلت الأسرة المالكة التي أنكرت نشاط شوازيل ضد الشيوعيين إلى استعمال الخلية المزدرة أداة لعزل الوزير العديم التقوى .

وطلب إليه لويس غير مرة أن يتجنب الحرب مع إنجلترا ومع دوباري . ولكن شوازيل واصل الإثمار على الحرب خفية ، وازدراء الخلية جهزاً . وأخيراً استجمعت كل قواها ضده وفي ٢٤ ديسمبر ١٧٧٠ أرسل الملك المغيظ رسالة مقتضبة إلى شوازيل جاء فيها « يا ابن عمي ، إن عدم رضائي

عن خدماتك يضطرنى إلى نفيك إلى شانتلوب حيث يتعين عليك أن ترحل في ظرف أربع وعشرين ساعة . » وتحدى أكثر الحاشية غيظ الملك بالإعراب عن عطفهم على الوزير المقال بعد أن صدمهم هذا الطرد الفجائى لرجل أدى لفرنسا خدمات جليلة. وركب نبلاء كثيرون إلى شانتلوب ليواسوا شوازيل في منفاه . وكان منى مريحا لأن ضبيعة الدوق كانت تحوى قصرا من أبدع القصور ، وحدائق خاصة من أرحب الحدائق في فرنسا ، ثم إنه كان يقع في تورين غير بعيد من باريس . هنالك عاش شوازيل حياة الأبهة والأناقة ، لأن دو بارى أقنعت الملك بأن يرسل إليه ٣٠٠,٠٠٠ جنيه فوراً وتعهداً بستين ألفاً كل عام . وحزن جماعة الفلاسفة بسقوطه ، وبكى الطاعمون على مائدة دولباخ قائلين : « لقد ضاع كل شيء » وقال ديدرو في وصفهم أنهم غرقوا في دموعهم .

٩ - تمرد البرلمانات

جاءت بعد شوازيل « حكومة ثلاثية » كان ديجيون وزير الخارجية فيها ورينيه نيكولا دمويو مستشارا ، والأبيه جوزيف مارى تريبه مراقباً مالياً . وأعطى تريبه لدوبارى كل ما طلبته من مال ، ولكنه فيما عدا ذلك خفض المصروفات تخفيضاً بطولياً . فأوقف استهلاك الديون ، وخفض نسبة الفائدة على الديون الحكومية ، ووضع الجديد من الضرائب ، والفروض ، والرسوم وضاعف الرسم الحكومى على النقل الداخلى . وبلغت جملة ملوفره ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأضاف ١٥,٠٠٠,٠٠٠ إلى الدخل . والواقع أنه إنما أجل الانهيار المالى بتفليسة مؤقتة ولكن الكثيرين عانوا من تخلف الحكومة في إيفاء ديونها ، وضموا أصواتهم لأصوات السخط الذى لم يهدأ . وما لبث العجز أن عاد إلى التفاقم حتى بلغ ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه في آخر سنوات الحكم (١٧٧٤) . وكان هذا الذى يبدو اليوم دينا أهاليا متواضعا لأمة تتمتع بالاستقرار المالى مبررا إضافيا لقلق أولئك الذين أقرضوا الحكومة مالا ، والذين سمعوا الآن ، بعداء أهل الصيحات المتصاعدة بطلب التغيير .

وكانت أزمة الذروة في العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر دى

كفاح وزرائه للحفاظ على ساطة الملك المطلقة ضد تمرد البرلمانات . وهذه البرلمانات (كما رأينا) لم تكن هيئات نيابية أو تشريعية كالبرلمان البريطاني بل غرفاً قضائية تقوم بعمل محاكم الاستئناف في ثلاث عشرة مدينة فرنسية . زد على ذلك أنها إدعت - كما إدعى البرلمان الإنجليزى ضد تشارلز الأول - بأنها تدافع عن « القانون الأساسى » أو التقاليد المقررة لأقاليمهم ضد الاستبدادية الملكية ، وإذ كان الوصى فليب دورليان قد أكد حقهم في « الاعتراض » أو الاحتجاج على المراسم الملكية أو الوزارية ، فإنهم تقدموا خطوة أخرى فطالبوا بالألا يصبح أى مرسوم من هذه المراسم قانوناً ما لم يوافقوا عليه ويسجلوه .

ولو كانت هذه البرلمانات قد إنتخبها الشعب ، أو إنتخبها أقلية متعلمة مالكة (كما في بريطانيا) لكان ممكناً أن تكون أداة أنتقال إلى الديمقراطية ، ولقد كانت إلى حد ما رقيباً صحياً على الحكومة المركزية . ومن ثم فإن الشعب بصفة عامة أبدى في كفاحها ضد الملك . على أنها كانت من أشد القوى محافظة في فرنسا ، لأن أعضاءها كلهم تقريباً كانوا من أثرياء المحامين . وأصبح هؤلاء المحامون ، بوصفهم « نبلاء الرداء » منغلقيين بانغلاق نبلاء السيف ، « وقرر البرلمان تلو البرلمان قصر المناصب الجديدة التى تحمل النبالة على الأسر النبيلة فعلاً »^(٨٣) . وكان برلمان باريس أكثرها غلوا في المحافظة ، وبارى الأكليروس في معارضة حرية الفكر أو النشر ؛ وحرم كتب جماعة الفلاسفة بل احرقها أحيانا . وكان قد إنحاز إلى الجانسية التى أدخلت لاهوتا كلونيا في الكنيسة الكاثوليكية . وقد لاحظ فولتيران برلمان تولوز الجانسى عذب وقتل جان كالاس ، وإن برلمان باريس صدق على إعدام لا بار ، في حين نقضت وزارة شوازيل الحكم على كالاس وحثت الموسوعين .

وزاد كرسstof دهمون ، رئيس أساقفة باريس ، الصراع حدة بين الجانسين والكاثوليك التقليديين إذ أصدر أمره إلى الكهنة الخاضعين له بالألا يناولوا القربان إلا الأشخاص الذين اعترفوا على يدكاهن غير جانسنى .

ومنع برلمان باريس الكهنة من إطاعة هذا الأمر مؤيدا من أكثرية الشعب ، وأتهم رئيس الأساقفة بأنه يثير إنشقاقا في الكنيسة ، وأستولى على بعض أملاكه غير الكنسية . وأعتبر مجلس الدولة الملكي هذا الإجراء مصادره غير قانونية ، وأمر البرلمان بالأنسحاب من الخلافات الدينية . فأبى ، لا بل وضع « اعتراضات كبرى » (٤ مايو ١٧٥٣) كانت إلى حد ما إرهابا بالثورة : فقد قال الأعضاء أنهم يعلنون ولاءهم للملك ولكن « إذا كانت الرعية تدين بالطاعة للملوك ، فإن هؤلاء يدينون بالطاعة للقوانين ^(٨٤) » . والمعنى الذى تضمنه هذا القول هو أن البرلمان بوصفه حارسا للقانون ومفسرا له ، سيقوم بوظيفة المحكمه العليا فوق الملك . وفى ٩ مايو أصدر مجلس الدولة أوامر ملكية مخنوقة بنفى معظم أعضاء برلمان باريس من العاصمة . وهبت برلمانات الأقاليم وأهل باريس المناصرة المنفيين . ولاحظ المركز دارجنسون فى ديسمبر أن « الباريسيين فى حالة إنفعال مكظوم ^(٨٥) » . وأمرت الحكومة جنودها بنحفر الشوارع وحماية بيت رئيس الأساقفة لخشيته من فتنة شعبية . وفى مارس ١٧٥٤ كتب دارجنسون يقول « كل الاستعدادات تجري لحرب أهلية ^(٨٦) » . ووضع الكردينال دلا روشفوكوخلا وسطا ينقذ ماء الوجوه ؛ فطلبت الحكومة إلى المنفيين أن يعودوا (٧ سبتمبر) ، ولكنها أمرت البرلمان والأكليروس أن يكفوا عن النزاع . ولكن احدا لم يطع الأمر ، وواصل رئيس أساقفة باريس حملته على الجانسنية ، وواصلها بعنف حمل لويس على نفيه إلى كونفلانس (٣ ديسمبر) : وأعلن البرلمان أن المرسوم البابوى الصادر ضد الجانسنيين ليس قانونا من قوانين الإيمان ، وأمر الكهنة بتجاهله . وتذبذبت الحكومة ، وأخيرا أمرت البرلمان بقبول المرسوم البابوى (١٣ ديسمبر ١٧٥٦) نظراً لحاجتها إلى سلفة من الأكليروس تعيينها على نحو حرب السنين السبع .

وأدار الجدل العنيف رؤوسا كثيرة . ففى ٥ يناير ١٧٥٧ هاجم روبير - فرنسوا داميان الملك فى أحد شوارع فرساي ؛ وطعنه بمطواة كبيرة ،

ثم لزم مكانه ينتظر القبض عليه . وقال لويس لحراسه المهملين « تحفظوا عليه ولكن لا يؤذنه أحد »^(٨٧) . واتضح أن الجرح غير ذى بال ، وقال المهاجم « لم يكن فى نيتى قتل الملك ، ولو شئت لقتلته . إنما فعلت ما فعلت ليمس الله قلب الملك ويؤثر فيه ليعيد الأمور إلى سيرتها الأولى »^(٨٨) . وفى رسالة أرسلها من سجنه إلى الملك أعاد القول بأن « رئيس أساقفة باريس هو سبب كل هذه الضجة حول الأسرار المقدسة ، لأنه أمسكها عن يريده تناولها »^(٨٩) . وقال إنه قد أثاره ما سمعه فى البرلمان من خطب ، « ولوانى لم أدخل قط دارا للعدالة . . . لما وصلت إلى هذا المكان قط »^(٩٠) . وقد حاجته هذه الخطب هياجا حملا على أن يرسل فى طلب طبيب ليقتصده ، ولكن لم يأتى طبيب . و « أنه قصد (كما قال) لما هاجم الملك »^(٩١) . وحاكمته غرفة البرلمان الكبرى ، وأدانتها ، وحكمت عليه ، ثم حكمت على أبيه ، وأمه ، وأخته ، بالنفى المؤبد . وعانى داميان الوان التعذيب التى نص عليها القانون عقابا لقتلة الملوك : فزق لحمه بكماشات عممية ، ورش عليه الرصاص المغلى ، ومزقت أوصاله جياذ أربعة (٢٨ مارس ١٧٥٧) . ودفعت نبيلات النساء المال نظير تمكينهن من مشاهدة هذه العملية من مواقع مواتية . أما الملك فاعرب عن اشمزازه من ضروب التعذيب هذه وأرسل المعاشات للأسرة المنفية .

وأسفر العدوان عن بعض العطف على الملك ، فشارك اليهود والبروتستنت فى الصلاة من أجل سرعة شفائه ، ولكن حين علم الناس أن الجرح لم يكن أكثر من « شكة دبوس » فى عبارة فولتير (pique d'épingle) ارتد تيار التأييد الشعبى إلى ناحية البرلمان . وبدأ الناس يتنافسون فى موضوع الحكومة النيابية وما يقابلها من الملكية المطلقة . كتب دارجنسون يقول « إنهم يرون فى هذه البرلمانات علاجا للأوصاب التى يعانون منها . . . أن الثور تضطرم تحت الرماد » . وفى يونيو ١٧٦٣ عاد برلمان باريس يؤكد أن « مراجعه البرلمان للقوانين هى أحد القوانين التى لا يمكن انتهاكها دون انتهاك لذلك القانون الذى أوجد الملوك انفسهم »^(٩٢) . ومضى برلمان تالوز شوطا أبعد ، فأعلن أن القانون يقتضى « رضاء الأمة الحر الطليق »^(٩٣)

ولكنه عني بلفظ « الأمة » في البرلمانات . وفي ٢٣ يوليو ١٧٦٣ قدمت هيئة قضائية هامة تدعى محكمة المعوقات برأسها مالزيرب الشجاع الأمين إلى الملك تقريراً عن فقر الشعب وعن العجز والفساد في إدارة مالية الدولة ، ورجته الهيئة « أن يصغى للشعب نفسه عن طريق مندوبيه في اجتماع لمجلس طبقات المملكة^(٩٤) » . وهذه أول مطالبة صريحة بمجالس الشعب الذي لم يدع منذ ١٦١٤ .

وفي الصراع الخطر الذي تمخض عن طرد اليسوعيين من فرنسا (١٧٦٤)^(٩٥) . اتخذ برلمان باريس موقف الهجوم وفرض رأيه على الملك . وفي يونيو ونوفمبر أرسل برلمان رين ، وهو دار القضاء العالي بريتني ، إلى لويس اعتراضات شديدة اللهجة على الضرائب التي فرضها اللوق دييجون الذي كان آنذاك حاكماً على الإقليم . فلما لم يتلق جواباً مرضيه أوقف جلساته ، واستقال معظم أعضائه (مايو ١٧٦٥) ، ونشر نائبه العام ، لوى رينيه دلاشالوتيه ، هجوماً على الحكومة المركزية فتمبض عليه وعلى ابنه وثلاثة مستشارين وأتهموا بالتحريض على الفتنة . وأمر الملك برلمان رين بمحاكمتهم . فرفض ، وأيدت الرفض جميع برلمانات فرنسا بظاھرھا في ذلك الرأي العام . وفي ٣ مارس ١٧٦٦ ظهر لويس أمام برلمان باريس وحلّده من الإغضاء عن الفتنة . وأعلن تصحيحه على الحكم ماسكا مطابق السلطان .

« في شخصي وحدي تستقر سلطة السيادة ، ولي وحدي السلطة التشريعية غير مشروطة ولا مجزأة . وكل النظام العام ينبثق مني . وشعبي وأنا واحد ، وحقوق الأمة ومصالحها ، الأمة التي يجرؤ البعض على جعلها هيئة منفصلة عن الملك ، هي بالضرورة متحدة ، مع حقوق ومصالحی ، مستقره في يدي دون غيري^(٩٦) » .

وأضاف أن الإيمان التي أقسمها لم يقسمها للأمة ، كما أكد البرلمان ، بل لله وحده . وواصل برلمان باريس دفاعه عن برلمان رين ، ولكنه في ٢٠ مارس قبل النظرية التالية رسمياً ، بإعتبارها « مبادئ أساسية

لا مناص منها » وهى « أن السيادة للملك وحده ، ولا يسأل إلا أمام الله ... والسلطة التشريعية مستقره كلها فى شخص الملك »^(٩٧) . وحث شوازيل وغيره الملك على بذل تنازلات متجاوبة فأفرج عن لاشالويته وزملائه المسجونين ، ولكنهم نفوا إلى سانت قرب لاروشيل . ودعى ديجيون من بريتنى ، وأنضم إلى اعداء شوازيل . واستأنف برلمان رين جلساته (يوليو ١٧٦٩) .

ودخل فولتير الصراع باصداره « تاريخ برلمان باريس بقلم الأبيه بيج » عام ١٧٦٩ . وقد أنكر أنه مؤلف الكتاب ، وكتب خطابا ينقده لأنه آية فى الأغلاط والسخف ، وجريمة ضد اللغة^(٩٨) . ومع ذلك فالكتاب بقلمه . ومع أنه كتبه على عجل فقد دل على ما بذل فيه من بحث تاريخى لا يستهان به . غير أن النزاهة تعوزه ، فهو أتهم طويل للبرلمان باعتباره مؤسسة رجعية قاومت فى كل مناسبة التدابير التقدمية - كانشاء الأكاديمية الفرنسية ، والتطعيم ضد الجدرى ، والأدارة الحرة للقضاء . وأتهم فولتير البرلمانات بالتشريع الطبقي ، والخرافة ، والتعصب الدينى . فلقد أدانت أقدم الطابعين فى فرنسا ، وهلت لمذبحة يوم القديس برتلميو ، وحكمت بحرق المرشال دانكر كما تحرق الساحرات . وقال فولتير أنها إنشئت لوظائف قضائية بحتة ، وليس لها سلطة التشريع ، ولو اتخذت هذه السلطة لأحلت محل أوتقراطية الملك أو ليباركية المحامين الأغنياء المتحصنة ضد أى رقابة شعبية . وكان فولتير قد كتب هذه المذكرة المسهبة خلال سطوة شوازيل الذى شجعت ميوله اللبرالية الاعتقاد بأن التقدم ميسور أشد ما يكون يسرا على يد وزير مستنير فى ظل ملك مستنير . أما ديدرو فلم يوافق فولتير ، وقال أن البرلمانات مهما كانت رجعية النزعة فإن مطالبها بحقوق الأشراف على التشريع ضابط مرغوب فيه على الاستبداد الملكى^(٩٩) .

وجاءت عودة ديجون إلى باريس بأزمة جديدة . فقد اتهم برلمان رين الدوق بارتكاب عمل محذور ، وإذعن لمحاكمة برلمان باريس له على هذه

الهم ، فلما وضح أن الحكم سيصدر بأنه مذنب لجأت مدام دوبارى إلى الملك ليتدخل . وأيدها في ذلك المستشار موبو ، وفي ٢٧ يوليو ١٧٧٠ أعلن لويس أن الجلسات تفشى أسراراً للدولة . وعلى ذلك يجب إنهاؤها ثم ألغى شكاوى الفريقين المتبادلة ، وأعلن براءة كل من ديجون ولاشالوتيه ، وأمر جميع أطراف النزاع بالكف عن إثارة الشعور العام . وتعدى البرلمان هذه الأوامر باعتبارها تدخلا تعسفيا في سير العدالة المشروع ، وأعلن أن الشهادة أضرت ضررا بليغا بشرف ديجون ، وأوصى بوقفه عن ممارسة جميع وظائفه بصفته نبيلاً حتى تثبت براءته بالطريقة القانونية الواجبة . وفي ٦ سبتمبر أصدر البرلمان قراراً arrêté كان فيه اختبار بقوة الملك :

« أن تعدد أعمال ساطة مطلقة تمارس في كل مكان ضد روح ونص القوانين التأسيسية للملكية هو برهان دامغ : على أن هناك نية مبيتة لتغيير شكل الحكومة ، ولأحلال الأعمال الشاذة اسطة تعسفية محل سلطان القوانين المتبادل على الدوام (١٠٠) » .

ثم أجل البرلمان جلساته حتى ٣ ديسمبر .

واستغل موبو هذه المهالة ليعاد دفاعاً متصلباً عن السلطة الملكية . ففي ٢٧ نوفمبر أصدر بتوقيع الملك مرسوماً سلم بحق الاعتراض ولكنه حرم أى رفض لمرسوم يجدد بعد سماع الاعتراضات . ورد البرلمان بأن التمس من الملك أن يسلم مشيرى العرش الأشرار لانتقام القوانين (١٠١) . وفي ٧ ديسمبر دعا لويس البرلمان إلى فرساي ، وفي جلسة رسمية (سرير العدالة) أمر الأعضاء بأن يوافقوا على مرسوم ٢٧ نوفمبر ويسجلوه . فلما عاد القضاة إلى باريس قرروا الكف عن أداء جميع وظائف البرلمان حتى يسحب مرسوم نوفمبر . وأمرهم لويس باستئناف جلساتهم ، فتجاهلوا الأمر ، وحاول شوازيل إقرار السلام في ربوع الوطن لخوض حرب انجح خارجه ، فأقاله لويس ، وهيمن موبو الآن على مجلس الدولة بينما راحت دوبارى تحوم حول الملك ، وأرته لوحة فاندليك التي رسمها لتشارلر

الأول ملك إنجلترا ؛ وحذرت من مصير كمبيره قائلة « إن برلمانك أيضا سيضرب عنقك » (١٠٢) .

وفي ٣ يناير ١٧٧١ أمر لويس ثانية بقبول مرسوم نوفمبر . ورد البرلمان بأن المرسوم ينتهك قوانين فرنسا الأساسية . وفي ٢٠ يناير فيما بين الساعة الواحدة والرابعة صباحاً سلم جنود الملك المسلحون لكل قاض « إرادة ملكية » تخيره بين الطاعة أو النفي من باريس . وأكدت الكثرة الساحقة حبهم للملك ، ولكنهم ظلوا على عنادهم . وعليه ففي اليومين التاليين نفي ١٦٥ عضواً في برلمان بايس إلى أنحاء شتى في فرنسا . وهتف الشعب لهم وهم يبرحون قصر العدالة .

وتحرك الآن موبو ليحل منظمة قضائية جديدة محل البرلمان . فأنشأ في باريس بمرسوم ملكي محكمة عليا تتألف من مجلس الدولة وبعض الفقهاء اللينيين ؛ وأنشأ في آراس ، وبلوا ، وشالون ؛ وكليرمون - فران ، وليون وبواتييه ، « مجالس عليا » لتكون محاكم استئناف للأقاليم . وأصلحت بعض المفسدات القضائية ، وأوقف بيع الوظائف ، وتقرر أن يكون التقاضي من الآن بالمحان . وهلل فولتير للإصلاح ، وتنبأ في تهور « إنني واثق تمام الثقة أن المستشار سيحقق نصراً كاملاً ، وأن الشعب سيحب هذا الانتصار » (١٠٣) . ولكن الشعب لم يستطع أن يتقبل في رضى هدم مؤسسة عريقة القدم كالبرلمانات فما من شيء يكثر الناس من إدانته ويعمق حبهم له كالماضي . واحتقرت معظم الجماهير المحاكم الجديدة لأنها أدوات إضافية تستعين بها الأوتقراطية الملكية . وحزن ديدرو على نهاية البرلمانات وإن لم يكن مخدوعاً فيها ، فقال إن ذلك « خاتمة الحكم الدستوري » . ففي لحظة واحدة قفزنا من الحالة الملكية إلى أشد حالات الاستبداد » (١٠٤) . وأعرب أحد عشر نبيلاً من نبلاء المملكة ، بل بعض أعضاء الأسرة المالكة ، عن عدم موافقتهم على المحاولة التي يبذلها موبو لاستبدال البرلمانات . ولم ينشب بين الشعب هياج واضح ، ولكن كلمات الحرية ، والقوانين ، والشرعية ، التي ترددت كثيراً في البرلمان مؤخراً أخذت تتداولها الألسن . واصطبغت الهجائيات الموجهة للملك الفاسق بعنصر جديد من الحرارة والمرارة ، ودعت الملمصقات الدوق أورليان لتزعج الثورة .

وتورطت البرلمانات كارهة تقريبا ، وبرغم نزعتها المحافظة ، في خميرة من الأفكار الثورية . وكان مقالا روسر ، وشيوعية موريللي ، ومقترحات مابلي والاجتماعات السرية لجماعة الماسون الأحرار ، وفضح الموسوعة للمفاسد المتفشية في الحكومة والكنيسة ، وسيل النشرات المتدولة في أرجاء العاصمة والأقاليم — كلها كانت تعارض معارضة عنيفة دعوى السلطة المطلقة والحق الإلهي التي يدعيها ملك خامل عرييد. وهكذا أخذ الرأي العام (M. Tout le monde) يتحرك بوصفه قوة في التاريخ .

كان أثقل النقد إلى عام ١٧٥٠ يقع على الكنيسة ، ولكنه بعد ذلك راح يقع بازدياد على الدولة بعد أن حفزه حظر الموسوعة . كتب هوراس ولبول من باريس في أكتوبر ١٧٦٥ :

« لم يعد للضحك سوق هنا .. يا للقوم الطيبين ، إن وقتهم لا يتسع للضحك ، فواجبهم الأول هو هدم الله والملك ، ويشارك الرجال والنساء ، والعظماء والحقراء في هذا الهدم من كل قلوبهم .. أتعلم من هم «الفلاسفة» أو ما مدلول اللفظ هنا؟ أولا هو يشمل كل إنسان ، ثانياً يعني الرجال الذين يهدف الكثيرون منهم ، بعد أن أقسموا على خوض الحرب على الملكية ، إلى هدم الدين كله وأكثر من هؤلاء إلى القضاء على سلطة الملك » (١٠٥) .

وفي هذا الحكم مغالاة بالطبع ، فعظم جماعة الفلاسفة (باستثناء ديدرو على الأخص) كانوا أنصارا للملكية يتجنبون الثورة . هاجموا النبلاء وكل الامتيازات الوراثية ، وانتقدوا عشرات المفاسد وطالبوا بإصلاحها ، ولكنهم كانوا يرتعدون فرقا من فكرة إعطاء السلطة كلها للشعب (١٠٦) . ومع ذلك كتب جريم في « رسائله » في يناير ١٧٦٨ يقول :

« إن السأم العام من المسيحية ، الذي يتضح في جميع الأرجاء ، لاسيا في الدول الكاثوليكية ، والقلق الذي يهيج عقول الناس بشكل غامض ويدفعهم إلى مهاجمة المفاسد الدينية والسياسية — كل هذا ظاهرة يتسم بها قرننا ، كما اتسم القرن السادس عشر بروح الإصلاح ، وهو ينذر بثورة داهية لا مفر منها » (١٠٧) .

١٠ - رحيل الملك

لم يوث لويس الخامس عشر كما لم يوث من قبله لويس الرابع عشر ،
فن الموت في الوقت المناسب . لقد كان عليا بأن فرنسا تترقب زواله ، ولكنه
لم يطق التفكير في الموت . كتب السفير النمساوي « أن الملك يبدي الملاحظات
بين الحين والحين عن سنه ، وصحته والحساب العسير الذي لابد أن يقدمه يوما ما
للخالق الأعظم »^(١٠٨) . وقد يتأثر لويس تأثراً عابراً باعتكاف ابنته لويز -
ماري في دير كرملي تكفيراً عن ذنوب أبيها فيما زعموا ، وقيل إنها كانت تدعك
أرض الحجرات وتغسل الملابس . فلما ذهب لزيارتها وبخته على عيشته
وتوسلت إليه أن يطرد دي باري ويتزوج الأميرة دلامبال ويصلح مافسد بينه
وبين الله .

وقد مات عدة أصدقاء له في أخريات عهده ، وقع اثنان منهم
صريعين تحت قدميه بهبوط في القلب^(١٠٩) . ومع ذلك بدا أنه يجد لذة رهبة
في تذكير الشيوخ من حاشيته بقرب موتهم . قال مرة لأحد قواده .
« انك تشيخ يا سوفريه ، فأين تريد أن تدفن ؟ » فأجاب سوفريه « عند
قدمي جلالتيك يا مولاي » . وقيل أن هذا الجواب « جعل الملك واجماً كثير
التفكير »^(١١٠) . وقالت مدام دؤوسيه أنه « لم يخلق رجل أكثر منه
اكتئاباً وغماً »^(١١١) .

وكان موت الملك انتقاماً طال انتظاره ، انتقمه على غير عمد جنس
النساء الذي هام به وحط من كرامته ، فحين لم تكف حتى دوباري لأشباع
شهوته ، جاء إلى فراشه بفتاه يبلغ من حدائتها أنها لم تكد تبلغ سن الزواج .
وكانت تحمل جراثيم الجدري ، فنقلت عدواه إلى الملك . وفي ٢٩ أبريل
١٧٧٤ بدأ هذا المرض يهاجمه . وأصرت بناته الثلاث على ملازمته وتمريضه
مع أنهن لم يسبق لهن التحصين ضد الجدري (وقد أصبن بالمرض جميعهن
ولكنهن شفين) وكن يتركنه في الليل فتحل دوباري محلهن . غير أن الملك
صرفها برفق حين رغب في تناول الأسرار المقدسة في • مايو قائلاً :
« أعلم الآن أنني مريض مرضاً خطيراً . أن فضيحة متزيج ألا تتكرر .

أنى أدين بنفسى لله ولشعبى . وإذن يجب أن نفرق . فاذهبى إلى قصر
الدوق ديجيون الريفى فى روبييل وانتظرى أوامر جديدة . وصدقينى إننى
سأظل على الدوام أحتفظ لك بشعور المحبة العميقة^(١١٢) .

وفى ٧ مايو صرح الملك فى حفل رسمى أمام البلاط بأنه نادم على
ما فرط منه من فضائح أمام رعاياه ، ولكنه أصر على أنه لا يدين بأى مؤخذة
عن سلوكه إلا لله وحده^(١١٣) . وأخيراً رحب بالموت . فقال لإبنته لم أشعر
فى حياتى بمثل هذه السعادة^(١١٤) . ولفظ أنفاسه فى ١٠ مايو ١٧٧٤ وهو
فى الزابعة والستين ، بعد أن حكم تسعة وخمسين عاما . وحمل جثمانه الذى
لوث الهواء على عجل إلى المدافن الملكية فى سان دنيس دون أية وسط
تهكم الجميع الذى اصطف على الطريق . واغتبطت فرنسا مرة أخرى بموت
ملكها كما اغتبطت من قبل عام ١٧١٥ .

الفصل الرابع

فن الحياة

١ - الفضيلة والكياسة

يقول تاليران « لا يعرف لذة العيش من لم يعيش حوالى سنة ١٧٨٠ »^{*}
بالطبع شريطة أن يكون من أبناء الطبقات العليا ، وأن تكون مجرداً
من أى ميول للفضيلة .

وتعريف الفضيلة صعب ، فكل عصر يكيف تعريفه وفق طبيعته
وآثامه . وقد ظل الفرنسيون القرون الطوال يخفون من وطأة الاقتصار
على الزوجة الواحدة بالزنا ، كما تخفف منها أمريكا اليوم بالطلاق . والرأى
الغالى (الفرنسى) يجد الزنا المعتدل أقل إضراراً بالأسرة — أو بالأبناء على
الأقل من الطلاق . على أية حال ازدهر الزنا فى فرنسا القرن الثامن عشر ،
وكان الناس يغضون عنه عموماً . وآية ذلك أن ديدرو حين أراد فى موسوعته
أن يفرق بين « الارتباط » و « التعلق » ضرب هذا المثال : « أن الرجل يرتبط
بزوجته ، ولكنه يتعلق بخليته . »^(٢) ويقول معاصر لذلك الجيل « ان خمسة
عشر نبيلاً من بين الدشرين الذين تراهم فى البلاط يعاشرون نساء لم
يتزوجوهن^(٣) . وكان الظفر بخائلة أمراً لاغنى عنه للمركز الاجتماعى كحيازة
المال سواء بسواء . أما الحب فكان شهوانياً فى غير موازية : صورته
بوشيه فى صورة وردية ، وخلع عليه فراجونار الأناقة والرشاقة ، أما
بوفون فقال فى صراحة وحشية « ليس فى الحب شئ طيب إلا الجسد »^(٤) .

* وردت هذه الملاحظة الشهيرة فى « موسوعة الأقوال المأثورة » لمصنفها ب . دوبريه
(باريس ١٩٥٩) ، ١ ، ٦٣٥ ، نقلاً عن « مذكرات لتاريخ عصرى » بقلم فر . جيزو
(باريس ١٨٥٨ - ٦٨) ، ١ ، ٦ ، (١)

(م ١١ - قصة الحضارة ج ٢٩)

على أن الحب الأنبل كان يظهر هنا وهناك . حتى في « كريبيون »
الابن^(٥) ، ومن جماعة الفلاسفة جرثو هلفتيوس على الهيام بزوجته ،
وظل دالامبير وفيما لحولى دليسيناس طوال تنويعات لحنها الذى أمتعها .
وقد اضطلع جان جاك روسو فى هذا الحيل باصلاح للاخلاق يدعو
إليه رجل واحد . وهل نشيد كذلك بفضل روايات صموئيل رتشر دسن ؟
وتحلت بعض النساء بالفضيلة على سبيل الموضة^(٦) fashion ، ولكن
بعضهن تقبلن فى عرفان دعوة بعثت من مرقدتها ، دعوة العفة قبل الزواج ،
والوفاء بعده ، منقذة لهن من هوان استخدامهن معابر اكل زير نساء ،
على أية حال لم يعد الاقتصار على الزوجة الواحدة شارة تحجل حاملها .
فقد اكتشف الفاسقون من جديد بعد أن تزوجوا مباهج قديمة فى الحياة
الأسرية ، وأنه خير للرجل أن يسهر أغوار الوحدة . من أن يظل طوال
حياته يعبت بسطح التعبد والتنوع . واستقرت نسوة كثيرات بدأت
حياتهن بنزق وطيش كأنهن سطوح لاعمق فيها — حين أنجن . وأرضع
بعضهن أطفالهن حتى قبل أن يحثن على ذلك روسو ، وكثيرا ما كان
هؤلاء الأطفال يردون هذا الصنيع بعد أن ترعرعوا فى ظل محبة الأم ،
باهتمام البنين بوالديهم . ومن أمثلة ذلك أن المرشالة دلكسمبورج أصبحت
زوجة مثالية بعد شبابها المغامر . وأخلصت أزوجها وهى ترعى روسو
فى حنان كأنها أمه . وحين مات الكونت دموريا (١٧٨١) بعد أن خدم
لويس الخامس عشر والسادس عشر وعانى آلام النفى الطويل فيما بين فترتى
وزارته . ذكرت زوجته أنهما « انفقا معا خمسين عاما دون أن يفترقا
يوما واحدا »^(٧) ونحن نسمع الكثير جدا . . والمؤلفان قد تكلموا كثيرا جدا
عن النساء اللاتى أفلحن فى دخول التاريخ بفضل حسنن بهود الزواج ،
ولا نسمع إلا القليل جداً عن أولئك النسوة اللاتى امتنعن عن الحياة حتى
ولو خائهن رجالهن . مثال ذلك أن الآنسة كروزا . التى خطبت وهى فى
الثانية عشرة لالرجل الذى أصبح فيما بعد الدوق دشوازيل . احتملت فى
صبر هيامه بأخته الطموح ، ورافقتة فى منفاه : فاشساد بقداستها حتى
ولبول « المرقع » . ولم تفتر محبة الدوقة درشليو لزوجها طول خياناته
الزوجية ، وكانت شاكرة لأن القدير سمح لها بأن تموت بين ذراعيه^(٨) .

وظلت الانحرافات ، والمطهرات الفاجرة ، والبغاء على ما عهدنا . كان القانون الفرنسى ينص على الإعدام عقابا للواط ، وحدث فعلا أن لوطين احرقا فى ميدان جريف عام ١٧٥٠^(٩) . ولكن القانون كان عادة يتجاهل اللواط الاختيارى بين البالغين^(١٠) . وكانت الأخلاق الاقتصادية على حالها اليوم ، وليلاحظ القارئ الفقرة الواردة فى كتاب روسو « إميل »^(١١) . (١٧٦٢) عن غش الطعام والخمر . وكانت الأخلاق السياسية على حالها اليوم ، كان هناك الكثيرون من خدام الشعب المخلصين (مالزيرب ، وطورجو ، ونكير) ، ولكن كثيرون أيضا ممن وصلوا إلى مناصبهم بالمال أوالاتصالات ، وأثروا فى المنصب متجاوزين فى ذلك نص القانون وعاش كثير من النبلاء العاطلين عيشة الترف على دماء فلاحهم ، ولكن بر الحكومة والأفراد بالناس كان كثيرا .

وكان فرنسيو القرن الثامن عشر فى جملتهم شعبا لطيفا رغم ناموس من الاخلاق الجنسية أنهلك المعايير المسيحية بصراحة . فانظر كم من الناس خفوا لنجدة روسو وتعزيتته رغم صعوبة إدخال البهجة على نفسه ؛ وكثيرا ما كان هؤلاء القوم الكرام ينتمون إلى الطبقة الاستقرائية التى سبها . وكانت الشهامة قد اضمحلت فى علاقة الرجل بالنساء ، ولكنها ظلت حية فى معاملة الضباط الفرنسيين لأسرى الحرب الذين من طبقهم . كتب سموليت الخصم النزق فى رحلة له بفرنسا عام ١٧٦٤ يقول : « أنى أخص الضباط الفرنسيين بالاحترام لشهائهم وبسالتهم : لاسيما للروح الإنسانية السمحة التى يعاملون بها أعداءهم . حتى وسط أهوال الحرب^(١٢) » . وقد صور جويا قسوة الجنود الفرنسيين على العامة الأسبان فى حروب نابليون ، ولكنه كان فى أغلب الظن مبالغا . وما من شك فى أن الفرنسيين كانوا يستطيعون أن يكونوا غابة فى القسوة . ربما لأنهم تعلموا القسوة من الحرب وقانون العقوبات . كانوا صخابين يميلون للمشاجرة على نحو ما يفعل طلاب الكليات الذين يهاجمون خصومهم بالمدى . وللمشاجرات فى الشوارع بديلا عن الانتخابات . ففهم عنف ونهور . يندفعون إلى الخير أو الشر دون أن يضيعوا وقتا فى التروى . وفهم شوفينية (غلو فى الوطنيه) لا يستطيعون أن يفقهوا لم كان سائر

البشر من الهمجية بحيث يتحدثون بلغة غير الفرنسية . وقد أبت مدام دنييس أن تتعلم الكلمة الإنجليزية « الحبز » — لم لا يستطيعون كلهم أن يقولوا pain ؟ ^(١٣) ولعلهم أحبوا مجد وطنهم أكثر مما أحبه أى شعب آخر . وعما قليل سيموتون بالألوف المؤلفة وهم يهتفون « يحيى الأمبراطور » .

وقد برز الفرنسيون بالطبع غيرهم من الشعوب فى آداب السلوك . صحيح إن تقاليد الأدب التى أرسيت فى عهد لويس الرابع عشر لوئها النفاق ، والكليية ، والسطحية ، ولكنها ظلت فى جوهرها حية ، وأضفت على الحياة بين الطبقات المتعلمة كياسة لا قدرة لأى مجتمع أن يضارعها اليوم . قال كازانوف « إن فى الفرنسيين أدبا جما وتلفظا كثيرا يجذب إليهم المرء للتو » ولكنه أضاف أنه لم يستطع قط أن يثق بهم ^(١٤) .

وقد تفرقوا على غيرهم من الشعوب فى النظافة . فأصبحت فى المرأة الفرنسية إحدى الفضائل الأساسية التى تمارسها حتى الموت . وكان من حسن الأدب نظافة الملابس وأناقته . وكان رجال الحاشية ونساؤها يخرجون أحيانا على أصول الذوق السليم بالاسراف فى اللباس الفاخر أو الغلو فى تصفيف شعورهم . وأرسل الرجال شعورهم فى ضفائر ، وهى عادة استهجنها المرشال دساكس لخطرها فى الحرب لأنها تمكن العدو من صاحب الشعر . ثم يبدرون الشعر بنفس العناية التى يبدر بها نساؤهم شعورهن . وغالت النساء فى رفع شعورهن حتى خشين الرقص مخافة أن يلتقطن النار من الثريات . وقد قدر زائر فرنسى أن ذقن إحدى السيدات الفرنسيات يقع تماما فى منتصف المسافة بين قدميها وقمة شعرها ^(١٥) . وجنى الحساقون الأموال للطائله بكثرة تغيير موضات الشعر . ولم تمتد النظافة إلى شعر المرأة ، لأن تصفيفه كان يستغرق الساعات . واحتفظت جميع النساء — إلا أشدهن غلوا فى التبرج — بنفس التسريحة أياما دون أن يمسها مشط . وحملت بعض السيدات مكاشط من العاج ، أو الفضة ، أو الذهب ، يحككن بها روسهن فى رشاقة ساحرة .

وكان ما كياج الوجه همتا تعميده اليوم . كتب ليويولد مونتسارت إلى

زوجته من باريس في ١٧٦٣ يقول . « تسألين هل النساء الباريسيات جميلات . ولكن كيف السبيل إلى معرفة هذا إذا كن مزوقات كعرائس نورمبرج ، ممسوخات بهذه الحيلة المنفرة مسخا تسعز معه عينا الألماني السادج عن التعرف على امرأة ذات جمال طبيعي إذا رآها^(١٦) » ؟ وكان النساء يحملن مساحيق الزينة معهن ، ويحلمان بشرتهن من جديد علانية في غير حياء شأنهن اليوم . وقد حمزت مدام دموناكو وجهها قبل أن تركب لتقطع الجيارتين رأسها . وكانت جثث الموتى تحمل ، وتبدر ، وتحمر ، كما في زماننا . أما ثياب النساء فكانت مزيجاً متحدياً من الاغراءات والمعوقات : فيه فتحات النحور الرابضة ، والصدارات المخرمة ، والجواهر التي تخطف الأبصار ، والتنانير الكبيرة الفضفاضة . والأحذية المالئة الكعوب المصنوعة عادة من التيل أو الحرير . وانتقد بوفون وروسو وغيرهما لبس المشدات ، ولكنها ظلت ضربة لازب حتى أطاحت بها الثورة .

وكان تنوع الحياة الاجتماعية ومرحها من مفاتن باريس . فكانت مقاهي بروكوب ، ولا ريجانس ، وجرادو ، تستقبل رجال الفكر والثوار ، والأثرياء . من الرجال الباحثين عن اللهو . والنساء الباحثات عن الرجال . أما نجوم الأدب ، والموسيقى . والفن ، فكانوا يسطعون في الصالونات . وأبهج أقطاب النبالة أو الثروة فرساي وباريس بالآداب والاسقبالات والمراقص . وكانت الفنون بين عايله القوم تشتمل على الأكل والحديث . فكان المطبخ الفرنسي مثار حسد أوروبا . وكان الحديث الفرنسي اللذكي الظريف قد بلغ الآن من الصقل مبلغاً أستنزف فيه كل المواضيع ، فقام الضجر على الإشراق ، واضمحل فن الحديث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . فرفعت الخطابة من حرارته فوق ما ينبغي ، وسبق المتكلمون السامعين . وأبتذلت النكتة الذكية نتيجة إسرافها ولدغاتها المستهرة . وقد ذكر فولتير - الذي كان هو ذاته قادراً على اللدغ - باريس بأن النكتة إذا دخلت من الياقة كانت الفجاجة بعينها^(١٧) ، وذهب لاشالوتيه إلى أن « الولع بالتظرف . . . أقصى العلم والثقافة الصحيحة عن الصالونات^(١٨) » .

وكان الناس يتمشون الموبينا في الحدائق العامة ... التي لقيت النظافة
والانشذيب وحفلة بالتمثيل — أو يتبعون أطفالهم أو كلابهم ، والفتيان
الطائشون المرحون يطاردون الصبايا البارعات في التراجع عديم الحدود ،
وأغلب الظن أن حدائق التويلري كانت يومها أبدع منها الآن فلنستمع إلى
وصف مدام فيحيه — لوبرون :

« كانت دار الإوبرا قريبة في تلك الأيام : على حافة الباليه ... روبال .
وكان التمثيل في الصيف ينتهي في الثامنة والنصف : فيخرج عليه القوم
حتى قبل النهاية للتمشي في أرجاء الحديقة . وراج بين النساء أن يحملن
طاقات زهر كبيرة كانت هي والبودرة المعطرة التي في شعرهن تملا الجو
عبيراً بكل معنى الكلمة . وأنا أعلم أن هذه الاجتماعات كانت قبل الثورة
تمضي حتى الثانية صباحاً ثم كانت هناك حفلات موسيقية تلي ضوء القمر
في الهواء الطلق وكان يعتشد في المكان جمع كبير على الدوام (١٩) » .

٢ . الموسيقى

اتخذت فرنسا من الموسيقى جزءاً من « مرحها الباريسي » فهي لم نعباً
بتنافسة ألمانيا في القداسات والكورالات الحادة . وقد تجاهلت موتسارت
تقريباً حين وفد على باريس ، ولكنها نسيت التعصب لوطنيتها حين افتتنت
آذانها بالألحان الإيطالية . وجعلت من موسيقاها « مهرجانات ترفيه » .
وتخصصت في السوان تناسب الرقص أو تذكر به . كالكورانت .
والسربنده . والجيج . والحافوت . والمنويت . وكانت المرأة المحور
الذي تدور حوله الميسيتي كما دارت أخلاقها . وعاداتها . وفنونها ،
وكثيراً ما اتخذت أسماء تذكر بصورتها . كالساحرة . والساذجة ، وميمي
وكاريون دستير .

وأحب القوم الأوبرا التهريجية في فرنسا . كما أحبوها في إيطاليا .
أكثر من الأوبرا الحادة قبل أن يأتي جلوك (١٧٧٣) . وكانت فرقة سميت
نفسها الأوبرا كوميك قد أستقرت في باريس عام ١٧١٤ : وفي ١٧٦٢

إتحدت مع فرقة الكوميدي الإيطالية . وفي ١٧٨٠ انتقلت هذه الأوبرا كوميدي الموسعة إلى مقر دائم لها في صالة فاغار . أما صاحب الفضل في إزدهارها فهو فرانسوا أندريه فيليدور ، الذي جاب أوروبا بطلا من أبطال الشطرنج ، وآلف خمسا وعشرين أوبرا ، كلها تقريبا هزلية ، مثل « سانشوبانسا » ، « وتوم جونس » ولكن فيها ذوق سليم وفن رفيع . وقد نسيت الآن أوبراته ، ولكن « دفاع فيليدور » « وتراث فيليدور » مازالا يذكران بوصفهما نقلتين كلاسيكيتين في لعبه الشطرنج وكان الباليه فاصلا محببا يتخلل الأوبرا الفرنسية . هنا وجدت الرشاقة الفرنسية مجالا آخر . وغدت الحركة شعرا ، قد كتب جان جورج نوفير ، أستاذ الأوبرا في دار أوبرا باريس ، رسالة كانت يوما ما مشهورة عن ألحان الرقص — « رسائل في الرقص والباليه » (١٧٦٠) . وقد مهدت الطريق لإصلاحات جلوك بدعوتها إلى الرجوع للمثل الإغريقية في الرقص ، بما فيها من طبيعية الحركة ، وبساطة اللباس . وتأکید على الدلالة الدرامية لا الأشكال التجريدية أو براءات العازفين .

واصبحت الحفلات الموسيقية العامة الآن جزءا من الحياة في جميع مدن فرنسا الكبرى . ففي باريس ضربت « الفرقة الموسيقية الروحية » (التي انشئت بالتوبلري في ١٧٢٥) مثلا رفيعا في الموسيقى الآلية . وبينما كانت الأوبرا — كوميك تمثل مسرحيه برجوليزي « لا سيرفا يادرونا » كانت فرقة الكونسير تعزف ترنيمة « ستابات ماطر » [وهي ترنيمة لا تينية عن حزن مريم على المسيح المصلوب] التي أحسن الجمهور أستقبالها فظلت تتكرر سنويا حتى عام ١٨٠٠^(٢٠) . وكان لفرقة الكونسير الفضل في تحبيب هاندل ، وهيدن ، وموتسارت ، وجومللي ، ويتشيني ، والباخين ، إلى الجماهير الفرنسية ، وأتاحة فرصة الظهور لسكبار عازفي ذلك العهد .

وقد أجمع هؤلاء العازفون الزائرون على أمر واحد ، هو تخلف فرنسا في الموسيقى عن المانيا والنمسا وإيطاليا . وشاطرهم جماعة الفلاسفة هذا الحكم . فكذب جريم (وهو الماني) من الأسف أن القوم في هذا البلد

لا يفهمون من الموسيقى غير القليل جداً^(٢١) . وكان يستثنى الأنسه فل ،
التي تغنى بمنجزة بلديعة . ووافق جريم روسو وديدرو على طلب « الرجوع
إلى الطبيعة » في الأوبرا . وتزعم ثلاثتهم الحزب الإيطالي في « حرب
المهرجين » تلك التي كانت قد بدأت بتقديم أوبرا تهريجية مثلها فرقة
إيطالية في باريس . وقد سبقت الإشارة إلى هذا الجدل الذي نشب بين
المذهبيين الموسيقيين الفرنسي والإيطالي ، ولم يكن قد أنهى بعد . فإزال
ديدرو يخوض حرب المهرجين في قصته « ابن أخى رمو » ، وفي « حديث
ثالث حول الأبن الطبعي » (١٧٥٧) وطالب بمنقذ يخلص الأوبرا
الفرنسية من الخطب الطنانه والأساليب المفتعلة « ألا فليقدم ذلك الذى عليه
أن يعرض المأساة الصحيحة ، والمهارة الصحيحة ؛ عن المسرح الغائى ؛
وضرب مثلاً لنص صالح « إفجينيا فى أوليس » لبوربيديس^(٢٢) . ترى هل
سمع هذا النداء جلوك ، الذى كان يومها فى فيينا ؛ أما فولتير فقد كرره فى
١٧٦١ متنبئاً :

« أنا نأمل أن يظهر عبقرى أوتى من القوة ما يحول به الأمة عن هذه
الآفة [آفة التصنع والتكلف] ويضفى على الإخراج المسرحى . . . الكرامة
والروح الخلقية التى يفتقر إليها الآن . . . أن سيل الذوق الفاسد متدفق ،
وهو يغرق على غير وعى . ما ذكرى ما كان يوماً ما مجد هذه الأمة . ولكنى
أكرر ثانية : يجب إرساء الأوبرا على أساس مختلف ؛ حتى لا تعود مستأهلة
لذلك الاحتمار الذى تنظر به إليها كل أهم أوروبا^(٢٣) » .

وفى ١٧٧٣ وصل جلوك إلى باريس ، وفى ١٩ أبريل ١٧٧٤ قاد هناك
أول أداء فرنسى « لافجينيا فى أوليس » . ولكن هذه القصة يجب
أرجاؤها إلى حينها المناسب .

٣ - المسرح

لم تنتج فرنسا فى هذه الفترة تمثيليات تتحدى النسيان - ربما باستثناء بعض
التمثيليات التى بعث بها فولتير من ليدليس أو فرنيه . ولكن فرنسا منحت

للدراما كل تشجيع سواء في العرض أو الاستحسان . ففي ١٧٧٣ أقيم
فكتور اوى في بوردو أجمل مسرح في المملكة ، له رواق فخيم من الأعمدة
الكوثرية ، ودربزين كلاسيكى ، وزخارف منحوتة . أما الكوميدي — فرانسيز ،
التي أقر جاريك بأنها خير الفرق التمثيلية في أوروبا ، فقد أنزلت « التياتر —
فرانسيه » الذي شيد عام ١٦٨٣ في شارع فوس ، بسان — جرمان — دى
— بريه : ثلاثة صفوف من الشرفات في مستطيل ضيق فرض الالتقاء الخطائى
وقرر الأسلوب الخطائى للتمثيل في فرنسا . وعرضت ماثت الأسر مسرحيات
خاصة ، من فولتير في فرنيه إلى الملكة في تريانون — حيث لعبت ماري
أنطوانيت دور كولايت في مسرحية روسو « قسيس القرية » وحيث كان
« أكثر من عشر نساء من علية القوم يمثلن ويغنين خيرا من أى ممثلات
ومغنيات في الملهى »^(٢٤) ونبتت في كل مكان في فرنسا « مسارح صغيرة » .
من ذلك أن ديرا نرنارديا ، قابعا في غابات بلريس بنى مسرحا صغيرا لرهبانه
« دون علم من المتعصبين وأصحاب العقول الضيقة » (كما قال أحدهم) .

ولمع نجوم الكوميدي — فرانسيز فوق ربوع فرنسا رغم منافسة الفرق
الهاوية . وقد رأينا كيف أقبل أهل جنيف وفرنيه ليروا الممثل لوكان يمثل
لفولتير في شاتلين . أما اسمه الحقيقي فهو هنرى — لوى كان Cain ، (قابيل)
ولكن هذا كان لقبا ملعونا غيره واه العذر في تغييره . كذلك لم يجلب له
وجهه الحظ ، وقد استقرت الأنسة كليرون فترة حتى تأنس إليه ولو كان
ذلك في تمثيلته ، وكان فولتير قد اكتشف مقدرته في حفلة تمثيل للهواة ،
وعلمه ، ووجد له مكانا في التياتر — فرانسيه . وفي ١٤ سبتمبر ١٧٥٠
استهل لوكان حياته المسرحية بدور تيطس في مسرحية فولتير « بروتس » ،
وظل طوال جيل بعد ذلك يمثل دور البطل في مسرحيات فولتير . وأحبه
الشيخ الغضوب إلى النهاية .

على أن أحب من إعتلى مسرح فولتير إلى القلوب كانت الأنسة كليرون
(بعد أن توفيت أدريين لكوفرير) وكان اسمها قانونا كليز — جوزيف
لأبوليت ليريس دلاتور . ولدت عام ١٧٢٣ دون زواج شرعى بين أبويها .

ولم يتوقع أهلها أن تعيش ، ولكنها عمرت إلى الثمانين وما هذا العمر المديد بالشئ الذى تغبط عليه دائما بطلات المسرح . ولم ير أهلها أنها تستحق عناء التعليم ، ولكنها تسالت إلى التياتر ... فرانسيه ، وسحرتها المناظر والخطب المسرحية ، ولم تتغلب قط تماما على الميل للخطابة حتى وهى فى نشوة الحب . وأعلنت أنها ستحترف التمثيل ، فهددتها أمها بأنها ستكسر زراعيها ورجليها ان هى مضت فى انفاذ هذه النية الآثمة ، (٢٦) . ولكنها أصرت ، وانضمت إلى فرقة تمثيلية متنقلة . وسرعان ما تخلقت بأخلاق مهنتها . « إننى بفضل موهبتى ، وجمالى ، وسهولة الاتصال بى رأيت عددا هائلا من الرجال يركعون تحت قدمى ، بحيث استحال على وقد أوتيت قلبا رقيقا بطبعه . . . ان امتنع على الحب » (٢٧) .

فلما عادت إلى باريس فتنت المسير دلا بوبلنير . وقد استمتع بها ثم استخدم نفوذه ليحصل لها على مكان فى دار الأوبرا . وبعد أربعة شهور استطاعت دوقه شاتورو ، خليعة الملك آنثذ : أن تدخلها فرقة الكوميدي فرانسيز . وطلبت إليها الفرقة أن تختار الدور الذى ستمثله أول مرة ، متوقعة منها أن تجرى على السنة المعهودة ، فتختار دورا صغيرا ، ولكنها اقترحت أن تمثل دور فيدر ، وعارضت الفرقة . ولكنها تركتها تنفذ مشيئتها . وتكللت مغامرتها بالنصر . وبعدها غدت نجم الأدوار المساوية التى لم ينافسها فيها غير الأنسة دومنيل . وذاعت شهرتها بالفسق المقترن بشهوة الاقتناء . كانت ترفه عن لفيف من النبلاء : وتتقاضى منهم أجرا طيبا ، وتجمع مكاسبها ، ثم تعطى كثيرا منها لعشيقها المفضل الشفاليه دجوكور ، الذى كان يحرق مقالات فى الاقتصاد للمرسوعة . كذلك دفعت ثمنا للملاطفة مارمونتييل ، الذى سئلته به عما قليل مؤلفا لكتاب « الحكايات الخلقية » . تأمل جانب المرأة فى هذا الحب فى خطابها له : « أمكن أنك لم تعرف أى معاناة سببتها لى (على غير عمد منك ، ولكننى كابدتها رغم ذلك) ، وان هذه المعاناة ألزمتنى الفراش ستة أسابيع وأنا فى خطر كبير ؟ لا أستطيع أن أصدق أنك كنت عليما بهذا ، وإلا لما ذهبت فى صحبة بينا الناس جميعا يعرفون ما كنت فىسه » (٢٨) . ومع ذلك ظلت هى ومارمونتييل صديقين حميمين ثلاثين عاما .

وهو الذى حملها انتقاداته ومقترحاته على أن تحدث فى التمثيل حدثا .
ذلك أنها كانت إلى عام ١٧٤٨ تجرى على أسلوب ممثلى التياتر — فرانسيه فى
الحديث المفتعل العاطفى ، والإيماءات الفخمة ، والانفعالات المرتعدة .
أما مارمونتيل فقد وجد هذا أمرا غير طبيعى يمجج الذوق . وكانت كليرون
قد قرأت كثيرا وسط غرامياتها ، وأصبحت من أفضل نساء جيلها تعليما ،
وأدخلتها شهرتها ورجاحة عقلها حظيرة المجتمع المثقف ، وأدركت أن
أفرغ الطبول هز أعلاها صوتا . وفى عام ١٧٥٢ أكرهتها إصابة بالزهرى على
اعتزال المسرح حينما . فلما أبلت قبلت عقدا بإحياء خمس وثلاثين حفلة
فى بوردو . روت أنها فى أول ليله مثلت فيها هناك لعبت دور فيلدر
بالأسلوب التقليدى « بكل الضجيج والعجيج والحماسة التى كانت يومها
تلقى الاستحسان فى باريس » وصفق لها الجمهور استحسانا . ولكن فى
الليلة التالية لعبت دور أجريين فى مسرحية راسين بريتا نيكوس بصوت
هادىء وبحركات محسوبة ، وكظمت الانفعالات حتى المشهد الأخير .
وضج النظارة بالهتاف . فلما عادت إلى باريس كسبت جمهورها القديم
لأسلوبها الجديد . وحبذ ديدرو هذا الأسلوب بحرارة . وكانت فى هذه حين
كتب « مفارقة الممثل » ومؤادها أن الممثل القدير هادىء متمالك نفسه فى داخله
حتى فى أكثر لحظات أدواره انفعالا ، ثم تساءل أى تمثيل كان أروع من تمثيل
كليرون (٢٩) . وكانت تحب أن تصدم المعجبين بها فتروى لهم أنها
تراجع ذهنها فى فواتيرها الشهرية وهى تلقى إلى الجمهور من الأشجان
ما يستدر دموعه (٣٠) . ولم يرحب فولتير بالأسلوب الجديد ، ولكنه أبداها
تأييدا فعلا كما أبدته هى فى اصلاح ملابس المسرح وأثاثه . وكانت جميع
الممثلات إلى ذلك الحين يلعبن أدوارهن — من أى أمة أو عصر —
مرتديات زى باريس القرن الثامن عشر ، فى تنورات بأطواق موسعة
وشعر مبدر ، ولكن كليرون فاجأت جمهورها باتخاذ زى زمان المسرحية
لجسمها وشعرها ، فلما لعبت دور إيدامى فى تمثيلية فواتير « يتيمة الصين »
كانت اثنيات والأثاث صينية .

وفي ١٧٦٣ ذهبت كليرون إلى جنيف لتستشير الدكتور ترونشان .
وطلب إليها فولتير أن تمكث معه في فيلا دليس . « إن مدام دنتس مريضة ،
وكذلك أنا . وسيحضر مسيو ترونشان إلى مستشفانا ليعودنا نحن الثلاثة^(٣١) ،
وأنت ، وأعجب بها الحكيم العجوز إعجاباً حمله على إغرائها بزيارة
أطول لفرنيه ، وأقنعها بأن تشاركه في حفلات عديدة بمسرحه ويظهره
رسم قديم وهو في السبعين من عمره راكمها أمامها في اعتراف حار
بالحب .

واعترفت المسرح في ١٧٦٦ وكانت صحتها قد اعتلت وهي بعد في الثالثة
والأربعين ، بل لم تعد قادرة على التحكم في حديثها ، وهامت حباً بفتى
نبيل أنيق كما فعلت لوكوفير وباعت كل ممتلكاتها تقريباً لتنفذه من دائنيه
ورد لها صنيعها ببذل حبه ، ومالها لغيرها من النساء . ثم تلت وهي
في التاسعة والأربعين دعوة من كرستان فريدرش كارل الكسندر ، حاكم
آنزباخ وبابرويت البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً للعيش معه في آنزباخ
ناصجة وخليلة . فذهبت (١٧٧٣) وظلت محتفظة بسلطانها عليه ثلاثة
عشر عاماً ، وكان قد تشرب في فرنسا بعض مثل التنوير ، وبتشجيع منها
أجرى عدة إصلاحات في إمارته ، فألغى التعذيب وأقر الحرية الدينية .
وكانت آخر مآثرها أن أقنعت به بأن ينام كل ليلة مع زوجته . وبمضي الوقت
أصاب الملل كليرون فتأقت إلى باريس فكان الأمير يصحبها إليها بين
الحين والحين . وفي إحدى هذه الرحلات اتخذت خليلة جديدة ، وترك
كليرون في باريس بعد أن أجرى عليها معاشاً طيباً ، وكانت الآن في
الثالثة والستين .

ولقيت الترحيب في الصالونات ، حتى من مدام نكير الفاضلة ، وأعطت
الدروس في الإلقاء للفتاة التي أصبحت فيما بعد مدام دستال . واتخذت
عشاقاً جدداً منهم الرجل الذي تزوج بعد ذلك مدام دستال ذاتها التي
سرّها التخلص منه . وقد رتب للممثلة العجوز معاشاً مريحاً ، ولكن
الثورة اختزلت معاشها فعاشت في ضئلك حتى زاد نابليون معاشها في

١٨٠١ . وفي ذلك العام عرض عليها رجل يدعى المواطن دوبوارييه غراماً .
أخيراً . فثبّطت عزيمته بخطاب مؤلم يلخص مأساة الكثير من الممثلات العجائز .
قالت « لعل ذاكرتك مازالت تتخيلني مشرقة ، فتية ، محاطة بكل مظاهر
سمعي الماضي . ولكن عليك أن تراجع أفكارك . فأنا لا أكاد أبصر ،
وسمعي ثقيل ولم يعد لي أسنان ، ووجهي كله غصون ، وجلدي الذي
جف بالجهد ايكسوهيكل الضعيف . »^(٣٢) ومع ذلك أتى وعزى أحدهما الآخر
باسترجاع ذكرى شبابهما . ثم ماتت عام ١٨٠٣ إثر سقوطها من فراشها .

وكانت قد خلفت وراءها مهندسين طويلة الدراما المأساوية الكلاسيكية .
التي أشاد فولتير ، أعظم كتابها في القرن الثامن عشر ، بكليرون معبرة عنها
لا ضريب لها . فقد اتّخم جمهور باريس ، وكثرته من الطبقة الوسطى ،
بالخطب المسجوعة يلقيها الأمراء ، والأميرات ، والملوك ، وبدأت تلك
البحور « الاسكندرية » بحور كوريني ورأسين التي تمشي مختالة على ست
أقدام (أي تفاعيل) - بدأت الآن رمزاً للحياة الأرستقراطية ، ولكن أليس
في التاريخ سوى النبلاء ؟ بلى بالطبع . ورجل كوايير أبرز هؤلاء من قبل ،
ولكن في الملهاة ، أفليس هناك مأس ، من المحن العميقة والمشاعر النبيلة في
بيوت وقلوب البشر الذين تجردوا من الألقاب ؟ ورأى ديدرو أن قد آن
أوان درامات البورجوازين ، وقال أنه إذا كان النبلاء قد تجنبوا العاطفية ،
واشترطوا إلباس المشاعر قناعاً مهيباً ، فإن على الدراما الجديدة أن تطلق
الوجدان من عقاله ، وألا تنجّل من إثارة أشجان الجمهور وإدراار دموعه .
وهكذا كتب هو وغيره من بعده « مسرحيات باكية » .

يضاف إلى هذا أن العديد من كتاب المسرحيات الجدد لم يكتفوا بتصوير
حياة الطبقة الوسطى . والإشادة بها ، بل هاجموا النبلاء ، والكهنة ، وحتى
الحكومة آخر الأمر - هاجموا فسادها ، وضرائبها ، وبذخها ، وإسرافها ،
ولم يقتصروا على التنديد بالاستبداد والتعصب (فقد أجاد فولتير هذا التنديد
من قبل) بل امتدحوا الجمهوريات والديمقراطية ، ولقيت تلك الفقرات
أشد الاستحسان من النظارة .^(٣٣) وشارك المسرح الفرنسي عشرات القوى
الأخرى في الإعداد للثورة .

٤ --- مارمونتيل

كتب هوراس ولبول من باريس في ١٧٦٥ يقول « إن المؤلفين في كل مكان » وأنهم « أسوأ من كتاباتهم » ، ولست أقصد بهذا ثناء على الكتاب أو ما يكتبون ^(٣٤) » ولا ريب في أن ذلك العصر لم يكن ليضارع في الأدب عصر فولتير وراسين ، ولا عصر هوجو وفلوير وبلزاك ، ففي هذه الفترة القصيرة بين ١٧٥٧ و ١٧٧٤ ليس لدينا من الكتاب الجديرين بالذكر سوى روسو ومارمونتيل ، والجمرات الحية من نار فولتير ، وغلين ديدرو الدفين غير المنشور . ذلك أن الرجال والنساء أسلموا أنفسهم بقوة للحديث حتى كلت قرائحهم قبل أن يعتادوا الكتابة . وانقضى زمان العقل الاستقراطي ، واستأثرت الفلسفة والاقتصاد والسياسة بالجو ، وتغلب المضمون الآن على الشكل . لا بل إن الشعر نزع إلى الدعاية . فقد قلدت قصيدة سان - لامبير الفصول « (١٧٦٩) جيمس طومسن ، ولكنها نددت بالتعصب والترف تنديداً في غير أوانه ، وتمثلت الشتاء ... كما تمثله الملك لير .. عواصف ثلجية تقصف حول اكواخ الفقراء .

ويدين جان - فرنسوا مارمونتيل في صعود نجمه لدهائه ، وللنساء ، وفولتير . ولد في ١٧٢٣ . وقد كتب في شيخوخته « مذكرات أب » (١٨٠٤) وهي تعطينا صورة رقيقة لطفولته وشبابه . ومع أنه اعتنق الشكوكية وكاد يعبد فولتير ، إلا أنه لم يذكر إلا بالخير أهله الأتقياء الذين ربوه . واليسوعيين العطوفين المخلصين الذين عاشره . وقد أحبهم حبا جما حملاه على أن ينلر نفسه لله ، وتطلع إلى الانضمام إلى رهبنتهم ، وعلم في مدارسهم بكليرمون وتولوز . ولكنه كالكثيرين من أفراخ اليسوعيين . طار بعيدا على أجنحة التنوير . وفقد على الأقل عذريته الفكرية . وفي ١٧٤٣ قدم أبياتا من شعره على فولتير فاستمتع بقراءتها أيما استماع ، وأرسل إلى مارمونتيل مجموعة من أعماله صححها بيده . واحتفظ الشاعر الشاب بها ميراثا مقدسا ، وأقلع عن كل تفكير في احتراف القسوسية . ويعد عامين حصل له فولتير على وظيفة في باريس ، وعلى إذن بدخول التياتر ... فرانسية مجانا ، لا بل

إن فولتير ، بما في قايه — قلب الأب المحروم من البنين — من طيبة مستنيرة .
باع قصائد مارمونتيل وبعث إليه بحصيلة البيع . وفي ١٧٤٧ قبلت تمثيلية
مارمونتيل « دنيس الجبار » (دبونيسيوس) — التي أهداها إلى فولتير ،
وأخرجت على المسرح ، وحقق نجاحاً لم يحلم به « فقد أصبحت » مشهور
وغنيا في يوم واحد » . (٣٥) وسرعان ما أصبح سبعا صغيرا من سباع
الصالونات ، فطعم على موائدها ، ودفع الثمن ذكاء وظرفا ، ووجد سبيلا
إلى فراش كليرون .

وآتته تمثيلية الثانية « أريستومين » بمزيد من المال ، والأصدقاء ، والتحليلات .
وفي ندوات مدام دتنسان التقى بفونتنتيل ، ومونتسكيو ، وهلفتيوس ،
وماريفو ، وعلى مائدة البارن دولياخ سمع ديدرو ، وروسو ، وجريم
وشق طريقة صعبا في المجتمع تحدوه يد النساء المرشدة . وأدخل إلى البلاط
بعد أن مدح لويس الخامس عشر بأبيات ذكية . وافتتحت بومبا دور بوجهه
الملبح وشبابه المتفتح ، فأقنعت أخاها بأن يستخدمه سكرتيرا ، وفي ١٧٥٨
عينته محرراً للجريدة الرسمية « مركير دفرانس » وكتب نصاً لرامو ،
ومقالات للموسوعة . وأعجبت به مدام جوفران إعجاباً حملها على أن تقدم
له مسكناً مريحاً في بيتها ، حيث عاش عشر سنوات ضيفا بالأجر .

وقد كتب لصحيفة المركير (١٧٥٣ — ٦٠) سلسلة من « الحكايات
الأخلاقية » رفعت تلك الدورية إلى مقام الأدب . ومن إحدى هذه
الحكايات تكون فكرة عنها كلها . فسلیمان الثاني ، بعد أن مل المباهج التركية ،
يطلب ثلاث حسان أوربيات . أما الأولى فتقاوم شهراً ، ثم تستسلم أسبوعاً
ثم تنجى جانباً . وأما الثانية فتغنى غناء رخيا ، ولكن حديثها منوم . وأما
الثالثة — روكسالانا — فلا تكتفى بالمقاومة ، بل تسب السلطان لأنه داعر مجزم
ويصيح السلطان « أنسيت من أنا ومن أنت ؟ وتجب روكسالانا » أنت قوى ،
وأنا جميلة ، فنحن إذن صنوان . « وهي ليست بارعة الجمال ، ولكن لها
أنفاً أنخس (مرتفع الأريية) ، وهو يغلب السلطان على أمره . فيحاول
بكل الحيل أن يكسر مقاومتها ولكنه يخفق . ويهدد بقتلها ، فتقترح أن تعفيه .

من هذا العناء بالانتحار . ويسبها ؛ فتسبه سبا أقذع . ولكنها تخبره أيضاً أنه جميل ، وأنه لا يحتاج إلا لإرشادها لكي يصبح في روعة الفرنسيين . فيغتاض ويبتهج . وأخيراً يتزوجها ويجعل منها مليكة . وفي أثناء حفل الزفاف يسأل نفسه « أمكن أن يطيح أنف أخنس صغير بقوانين امبراطورية ؟ » (٣٦) والعبارة عندما ما رمونتيل : إن صغار الأشياء هي التي تحدث جلائل الأحداث ، ولو عرفنا تلك التوافة الخفية لراجعنا التاريخ مراجعة كاملة .

وسارت الأمور كلها تقريباً رخاء مع ما رمونتيل إلى أن نشر (١٧٦٧) قصة سماها « بيليزير » . وكانت قصة ممنازة ؛ ولكنها دافعت عن التسامح للدين ، وتشككت في « حق السيف في أن يبيد الطرقة ، والألحاد ، وعدم التقوى ؛ وأن يضع العالم كله تحت نير الدين الحق » (٣٧) . وادانت الصوروبون الكتاب لا محتوائه على تعليم يستحق الشجب . ومثل ما رمونتيل أمام عميد الصوروبون واحتج عليه قائلاً « قسلى لى ياسيدى ، ألسنت تدين الآن روح العصر لا روحى » (٣٨) ، « وظهرت روح العصر في جرائده ، في اعتدال العقوبة . ولو نشر قصته تلك قبل عشر سنوات لزج به في الباستيل ولصودر — كتابه ؛ أما الآن فالذى حدث هو أن القصة راجت رواجاً كبيراً ؛ وظلت تحمل « إذن الملك وامتيازاه » وأكتفت الحكومة بالتوصية بأن يلزم الصمت حول الموضوع » (٣٩) ، على أن مدام جوفران إنزعجت كثيراً حين لم يقتصر الأمر في قرار الصوروبون بمصادرة الرواية على قراءته في الكنائس ، بل نجأوزه إلى تعليقه على باب بيتها . فاقترحت على مارمونتيل في لطف أن يبحث عن مسكن آخر .

ووقع واقفاً كالعادة . ففي ١٧٧١ عين مؤرخاً رسمياً ملكياً براتب حسن ، وفي ١٧٨٣ أصبح السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية . وفي ١٧٨٦ عين أستاذاً للتاريخ في اليلسيه . وفي ١٧٩٢ حين كان في التاسعة والستين وقد قرزته إنحرافات الثورة ، اعتكف في أفرو ؛ ثم في أبلوفيل ؛ وهناك كتب « مذكراته » التي اغتفر فيها حتى للصوروبون إساءاتها . وقضى سنواته الأخيرة في فقر لا يشكو ولا يتذمر ، شاكرًا لأنه عاش حياة غنية ممتعة . ومات في آخر يرم في عام ١٧٩٩ .

٥ — حياة الفن

(١) النحت

كان الملك ذواقة في الفن ، وكذلك كان نبلاء بلاطه ونبيلاته ، والمليونيرات الذين كانوا الآن يتحرقون شوقا للهيمنة على الدولة . وكان حدثا هاما في التاريخ الفرنسي أن تبدأ مصانع سيفر ، التي أسستها مدام دجومبادور من قبل ، إنتاج الخزف الصيني القاسي العجينة عام ١٧٦٩ ، ومع أن الإلمان في درسدن وما يسن قد فعلوا هذا قبل ستين عاما ، فإن منتجات سيفر سرعان ما كسبت سوقا أوروبية . ولم ير كبار الفنانين أمثال بوشيه ، وكافيري ، وباجو ، وبيجال ، وفالكونيه ، وكلوديون ، ما يغض من قدرهم في رسم التصميمات لصيني سيفر . واستمر خزافو سيفر ، وسان كلو ، وشانتيي ، وفانسين ، في إنتاج القاشاني والصيني الطري العجينة في رسوم غاية في الإتقان .

وتضافرت مهارات الخزافين ، وصناع المشغولات المعدنية والأثاث الخشبي وقطع النسيج المرسومة ، لتجميل الحجرات الملكية وغرف النبلاء واقطاب المال . وكانت "ساعات الجدارية ، كذلك التي صممها بوازو وصيها جرتير بالبرونز"^(١) إحدى حلقات العصر المميزه . وأبدع بيير جونتير وجاك كافيري في صناعة « الأورمولو » ومعناه الحرفي « الذهب المطحون » ، وهو في حقيقته سبيكة أهم مكوناتها النحاس الأحمر والزنك ، تنمش وترصع بالخواهر ويكفت بها الأثاث . وألف كبار صناع الأثاث نقابه قوية تعز بنفسها ، اشترط على عضائها أن يهتموا لإنتاجهم بأسمائهم علامة على مسئوليتهم عنه . وكان خيرهم في فرنسا وافدا من المانيا : جال فرنسوا أوبن وتلميذه جان — هنري ريزنر ، وسخر هذان مهارتهما في صنع مكتب فخم للملك لويس الخامس عشر (١٧٦٩) ، وهو تحفة روكوكية معربة من رسوم ونقوش وتطعيم وتذهيب دفع الملك ٦٣,٠٠٠ ايره ثمنا لها.

وقد استمتع بها نابليون الأول ونابليون الثالث ، وسلمت إلى اللوفر في ١٨٧٠
وتقدر الآن بخمسين ألفاً من الجنيهات (٤١) .

في هذا العهد الذي علق مثل هذه الأهمية على القيم الللمسية ، كان النحت
يقدر بقدره الكلاسيكي تقريباً ، فالشكل له ، وكانت فرنسا تعلم أن
الشكل ، لا اللون ، هو روح الفن . وهنا أيضاً فاقت النساء الآلهة ، لا في
عيوب الواقع الطبيعية ، بل في المثالي من الأشكال والثياب التي استطاع
النحاتون المرفهوا الحس أن يؤلفوا بينها ويصوروها . ولم يزين النحت
القصور والكنائس فحسب ، بل الحدائق والمتنزهات العامة ، وكانت
التمائيل التي أقيمت مثلاً في حدائق التويلري من أحب التماثيل إلى الناس في
باريس ، وقلدت بوردو ، ونانسي ، ورين ، ورامس ، باريس في الترا كوتا
(الطين النضيج) والرخام والبرونز .

وأخرج حيوم كوستو الثاني الآن أروع إنتاجه (وكان يصغر العهد
بسنة واحدة فقط) ففي ١٧٦٤ عهد إليه فردريك الثاني بنحت تماثيل
الفيينوس ومارس إله الحرب ، وفي ١٧٦٩ أرسلها كوستو إلى بوتسدام لقصر
صانوسى . كذلك بدأ في ١٧٦٩ تحت المقبرة الفخمة المشيدة للدوفين
والدوفينة (والدي لويس السادس عشر) لكاتدرائية صانوس ، وعكف
على هذا العمل بهمة إلى أن مات (١٧٧٧) . ورأى في أخريات عمره
ظهور أربعة نحاتين من ألمع من عرفتهم فرنسا إلى يومنا هذا ، وهم بيجال
وفلاكونيه ، وكافيري ، وباجو .

أما بيجال فقد قصد روما على نفقته ، يعينه على ذلك كوستو ، بعد أن أخفق
في نيل « الجائزة الكبرى » التي تدفع لنائلها مصروفات تعامه الفن في روما .
فلما عاد إلى باريس شق طريقه إلى أكاديمية الفنون الجميلة برائعته المسماة
« عطار د يثبت خفيه » ، هذه الرائعة التي صاح الفنان للعجوز جان — باتست
لموان حين رآها « وددت لو كنت راسمها ! » كذلك أعجب بها لويس
الخامس عشر ، وأرسلها إلى حليفه فردريك الثاني في ١٧٤٩ . وقد وجدت
سبيلها بطريقة ما عوداً إلى اللوفر ، حيث نستطيع أن نتأمل المهارة الفائقة

أتى ألمع بها الفنان الشاب إلى لفظة الرسول الأولي على النهوض والانطلاق .
ووافق فن بيجال مزاج مدام دبومبادور ، فعهدت إليه بالكثير من المهام .
وقد صنع لها تمثالا نصفيا ، محفوظا الآن بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك ،
وحين هدأ ما بينها وبين الملك من غرام مشبوب واستحال إلى صداقة ، نحت
لها تمثالا على هيئة « ربة الصداقة » (١٧٥٣) . (٤٥) وصنع تمثالا للويس
بوصفه مجرد « مواطن » للميدان الملكي برامس ، وأتم تمثال بوشاردون
« لويس الخامس عشر » للميدان الذي يسمى الآن ميدان الكونكورد . وصور
ديدرو في البرونز ، رجلا تمزقه الفلسفات المتصارعة . ولكنه أطلق لنفسه
عنان التمثيل في المقبرة التي نحتها لرفات المرشال دى دساكس بكنيسة القديس
توما بستراسبوج — فهو المحارب العاشق يركب إلى الموت كأنه راكب إلى
معركة ينتصر فيها .

أما أشهر التماثيل الذي كان حديث الناس في هذا العهد فذلك الذي اختارت
صفوة مفكرى أوربا بيجال لينحته لفولتير . وقد اقترحتة مدام نكير في
أحدى أمسياتها في ١٧ ابريل ١٧٧٠ ورحب بالاقتراح جميع ضيوفها السبعة
عشر (ومنهم دالامير ، وموريالية ، ورينال ، وجريم ، ومارمونتيل)
ودعى عامة الناس للمساهمة في النفقة . وأثيرت بعض الاعتراضات ، إذ لم
يكن من المؤلف إقامة التماثيل لأى أحياء سوى الملوك ، ولم يصنع تمثال
لكورينى أو راسين قبل موتهما . ورغم ذلك تدفقت التبرعات ، حتى من
نصف ملوك أوربا ، وأرسل فردريك مائتى جنيه ذهبي لتخليد ذكرى
صديقه وخصمه القديم . وأستاذ روسو في المساهمة ، فاعترض فولتير ،
ولكن دالامير اقنعه بالموافقة . وعرض فريرون ، وبالايسو ، وغيرهم من
خصوم جماعة الفلاسفة أن يشاركوا في التحيمة ، ولكن عرضهم رفض .
ووضح أن الفلاسفة كانوا أبطأ من خصومهم مغفرة وصفحاً . أما فولتير
نفسه فقد نبه مدام نكير إلى أنه لا يصلح موضوعا لتمثال :

« لقد بلغت السادسة والسبعين ، ولم أكد أتماثل للشفاء من مرض عيبت
بجسدى وروحي عيبتا منكرا ستة أسابيع . ويقوون إن مسيو بيجال قادم
ليصنع تمثالا يحكى عيائى . ولكن هذا يا سيدتى يقتضى أن يكون لى عيائى ،

ومن العسير التكهّن بالموضع الذى كان فيه هذا الهيا . فعيناي غائرتان ثلاث بوصات ، وخدای من الرق البالى الملتصق لصقاً سيثاً على عظام لا ترتكز على شىء ، وقد فقدت الأسنان القليلة التى كانت لى . وليس كلامى هذا من قبيل التمتع ، ولكنه الصديق الخالص . ولم ينحت قط تمثال لرجل مسكن فى حالتى هذه ، ولعل مسيو بيجال سيعتقد أنكم تهزأون به ، أما أنا فينبغى أن يكون عندى من حب اللات ما لا أجروء معه أبداً على الظهور فى حضرته . ولو شاء أن يضع حداً لهذه المهمة الغريبة . لنصحته بأن يأخذ نموذجاً ، بتغيرات طفيفة ، من تمثال الصغير المصنوع من صينى سيفر^(١٣) .

وضاعف بيجال المشكلة باقتراحه ان يصنع تمثالاً عارياً لذلك العفريت الأشهر ، ولكنهم ثنوه عن هذا الرأى . وقصد فرنیه فى يونيو ، وجلس إليه الفيلسوف الحجول ثمانية أيام ، فى قترات متقطعة ، ولكن فى تملل شديد — يملى على سكرتير ، ويومئ للإيماءات وينفخ حبات البسلا على أشياء شتى فى الهجرة — حتى قاربت أعصاب المثال على الانهيار^(١٤) . فلما عاد إلى باريس بقالب للتمثال عكف على مهمته شهرين ، ثم أعلن النتيجة فى ٤ سبتمبر ، وأقبل نصف الصفوة الممتازة يعجبون ويتسمون . والتمثال يقوم الآن فى دهليز مكتبة المعهد .

ولم يكن من مزاحم لبيجال فى زعامة النحت فى هذه الحقبة غير إتيين موريس فلاكونيه ، ويروى ديدراو قصة لطيفة عن خصومتها . ذلك أن فلاكونيه الذى كان يصغر غريمه بغامين تجنب أول الأمر منافسته مباشرة ، فكان يصنع التماثيل من الصينى ، وكان من أبهج هذه التماثيل تمثال « بجاليون » الذى صنعه دورو على تصميم فلاكونيه ، وفيه تبدو دهشة النحات الاغريقى إذ ينحني تمثاله « غلاطية » المرمى للحدث إليه . واستطاع ذاك التمثال أن يرمز إلى حقيقة أوشك الناس أن ينسوها ، وهى أنه ما لم ينحني لإينا العمل الفنى فهو ليس بفن . فلما اطلع بيجال على هذه القطعة من الطين وقد تحولت إلى رمز خالد فاه بالثناء التقليدى يثنى به فنان عظيم على آخر : « وددت لو كنت صانعه ا » ولكن فلاكونيه لم يرد التحية بمثلها تماماً حين

رأى تمثال بييجال « لويس الخامس عشر مواطناً » فقد قال « اننى لا أحبك يا ميسيو بييجال ، وأعتقد أنك تبادلنى هذا الشعور . وقد رأيت تمثال « المواطن » الذى صنعه . لقد كان ممكناً خلق هذا العمل ، لأنك قمت بهذا فعلاً ، ولكنى لا أعتقد أن الفن يستطيع أن يجاوزه بخط واحد وهذا لا يمنعنا من أن نظل كما كنا^(٤٥) .

وقد نغصت عيش فلاكونيه أربعون سنة من الحزن قبل أن يظفر بالتقدير التام ، فانطوى على نفسه وعاش فى بساطة ديوجينية ، وأصبح سريع الشجار ، وغض من قدر فنه ، وأعرب عن احتقاره للشهرة سواء فى حياة صاحبها أو بعد موته . وافته الشهرة آخر الأمر بتمثاله « المستحمة » (١٧٥٧) ... وهى مستحمة جميلة تجس حرارة الماء بأصابع قدمها .^(٤٦) وأنست إليه الآن مدام دبومبادور ، فنحت لها « الحب الداهم » الذى يمثل كيوييد يهدد باطلاق سهم فيه عدوى الحب . وأصبح فلاكونيه حيناً فى عالم النحت ما كانه بوشيه وفراجونار فى عالم التصوير مبدعاً دغدغات فتاته مثل « فينوس وكيوبد » ، « وفينوس تخلع ثيابها أمام باريز » .

وقد أبدع فى تصميم الشمعدانات الزينية ، والنوافير الصغيرة ، واثمائل الدقيقة ، وحفر الرخام « ساعة ربات الحسن الثلاث » المحفوظة الآن فى اللوفر ، وأبهج بومبادور بتمثيلها فى صورة الموسيقى^(٤٧) . وفى ١٧٦٦ قبل دعوة كاترين الثانية له للذهاب إلى روسيا . وقد صنع فى سانت بطرسبوج رائعة « بطرس الأكبر على نجواد يخطر » ، وشارك ديدرو وجريم حظوتهما عند الأمباطورة ، وعمل لها بهمة طوال اثنى عشر عاماً ، ثم تشاجر معها ومع وزرائها ، ورحل فى نوبة غضب عائداً إلى باريس . وفى ١٧٨٣ أصيب بالفالج ، ولزم حجرته فى الأغوام الثمانية الباقية له ، وقد زادت نظرتة إلى الحياة اكتئاباً .

أما جان — جاك كافيرى فكان فى وسعه أن يكون أكثر بشاشة وإنشراحاً لأنه ربي على النجاح فى رعاية أبيه جاك ، الذى كان من أئمة — صناع البرونز فى العهد الأسبق . وقد شق طريقه مبكراً إلى أكاديمية الفنون

الحميلة بتمثال عجوز لا تكسوه غير سبله سماه « النهر » . وكلفه مسرح الكوميدي — فرانسيز بتزيين قاعاته بتمثيل نصفية للمسرحيين الفرنسيين ، فأبهج الناس جميعاً بتمثيله التي صورت كورني ، وموثير وفولتير ، في صور مثالية . أما رائحته فتمثال نصفي للكاتب المسرحي جان دروترو نقله عن حفر في حوزة الأسرة . وهو أشبه بدارتنيان في كهولته — شعر مرسل ، وعينان متقدتان ، وأنف مشاكس ، وشوارب كثة ، وهو من أبدع التماثيل النصفية في تاريخ النحت . وبدافع الغيرة من مسرح الكوميدي — فرانسيز ، كلفت فرقة الأوبرا كافيري بأن ينحت التماثيل لأبطالها هي أيضاً ، فصنع التماثيل النصفية للوللي ورامو ، ولكن هذه التماثيل اختفت . وبقيت لوحة جميلة لفتاة صغيرة^(٤٨) . ربما كانت من أعضاء فريق باليه الأوبرا ، وهي توفيق ساحر جمع بين العيدين الحجولتين والصدر الناهد .

أما أحب التماثيل لمدام دوباري فهو أوجستن باجو . فبعد أن قضى الفترة المألوفة لتلميذة الفنانين في روما ، حقق ثراء مبكراً بمسا تلقى من مهام ملكية وتكليفات من خارج فرنسا . وقد صور الحليمة الجديدة في نحو اثني عشرة لوحة . ويرتدى التمثال المحفوظ باللوفر رداء كلاسيكياً منقوشاً نقشاً رائعاً . وصور بوفون للجاردان دروا بناء على طلب الملك^(٤٩) . ثم نخلد ديكارت ، وتورين ، وبسكال ، ونوسوبه ، وأروع أعمامه مازال حياً في الصور البارزة التي حلّى بها أسفل المقصورات في دار الأوبرا بفرساي . وعمر حتى قام بأعمال اللويس السادس عشر ، وبكى على إعدام ذلك الملك ، وشهد نابليون ببسط سيطرته الشامل على القارة .

ب - العمارة

هل قامت في فرنسا خلال هذه الأعوام الثمانية عشر عمارة نخالدة؟ لم يبق إلا القليل . فالكنائس كانت أوسع من أن يملأها من بقي من المؤمنين . والقصور أخذت تثير غيرة الجماهير التي طحنها الجوع . وكان تجدد الاهتمام بالمعمار الروماني نتيجة للحفائر التي أجريت في هركولانيوم (١٧٣٨) وبومبي (١٧٤٨ - ٦٣) بدعم لإحياء الطرز الكلاسيكية الخطوط ذات البساطة

والوقار ، وواجهة الأعمدة والقوصرة ، والقبة الفسيحة أحياناً . وكان جاك — فرانسوا بلوندل ، الأستاذ بالأكاديمية الملكية للعمارة ، نصيراً متحمساً لهذه الأشكال الكلاسيكية ، وأصدر خلفه جوليان — دافيد لروا ، في ١٧٥٤ ، رسالة سماها « أحمل آثار الإغريق » زادت من سرعة الانتشاء بهذه الآثار . وقد نشر آن — كلود تيببير ، كونت دكايلوس ، بعد أن ساح كثيراً في إيطاليا واليونان والشرق الأدنى (١٧٥٢ — ٦٧) ، ثمانية مجلدات خطيرة سماها « مختارات من الآثار المصرية ، والأتروسيكية ، واليونانية ، والرومانية ، والغالية » موضحة في عناية ببعض رسومه ؛ وتأثرت دنيا الفن الفرنسي كلها حتى السلوك الفرنسي ، تأثراً قوياً بهذا الكتاب فمالت إلى نبذ شطحات الباروك ونزوات الروكوكو رجوعاً إلى خطوط الطرز الكلاسيكية الأكثر نقاء. وهكذا نجد جريم يقول لقرائه في ١٧٦٣ :

« ظللنا سنوات نبحث بحثاً جاداً عن الآثار والأشكال القديمة وأصبح الميل لها عاما حتى عدا من الأمور المقررة الآن أن يؤدي كل شيء على الطريقة اليونانية *à la grècque* من العمارة إلى صنع القبعات ، فنساؤنا يصفن شعورهن على الطريقة اليونانية ، ووجهائنا يرونه عاراً إن لم يمسكوا علبة صغيرة على الطريقة اليونانية »^(٥١) .

أما ديدرو ، رسول الرومانسية البورجوازية ، فقد استسلم فجأة للموجة الجديدة (١٧٦٥) حين قرأ ترجمة لمكتاب وثكلمان « تاريخ الفن القديم » وكتب يقول « ينخيل إلى أننا يجب أن ندرس القديم لكي نتعلم رؤية الطبيعة »^(٥١) . وكانت هذه العبارة في حد ذاتها ثورة .

وفي ١٧٥٧ بدأ جاك — جرمان سوفلو بناء كنيسة القديسة جنيفيف ، التي نذر لويس الخامس عشر خلال مرضه في متز أن يشيدها للقديسة راعية باريس حالما يتماثل للشفاء . وأرسي الملك بنفسه حجر الأساس ، وأصبح بناء هذا الصرح « الحدث المعماري العظيم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر » في فرنسا^(٥٢) . وقد صممها سوفلو على شكل معبد روماني ، برواق من قوصرة منحوته وأعمدة كورنثية ، وأربعة أجنحة تلتقي في صليب يوناني

في خورس أوسط تحت قبة ثلاثية . واتسمت كل مرحلة تقريباً من مراحل البناء بالجدل . ومات سوفلو في ١٧٨٠ بعد أن أزهقته وقتت في عضده الهجمات التي شنت على تصميمه ، وخلف البناء ناقصاً . وتبين أن الركائز التي صممها لتحمل القبة أضعف من أن تحملها ، فأحل شارل-اتين كوفلييه محلها دائرة - من الأعمدة تفوقها جمالا . وحولت الثورة هذه الرائعة من روائع إحياء الفن القديم من هدفها الديني إلى هدف دنيوي ؟ فسمتها من جديد البانتيون ، تذكراً لرائعة ماركوس أجريبا في روما ، لتكون مشوى لـ « جيع آلهة » النظام الجديد ، حتى فولتير ، وروسو ، ومارا ، ولم تعد كنيسة مسيحية ، بل غدت مقبرة وثنية . وقدر مزت في عمارتها ومصيرها إلى انتصار الوثنية المطرد على المسيحية .

وأحرز للشكل الكلاسيكي نصراً آخر في كنيسة المادلين (المجدلية) الأولى التي بدىء تشيدها عام ١٧٦٤ ، فحلت صفوف الأعمدة والأجنحة المستوية السقوف محل العقود والبواكي ، وغطت الخورس قبة . وأطاح نابليون بها كلها قبل أن تنجز لتحل محلها كنيسة المادلين التي تثبوا مكانها اليوم والتي هي أشد إمعاناً في الكلاسيكية .

كان هذا الانقلاب إلى الطرز الكلاسيكية الوقورة ، بعد إسراف الباروك المتمرد في عهد لويس الرابع عشر وإناقة الروكوكو اللعوب في عهد لويس الخامس عشر ، جزءاً من الانتقال إلى « طراز لويس السادس عشر » في عهد لويس الخامس عشر نفسه - وهو طراز البناء ، والأثاث ، والزخرفة الذي سيتخذ اسم الملك الذي أطاحت الجيولتين برأسه . وضبط الفن نفسه فتحول عن المنحنيات الكثيرة والزخارف المسرفة إلى البساطة المقتصدة ، بساطة الخطوط المستقيمة والشكل البنائي . وكان اضمحلال المسيحية قد انتزع من التسامي القوطي المفرط قلبه ، ولم يترك للفن ملاذاً غير تحفظ رواقى تجرد من الآلهة وتشبث بالأرض .

أما أعظم المعماريين الفرنسيين في هذا الجيل فهو جاك - آنج جابريل ، الذي أورثه أسلافه العمارة في عروقه . عهد إايه لويس الخامس عشر

(١٧٥٢) بإعادة بناء قلعة قديمة في كومبيين ، فجعل مدخلها ببوابة
إغريقية ذات أعمدة دورية ، وكورنيش بدنطيل (مسنن) ، ودرابزين
خال من الزخرف . ونهج هذا النهج من التصميم في إعادة بناء الجناح الأيمن
في قصر فرساي (١٧٧٠) . وأضاف لهذا القصر (١٧٥٣ - ٧٠) داراً أنيقة
للأوبرا . وبفضل الأعمدة المستوية ، والكرانيش الرقيقة النقوش ،
والدرابزين الجميل ، أصبحت هذه الدار من أجمل المباني الداخلية في فرنسا .
وحين سُمّ لويس ما في حياة البلاط من علنية وتكلف ، لجأ إلى جابريل ليبي
« بيتاً صغيراً » تستره الغابات واختار جابريل موقعاً يبعد ميلاً عن القصر ،
وشاد عايه بطراز النهضة الفرنسية « البتي تريانون » (١٧٦٢ - ٦٨) . هنا
كانت بومبا دور تمنى النفس بالاستمتاع بحياة العزلة والدعة وهناك مرحت
دوباري وقصفت برهة ، ثم جعلته ماري انطرايت منتجها المفضل كانها
الراعية الملكية في تلك الأيام الحلية السعيدة والشمس ما تزال تشرق على
ربوع فرساي .

ح - جرور

كانت الصورة حاية أثيرة في جو البيوت الأرستقراطية الحميم . فالتماثيل
باردة عديمة اللون ، تسر العين والعقل دون القلب والنفس ، أما الصور
فتستطيع أن تعكس تقارب الأمزجة والأذواق ، وأن تنقل الروح إلى الأماكن
الحلوية ، أو الأشجار الظالمية ، أو المشاهد النائية والحسد باق داخل الجدران .
وهكذا نرى كلود - جوزف فرنية يرسم من السفن التي تمخر عباب البحار
الفرنسية عدداً بلغ من كثرته إن لويس الخامس عشر قال في نكتة مشهورة
إنه لا حاجة به لبناء المزيد منها . واستأجرت الحكومة الفرنسية فرنية ليزور
الشعور ويرسم السفن الراسية فيها ، ففعل ، وجعل فرنسا فخورة بأساطيلها .
وحصل ديدرو على إحدى صور قرنيه للبحر والأرض ، وغلا في تقديرها
غلوا حتى لقد توسل إلى إله إرتجله إرتجلاً فقال « أنى أتخلى لك عن كل شيء ،
فخذاه كله ، إلا فرنیه (٥٣) » . وهناك أومير روبير ، الذي لقب « روبير
الاملال » نعم كله لأنه زود كل صرر مناظره الطبيعية تقريباً بالأطلال

الرومانية مثل « كويرى جار فى نيم » ومع ذلك كان القوم « يتهافتون عليه » فى صالونات باريس كما تؤكد لنا مدام فيجيه ... لوبرون ، رغم شغفه المدمر بالأكل^(٥٤) . ثم هناك فرنسوا ... أوبير درواى ، الذى حفظ لنا فى تصوير مرهف جمال المركيزة دسور والطفوأة البريثة للغلام الذى سيصبح شارل العاشر ولاخته ماري أدليد^(٥٥) . ولكن لنلق نظرة أكثر تدقيقاً على جروز وفراجونار .

أما جان — باتيست جروز فقد صنع بفرشانه ما صنعه روسو وديدرو بقلمهما ؛ إذ أضفى على ألوانه إشراق العاطفة ، وجعل نفسه « آيليز » البورجوازية . فالعاطفه أسعد من التكلف والصقل ، وليست ضحلة مثلها ، وعلينا أن نغفر لجروز رؤيته الجوانب السارة من الحياة وتصويرها ، وجهه لوئب الأطفال المرح ؛ وبراعة البنات الجميلات الهشة ، والقناعة المتواضعة لبيوت الطبقة الوسطى . فلولا جروز وشاروان لتوخمنا أن فرنسا كلها كانت منحطة فاسدة . وأن دويارى كانت نموذجها ، وأن فينيوس ومارس كانا ربها الوحيدين . أما الحقيقة فهي أن الأشراف هم المنحطون ، وأن لويس الخامس عشر هو الفاسد . وأن الارستقراطية والملكية هما اللذان سقطا فى الثورة . أما جماهير الشعب — باستثناء رعاى الريف والمدن — فقد احتفظت بالفضائل التى تنقذ أمة من الأمم ، وقد صورها جروز . وحيأ ديدرو شاردان وجروز . لا بوشيه وفراجونار . باعتبارهما صوت فرنسا وسلامة روحها .

ويروى عن هذا الفنان فى شبابه ما يروى عادة من قصص عن شباب الفنانين : اراد أن يرسم ، فمنعه أبوه ظناً منه بأن هذه الرغبة ليست سوى ستار للكسل ، وكان الغلام يتسلل من فراشه ليلا يرسم الصور . فلما وقع بعصر أبيه على صورة منها لانت قناته فأوفده ليدرس على يد مصور فى ليون . ولم يطل رضاء جان — باتيست عما استطاع أن يتعلمه هناك ، فم شطر باريس . وعمل فترة فى الفقر الذى تمتحن به الموهبة الشابة . وكان محققاً فيما بعد فى إبراز الجانب الأفضل فى الناس ، لأنه وجد كما يجد معظمنا

الكثير من العطف مختلطا بما في الدنيا من عدم مبالاة وإنشغال عن الموهبة .
وحوالى عام ١٧٥٤ اشترى [جماع للفنون يدعى] لىف دجوللى [صورة
رسمها جروز تسمى « رب الأسرة »] (وقد [استعمل] ديدرو هذا العنوان
ذاته لتمثيلاته الثانية عام ١٧٥٨) وشجعه على مواصلة التصوير . ورأى
الفنان الذى كان يعلم التصوير للأسرة المالكة صورة بريشة جروز ، فرشحه
للأكاديمية . ولكن كل مرشح كان ينتظر منه أن يقدم خلال ستة أشهر رسما
لمشهد من مشاهد التاريخ . ولم تكن هذه المشاهد التاريخية مما يوافق مزاج
جروز ، فترك حقه فى الترشيح يسقط ، وقبل ما عرصه الأبيه جوجنو
من تمويل رحلته إلى روما (١٧٥٥) .

وكان قد بلغ الثلاثين ، ولا بد أنه أحس قبل ذلك بزمى بسحر الأنثى ،
أو ليس نصف الفن نتاجا جانبيا لتلك القوة القاهرة ؟ وقد خبرها فى روما
خبرة أورثته تباريح الجوى . ذلك أنه عهد إليه بتعليم الرسم لليتيا ، ابنة
أحد الأدواق ، وكانت فى ميعه الصبا ، فما الذى يستطيعه إلا أن يقع فى
غرامها ؟ وكان مليح الصورة ، له شعر مموج ووجه بشوش متورد ، وكان
زميله فى الطلب فراجونار يلقيه « الملاك العاشق » . أنظر فى اللوفر إلى
صورته التى رسمها لنفسه فى شيخوخته ، ثم تخيله وهو فى الثلاثين . ولم يكن
مناص من أن تلعب ليتيا فى حمى الشباب الذى لا يعاب بالمال ، دور هلويز
أمام هذا الأيثار ، باستثناء الجراحة . ولم يستغل ضعفها ، وعرضت عليه
الزواج : وكان يهفو إليها ، ولكنه أدرك أن زواج فنان فقير بوارثة دوق
سيقلب بعد قليل مأساة للفتاه . وإذ كان غير وأثق من قدرته على السيطرة
على نفسه فقد عقد النية على ألا يراها ثانية . فرضت ، وزارها وسرى
عنها ، ولكنه عاد إلى تصميمه . ويؤكدون أنه ظل ثلاثة أشهر يلزم فراشه
بخمى وهذيان متكرر^(٥٦) . وفى ١٧٥٦ قفل إلى باريس دون أن يتأثر إطلاقا
بالفن الكلاسيكى أو الإحياء الكلاسيكى الجديد .

يقول « بعد وصولى إلى باريس أتفق أن مررت . . . ولا أدري أى قدر
دفعنى إلى هذا — بشارع سان — جاك ، حين لحظت الإناسة بابوتى خلف

منضدتها^(٥٧) . وكانت جابريل بابوتى تعمل فى مكتبة ، وكان ديدرو يشتري كتبها و « يحبها كثيرا » (على جد قوله) قبل ذلك بسنوات . وكانت الآن (١٧٥٦ — ٥٧) قد تجاوزت الثلاثين (كما يقول جرور) تخشى أن تظل عانساً ؛ فوجدت جان — باتيست غير ميسور الحال ولكنه حلو . وبعد أن زارها بضع مرات قالت له « يا مسيو جرور ، اتزوجنى أن رضىت بك زوجاً ؟ » وأجاب كما يجيب أى فرنسى مهذب « يا آنسة ، ألا يكون أى رجل غاية فى السعادة إذا أنفق حياته مع امرأة ساحرة مثلك ؟ » ولم يفكر فى الأمر أكثر من هذا ، ولكنها تركت الجيران يفهمون أنه خطيبها . ولم يطاوعه قلبه على تكذيبها ، فتزوجها وظلا . سبع سنين ينعمان بقسط معقول من السعادة . وكانت ذات جمال مفر ، فاستخدمها راضية موديلاً فى كثير من الأوضاع التى لم تكشف عن شىء ، وإن ألمعت لكل شىء . وإنجبت له فى تلك السنين ثلاثة أطفال عاش منهم اثنان كانا إلهاما « لفنه .

ويعرفه العالم بصور الأطفال التى رسمها . وعلينا ألا نوقع هنا روعة لوحة فيلانيسكويز « دون باتازار كارلوس »^(٥٨) . أو لوحة فاندليك « جيمس الثانى صبيها »^(٥٩) ، لا بل إننا أحيانا قد نصدم بما فى بنات جرور من غلو وتهافت فى العاطفة ، كما تشهد بذلك « صورة عذراء » المحفوظة ببرلين ، ولكن لم نرفض ما فى صورة « البراءة »^(٦٠) من خصل متموجة ، وخطود متوردة . وعيون فيها الحزن والثقة ، أو ما فى لوحة « الفلاحة الصغيرة »^(٦١) من بساطة لم يفسدها التبرج ؟ كذلك لا نجد تكلنا فى لوحة « الغلام وكتاب الدرس »^(٦٢) . فهى تصور أى غلام مل واجبا يبدو له مقطوع الصلة بالحياة . ومن بين ١٣٣ لوحة بقيت من رسوم جرور . اختص البنات بست وثلاثين . وقد اشترى يوهان جيورج فلى ، الحفار الإلمانى نزيل باريس ، ما استطاع شراءه من هذه الصور المثالية للطفولة ، وراها « أئمن من أروع صور هذا العهد »^(٦٣) . ورد جرور هذه النحية بتصويره السكسونى غير الجذاب مثالا للفحولة . على أن هؤلاء الفتيات يشوبهن التكلف والصنعة إذ يكبرن فى فن جرور . مثال ذلك أن « اللبانة »^(٦٤) تبدو فى أبهى لباس كأنها تتأهب للذهاب إلى المرقص ، وصبية « الحرة المكسورة »^(٦٥) لا داعى (إلا داعى

الجمال) يدعوها للكشف عن حلمة ثديها وهى فى طريقها من البئر . ولكن فى صورة لصوفى أرنو^(٦٦) ، وتبدو القبعة ذات الريش ، والوقفة الأنيقة ، والشفاه القرمزية ، كلها طبيعية .

لقد كان جروز أشبه بشاردان صغير فيه مسحة من بوشيه ، رجلا معجبا حقيقة بالفضيلة وبحياه الطبقة الوسطى ، ولكنه يكسوها بين الحين والحين لغراء شهوانيا كان شاردان يتجنبه . وكان فى استطاعة جروز إذا نسي أجساد نسائه أن ينشد فى صورة أنشودة الحياه العائلية البورجوازية ، كما نرى فى « عروس القرية^(٦٧) » التى ظفوت بأكبر جائزة حين عرضت فى آخر أسبوع لصالون ١٧٦١ ، وأصبحت حديث باريس . وأطراها ديدرو لما فيها من « عاطفة حلوة » وأشاد بها « مسرح الإيطاليين » إشادة لم يسبق لها نظير . إذ قدمها فى « لوحة حية » على المسرح . وقد وجد الخبراء فيها عيوباً — من ضئ لم يحسن المصور التصرف فيه ، إلى ألوان متنافرة ، إلى قصور فى الرسم والتنفيذ ، وضحك الارستقراطيون على ما فيها من غلو فى العاطفة ، ولكن جمهور باريس ، الذى كان قد عب فى الزنا حتى الثمالة ، وأبكته فى هذه السنة بعينها « جولى » روسو ، كان فى مزاج يدعو لاحترام النصائح والتحذيرات الخلقية التى كادت تسمع من فم والد العروس إلى زوجها الموعود . وكانت كل عقيلة من عقائل الطبقة للوسطى عليمه بمشاعر تلك الأم وهى تسلم أبنها لمشاق الزواج ومخاطره ، وكل فلاح كان يشعر بأنه ليس غريباً فى ذلك الكوخ الذى تنقر فيه دجاجة وأفراخها الغلة على أرضه أو تشرب فى أطمثنان من القدر التى تحت قدم الأب . واشترى مركز دمارينيه الصورة لفوره ، ودفع الملك فيها بعد ذلك ١٦,٦٥٠ جنيتها ليحول دون بيعها بالخارج . وهى اليوم محفوظة بأحدى حجرات اللوفر التى لا تحظى بزوار كثيرين ، وقد أتلّفها تغيّر ألوانها السطوحية جداً ، وغض الجمهور من قدرها فى نعمة تمرد الواقعية والكلبة على العاطفة المتفائلة .

وأحس كل فنانى باريس تقريباً بأن جروز حط من شأن الفن لأنه سخره للوعظ من خلال الروايات والقصص بدلا من كشف الحقيقة والطبائع

بنفاذ بصيرة وعدم تحيز . ودافع عنه ديدرو قائلا إنه « أول فنانينا الذى أضفى الخلق على الفن ، وهيا صورته لتروى قصة (٦٨) » . وبلغ به الأمر حد الدهشة والتعجب من المآسى الرقيقة التى رسمها جروز ، فصاح فى أسى « لذيذة ! لذيذة ! » حين رأى لوحة « الفتاة الصغيرة تبكى على عصفورها الميت » وكان هو نفسه يدعو لمواضيع الطبقة الوسطى ومشاعرها فى الدراما . فأنس فى جروز حليفا عظيم القيمة وأطراه حتى فوق إطاره شاردان . وغلا جروز فى تصديقه ، فكرر نفسه كأنه رسول الفضيلة والعاطفة ، وأرسل إلى مجلات باريس شروحا طويلة للدورس الاخلاقية فى الصور التى كان ينتجها . وأخيرا أستنزف ترحيب جمهور الفن به حتى إبان تسلط العاطفة على مزاج العصر .

وكان خلال فترة السنوات الأثنى عشرة كلها منذ قبول ترشيحه للأكاديمية قد أهدى أن يقدم لها الصورة التاريخية التى كانت شرطا للعضوية الكاملة ، وكانت الأكاديمية ترى أن الصورة التى ترسم المشاهد المألوفة التى تصف الحياة البيتية أو اليومية تتطلب من الموهبة الناضجة أقل مما يتطلبه التأليف القادر على التخيل ، والتمثيل الكفء لمشهد من المشاهد التاريخية . ومن ثم قبلت مصورى مشاهد الحياة اليومية على أنهم « مقبولون agréés » فقط ، ولكنهم ليسوا بعد صالحين للدرجات أو الكراسى الأكاديمية . وفى ١٧٦٧ أعلنت الأكاديمية أن صور جروز سيتوقف عرضها فى الصالون البينالى حتى يقدم لها صورة تاريخية .

وعليه ففى « ٢٩ يوليو ١٧٦٩ » قدم جروز صورة لسبتموس سفيرس يوبخ ابنه كراكالا لمحاولته اغتياله (٦٩) . وأطلع أعضاء الأكاديمية على الصورة ، وبعد ساعة أبلغه المدير أنه قبل ، ولكنه قال له : « سيدى . لقد قبلت فى الأكاديمية مصورا للمشاهد اليومية . وقد أخذت الأكاديمية فى الاعتبار تفوق صورك السابقة ، وأغضت عينها عن الإنتاج الحالى غير الحدير بها ولا بك (٧٠) » . وصدى جروز ، فدافع عن لوحته ، ولكن أحد الأعضاء بين الأخطاء فى الرسم . واحتكم جروز إلى الجمهور فى خطاب

لصحيفة « الألفان - كورييه » (٢٥ سبتمبر ١٧٦٩) ، وأخفق شرحه في إقناع الراسخين في الفن ، وحتى ديدرو سلم بعدالة النقد .

وألّمع ديدرو إلى أن قصور اللوحة راجع إلى أن فشل المصور في زواجه شوش ذهنه . واتهم جابريل بابوتي بأنها تردت إلى درك المرأة المشاكسة المغرورة ، فاستنزفت مال زوجها بإسرافها ؛ وأرهقته بمضايقاتها ؛ وحطمت عزة نفسه بخياناتها المتكررة^(٧١) . وقدم جروز نفسه لرئيس الشرطة (١١ ديسمبر ١٧٨٥) شهادة خطية يتهم فيه زوجته بأستقبال عشاقها بإصرار في بيته ورغم احتجاجاته . وفي خطاب لاحق أتهمها بسرقة مبالغ كبيرة منه ، وبمحاولة « تحطيم رأسى بمبولة^(٧٢) » . وحصل على انفصال شرعى ، وأخذ ابنتيهما في حضنته ، وترك لها نصف ثروته ومعاشا سنويا قدره ١,٣٥٠ جنيتها .

وتدهور خلقه إثر هذه اللطمات ، فبات يضيق بأى نقد ، وفقد كل تواضع في الأشادة بلوحاته . على أن الجمهور وافقه على إعترازه بنفسه ، فأقبل على مرسومه وأثراه بشراء صوره ، والنسخ المطبوعة منها . وإستثمر هو مكاسبه في سندات حكومية ، ولكن الثورة أطاحت بقيمة هذه السندات ، وألقى جروز نفسه مملقا ، في حين إنهارت سوق صوره الممثلة للسعادة والسلام البيتين نتيجة « لا ستغراق فرنسا في العنف الطبقي ، والهياب السياسى . ورد فعل الكلاسيكية الجديدة . وأنقذته الحكومة الجديدة إنقاذاً معتدلاً (١٧٩٢) بمعاش قدره ١,٥٣٧ جنيتها ، ولكن سرعان مانفد هذا المعاش فالتمس سلفة ، وجاءت امرأة من الرعاع تدعى إنتيجون لتعيش معه وتعنى بصحته المتدهورة . فلما قضى نحبه (١٨٠٥) كان العالم كله تقريباً قد نسىه ، ولم يرافق جثمانه إلى القبر سوى فنانين اثنين .

(٥) فراجونار

تغلب جان - أونوريه فراجونار على محن النجاح خيراً من جرور ، لأنه كان يفوقه شهوانية وصنعة . وفنه الأنيق هو التمجيد الأخير للمرأة الفرنسية في القرن الثامن عشر .

ولد في جراس بأقليم بروفانس (١٧٣٢) ؛ فأضنى على فنه أريج وطنه وعبير إزهاره ، فضلا عن عشق التروبادور الرومانسى ، وإضاف إلى هذا كله مرح الباريسيين وتشككهم الفلسفى . وجلب إلى باريس فى الخامسة عشرة فطالب إلى بوشيه أن يقبله تلميذا ، وقال له بوشيه بكل ما وسعه من لطف إنه لا يقبل غير الطلاب المتقدمين . فذهب فراجونار إلى شاردان ليخذه . وكان فى ساعات فراغه ينسخ الروائع الفنية أينما وجدها . وأطلع بوشيه على بعض هذه النسخ فأعجب بها إعجابا شديدا حمله على قبوله الآن تلميذا ، وجند خياله الفنى فى عمل تصميمات لقطع النسيج المرسومة ، وتقدم الغلام بسرعة حتى حثه بوشيه على دخول المسابقة لنيل جائزة روما . وقدم فراجونار لوحة تاريخية سماها « يربعام يضحى للاصنام »^(٧٣) . وكانت إنتاجا ممتازا لفتى فى العشرين — فيها الأعمدة الرومانية الفخمة ، والأرواب المناسبة ، ورؤس الشيوخ الملتحية ، أو المعمعة ، أو الصلعاء ، وكان فراجونار قد تعلم فى زمن قليل بحيث نرى فى الوجه العجوز من الملامح أكثر من وجه لم تطبعه بعد الرغبة فى الأثارة والاستجابة . ومنحته الأكاديمية الجائزة ، فدرس ثلاث سنين فى مرسم كارل فانلو ، ثم إنطلق فى نشوة إلى روما (١٧٦٥) .

وثبتت همته كثرة الروائع التى وجدها هناك أول الأمر :

« لقد روعتني همة ميكلائنجلو — فجاشت فى صدرى عاطفة عجزت عن التعبير عنها ، وحين رايت رواائع رفائيل تأثرت إلى حد البكاء ووقع القلم من يدي . وفى النهاية رانت على حالة من التراخي لم أقو على قهرها . ثم ركزت على درس المصورين الذين أتاحوا لى الأمل فى أننى قد أنافسهم يوما ما . وهكذا جذب إنتباهى باروتشيو ، وببيترو داكورتونا ، وسليينا ، وتيبولو^(٧٤) . »

وبدلا من أن ينسخ صور قدامى الفنانين راح يرسم التصميمات أو النخطيطات للقصور ، والقناطر ، والكنائس ، والمناظر الطبيعية ، والكروم ، وأى شيء آخر ، ولا غرور فقد ملك الآن فى استعمال القلم تلك البراعة التى

ستحوله واحدا من أقدر الرسامين وأكملهم في عصر غنى في ذلك الفن الأساسي (*). وقل من الرسوم ما التقط من حياة الطبيعة أكثر من الأشجار الخضراء في فيلا دسيتي كما رآها فراجونا نار في تريفولي (٧٥).

فلما عاد إلى باريس عكف على إرضاء الأكاديمية بلوحة تاريخية ، باعتبار هذه اللوحة شرطا لاغنى عنه في قبول الرسام عضوا بها . ووجد المواضيع التاريخية كما وجدها جروز ، لاتناسبه ، فقد اجتذبت باريس جميلة بنسائها الساحرات بأقوى مما اجتذبه الماضي . وكان تأثير بوشيه لايزال حارا في مزاجه . وبعد تلك كثير قدم لوحة « كبير الكهنة كوريرسوس يضحى بنفسه لينقذ كاليريوبيه » ؛ ولأحاجة بنسائها للوقوف والاستفسار عما يكون هذا الكاهن وتلك العذراء ، والمهم أن الأكاديمية وجدتهما نابضتين بالحياة مرسومين رسما جيدا ، فمنحت فراجونا رعضوية مشاركة . وقال ديدرو في حماسة عارمة « لأعتقد أن أي فنان آخر في أوروبا كان مستطيعا تصور هذه اللوحة (٧٦) » . واشتراها لويس الخامس عشر لتكون تصميميا لقطعة نسيج مرسومة . ولكن فراجونا رفض يده من المواضيع التاريخية ، بل إنه بعد ١٧٦٧ رفض أن يعرض في الصالون ، وقصر إنتاجه كله تقريبا على التكيليفات الخاصة ، حيث يستطيع إطلاق العنان لذوقه من القيود الأكاديمية . ولقد تمرد على تلك « الصلصة البنية » صالحة النهضة الأوربية ، قبل أن يتمرد عليها الرومانسيون الفرنسيون بزمان طويل ، وانطلق في مرجح إلى بحار أرحب وأقل تخطيطا .

ولكنها لم تكن خلوا تماما من التخطيط . فقد فتح فانتو الطريق . من قبل بنسائه اللائي كساهن أثوابا مشرقة وهن منطلقات بضمير . طمئن إلى جزيرة فينوس ، وكان بوشيه قد نهج هذا النهج بحواس مرحة أعجب ، وزاوج جروز بين الشهوانية والبراءة . أما فراجونا فقد جمع بين هذه كلها : ففي لوحاته الثياب الهفافة ترف في النسيم ، والغواني الرقيقات يعرضن اللذات الطليقة من كل قيد ، والنيللات الأنبيقات يسحرن الرجال

* كان هذا عصر أئمة النقش والحفر أمثال شارل - نيكولا كوشان ، وجايريل دسالت

أوبان ، وجان - جاك بواسييه ، وشال ايزن - ألمع رسامي الكتب في القرن الثامن عشر .

بحفيف ثوب أو ورقة قميص ، أو بحركة رشيقة متناغمة أو بسمة تلين الأفئدة ، والأطفال السمان المتوردون الشعث ، الذين لم يكتشفوا الموت بعد . وقد صور في رسومه ومماته كل ناحية تقريبا من نواحي الطفولة — وضع يعانقون أمهاتهم ، وفتيات يدللن عرائسهن ، وصبية يركبون حمارا أو يلعبون مع كلب

وقد استجابت ميول فراجونار العشقية الغالية لطلبات رجال الحاشية المكتهلين ، والتحليلات المتعبات ، من الصور التي تشيد بالجسد وتلهبه . فجبال بين أرجاء الأساطير الوثنية بحثاً عن ربات امتنعت أجسادهن الوردية على فعل الزمن . وكانت فينوس ، لا العذراء ، هي التي رفعت الآن في صعود ظافر إلى السماوات . وسطا على نصف شعائر الدين لمهرجانات الغرام : فكانت لوحته « القبلة »^(٧٧) صلاة ، و « نذر الحب » عهداً مقدساً ، و « قربان الورد » التقديم الأخيرة . ومن بين صور أربع رسمها فراجونار لقصر مدام دوباري الريني في لوفسيين كان لإحداها عنوان يصلح لتغطية نصف إنتاج الفنان : « الحب الذي يشعل الكون » . ثم نبش في ملحمة تحرير أورشليم ، بحثاً عن المشهد الذي تعرض فيه الحوريات مفاتنهن أمام رينالدو العفيف . وأصبح هذا الفنان « بوشيه » الفراش ، إذ أبدى النساء نصف عاريات أو عاريات تماماً ، كما يرى في لوحات « الجمال النائم » أو القميص المخلوع أو الباخوسية النائمة^(٧٨) . فلما أدرك أن العرى قد يقشع الأوهام تحول من التصريح إلى التلميح ، ورسم أشهر لوحاته « مخاطر الأرجوحة »^(٧٩) ، ففيها يرى العاشق يتفرس بابتهاج في أسرار ثياب عشيقته الداخلية التي تتكشف وهي تتأرجح لأعلى فأعلى ، وتذف بخفها في الهواء بتحرر لعوب . وأخيراً استطاع فراجونار أن يتقمص جروز ، بل وشاردان : فصور النساء المحتشمات ، كما في لوحاته « الدراسة » « والمطالعة »^(٨٠) . و « قبلات الأم » ، وفي صورة « مدموازيل كولومب » اكتشف أن النساء نفوساً .

وفي ١٧٦٩ ، حين بلغ السابعة والثلاثين ، أذعن للزواج ، فحين قدمت للأنسة جيرار من جراس لدراسة التصوير في باريس ، كان حسبها أن تذكر

سقط رأسها حتى تظفر بالقبول في مرسوم فراجونار . ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت امرأة مكتملة النضج ، وقرر « فراجو » (كما كان يسمى نفسه) كما قررت مدام بوفارى ، أنه لا يمكن أن يكون الاكتفاء بامرأة واحدة . مملاً أكثر من الزنا . ووجد متعة جديدة في العمل معها في رسم صور مثل « خطوات الطفل الأولى » وفي التوقيع معها على الصور . فلما ولدت طفلها الأول استأذنته في استدعاء أختها البالغة أربعة عشر عاماً من جراس لتعيّنها على الطفل والبيت ، فوافق وظلت هذه الأسرة سنين تعيش في سلام مزعزع .

ونافس الآن جروز في تصوير الحياة البيتية ، ونافس بوشيه في توصيل هدوء المشاهد الريفية إلى أنظار المشاهدين . ورسم بعض الصور الدينية ، وصور أصدقاءه . وكان في صداقته أثبت منه في حبه ، فلم يفتر قط تعلقه بجروز وروبير ودافيد رغم ما أصابوا من نجاح . وحين نشبت الثورة أهدى صورة وطنية سماها « الأم الطيبة » للأمة . وكادت مدخراته تفقد قيمتها نتيجة للتضخم وتحلف الحكومة في الوفاء بديونها ، ولكن دافيد الفنان الأثير لدى العهد الجديد ، حصل له على وظيفة شرفية صغيرة . وفي نحو هذه الفترة رسم صورته الذاتية الرائعة المعلقة الآن في اللوفر : الرأس قوى ضخم والشعر أشيب قصير القص ، والعينان مازالتا هادتين ثقة واطمئناناً . وقد روعه عصر الارهاب وقرزه ، ففر إلى وطنه الأول جراس ، حيث وجد المأوى في بيت صديقه موبير وقد زين الجدران بلوحات تعرف في جملتها باسم « رواية الحب والشباب » وقد رسمها خصيصاً لمدام دوبارى ، ولكنها كانت قد رفضتها لأنها لم تعسد في ثرائها السابق ، وهى اليوم من كنوز فريك جالرى بنيويورك .

و ذات يوم من أيام الصيف كان راجعاً من جولة في باريس وقد حمى جسمه وتصيب عرقاً ، فوقف عند مقهى وتناول قطعة من الحيلاتي وأصيب للتو تقريباً باحتقان في المخ . ونعم بميتة عاجلة (٢٢ أغسطس ١٨٠٦) . وقد أقامت جراس تمثالاً جميلاً لتخليد ذكراه ، وتحت قدميه طفل عار ومن خلفه شابة تدوم ثوبها في رقصة مرحة .

أن الفنان لا بد أن يدفع ثمنًا لرمزه لعصر ما ، فشهرته تضمنحل بزوال رغبات العصر المشبوبة ، ولا سبيل إلى عودة هذه الشهرة إلا إذا رفع قدره عاطف البعد ، أو رد تحول في التيار موضة قديمة إلى الذوق الحاضر . وقد زكا فراجونار لأن فنه العارى أو الكاسى أبهج زمانه ، بتلطيفه وتزيينه للانحلال ، ولكن الناموس الصارم الذى خضعت له ثورة تقاتل فى سبيل الحياة سائر أقطار أوربا ، كان فى حاجة إلى أرباب غير فينوس تلهمه ، فوجدوها فى أبطال روما الجمهورية ، الشديدي المراس . لقد انتهى عصر المرأة وعاد حكم المقاتل ، وأقبل جيل جديد من الفنانين على النماذج اليونانية — الرومانية ، التى أعاد تأليها فنكلمان ، واكتسح الطراز الكلاسيكى الجديد الباروك والروكوك فى موجة عارمة من الأشكال القديمة .

٦ — الصالونات الكبرى

(١) مدام جوفران

لقد دالت دولة المرأة ، ولكن بعد أن بلغت الصالونات ذروتها . وبلغت تلك المؤسسة الفذة أوجها بـ مدام جوفران ، وانحسرت فى حمى من الرومانسى بـ مدمرازيل د'يسيناس . وستنتعش بعد الثورة بالسيدتين دستال وريكاميه ، ولكنها لن تدرك أبدا فتنة وخصوبة تلك الفترة التى كان يلتقى فيها مشاهير الساسة فى أيام السبت بـ صالونات مدام دوديفان . والفنانون فى أيام الإثنين والفلاسفة والشعراء أيام الأربعاء بـ صالون مدام جوفران ، والفلاسفة والعلماء أيام الثلاثاء بـ صالون مدام هلفتيوس ، وأيام الأحد والخميس بـ صالون البارون دولباخ ، وفحول الأدب وأقطاب السياسة أيام الثلاثاء بـ صالون مدام نكير ، وقد يلتقى أى منهم فى أى ليلة بـ صالون جولى دليسيناس . وإلى هذه الصالونات كان هناك الكثير من الصالونات الصغرى : كـ صالونات السيدات دلكسمبورج ودلافالير ، ودفور كالكييه ودتالمون ، ودبرولى ، ودبوسى ، ودكروسول ودشوازيل ، ودكاميس ودميربوا ودبوفر ، ودانفيل ، وديجيون ، ودودتو ودمارشيه . ودوبان ، وديبينيه .

ولم يكن الجمال هو الذى زين ربّات الصالونات هؤلاء ، فقد كان جلهن

نساء نصفاً أو أكبر ، إنما هو ذلك المركب من الذكاء ، واللباقة ، والكياسة والنفوذ والمال غير المتطفل ، الذى مكن للمضيغة أن تجمع نساء ذوات فتنة وسحر ، ورجالا ذوى عقول راجحة يستطيعون أن يجعلوا اجتماعاً أو مجلس سمر يتألق ظرفاً أو حكمة دون أن يؤججوه انفعالا أو تعصباً . ولم يكن الصالون منها مكانا للمغازلات ولا للمواضيع العشقية أو التوريات .^(٨١) فقد يكون لكل رجل فيه خلية ولكل امرأة عشيق ، ولكن هذا كان يستر بأدب فى التبادل المتحضر للمجاملات والأفكار . وكانت الصداقات الأفلاطونية تستطيع أن تجدد القبول هناك . كما كان الحال مع دودفان وهرراس ولبرول ، أو مع ليسييناس ودالامبير . وباقترب الثورة نزع الصالونات إلى فقدان تسامحها الهادىء وأصبح مراکز للتسرد .

وذاعت شهرة صالون مدام جوفران لأنها كانت أبرع مروضى السباع بين ربات الصالونات ، ولأنها أتاحت للرواد مزيداً من حرية النقاش ، ولأنها عرفت كيف تمنع الحرية من تجاوز حدود السلوك المهذب أو الذوق السليم — دون أن تبدو مستبدة . وكانت إحدى النساء القليلات اللاتى برزن من الطبقة الوسطى ليحتفظن بصالون مرموق . وكان أبوها ، وصيف الدوقية مارى — آن ، قد تزوج بابنة مصرفى ، وأول من رزقا من أطفال فى ١٦٩٩ هى مارى — تريز ، التى أصبحت فيما بعد مدام جوفران . ووضعت أمها ، وكانت امرأة مثقفة موهوبة فى التصوير ، المخطط الطموحة لتنشئة ابنتها . ولكنها ماتت عام ١٧٠٠ وهى تلد صبيا . وأرسل الطفلان ليعيشا مع جدتهما فى شارع سانت — أونوريه — وبعد نصف قرن عللت مدام جوفران افتقارها إلى التبحر فى الثقافة فى خطاب أجابت به ماطلته كاترين الثانية فى سيرة ذاتية موجزة لها .

« لم تحظ جدتى . . . إلا بنصيب ضئيل من التعليم . ولكن كان لها عقل أوتى من قوة الملاحظة ، والذكاء ، والسرعة . . . ما جعلها دائماً بايلا عن المعرفة . وكانت تتحدث حديثاً لطيفاً جسداً عن أمور لا تعرف عنها شيئاً حتى لم تترك زيادة المستزيد . . . وبأن رضاؤها عن

حظها . بلغا جعلها ترى التعليم نافلة لا تحتاج اليها المرأة . وكانت تقول « لقد وفقت توفيقاً لم يجعلني أشعر قط بحاجتي اليه . فاذا كانت حفيدتي حمقاء فستجعلها المعرفة معتدة بذاتها لا يطيقها أحد ، وإذا كان لها ذكاء وفطنة فسوف تسلك كما سلكت ، وسوف تعوض النقص بإياقتها ونفاذ بصيرتها ، ومن ثم فإنها في طفولتي لم تعلمني غير القراءة ، ولكنها جعلتني أقرأ كثيراً ، وعلمتني أن أفكر ، وأن أجادل ، وعلمتني أن أعرف الرجال وجعلتني أعرب عن رأي فيهم ، وأنخبرتني كيف تحكم هي عابهم . . . وما كانت تطبق ضروب التطرف التي يعلمها مدرسو الرقص ، وكل ما تمتت لي هو أن تكون لي الرشاقة التي تهيئها الطبيعة للمرأة الحسنة الحلقة (٨٢) .

وأحست الجدة أن الدين أهم من التعليم ، ومن ثم كان الطفلان اليتيمان يؤخذان لحضور القداس كل يوم .

كذلك أهتمت الجدة بزواج ماري . ذلك أن رجل أعمال غنيا يدعى فرنسوا جوفران ، في الثامنة والأربعون من عمره ، تقدم للزواج من الفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعاً ، ورأت الجدة في ذلك العرض صفقة طيبة ، وكان في تربية ماري وتهذيبها المفرط ما منعها من الاعتراض . على أنها أصرت على أن تصحب معها أخاها إلى بيت السيد جوفران المريح ، الواقع في شارع سانت - أوثوريه أيضاً ، والذي قدر لها أن تقوم عليه إلى نهاية عمرها . وفي ١٧١٥ أنجبت ابنه ، وفي سنة ١٧١٧ أنبأ - مات في العاشرة .

وفي ذلك الشارع العصري ذاته إفتتحت مدام دتانسان صالونا مشهورا . ودعت إليه مدام جوفران فأعترض زوجها . ذلك أن ماضي مدام دتانسان كان قد أحدث بعض الضجة ، وأن ضيوفها الأثريين كانوا من أحرار الفكر أمثال فونتينييل ، ومونتسكيو ، وماريفو ، وبريفوست ، وهلفيتيوس ، ومارمونتيل . على أن مدام جوفران ذهبت برغم ذلك ، فلقد بهرتهم هذه العقول الطليقة من كل قيد : فما كان أثقل أولئك التجار الذين يأتون لزيارة

زوجها الشيخ بالقياس إلى هؤلاء ! وكان الآن قد بلغ الخامسة والستين ، وهي لم تنزل « امرأة الثلاثين » كما يقول بلزاك . وبدأت هي أيضاً تستضيف الزائرين . فاعترض ، ولكنها تغلبت عليه ، وأخيراً ارتضى أن يترأس على حفلات عشائها ؛ صامتا عادة ومؤديا دائماً . فلما مات (١٧٤٩) في الرابعة والثمانين ، لم يكده ضيوفها يلحظون غيابه . واستفسر أحد رواد الصالون حين عادو من رحلة عما أصاب السيد العجوز الذي كان يجلس في استحياء شديد على قمة المائدة . وأجابت مدام جوفران برفق « أنه كان زوجي ، وقد توفي (٨٣) » .

كذلك طوت مدام دتنسان رحلة الحياة عام ١٧٤٩ ، مما فرغ له ضيوفها المعتادون . ويجب أن نذكر ثانية تلك الملاحظة التي أبداهما فونتنييل الذي بلغ يومها الثمانية والتسعين : « امرأة طيبة جداً (مع أنها كانت تركيبة من الآثام الحقيقية .) ياله من خطب مقلق ؟ فأين أتناول غدائي الآن أيام الثلاثاء ؟ » ولكن أساريه إنفرجت وقال : « حسنا ، في أيام الثلاثاء يجب أن أتناول الغداء في بيت مدام جوفران (٨٤) » . وقد أبهجها أن يحضر ، لأنه كان « فليسوفا » قبل مونتسكيو وفولتير ، يحتفظ بذكريات تمتد إلى مازاران ، وقد بقي له من الأجل سبع سنوات ؛ وكان في وسعه أن يحتمل المعاكسة دون أن يتأذى منها لأن سمعه ثقل . وحذا حذوه أكثر مشاهير القوم الذين تألقوا على مائدة دتنسان ؛ وسرعان ما جمع غداء أربعاء جوفران ، في وقت أو آخر ، مونتسكيو ، وديدرو ، ودولباخ ، وجريم ، وموريلليه ؛ ورينال ، وسان - لامبير ، والأبيرة فرديناندو جالياني ؛ النابولي القصير الأريب ؛ سكرتير السفير النابولي في باريس .

وعقب موت زوجها ، ورغم معارضة أبنائها الساخطة . سمحت مدام جوفران لديدرو ، ودالامبير ، وما رمونتييل ، بأن يقرروا خط النقاش ونبرته في حفلات غداؤها أيام الأربعاء . لقد كانت وطنية ومسيحية ، ولكنها أعجبت بشجاعة الفلاسفة وحيويتهم . فلما نظمت « الموسوعة » تبرعت بأكثر من ٥٠٠,٠٠٠ جنيه في نفقاتها وأصبح بيتها يعرف بـ « صالون

الموسوعة » ، وحين هجأ باليسر المتمردين في هزلية « الفلاسفة » (١٧٦٠) سخر منها في شخصية سيد الز ، الجنية عرابة « الشلة » . وبعدها طلبت إلى سباعها أن يزأروا بأدب أكثر من ذى قبل ، وكبحت البلاغة الجامعة بعبارة مجاملة خففت من غلوائهم ... « آه ، هاهنا شيء طيب (٨٥) » ! وأخيراً سحبت دعوتها الدائمة ليدرو ، ولكنها أرسلت إليه طقماً من الأثاث الجديد وروباً فخماً فخامة غير مريحة .

وأكتشفت أن الفنانين والفلاسفة ، ورجال الأعمال ، لا ينسجمون إذا اجتمعوا معاً ، فالفلاسفة يحبون النقاش والثروة ، والساسة يتوقعون التحفظ والتأدب ، أما الفنانون فقبيلة صخباء لا يستطيع فهمهم غير الفنانين . وعليه فإن المدام ، التي كانت جماعة للفن والتقطت شيئاً من حرارة الجماليات من الكونت دكايلوس ، دعت أقطاب الفن وذواقه الباريسيين إلى حفلات عشاء خاصة في أمسيات الاثنين . ولبي الدعوة بوشيه ، ولاتور ، وفرنيه . وشاردان ، وفانلو . وكوشان ، ودرويه ، وروبير ، وأودريه ، وناتيه . وسوفلو ، وكايلوس . وبوشاردون ، وجروز . وكان مارمونتيل الفيلسوف الوحيد الذى سمح له بحضور هذه الحفلات لأنه كان يسكن في بيت مدام جوفران ، ولم تكتف المضيفة اللطيفة بالاحتفاء بضيوفها ، بل إشتريت أعمالهم وجلست إليهم ليصوروها ، وأجزلت لهم الأجر ، وصورها شاردان خيراً من سائر الفنانين . سيدة بدينة لطيفة في قبعة من الدانتيل (٨٦) .

وبعد موت فانلو أشتريت صورتين من صوره بأربعة آلاف جنيه . ثم باعتها للأمير روسى بخمسين ألف جنيه ، وأرسلت الربح لارملة المصور (٨٧) .

واستكمالاً للضيافة كانت مدام جوفران تقيم « حفلات عشاء صغيرة » لصديقاتها . ولكنها لم تدع نساء لحفلات الاثنين . وكانت مدهوازيل دليسيدياس (ربما بوصفها نفس دالامبير الثانية) من النساء القليلات اللاتي حضرن أمسيات الأربعاء . ذلك أن المدام كانت على شيء من حب التملك ،

ثم لأنها وجدت أن حضور الأناث يصرف سباعها عن الفلسفة والفن . وبذلك أن سياسة الفصل بين الجنسين التي إنتهجتها قد بررها ما كسبته ندواتها من صيت ذائع بالمناقشات الطريفة الهامة . واحتال الأجانب في باريس للظفر بدعوات إلى صالونها ، ذلك أن مباحاتهم ، بعد عودتهم إلى أرض الوطن ، بأنهم إختلفوا إلى صالون مدام جوفران ، كانت تشريفا لا يفوقه إلا شرف المثل بين يدى الملك . وكان هيوم ، وولبول ، وفرانكلن ، من بين ضيوفها الشاكرين . وحرص السفراء لدى بلاط فرساي - حتى الكونت فون كاونز الرفيع المقام - على تقديم أنفسهم في ذلك المنزل المشهور في شارع سانت - أوثوريه . وفي ١٧٥٨ أصطحب الأمير كانتيمير ، السفير الروسى ، أميرة أنهالت تسربت التي حدثت القوم بفضائل أبنها ، ولم تنقضى أربعة أعوام حتى أصبحت هذه الأبنة كاترين الثانية ، وظلت إمبراطورة الأقاليم الروسية كلها سنين طويلا بعد هذا ، تبادل ربة الصالون البورجوازية الرسائل الساحرة . وعاد سويدي جميل ذكى ممن إختلفوا إلى بعض ولا ثم المدام إلى وطنه ليصبح جوستاف الثالث .

وثمة شاب أجمل هو ستانيسلاس يونيا توفسكى كان كثير التردد بل كاد يكون من عباد مدام جوفران (التي كانت أحيانا تؤدي عنه ديونه^(٨٨)) ، وما لبث أن إعتاد أن يناديها « ماما » ، فلما أصبح ملسكا على بولندية (١٧٦٤) دعاها إلى زيارة وارسو ضيفا عليه . فلبث الدعوة مع أنها بلغت الآن الرابعة والستين . وأقامت في طريقها بفينا فترة ، وكتبت تقول « أن القوم يعرفوننى هنا خيرا مما يعرفنى جيرانى على ياردين من بيتى^(٨٩) » . وظلت حينما فى القصر الملكى بوارسو (١٧٦٦) تقوم من الملك مقام الأم والمشييرة . وتبادل الناس الرسائل التي بعث بها إلى باريس كما تبادلوا الرسائل التي بعث بها فولتير من فرنیه ، وقد كتب جریم يقول : « إن الذين لم يقرأوا رسائل مدام جوفران لم يكونوا أهلا لمخالطة المجتمع الراقي^(٩٠) » . فلما قفلت إلى باريس واستأنفت ولائها ، إبتهج عشرات من مشاهير القوم ، ونظم بيرون ودليليل القصائد احتفاء بعودتها .

وكانت الرحلة شاقة - فقد أستقلت مركبة اخترقت نصف أوربا طويلا

ثم عادت بها إلى وطنها ، ولم تعد مدام جوفران قط بعدها إلى سابق تيقظها ومرحها . وراحت الآن تجدد حرصها على العبادة الكاثوليكية ، وهي التي أعربت من قبل عن إفكارها الحياة بعد الموت^(٩١) ، وأحالت الدين محبة وبراً بالناس . وقد وصف ما رمونتيل تقواها الغربية فقال : —

« لكي ترضى السماء دون أن تغضب مجتمعا ، ألقت العكوف على لون من العبادة المستورة . فتذهب إلى القديس سرّاً كما يذهب غيرها إلى مؤامرة ، ولها شقة في دير ومقعد خاص في كنيسة الكبرشيين تتكلم أمرها كما تتكلم النساء العاشقات في تلك الأيام عش غرامهن^(٩٢) .

وفي سنة ١٧٧٦ أعلنت الكنيسة الكاثوليكية يوبيلاً يتلقى فيه كل من يزورون كنائس معينة في أوقات مقررة الحل والغفران . وفي ١١ مارس حضرت مدام جوفران صلاة طويلة في كتدرائية نوتردام . وعقب وصولها إلى بيتها أصابتها نوبة فالج . وغضب جماعة الفلاسفة لأن مرضها جاء عقب قيامها بالعبادة ، وعلق الآبيه موريلليه تعليقاً لاذعاً « لقد أكدت بالقدوة صدق القول المأثور الذي كثيراً ما رددته « أن المرء لا يموت إلا بفعل من أفعال العبادة^(٩٣) . وتكفلت أبنيتها المركيزة دلافرتيه — يامبو بأمها المريضة ، وحذرت الفلاسفة من زيارتها . ولم تقع عينا المدام ثانية على دالامبير ولا موريلليه ، ولكنها رتبت زيادة في المعاشات التي كانت تجريها عليها بعد موتها . وإمتد بها الأجل عاماً آخر ، مشلولة عاجزة ، ولكنها ظلت توزع صدقاتها إلى النهاية .

ب — مدام دودفان

كان هناك صالون واحد في أوربا يستطيع أن ينافس صالون مدام جوفران شهرة ومريدين وقد سبق أن درسنا سيرة ونخلق ماري ديفيشي — شامرون : وكيف أنها وهي صبية أفزعت الراهبات والقساوسة بحرية فكرها ، وكيف تزوجت المركيز دودفان ، وهجرته ، والتست السلوى لوحدها في صالون (١٧٣٩ وما بعدها) ، بشارع بون أولا ، ثم (١٧٤٧) بدير سان جوزيف

بشارع سان دومنيك. وروع هذا الموقع الجديد الذي اختارته لصالونها جماعة الفلاسفة الذين كانوا يأتون ليستمتعوا بنبيذها وظررها، إلا واحداً منهم هو دالامبير، الذي ظل يتردد عليه لأنه كان أقل أفراد هذه القبيلة مشاغبة وعدوانا. أما باقي الرواد فكانوا رجالا ونساء من الطبقة الارستقراطية، يميلون إلى التعالي على مدام جوفران لأنها بورجوازية. وحين كف بصر المركيزة وهي في السابعة والخمسين (١٧٥٤) واصل أصدقاءها الاختلاف إلى حفلات عشائها ولكنها خلال باقي الأسبوع أحست وقع الوحدة في جزع متزايد، إلى أن أقنعت ابنة أخيها بالإقامة معها، والقيام بدور المضيفة المساعدة في أمسياتها:

وكانت جولي دليسيبناس الابنة غير الشرعية للكونتييسة دالبون وجسبار دفيشي، أخي مدام دودفان، واعترفت الكونتييسة بها، وربتها مع أطفالها الآخرين، وأتاحت لها تعلما ممتازا، وحاولت إقرار شرعيتها، ولكن إحدى بناتها اعترضت فأخفقت المحاولة. وفي ١٧٣٩ تزوجت هذه الأنخت غير الشقيقة من جسبار دفيشي وذهبت لتعيش معه في قصر شامبرون الريني ببرجنديا. وفي ١٧٤٨ ماتت الكونتييسة بعد أن أوصت بمعاش سنوي قدره ثلثمائة جنيه لجولي البالغة آنذاك السادسة عشرة. وأخذت مدام دفيشي جولي إلى شامبرون، ولكنها عاملتها على أنها فتاة يتيمة غير شرعية تستخدمها مربية للأطفال. فلما زارت مدام دودفان شامبرون راعها ما آنتسته في الآنسة دليسيبناس من عقل نير وساووك مهذب، وكسبت ثقة الفتاة، وعلمت أنها تشقى في وضعها الراهن شقاء حملها على أن تدخل ديرا. واقترحت المركيزة أن تأتي جولي وتعيش معها في باريس، واعترضت الأسرة مخافة أن ترتب دودفان تقرير شرعية جولي فيخول لها هذا حقاً في نصيب من تركة ألبون. ولكن المركيزة وعدت بأنها لن تسيء إلى أقربائها بعمل كهذا. ودخلت جولي أثناء ذلك ديرا (أكتوبر ١٧٥٢) لا كراهبة مبتدئة بل كتلميذة في القسم الداخلي. وجددت المركيزة اقتراحها. ووافقت جولي بعد عام من التردد. وفي ١٣ فبراير ١٧٥٤ أرسلت لها المركيزة رسالة غريبة يجب أن نتذكرها ونحن نحكم على ما تلاها:

« سأقدمك على أنك شابة من إقليمي تريدن دخول دير، وسأقول إنني

قدمت لك مسكنا حتى تجدى مكانا مناسباً لك . وستعاملين بأدب ، بل بمجاملة .
وفى وسعك أن تعتمدى على أن أحدا لن ينال من كرامتك .

على أن هناك نقطة أخرى على أن أشرحها لك . فأنا لا أطيق أى
خداع ، ولو كان مكرًا طفيفاً جداً ، إن كنت تخلطينه بسلوكك . وأنا بطبعى
شكاكه ، أشبهه فى كل من أكشف فيهم المكر إلى أن أفقد كل ثقة فيهم . إن لى
صديقين حميمين - فورمون ودالامبير ، أحبهما حبا جما ، لا للطفهما
وصداقتهما بقدر ما أحبهما لصدقهما المطلق . عليك إذن يا مليكتى أن تعزى
العيش معى بغاية الصدق والإخلاص ... قد تظنين أننى أعظك ، ولكنى
أؤكد لك أننى لا أفعل هذا أبداً إلا فيما ينصل بالإخلاص . فى هذا لا تأخذنى
رحمة بأحد . (٩٤)

وفى أبريل ١٧٥٤ أتت جولى لتسكن مع مدام دودفان ، أولاً فوق سقيفة
للعربات ، ثم فى حجرة فوق شقة المركيزة فى دير سان جوزيف . وقرر لها
دوق أورليان معاشاً قدره ٦٩٢ جنيه^(٩٥) ، ربما بناء على اقتراح المدام .
وكانت تعين المضيعة المكفوفة على استقبال ضيوفها وإجلالهم فى ندواتها ،
وأضفت الإشراف على أعمال الندوة باحطف سلوكها وسرعة بديتها ونضارة
شبابها وتواضعه . ولم تكن ذات جمال بارع ، ولكن عينيها السوداوين
المتألفتين وشعرها البنى الغزير ألفا مزيجا فتانا . فكاد يقع فى غرامها نصف
الرجال الذين اختلّفوا إلى الندوة ، حتى فارس المدام الأمين العجوز شارل ...
جان فرنسوا اينو ، رئيس محكمة العرائض ، صاحب الأعوام السبعين ،
المتوجع أبداً ، المثل أبداً بالكثير من النبيذ . وتقبلت جولى مجاملاتهم بما يجب من عدم
الاكتراث ، ولكن رغم ذلك فإن المركيزة الشديدة الحساسية فى عماها لا بد
قد شعرت بأن بعض العبادة قد انتقلت من عرشها . وربما دخل فى الأمر عنصر
جديد : ذلك أن المرأة المسنة كانت قد بدأت تحب الشابة حبا لا يرضى بشريك
له . وكانت كلتاها تلهب بالعاطفة المشوبة ، رغم أن المركيزة أوتيت عقلا من
أكثر عقول العصر رجاجة ونفاذا .

ولم يكن مناص لجولى من أن تحب . أولاً لإرلنديا شابا لا نعرف عنه

غير اسمه تاف . فبعد أن قبل في الصالون كان يختلف إليه كل يوم تقريبا . وسرعان ما تبين للمركيزة أنه لا يأتي لمشاهدتها بل لمشاهدة المدموازيل . وروعها أن ترى أن جولى قبلت تودده بالرضى . فحذرتها من تعريض نفسها للخطر . وأنكرت الفتاة المتكبرة نصيحة الأم . وإذ خافت المركيزة أن تفقدها وحرصت على حمايتها من غرام عات لا يرجى دوامه ، أمرت جولى بأن تلزم حجرتها إذا جاء تاف . فأطاعت ، ولكن المشاجرة أثارت فيها من الانفعال ما حملها على تعاطي الأفيون لتهدى أعصابها . وقد شاع استعمال الأفيون في القرن الثامن عشر مهذئا ، ولكن الأنسة ليسييناس ضاعفت جرعاتها مع كل غرام جديد .

وألفت أن تسلو تاف ، ولكن غرامها الجديد دخل التاريخ ، لأنه أصاب الرجل الذى اصطفته مدام دودفان لنفسها فى حب أموى ولكنه شديد التملك . وكان هذا الرجل ، جان لورون دالامبير ، فى عام ١٧٥٤ قد بلغ أوج شهرته رياضيا ، وفيزيائيا ، وفلكيا ، ومحورا فى تلك « الموسوعة » التى كانت حديث باريس المثقفة بأسرها . وقد قال فولتير عنه ، فى لحظة تواضع ، إنه « أعظم كتاب القرن »^(٩٦) ومع ذلك لم يؤت شيئا من فرص فولتير . فقد ولد ولادة غير شرعية ، وأنكرته أمه مدام دتانسان ، ولم ير أباه منذ طفولته . وعاش بوجوازيا بسيطا فى بيت الزجاج روسو . وكان وسيما ، حسن الهندام ، جهم الأدب ، مرحا أحيانا ، فى وسعه أن يخوض فى أى موضوع مع أى متخصص تقريبا ، ولكن فى وسعه أيضا أن يخفى علمه وراء واجهة من القصص ، والتقليد الساخر ، والنكتة الدكية . وفيما عدا ذلك لم يصلح العالم إلا قليلا . فقد أثر استقلاله على رضى الملوك والملكات ، وحين قامت مدام دودفان بحملة لتدخاها الأكاديمية الفرنسية أبى أن يضمن الحصول على صوت إينو بتقريظ كتابه « مختصر كرونولوجى لتاريخ فرنسا » (١٧٧٤) وكان فيه عرق من الهجاء جعل فكاهته لاذعة أحيانا ؛^(٩٧) فقد ينفذ صبره ، ويبيت أحيانا عنيفا فى ثورته على خصومه^(٩٨) ، ولم يعرف قط ما الذى يجب أن يقوله أو يفعله حين ينفرد بالنساء ، ومع ذلك فإن حيائه اجتذبهن ، كأنما بتحديه لقوة تأثير مفاتهن .

وقد راع مدام دودفان منه في أول لقائها به (١٧٤٣) اتساع ذهنه ونصوع تفكيره . وكانت يومها في السادسة والأربعين ، وهو في السادسة والعشرين . طيبته « قطها الوحشي »^(٩٩) ولم تكتف بدعوته لصالونها بل دعتة أيضاً إلى تناول الطعام معها على انفراد ؛ وأقسمت بأنها على استعداد « لتنام اثنتين وعشرين ساعة من الأربعة والعشرين ، ما دمنا ننفق الساعتين الباقيتين معاً »^(١٠٠) وكان قد انقضى على هذه الصداقة الحميمة أحد عشر عاماً حين دخلت جولى حياتهما .

كان هناك رباط طبيعي بين الابن الطبيعي والابنة الطبيعية . وقد دون دالامبير هذه الحقيقة وهو يسترجع ذكراها فيما بعد :

« كان كلانا يفتقد الوالدين والأسرة ، وإذ عانينا الهجر ، وسوء الطالع . والشقاء منذ ولادتنا ، بهذا أن الطبيعة بعثت بنا إلى العالم ليجد الواحد منا صاحبه ، وليكون له كل ما افتقده ، ولانقف معا كأننا صنفصافتان ، أحنتهما العاصفة دون أن تتلعهما ، لأنهما في ضعفهما تشابكت أغصانهما »^(١٠١) .

وأحس بهذا الانجذاب لأول نظرة تقريباً . كتب لها عام ١٧٧١ يقول : — « إن الزمن وطول الألفة يبليان كل الأشياء ، ولكنهما عاجزان عن أن يمسا حبي لك ، وهو حب الهمته قبل سبعة عشر عاماً »^(١٠٢) ومع ذلك تريت تسع سنوات قبل أن يفصح عن غرامه ، وحين فعل كان ذلك بطريقة غير مباشرة . كتب لها من بوتسدام في ١٧٦٣ يقول : أن له في رفض دعوة فردريك له أن يصبح عميداً لأكاديمية برلين للعلوم « ألف سبب ، منها سبب لا يخطر لك أن تحزريه »^(١٠٣) وتلك زلة في الذكاء تستغرب عن دالامبير ، فهل في الوجود امرأة لا تعرف أن رجلاً من الرجال يهواها ؟

وأحست مدام دودفان ذلك الود المتزايد بين ضيفها المقدر وأبنة أخيها المحروسة ، كذلك لحظت أن جولى تغلو محور النقاش والاهتمام في الصالون . وظلت برهة لا يبدر منها لوم ولا عتاب ، ولكنها في رسالة إلى فولتير (١٧٦٠) أبدت ملاحظات مرة حول دالامبير . وسمحت لصديق أن يقرأ على ضيوفها

قبل وصول دالامبير جواب فولتير الذى أشار إلى ملاحظاتها . وإذا دالامبير يدخل بمجرد البدء فى القراءة ويسمع الفقرة الثامنة ، فضحك مع الضاحكين . ولكنه تأذى ، وحاولت المركيزة استرضاءه ، ولكن الجرح لم يندمل ، فلما زار فردريك عام ١٧٦٣ كانت رسائله يومية تقريبا إلى الأنسة ديليسبناس ، نادرة إلى المدام . وبعد عودته من باريس ألف أن يزور جولى فى شقتها قبل أن يهبط إلى الصالون ، وكان طورجو أو شاستلوكس أو رمارمونتيل يصحبونه أحيانا فى هذه الزيارات الحميمة . وشعرت المضيفة العجوز أن الذين أعانهم وأحبهم يخونونها . ونظرت الآن إلى جولى كأنها عدو لها ، وكشفت عن شعورها بطرق مثيرة كثيرة — كفتور لهجتها فى الحديث معها ، ومطالبها التافهة منها ، وتذكيرها إياها بين الحين والحين باعتمادها عليها . أما جولى فقد ازداد ضيقها يوما بعد يوم بهذه « العجوز العمياء الغضوب » ، وبالزامها بأن تكون دائما فى متناولها أو على مقربة منها لتلبى حاجة المركيزة فى أية ساعة . وزادها مرور الأيام تعاسة على تعاسة ، إذ كان لكل يوم لدعته . وقد كتبت فى تاريخ لاحق تقول « كل ألم يتغلغل إلى الأعماق ، أما اللذة فطائر سريع الفرار »^(١٠٤) وفى ثورة أخيرة من ثورات غضب المدام اتهمتها بخداعها فى بيتها وعلى نفقتها . وردت جولى بأنها لم تعد قادرة على العيش مع من تنظر إليها هذه النظرة . وفى يوم من أوائل مايو ١٧٦٤ غادرت المنزل بحثا عن مسكن آخر . أما المركيزة فقد جعلتها قطيعة لا رجعة فيها باصرارها على أن يختار دالامبير بينها أو بين جولى ، فغادر البيت ، ولم يعد إليه قط .

وبدا حينئذ أن الصالون القديم قد جرح جرحا مميتا بهذين البترين . وواصل معظم رواده زيارة المركيزة ، ولكن العديد منهم — كالمرشالة دلكسمبورج ، والدوقة دشائتون ، والكونتيسة دىوفليه ، وطورجو ، وشاستلوكس ، بل حتى إينو — ذهبوا إلى جولى ليعربوا عن تعاطفهم واهتمامهم المستمر بها ، وتقلص الصالون فلم يحو غير قدامى الأصدقاء والأوفياء منهم ، والوافدين الجدد الذين يسعون إلى التميز والطعام الطيب . وقد وصفت المدام هذا التغيير فى ١٧٦٨ فقالت :

« كان هنا بالأمس إثنا عشر شخصا ، وأعجبت بمختلف أنواع الحديث المتأله ودرجاته . كنا جميعاً مغفلين كبارا ، كل في بابه ... كنا مملين غاية الإملال . وانصرف الإثنا عشر جميعاً في الساعة الواحدة ، ولكن أحداً منهم لم يخلف وراءه أسفا ... ان بون — ديفيل صديقى الوحيد ، وهو يقتلنى ضحيراً ثلاثة أرباع الوقت » . (١٠٥)

إنها لم تكن للحياة أى حب على الإطلاق منذ انطفأ نور عينيها ، أما الآن ، وبعد أن انفض عنها أعز أصدقائها ، فقد تردت في حالة من القنوط الساخر الذى لا شفاء منه . فلعلنت اليوم الذى ولدت فيه كما فعل أيوب « إن عمى وشيخونحتى هما أقل ما رزئت به من أحزان ... فليس هناك غير خطب واحد ... هو أننى ولدت . » (١٠٦) وسخرت من أحلام الرومانسيين والفلاسفة على السواء — لا من « هلويز ، وروسو وقسيسه السافواوى » فحسب ، بل من حملة فولتير الطويلة في سبيل « الحقيقة » قالت : « وأنت يا مسيو فولتير . عاشق الحقيقة المعلن ، قل لى بأمانة ، هل وجدتتها ؟ إنك تخارب الأخطاء وتهدمها ، ولكن ماذا تحل محلها ؟ » (١٠٧) لقد كانت شكاكه ، ولكنها أثرت الشكاكين المعتدلين أمثال مونتيني وسانت — إفرمون على الثوار العلوانيين كفولتير وديدرو .

وخالت أنها نفضت يديها من الحياة ، ولكن الحياة لم تنفض يديها منها تماماً . فقد بعث صالونها بعثاً متقطعاً خلال وزارة شوازيل ، حين تجمع أقطاب الحكم حول المركيزة العجوز ، وجاءت صداقة دوقة شوازيل الرقيقة ببعض النور الذى أشرق وسط تلك الأيام الخالكة . وفي ١٧٦٥ بدأ هوراس ولبول يختلف إلى ندواتها ، وشعرت نحوه شيئاً فشيئاً بمحبة غدت آخر تشبث مستميت لها بالحياة . ونرجو أن نلقى بها ثانية في ذلك التجسد الأخير المذهل .

الآنسة داليسبيناس

اختارت جولى لمسكنها الجديد بيتاً ذا طوابق ثلاثة عند ملتقى شارع بلشاش بشارع سان — دومنيك، ولم يكن يبعد غير مائة ياردة من بيت المركيزة الديرى .

ولم تبلغ معاناتها مبلغ الإملاق ، فقد تلقت بالإضافة إلى عدة معاشات صغيرة ، معاشين مقدارهما ٢,٦٠٠ جنيه من « دخل الملك (١٧٥٨ و ١٧٦٣) » ، بناء على إلحاح شوازيل فيما يبدو ، ثم إن مدام جوفران وهبتها بناء على اقتراح دالامبير راتبين سنويين منفصلين مقدارهما ألفا جنيه وألف كراون . وأعطتها المرشالة دلكسمبورج طقما كاملا من الأثاث .

وما إن استقرت جولى فى مسكنها الجديد حتى أصيبت بالجدرى إصابة شديدة . كتب ديفد هيوم إلى مدام دبوليه يقول « أن الأنسة دليسيناس مريضة مرضاً خطراً ، ويسرنى أن دالامبير نسى فلسفته فى لحظة كهذه » (١٠٨) والواقع أن الفيلسوف كان يمشى مسافة طويلة كل صباح ليقوم على خدمتها إلى جوار فراشها حتى ساعة متأخرة من الليل ، ثم يعود إلى حجراته فى بيت مدام روسو . وتماثلت جولى للشفاء ، ولكنها باتت ضعيفة عصبية باستمرار وغلظت بشرتها وشابتها الندوب . وفى وسعنا أن نتصور ما يعنيه هذا للمرأة لم تتجاوز الثانية والثلاثين ولم تزوج بعد .

وقد شفيت فى الوقت المناسب لتعنى بدالامبير الذى لزم فراشه فى ربيع ١٧٦٥ إثر ألم فى معدته أشرف به على الهلاك . وراع مارمونتيل أن يراه ساكنا « حجرة صغيرة سيئة الإضاءة ، سيئة التهوية ، تحوى سريرا ضيقا جدا كأنه للنعش . » (١٠٩) وعرض صديق آخر هو المالى قاتلية على دالامبير أن يستعمل بيتا فسيحا قرب التامبل . وارتضى الفيلسوف الآن فى أسف أن يترك المرأة التى آوته وأطعمته منذ طفولته . وقال دوكلو فى دهشة « يا لليوم المدهش ! لقد فطم دالامبير ! » وكانت جولى تقطع الرحلة كل يوم إلى مسكنه الجديد وترد له رعايته الأخيرة لها باخلاصها الفياض . فلما نقه إلى حد يتيح له التحرك رجته أن يشغل بعض الحجرات فى الطابق الأعلى من بيتها ، فذهب فى خريف ١٧٦٥ ، ودفع لها إيجارا معتدلا . ولم ينسى مدام روسو ، فكان يزورها كثيرا ، ويقتسم معها بعض إيرادها ، ولا يكف عن الاعتذار عن انفصالهما « أيتها الحاضنة المسكينة ، يا من تحبيننى أكثر مما تحبين أبناءك ! » (١١٠)

وزعمت باريس حينئذ أن جولى خليلته . وأيدت المظاهر الزعم . فقد كان دالامبير يتناول طعامه معها ، ويكتب لها الرسائل ، ويدير لها أعمالها ، ويستثمر لها مدخراتها ، ويجمع لها إيرادها . وكانا أمام الناس يظهران معا على الدوام ؛ وما دار بخلد مضيف أن يدعو الواحد دون صاحبه . ولكن شيئا فشيئا بدأ القوم — حتى المتقولون منهم — يتبينون أن جولى لا هى بالخليلة ولا الزوجة ولا العاشقة لدالامبير ، إنما هى مجرد أخت وصديقة . ويلوح أنها لم تدرك قط أن حبه لها كان كاملا وإن لم يستطع أن يعرب عنه ، وتقبلت السدتان جوفران ونكير — وكلتاها مضرب المثل فى الفضيلة — هذه العلاقة بين دالامبير وجولى على أنها حب أفلاطونى . ودعت صاحبة الصالون العجوز كليهما لنلتوتيهما .

وكان إمتحانا قاسيا لعطف الأم الذى أبدته مدام جوفران نحو الأنسة دليسيناس . ألا يصدر عنها أى احتجاج حين افتتحت هذه صالونها خاصا بها ذلك أن جولى ودالامبير كانا قد صنعا من الأصدقاء عددا بلغ من الكثرة ما ملأ قاعة استقبالها كل يوم تقريبا من الخامسة إلى التاسعة بصفوة الزوار رجالا ونساء ، وكلهم تقريبا ذائع الصيت أو رفيع المرتبة . وكان دالامبير يقود الحديث ، وجولى تضيف على الندوة كل مفاتن الأنوثة ودفء الضيافة . ولم يقدم فيها غداء أو عشاء ، ولكنها اشتهرت بأنها أعظم صالونات باريس حفزا للعقول ، اختلف إليها طورجو ، ولومينى دبرين ، اللذين سيزقيان سريعا إلى مكان مرموق فى الحكومة ؛ ونبلاء مثل شاستلوكس وكوندورسيه ، وأخبار مثل بوامون وبواجيلان ، وشكاكون مثل هيوم وموريلليه ، ومؤلفون مثل مابليه ، وكوندياك ، ومارمونيل ، وسان — لامبير . حضروا أول الأمر ليروا دالامبير ويستمعوا إليه ، ثم ليحفظوا بتلك المهارة المتعاطفة التى كانت جولى تستدرج بها كل ضيف ليتجلى فى ميدان تفوقه الخاص . ولم يحظر أى موضوع هنا ، فكانت تناقش أدق مشكلات الدين أو الفلسفة أو السياسة ، ولكن جولى — التى دربتها مدام جوفران على هذا الفن — عرفت كيف تهديء من ثائرة الثائرين وترد النزاع نقاشا . وكانت الرغبة فى عدم الإساءة إلى المضيفة الرقيقة هى القانون غير المكتوب الذى بعث النظام فى هذه الحرية . وفى ختام حكم لويس الخامس عشر كان صالون الأنسة دليسيناس

في رأى سانت - بيف ، « أكثر الصالونات رواجاً ، وأحفلها بالزوار المتشوقين إليه ، في جيل كثر فيه الأملعيون » (١١١)

ولم يقدم صالون آخر لزواره مثل هذا الإغراء المزدوج ، فقد بدأت جولى رغم ندوب وجهها وعدم شرعية نسبها تصبح الحب الثانى لعشرة أو يزيد من الرجال المرموقين . وكان دالامبير في قمة قدراته . يقول جريم :

« كان في حديثه كل ما يعلم العقل ويمتعه . فكان يسلم نفسه بيسر ورغبة لأى موضوع يدخل السرور على نفوس أكثر السامعين ، مدخلا فيه معينا لا يكاد ينضب من الأفكار ، والنوادر ، والذكريات العجيبة ، وما من موضوع أياً كان جفافه أو تفاهته في ذاته لم يملك سرا إضفاء المتعة والطرافة عليه . وكان في كل فكاهاته أصالة رقيقة عميقة . » (١١٢)

ثم استمع إلى ديفد هيوم يكتب إلى هوراس ولبول : « أن دالامبير رفيق لطيف المعشر كامل الفضائل . وقد دل على ترفعه عن المنفعة الشخصية والطمع الباطل برفضه عروضاً من قيصرية روسيا وملك بروسيا وله خمسة معاشات ، أولها من ملك بروسيا ، وثانيها من ملك فرنسا ، والثالث يتلقاه بوصفه عضواً في أكاديمية العلوم ، والرابع بوصفه عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، والخامس من أسرته . ولا تزيد جملتها كلها على ستة آلاف جنيه في العام . وهو يعيش على نصف هذا المبلغ عيشة كريمة ، ويهب النصف الآخر للفقراء الذين له بهم صلة . والخلاصة أنني لا أكاد أعرف رجلاً ، إلا القليلين ، .. يفضلونه نموذجاً للشخصية الفاضلة الفلاسوفة . » (١١٣)

أما جولى فكانت نقيض دالامبير في كل شيء خلا يسر الحديث ورقته . ولكن بينما كان هذا الموسوعى واحداً من آخر أبطال حركة التنوير ، ينشد العقل والقصد في الفكر والعقل ، كانت جولى ، بعد روسو ، أول صوت واضح للحركة الرومانسية في فرنسا ، مخلوقاً (في عبارة مارمونتيل) « أوتى أنشط تصور ، وأحر روح ، وأشد الخيالات تأججاً منذ سافو » (١١٤) . فلم يفقها أحد من الرومانسيين ، في عالم الحقيقة أو القصص لا هلويز روسو ، ولا روسو ذاته ؛ ولا كلاريسية رتشر دسن ، أو مانون بريفوست - في رهافة

الحس أو حرارة حياتها الباطنة. كان دالامبير مرضوعيا، أو حاول أن يكون كذلك، أما جولى فكانت ذاتية إلى حد الاستغراق الأناني في النفس أحيانا. ومع ذلك « كانت تشارك المحزونين ألهم ، وقد جاهدت جهادا محمودا لكي ينتخب شاستلوكس ولا هارب عضوين في الأكاديمية ، ولكنها حين أحبت نسيت كل شيء ، وكل إنسان آخر . نسيت أولا مدام دودفان ، وثانيا دالامبير نفسه .

ذلك أنه في ١٧٦٦ دخل الصالون نبيل شاب هو المركيز خوزيه دمورا إى جونزاجو ، ابن السفير الأسباني ، وكان في الثانية والعشرين ، وجولى في الرابعة والثلاثين وكان قد زوج في الثانية عشرة من فتاة في الحادية عشرة ، ماتت عام ١٧٦٤ . وأحست جولى بعد قليل بسحر شبابه ، وربما بسحر ثرائه . وسرعان ما نضح تعلق الواحد منهما بصاحبه فتعاقدا على الزواج . فلما سمع أبوه بالأمر أمره بأداء واجبه العسكري في أسبانيا. وذهب مورا ، ولكنه لم يلبث أن استقال من وظيفة الضابط . وفي يناير ١٧٧١ بدأ يبصق الدم ، فذهب إلى بلنسية التماسا للراحة ، فلما لم يشف هرع إلى باريس وجولى . وأتفقا معا أياما سعيدة كثيرة ، مما روح عن بلاطها الصغير وأثار في نفس دالامبير ألما دينا . وفي ١٧٧٢ استدعى السفير إلى أسبانيا ، فأصر على أن يصحبه ابنه . ولم يرض الأب ولا الأم بزواجه من جولى ، فانفصل فورا عنهما وبدأ رحلته إلى الشمال ليعود إليها ، ولكنه مات بالسل في بوردو في ٢٧ مايو ١٧٧٤ . في ذلك اليوم كتب لها يقول « كنت في طريقى إليك ، ولا بد أن أموت ، ياله من قضاء يشع ! ... ولكنك أحببتني ، وتفكرى فيك ما زال يسعدنى ، إننى أموت في سبيلك ! » ونزعوا من أصابعه خاتمين ، احتوى أحدهما على خصلة من شعر جولى ، ونقش على الآخر هذه الكلمات « كل الأشياء تزول ، ولا يبقى غير الحب » وكتب دالامبير الشهم عن مورا يقول « إننى آسف لشخصى على فقد ذلك الرجل الحساس الفاضل الخلق ، الرفيع الفكر ، أكل من عرفت من الناس ... وسأذكر ما حييت تلك اللحظات الغالية التى أحبت فيها نفس بهذا الطهر والنبل والقوة والتهديب الاختلاط بنفسى » . (١١٦)

ومزق نبأ موت مورا قلب جولى ، وزاد الخطب فداحة أنها منحت حبها

في الوقت نفسه لرجل آخر . ذلك أنها في سبتمبر ١٧٧٢ التقت باكونت جاك — أنطوان دجيبيير ، البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما ، والذي كان قد أبلى بلاء حسنا في حرب السنين السبع . أضف إلى ذلك أن كتابه « دراسة شاملة للتكتيك » أشاد به القواد ورجال الفكر رائعة في هذا الميدان ، وقد قدر لهذا الكتاب أن يحمل نابليون نسخته منه عليها تعليقات بخط يده خلال حملاته جميعا . و « المقال التمهيدى » للكتاب الذى ندد بجميع الأنظمة الملكية صاغ المبادئ الأساسية لسنة ١٧٨٩ قبل اندلاع الثورة بعشرين عاما . وفي وسعنا أن نحكم على الاعجاب الذى أغرقه الناس على جيبيير من موضوع اختيار للنقاش في أحد الصالونات الكبرى : « أمهن تحسد أكثر من غيرها : أم المسيو دجيبيير ، أم أخته ، أم خليلته ؟ »^(١١٧) وكان له بالطبع خليله — هى جان دمونسوج ، آخر وأطول غرام له . وقد حكمت عليه جولى حكما قاسيا في لحظة مرارة إذ قالت : —

« إن الاستخفاف ، بل القسوة ، التى يعامل بها النساء مصدرها قلة اعتباره لهن ... فهو يراهن معاثات ، مغرورات ، ضعيفات ، كاذبات ، طائشات ، واللاتى يحسن فيهن رأيه يراهن متعلقات بالخيال ، ومع أنه يضطر إلى الإقرار بوجود نخصال حميدة في بعضهن ، فهو لا يقدرهن لهذا السبب تقديرا أعلى ، بل يرى أن فيهن رذائل أقل ، لا فضائل أكثر . »^(١١٨)

على أنه كان وسيما ، وسلر كه كاملا ، وحديثه يجمع بين الغنى والشعور ، وبين العلم والوضوح ، قالت مدام دستال « كان حديثه أكثر ما عرفت تنوعا ، وحيوية ، وغنى . »^(١١٩)

ورأت جولى أنها مخطوطة بايتار جيبيير لندواتها . وافتن الواحد منهما بشهرة صاحبه . فنشأت بينهما علاقة أصبحت من جانبه غزوة عارضة ، ومن جانبها غراما قتالا . وهذا الغرام الفتاك هو الذى أحل رسائلها إلى جيبيير مكانا مرموقا في الأدب الفرنسى وبين أكثر وثائق العصر كشافا . ففيها أكثر حتى مما في « جولى أو هلويز الجديدة » لروسو (١٧٦١) ، تلقى إرهابات لحركة الرومانسية في فرنسا تعبيرها الحنى .

وفي أول رسالة باقية إلى جيبيير (١٥ مايو ١٧٧٣) نراها واقعة في حباتل غرامه ، ولكن كان يمزقها تأنيب الضمير لانتهاكها ميثاق الوفاء لمورا . فكتبت لجيبيير وهو راحل إلى ستراسبورج تقول :

رباه ! بأى سحر ، وبأى قدر ، استطعت أن تفتننى ؟ لم لم أمت في سبتمبر ؟ كان يمكن أن أموت آنشد فأعنى من اللوم الذى ألوم به نفسى الآن .. إننى أشعر بهذا وآأسفاه ، إننى ما زلت أستطيع الموت فى سبيله ، فما من مصلحة لى أضن ببنها له ... أواه ، أنه سيصفح عني ! لقد عانيت كثيراً جداً ! ولقد أضنى جسدى وروحي طول ما ألم بى من حزن . وطاش عقلى حين تلقيت خطابه . فى ذلك الحين رأيتك أول مرة ، فى ذلك الحين تسلمت نفسى ، فى ذلك الحين أدخلت عليها السرور ، ولست أدري أيهما كان أحلى — أن أشعر بذلك السرور ، أو أن أدين به لك . (١٢٠)

وبعد ثمانية أيام سقطت كل أسباب دفاعها : « لو كنت صغيرة جميلة ، فاتنة جداً ، لما أعيانى أن أثبتن الكثير من الافتعال فى مسلكك معى ، ولكن بما أنى لست من هذا كله فى شيء ، فأنى أجد فى مسلكك عطفاً وشرفاً أكسباك نصراً على روحى إلى الأبد . (١٢١)

وكانت أحياناً تكتب بكل التحرر الذى كتبت بها هلويز لأبيلاز :

« أنت وحلك الذى يستطيع فى هذا الكون أن يمتلك كيانى ويتربع فيه .. وقلبي ، وروحي ، لا يمكن أن يملأها سواك إن باني لم يفتح اليوم مرة دون أن يخفق قلبي ، ومرت بى لحظات كنت أخشى فيها أن أسمع اسمك ، ثم كان يحطم قلبي ألا أسمعه . أن كثيراً من المتناقضات ، وكثيراً من الانفعالات المصطرعة ، صادقة ، وتفسرها كلمة واحدة : أحبك . (١٢٢)

وزاد الصراع بين الغرامين من الاضطراب العصبى الذى ربما كان مصدره تعطش آمالها إلى تحقيق المرأة لذاتها ، واستهدافها المتزايد للسل ، وكتبت إلى جيبيير ٦ يوليو ١٧٧٣ تقول :

« إن روحك رغم اضطرابها ليست كروحي التى لا تفتأ مترددة بين

التشنج والاكتئاب . وأنا أتعاطى السم (الأفيون) لأهدىء نفسى . وأنت ترى
أننى عاجزة عن أن أهدىء نفسى ؛ فأرشدنى ، وقونى ، وسأصدقك ،
وستكون سدى . (١٢٣)

وعاد جيير إلى باريس فى أكتوبر ، وقطع علاقاته مع مدام دمونسوج ،
وباح بحبه لجولى . فقبلته شاكرا ، وأسلمت له جسدها - فى الحجرة المؤدية
لمقصورتها فى الأوبرا (١٠ فبراير ١٧٧٤) (١٢٤) وقد زعمت فيما بعد أن هذه
الفعلة التى اقترفتها وهى فى الثانية والأربعين ، كانت أول زلة لها من « الشرف »
و « الفضيلة » (١٢٥) ولكنها لم تنح على نفسها باللوم :

« أتذكر الحال التى وضعتنى فيها ، والتى اعتقدت أنك تركتنى عليها ؟
حسنا أود أن أقول لك أننى بعد أن أفقت سريعا ، قمت ثانية (والكلمتان
كتبتهما بحروف مائلة) ورأيت ذاتى غير هابطة عن مقامى قيد أنمله وربما
تعجب لأن آخر الدوافع التى جذبتنى إليك هو الوحيد الذى لا ييكنى عليه
ضميرى فبذلك الاستسلام ، بتلك المرتبة النهائية من نكران نفسى وكل
مصلحة شخصية لى ، أثبت لك أنه ليس هناك غير خطب واحد فى الأرض
لا طاقة لى باحتماله - وهو أن أغضبك وأفقدك . فذلك الخوف يجعلنى أبذل
لك حياتى . » (١٢٦)

ونعمت حيا بنشوات السعادة . وكتبت إليه (لأنهما أخفيا عن الناس
علاقتهما وسكن الواحد بعيدا عن صاحبه) . لقد ظلمت أفكر فىك طوال الوقت .
وأنا مستغرقة فىك استغراقا يجعلنى أفهم شعور العابد نحو إلهه . « (١٢٧) أما
جيير فلم يكن بد من أن يمل غراما يسرف هذا الاسراف فى سكب نفسه
دون أن يترك لقوته أى تحد . وسرعان ما راح يهتم بالكونتيسة دبوفليه ،
ويستأنف غرامه بـ مدام دمونسوج (مايو ١٧٧٤) . وعاتبته جولى ، فرد فى
فتور . ثم نوى إليها فى ٢ يونيو أن مورا مات فى طريقه إليها وهو يبارك اسمها .
فتردت فى حمى من الندم والحسرة وحاولت أن تسمم نفسها ، ولكن جيير
منعها . وراحت خطاباتهما إليه يدور أكثرها حول مورا ، ومبلغ سمو هذا النبيل
الأسباني عن أى رجل عرفته فى حياتها . وقلت رؤية جيير لها وزادت لقاءاته
بـ دمونسوج . وعلبت جولى نفسها بالبقاء على الأقل خلية من خيلاته ، فكانت

ترتب له الزيجات ، ولكنه رفض عرائسها ، وفي أول يونيو ١٧٧٥ تزوج الأنسة دكورسيل ، وكانت فتاة غنية في السابعة عشرة . وكتبت له جولى خطابات مفعمة بالحق والاحتقار ، مختمة بتوكيدات الحب الذى لا يموت (١٢٨) .

وقد استطاعت طوال حمى غرامها كلها أن تخفى طبيعتها عن دالامبير ، الذى خيل إليه أن سببها هو غياب مورا ثم موته . فرحب بجيبير فى صالونها ، وكون صداقة مخلصه معه ، وكان يرسل بشخصه الرسائل المختومة التى تكتبها لعشيقتها . ولكنه لحظ أنها فقدت اهتمامها به ، وأنها كانت أحيانا تستاء من وجوده . والواقع أنها كتبت لجيبير « لولا أنه يبدو عقوقا بالغاً منى لقلت إن رحيل دالامبير يعطينى نوعاً من السرور . إن حضوره يثقل روحى . وهو يجعلنى قلقة مضطربة النفس ، فأنا أشعر أنى غير مستحقة أبدا لصداقته وطيبة قلبه .. » (١٢٩) فلما ماتت كتبت إلى « روحها » يقول :

« ليت شعرى لآى سبب لا أستطيع أن أفهمه ولأن أحزره ، تغير فجأة ذلك الشعور الذى كان من قبل غاية فى الرقة نحوى ... إلى شعور الغربة والنفور ؟ ما الذى صنعت مما يسىء إليك ؟ لم لم تشكى إلى إن كان لك مبرر للشكوى ؟ ... أم أنك أيتها العزيزة جولى ... قد أسأت إلى إساءة أجهلها ، وكان يحلو لى كثيراً أن اغتفرها لو علمت بها ... لقد كنت عشرين مرة على وشك أن ألقى بنفسى بين ذراعيك ، وأن أطلب إليك أن تخبرينى ما جريرتى ، ولكنى خشيت أن تصدنى هاتان الدراخان ...

« وظللت تسعة أشهر أترقب اللحظة التى أخبرك فيها بما عانيت وما أحسست . ولكنى وجدتك خلال تلك الشهور أضعف من أن تحتل العتب الرقيق الذى كان على أن أكشفك به ، واللحظة الوحيدة التى كان يمكنى فيها أن أكشف لك فى غير خفاء عن قلبى المحزون الواهن هى تلك اللحظة الرهيبة ، قبل موتك بساعات ، حين سألتنى الصفح عنك بطريقة مزقت نياط قلبى ... ولكن عندها لم يعد فيك قوة لا للتحدث ولا للاستماع إلى ... وهكذا فقدت إلى الأبد لحظة العمر التى كانت ستكون لى أغلى اللحظات — اللحظة التى أخبرك فيها ، مرة أخرى ، كم أنت عزيزة على ، وكم شاطرتك محك ، وما أعمق

رغبتي في أن أنهي آلامي بك ، وددت لو بذلت كل ما بقي لي من لحظات عمري لقاء تلك اللحظة الواحدة التي لن تتاح لي أبدا ، تلك التي ربما كنت أستعيد بها حنانك إذ أكشفك بكل ما في قلبي من حنان لك . » (١٣٠)

وساعد لإنهيار حلم جولي السل على الفتك بها ، ودعى لعيادتها الطبيب بوردو (الذي التقينا به في قصة ديدرو « حلم دالامبير ») ، فصرح بأنه لا أمل في شفائها . ولم تبح فراشها منذ أبريل ١٧٧٦ . وكان جبير يذهب لزيارتها كل صباح ومساء . ولم يكن دالامبير يترك العناية بها إلا لينام . وكان الصالون قد توقف ، لولا حضور كوندورسيه ، وسوار ، ومدام جوفران الطبية ، التي كانت هي ذاتها مشرفة على الموت . وفي أيامها الأخيرة أبت جولي أن تسمح لجبير بزيارتها ، لأنها لم تشأ أن تدعه يرى كيف شوهت التشنجات وجهها ؛ ولكنها كانت ترسل العديد من الخطابات ، وأكد لها هو أيضا حبه : « لقد أحبيتك منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها ، أنك أغلى عندي من كل شيء في هذه الدنيا . » (١٣١) فكان هذا ، ووفاء دالامبير الصامت ، وقلق أصدقائها عليها ، العزاء الوحيد لها في آلامها . وكتبت وصيتها ، التي عينت دالامبير منفذا لها ، وعهدت إليه بكل أوراقها وأمتعتها الشخصية (*) .

وجاء أخوها المركيز دفيشي من برجندية ، وألح عليها في أن تتصلح مع الكنيسة وكتب إلى الكونت دالبون « يسعدني أن أقول لك إنني أقنعها بأن تتناول القربان على الرغم من « الموسوعة » كلها ، وفي مواجهتها » (١٣٢) .

وأرسلت كلمة أخيرة إلى جبير : « يا صديقي ، أني أحبك ... وداعا » وشكرت دالامبير على وفائه الطويل ، وتوسلت إليه أن يغفر لها جحودها ، وماتت في تلك الليلة ، في الساعات الباكرة من يوم ٢٣ مايو ١٧٧٦ . ودفنت في اليوم نفسه : من كنيسة سان - سوليس ، « دفن الفقراء » كما رغبت في وصيتها .

(*) احتفلات زوجة جبير بخطابات جولي إليه ، وقد نشرت في ١٨١١ .

الفصل الخامس

فولتير الشيخ

١٧٥٨ .. ١٧٧٨

١ — الإقطاعى الطيب

فى أكتوبر ١٧٥٨ اشترى فولتير ضيعة قديمة فى فرنیه ، فى مقاطعة جكس ، الواقعة على حدود سويسرة . ولم يلبث أن أضاف إليها أقطاعة تورنيه التى اشتراها لمدى الحياة ، وبهذا أصبح الآن من الناحية القانونية سيداً إقطاعياً . وراح يوقع باسم « الكونت دتورنيه » فى الشؤون القانونية ، وأبرز شعار نبالته على مدخل بيته وعلى آنيته القصية ^(١) .

كان قد سكن فيلا دليس بجنيف منذ ١٧٥٥ . ولعب دور المليونير الفيلسوف المضيف فى لذة وفى استحسان من الناس ، ولكن المقال الوارد فى موسوعة دالامبير عن جنيف ، الذى أمارط اللثام عن الهرطقات السرية التى يدين بها قساوستها ، عرض فولتير للاتهام بأنه وشى بهم لصديقه ، فلم يعد شخصاً مرغوباً فيه على أرض سويسرة ، وراح يلتمس من حوله مسكناً آخر . وكانت فرنیه تقع فى فرنسا ، ولكنها لا تبعد عن جنيف أكثر من ثلاثة أميال ، هنالك يستطيع أن يخرج لسانه للقادة الكلفنيين ، ولو جدد القادة الكاثوليك فى باريس — على بعد ٢٥٠ ميلاً — حملتهم لإعتقاله ، لاستطاع فى ظرف ساعة أن يعبر الحدود ، وخلال ذلك (١٧٥٨ - ١٧٧٠) كان صديقه الدوق دشوازيل يرأس الوزارة الفرنسية واشترى فرنیه باسم ابنة أخته مدام دنيس ، ربما اتقاء المصادرة إذا غيرت ريح السياسة اتجاهها ، لم يشترط عليها إلا أن تعترف به سيداً على الضيعة طوال حياته . وظلت فيلا دليس حتى عام ١٧٦٤

مسكنه الرئيسى ، وراح يعدل فى بيته بفرنیه على مهل ، وأخيراً انتقل إليه فى ذلك العام .

وكان البيت الفخم الجديد من الحجر ، ومن تصميم فولتير إلى حد كبير ، وبه أربع عشرة حجرة نوم . كتب يقول « إنه ليس قصراً ، ولكنه بيت رينى فسيح ، تلحق به أرض تنتج الكثير من الدريس ، والقمح ، والتبن ، والشوفان . ولدى بلوطات فى استقامة أشجار الصنوبر تلمس رؤوسها السماء . »^(٢) وأضافت تورنيه إلى أملاكه هذه قصراً ريفياً قديماً ، ومزرعة ، ومخزناً للغلال ، ومرابط ، وحقولاً ، وغابات ، وضمت مرابطة فى جملتها الخيول ، والثيران ، وخمسين بقرة ، ووسعت مخازنه كل حاصلات أرضه وبقي فيها مكان لمعاصر النبيذ ، وحيشان الدواجن ، وحظيرة للغنم ، وامتلات المزرعة بطنين أربعمئة خلية نحل ، وجادت الأشجار بأخشاب تدفء عظام السيد الإقطاعى من رياح الشتاء . واشترى وغرس الشجيرات ، وزرع شجيرات أكثر من نباتات صغيرة رباها فى مستنبتاته . ومد الحدائق والأفنية حول بيته حتى بلغ محيطها ثلاثة أميال ؛ وكانت تحوى أشجار الفاكهة ، والكروم ، وأنواعاً كثيرة من الأزهار . هذه الأبنية ، والنباتات ، والحقول ، والنظار الثلاثون القائمون عليها — كل أولئك كان يشرف عليه بشخصه . هنا أيضاً رضى رضى أنساه أن يموت ، شأنه حين دخلا فيلا دليس . فكتب إلى مدام دودفان يقول « أنى مدين بحياتى وصحتى للطريق الذى سلكته . ولو جرؤت لاعتقدت أنى حكيم ، لأننى سعيد جداً . »^(٣)

وتسلطت مدام دنيس على الخدم والأضياف الثلاثين أو أكثر الذين عاشوا فى القصر الرينى بيد متفاوتة الإنصاف . وكانت طيبة القلب ، ولكنها حادة الطبع ، تحب المال أكثر قليلاً من حبها لما عداه رمت خالها بالبخل ، ولكنه نبي التهمة ؛ على أى حال « نقل إليها شيئاً فشيئاً ، الجانب الأكبر من ثروته . »^(٤) وكان قد أحبها طفلة ، ثم امرأة ، وطاب له الآن أن يتخذها قهرمانة له . وكانت تمثل فى المسرحيات التى يخرجها ، وأجادت التمثيل حتى كان يقارنها بكليرون . وأدار هذا المديح رأسها ، فعكفت على كتابة المسرحيات ولقى فولتير عنتاً فى ثنها عن عرضها على الناس . ثم أضجرتها حياة الريف

وهفت نفسها إلى باريس ؛ وكانت رغبة فولتير في الترويح عنها بعض ما دفعه إلى دعوة هذه السلسلة الطويلة من الضيوف وأحتمالها . ولم تكن تحب سكرتيره فاجنيير ، ولكنها أغرمت بالأب آدم ، اليسوعي الشيخ الذي رحب به فولتير في بيته غربما لطيفا في لعبة الشطرنج ، والذي فاجأه ذات يوم عند قدمي الخادمة بربارة .^(٥) ومرة ، ربما بسبب سماح دنيس للاهارب بالرحيل مصطحبا إحدى مخطوطات السيد ، أغضبت فولتير غضبا حملا على ردها إلى باريس بعد أن رتب لها معاشا سنويا قدره عشرون ألف فرنك^(٦) . ولكن بعد ثمانية عشر شهرا انهار ، فتوسل إليها أن تعود .

وغدت فرنيه كعبة يحج إليها من يستطيعون الرحلة ويستطيعون التنوير . فأمها صغار الحكام كدوق فورتمبرج وناخب بالاتين . والإقطاعيون كأمر لن ودوني ريشايوفيلار ، والأعيان كتشاواز جيمس فوكس ، وملتقطوا الأخبار كبيرني وبوزويل ، والفاسقون مثل كازانوفا ، ومثات ممن هم أقل من هؤلاء شأنا . وكان يكذب كذبا مفضوحا إذا جاءه زوار لم يدعهم ؛ « قولوا لهم إنني مريض جدا » « قولوا لهم أنني مت » ، ولكن أحدا لم يصدق . كتب إلى المركيز دفيليت يقول « اللهم نجني من أصدقائي ، أما أعدائي فأنا كفيل بهم . »^(٧)

وما أن استمر به المقام في فرنيه حتى ظهر بوزويل (٢٤ ديسمبر ١٧٦٤) وهو ما يزال متأثرا بزياراته لروسو . وبعث فولتير إليه بكلمة يقول إنه ما زال في فراشه ولا يمكن إزعاجه . ولكن هذا لم يجد في ثني الاسكتلندي الملهوف ، فأصر على البقاء ولم يرح مكانه حتى طلع عليه فولتير . وتحادثا مليا ، ثم خلا فولتير إلى مكتبه . وفي الغد كتب بوزويل إلى مدام دنيس من فندق في جنيف يقول :

« يجب أن التمس منك ياسيدي أن تعبريني اهتمامك بأن تحصل لي على صنيع كبير جداً من المسيو دفولتير . أريد أن أنال شرف العودة إلى فرنيه يوم الأربعاء أو الخميس . فأبواب هذه المدينة الوقور تغلق في ساعة ... بخيفة جدا ، حتى ليضطر المرء إلى الرحيل بعد العشاء قبل أن يتاح لرب البيت الأشهر أن يطلع بمحياه على ضيوفه ... »

فهل يسمح لى يا سيدتى بقضاء ليلة واحدة تحت سقف المنيو دفولتر؟
لانى اسكتلندى صلب العود شديد البأس ، ولك أن تصعدينى إلى أعلى وأبرد
علية فى البيت ، بل أننى لن أرفض النوم على مقعدين فى حجرة نوم خادمك »^(٨)

وأمر فولتر أبنة أخته بأن يخبر الاسكتلندى أن يحضر ؛ وسيعده له فراش .
فحضر فى ٢٧ ديسمبر ، وتحدث إلى فولتر بينما كان هذا يلعب الشطرنج ،
وفتنه حديث السيد وشتائه الإنجليزية ، ثم « أنزل مكانا أنيقا » فى « حجرة
جميلة . »^(٩) وفى الغد اضطلع بهداية فولتر إلى المسيحية القويمة ، وبعد قليل
اضطر فولتر وقد أوشك على الانغماء أن يطلب هدنة . وبعد يوم ناقش بوزويل
ديانه رب البيت مع الأب آدم ، الذى قال له « أننى أصلى من أجل المنيو
دفولتر كل يوم من المؤسف أنه ليس مسيحيا . فإنه يملك الكثير من
الفضائل المسيحية . له أجمل نفس ، وهو إنسان خير ، محسن ، ولكنه شديد
التحامل على الدين المسيحى . »^(١٠)

وكان فولتر يقدم لضيوفه الطعام ، والحكمة ، والنكتة ، والمسرحية ،
ليرفه عنهم . وبني قرب بيته مسرحا صغيرا وصفه جبون حين رآه عام ١٧٦٣
بأنه « أنيق جداً مصمم تصميميا حسنا ، يقع إلى جوار كنيسة الصغيرة ، التى
لا تدانيه إطلاقا . »^(١١) وسخر الفيلسوف من روسو والقساوسة الجنيفيين
الذى أدانوا المسرح باعتباره منبر الشيطان . ولم يكتف بتدريب مدام دنيس
بل درب أيضاً خدمه وضيوفه على لعب الأدوار فى تمثيلياته وغيرها ، وكان
هو نفسه يختال على خشبة المسرح فى الأدوار الرئيسية ، وأقنع الممثلون
المحترفون بسهولة بأن يمثلوا لأشهر كاتب فى العالم .

ووجد الزوار فى مظهره فتنة تقرب من فتنة حديثه ، فقال أمير لين فى
وصفه إنه مدثر بروب عليه رسوم أزهار ، على رأسه باروكة هائلة تعلوها
قلنسوة من الخمل الأسود ، ويرتدى سترة من القطن الرفيع تصل إلى
ركبتيه ، وبنطلونا قصيرا أحمر ، وجوارب رمادية ، وحذاء من القماش
الأبيض .^(١٢) وكانت عيناه « لامعتين تمتلئان نارا » كما يقول فاجنير ،

وقال هذا السكرتير المخلص إن مولاه « كثيرا ما كان يغسل عينيه بالماء النقي البارد » ، و « لا يستعمل النظارات إطلاقاً »^(١٣) وفي أخريات حياته ، حين مل حلاقة لحيته ، كان ينزع شعرها بملقاط . ويواصل فاجنيير حديثه فيقول « كان شديد الوله بالنظافة والنظام ، وكان هو ذاته نظيفا إلى حد الوسوسة . »^(١٤) وكثيرا ما كان يستعمل مساحيق التجميل ، والعطور ، والمراهم ، وكانت حاسة شمه المرهفة تتأذى من الروائح الكريهة .^(١٥) وكان « نحىلا إلى حد يصدق » لا يحمل من لحم إلا ما يكسو عظامه بالجهد . وكتب الدكتور بيرنى بعد أن زاره عام ١٧٧٠ « ليس من اليسير تصور إمكان بقاء الحياة في جسد يكاد يكون جلدا وعظاما وقد ظننى مشتاق لتكوين فكرة عن ... إنسان يمشى بعد موته . »^(١٦) وقد قال يصف نفسه إنه « يثير السخرية لأنه لم يمت »^(١٧).

كان عليلا نصف عمره . وكان يشكو من بشرة شديدة الحساسية ؛ وكثيرا ما شكى من حركات متنوعة^(١٨) ، ربما من أثر العصبية أو الإفراط في النظافة . وكان أحيانا يعانى من تقطر البول — وهو التبول البطيء المؤلم ؛ في هذه الناحية كان هو وروسو صنوين وإن اشتد تباينهما فيما عداها . وكان يشرب القهوة بأسراف — خمسين مرة في اليوم في رواية فردريك الأكبر ؛^(١٩) وثلاث مرات في رواية فاجنيير^(٢٠) . وهو يسخر من الأطباء ، ويلاحظ أن لويس الخامس عشر عمر بعد أن مات أربعون من أطبائه ، ويقول « من سمع بطبيب عمر للمائة ؟ »^(٢١)

ولكنه هو نفسه كان يستعمل الكثير من العقاقير . وقد وافق مرشح مولير لنيل درجة الطب على أن خير دواء في أى داء خطير هو « إعطاء عقار مسهل »^(٢٢) . وكان يطهر أمعاءه ثلاث مرات في الأسبوع بمحلول القرفة الصيفية ، أو بحقنة صابون . ومن رأيه أن خير الأدوية هو الدواء الواقى ، وخير واقى هو تنظيف الأعضاء الداخلية والغطاء الخارجى .^(٢٣) وكان يمارس عمله ، رغم شيخوخته ، وأوصابه ، وزواره ، بنشاط لا يؤتاه إلا رجل تخفف من عبء اللحم الفائض . وقد قدر فاجنيير أن مولاه لم يكن ينام « أكثر من خمس ساعات أو ست »^(٢٤) في اليوم . وكان يواصل العمل إلى

ساعة متأخرة من الليل ، وأحيانا يوقظ الأب دم من فراشه لينعيته على تصيد كلمة يونانية . (٢٦)

وكان يؤمن أن العمل دواء ناجح للفلسفة والانتحار . وأنجح منه العمل في الحلاء ، فهو يزرع حديقته بشخصه ، وأحيانا يحرق أو يبذر البذر بيديه . (٢٧) وتبينت مدام دودفان في رسائله اللذة التي استشعرها في رؤية الكرب الذي غرسه ينمو . وكان يرجو أن يذكره الحلف على الأقل لآلاف الأشجار التي غرسها . وقد أصلح الأراضي البور وجفف المستنقعات . وأنشأ إسطبلا لتربية الخيل وجلب إليه عشر مهرات ، ورحب بعرض المركيز دفوايه أن يعطيه فحلا . وكتب يقول « إن حريمي جاهز لا ينقصه غير السلطان ... لقد كتب الكثير جدا في السنوات الأخيرة عن السكان حتى إنني أود على الأقل أن أملأ أرض جكس بالخيول ، ما دامت قاصرا عن شرف إكثار نوعي الإنساني » (٢٨) . وكتب إلى الفسيولوجي هالر يقول « أن خير ما يسعدنا عمله على هذه الأرض هو أن نزرعها ، وكل ما عدا ذلك من تجارب في الفيزياء بالقياس إليه عبث أطفال . أنعم وأكرم بزراع الأرض ، وتباً للإنسان الشقي الذي يكدرها — سواء حمل على رأسه تاجا ، أو خوذة ، أو قلنسوة كاهن ! » (٢٩) .

وحين أعوزته الأرض التي تكفي لتشغيل جميع السكان من حوله ، نظم في فرنيه وتورنيه حوانيت لصنع الساعات ونسج الجوارب — التي ربت لها أشجار توته دودة القز . وكان يشغل كل طالب شغل ، حتى أصبح عدد من يعملون له ثمانمائة شخص . وشيد مائة بيت لعماله ، وأقرضهم المال بفائدة قدرها ٤٪ ، وساعدهم على إيجاد أسواق لسلعهم . وما لبث أصحاب التيجان أن أقبلوا على شراء ساعات فرنيه ، ولبست كرائم السيدات اللاتي أغرتهن خطابات جوارب زعم أنه نسج بعضها بيده . واشترت كاترين الثانية من ساعات فرنيه ما بلغت قيمته ٣٩,٠٠٠ جنيه ، وعرضت أن تساعد على إيجاد أسواق لها في آسيا . وما مضت ثلاث سنوات حتى كانت الساعات الصغيرة والكبيرة والحلي والمجوهرات المصنوعة في فرنيه تصدر في شحنات منتظمة على السفن إلى هولندا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، ومراكش ، والجزائر ،

وتركيا ، وروسيا ، والصين ، وأمريكا . وبفضل الصناعات الجديدة تمت
فرنیه من قرية يسكنها أربعون فلاحا إلى مجتمع قوامه ألف ومائتا نفس خلال
مقام فولتر بها . كتب إلى رشاير يقول « أعطى فرصة مواتية وأنا كفيل ببناء
مدينة . » (٣٠) وعاش الكاثوليك والبروتستانت في سلام على أرض هذا الزنديق .

أما علاقاته بـ « موالیه » فكانت علاقات « الإقطاعی الطیب » . وكان يعاملهم
كلهم بأمانة وبمجاملة . يقول الأمير دین : « كان يكلم فلاحیه وكأنهم سفراء » (٣١) .
وأعفاهم من ضرائب الملح والتبغ (١٧٧٥) . (٣٢) وكافح دون طائل ولكن
بغير هوادة ليحرر جميع فلاحی إقليم جکس من رق الأرض . وحين هددت
الحجاعة الإقليم استورد القمح من صقلية وباعه بأقل كثيرا مما كلفه . (٣٣) وبينما
كان يواصل حربه على « العار » — على الخرافة ، والظلامية ، والاضطهاد —
أنفق الكثير من وقته في ممارسة الإدارة . واعتذر عن عدم مغادرة فرنیه ليزور
أصدقائه بقوله « على أن أرشد وأعول ثمانمائة شخص ... ولا أستطيع الغياب
دون أن أعرض كل شيء للانتكاس إلى حالة الفوضى » . (٣٤) وقد أدهش
نجاحه إداريا كل من شهد نتائجه . قال ناقد من أقصى نقاده « أنه أبدى حكما
واضحا على الأمور وإدراكا حسنا جدا . » (٣٥) وتعلم القوم الذين حكمهم أن
يحبوه ، ومرة ألقوا أوراق الغار على مركبته أثناء مروره . (٣٦) وكان أشدهم
تعلقا به الشباب والصغار لأنه فتح لهم قصره كل أحد للرقص والترفيه . (٣٧)
وكان يشجعهم على المضي في هوهم ويغبط لابتهاجهم . كتبت . مدام دجاللاتان
تقول « كان في غاية السعادة ولم يحس بأنه بلغ الثانية والثمانين » (٣٨) . لقد أحس
بهذا ، ولكنه كان راضيا . وكتب يقول « إنى أصبح شيخا » (٣٩) .

٢ — صولحان القلم

وواصل الكتابة خلال ذلك ، فدفع بمالا يصدق كما ، وكيفا . وتنوعا .
من التواريخ ، والأبحاث ، والدراسات ، والقصص ، والقصائد ، والمقالات .
والنبد ، والخطابات ، والمراجعات النقدية — دفع بهذا كله إلى جمهور دولي
يتلهف على كل كلمة تصدر عنه . ففي سنة واحدة — سنة ١٧٦٨ — كتب

« الرجل صاحب الأربعين أيكو » و « أميرة بابل » (وهى من خيرة قصصه) ،
و « رسالة إلى بوالو » ، و « إعلان لإيمان موحد بالله » و « بيرووية (لا أدريّة)
التاريخ » ونصين لأوبرا هزلية ، وتمثيلية . وكان ينظم كل يوم تقريبا « شعرا
قصير الأجل » هو ضرب من الإيجرام المسجوع ، قصير ، خفيف ، رشيق ،
وهو فى هذا المضمار لا يشق له غبار فى الأدب بأسره ، حتى فى التفوق المركب
لـ « المختارات اليونانية » .

وقد عاجلنا كتاباته فى الدين والفلسفة فى غير هذا الموضع . فلنلق نظرة
عاجلة على التمثيليات التى كتبها فى فرنیه . تانكريد ، ونانين ، والاسكتلندية ،
وسقراط ، وشاول ، وإيرين ، وهى أقل ذريته خلودا وإن كانت حديث
باريس فى حياته . وقد حظيت تانكريد التى مثلت على التياتر — فرانسىيه فى
٣ سبتمبر ١٧٥٩ باستحسان الجميع حتى فريرون ، خصم فولتير اللدود .
وقد بلغت الآنسة كليرون فى دور دبورة ، ولو كان فى دور تانكريد فى
هذه المسرحية قمة فنها . وكانت خشبة المسرح قد أجلى عنها المتفرجون وجماعات
بديكور فسيح رائع ، وكان الموضوع القروسى الوسيط تحولاً محبباً عن المواضيع
الكلاسيكية ، بل يمكن القول إن تلميذ بوالو كتب هنا تمثيلية رومانسية ،
وأظهرت « نانين » أن فولتير تأثر برتشردسن ، شأنه شأن ديدرو ؛ وقد
امتدحها روسو ذاته . أما « سقراط » فاحتوت — حكمة غالية — إنه انتصار
للعقل أن يعيش فى سلام مع أولئك الذين لا عقل لهم . ^(٤٠)

وقد درس فولتير كورنبي ورأسين دراسة مستفيضة ، وهو الذى أشاد به
جيله ضربيا لهما . تردد طويلا فى أى الاثنين يفضل ؛ وانتهى به التردد إلى
إيثار رأسين . وقد رفع الاثنين بجرأة فوق مقام سوفوكليس ويوربيديس ،
ورفع مولير فى أفضل مسرحياته ، فوق تيرينس ببرودته رغم نقائه ، وفوق
المهرج أرسطوفانيس . ^(٤١) وقد تأثر حين نعى إليه أن ماري كورنبي ، حفيدة
أخى المسرحى ، تعيش فى ضنك قرب إفريه ، فعرض أن يتبناها ويتكفل
بتعليمها ، وحين علم أنها فتاة متدينة أكد لها أنه سيتيح لها كل الفرص لممارسة
عبادتها . فحضرت إليه فى ديسمبر ١٧٦٠ ، فتبناها ، وعلمها أن تكتب

الفرنسية الجيدة ، وأصلح من نطقها ، وصاحبها إلى القُداس . ورغبة في جمع مهر لها اقترح على الأكاديمية الفرنسية أن تنوط به نشر أعمال كورنيى والتعليق عليها ، فوافقت . وعكف لتوه على قراءة تمثيلات سلفه من جديد وتزويدها بالمقدمات والهوامش ، ثم أعلن عن المشروع ، وناشد الراغبين أن يكتبوا له لأنه كان خبيراً بشئون المال والأعمال ، واكتب كل من لويس الخامس عشر ، والقيصرة اليزافيتا ، وفردريك ملك بروسيا ، بمائتى نسخة ، وكل من مدام ديومبادور وشوازيل بخمسين ، ووصلته اكتتابات أخرى من تشسترفيلد وغيره من وجوه الأجانب . وكانت النتيجة أن تقدم الخطاب الكثيرون لما رى كورنيى . وقد تزوجت مرتين ، وأصبحت فى ١٧٦٨ أم شارلوت كوردائى .

وقد كان فولير أعظم مؤرخى جيله كما كان أعظم شعرائه ومسرحييه . فى ١٧٥٧ طلبت إليه الإمبراطورة اليزافيتا أن يكتب ترجمة لأبيها بطرس الأكبر . ودعت فولير إلى سانت بطرسبورج ووعدته بأن تغدق عليه أسباب التكريم . فأجاب بأن شيخوخته تحول بينه وبين القيام برحلة كهذه ، ولكنه سيكتب التاريخ إذا وافاه وزيرها الكونت شوفالوف بالوثائق التى تبين سيرة بطرس والتغيرات التى أحدثتها إصلاحات هذا القيصر . وكان قد رأى فى شبابه بطرس فى باريس (١٧١٦) ؛ وكان يعتبره رجلاً عظيماً ، همجياً رغم عظمته وتحاشياً للخوض الخطر فى أخطائه ، قرر ألا يكتب ترجمة بل تاريخاً لروسيا تحت حكمه الجدير بأن يذكر ، وهى مهمة أشق بكثير . وقام بأبحاث هامة فى الموضوع ، وعكف بهمة على هذا العمل من ١٧٥٧ إلى ١٧٦٣ ، ثم نشره فى ١٧٥٩ — ١٧٦٣ بعنوان « تاريخ روسيا فى عهد بطرس الأكبر . » وكان ماثرة جليلة بالنسبة لزمانه ، وظل خير تناول للموضوع قبل القرن التاسع عشر ، ولكن ميشليه الأمين وجده باعثاً على السأم ، وقد رأت القيصرة أجزاء منه ، فأرسلت إلى فولير « ماسات كبيرة » على الحساب ، ولكنها سرقت فى الطريق ، وماتت القيصرة قبل أن يكتمل الكتاب .

وبينما كانت حرب السنين السبع مستعرة من حوله ، قام فى فترات متقطعة بتجديد كتابه « التاريخ العام » أو « مقال فى الأعراف » مضيفاً إليه (١٧٥٥ —

١٧٦٣ (« خلاصة لعصر لويس الخامس عشر » وكانت عملية شائكة ، لأنه لم يزل من الناحية الرسمية مدانا من الحكومة الفرنسية ؛ وعلينا أن نغتنر له مروره الحذر بأخطاء الملك الحاكم ؛ ولكنه رغم ذلك كان قصة ممتازة فيها بساطة ووضوح ، وكاد وهو يروي قصة الأمير تشارلز إدورد ستيوات (بوتى يرنس تشارلى) أن ينافس الشخصية التي رسمها للملك « شارل الثانى عشر » . ووفاء لمفهومه عن التاريخ ، الذى يراه أكمل ما يكون إذا سجل تقدم العقل البشرى ، أضاف مقالا ختاميا « فى تقدم العقل فى عصر لويس الخامس عشر » ولاحظ أشياء بدا له أنها علامات تشير إلى النمو :

« إن إلغاء السلطة الزمنية لرهبة برمتها (اليسوعيين) وتأديب الرهبنات الأخرى التى أصلحتها هذه السلطة ، والفصل بين (اختصاص) القضاة والأساقفة — كل هذا يدل على مبلغ ما بدد من أهواء ، وعلى مدى اتساع المعرفة بشئون الحكم ، وعلى درجة استنارة أذهاننا . وقد ألقيت بذار هذه المعرفة فى القرن الماضى . وهى تذبذبت اليوم فى كل مكان فى القرن الحاضر ، حتى فى أقصى الأقاليم ... فقد أنار العلم البحث الفنون النافعة ، وبدأت هذه الفنون فعلا فى إبراء جراح الدولة التى ابتلتها بها حربان طاحنتان . « أن معرفة الطبيعة ، ونبد الخرافات البالية التى قدسها الناس فى الماضى كأنها تاريخ ، والميتافيزيقا الصحيحة المبرأة من مخافات المذاهب — تلك هى ثمرات هذا العصر ، وقد تحسن العقل الإنسانى تحسنا كبيرا .

أما وقد أدى فولتير دينه للتاريخ ، فإنه عاد إلى الفلسفة وإلى حملته على الكنيسة الكاثوليكية. وأصدر فى تعاقب سريع الكتيبات التى فحصناها من قبل ، وكأنها ضرب من المدفعية الخفيفة فى الحرب على « العار » : « الفيلسوف الجاهل » ، و « إمتحان هام للورد بولنبروك » و « الساذج » و « قصة جينى » و « ألف باء العقل » ووسط هذه الأعمال الشاقة واصل أغرب تبادل للرسائل قام به فرد واحد .

فحين زاره كازانوفا عام ١٧٦٠ أراه فولتير مجموعة من نحو خمسين ألف خطاب تسلمها حتى ذلك العام ، وسيجتمع له منها بعد ذلك نحو هذا العدد ، ولما

كان مستلم الخطاب هو الذى يدفع أجرة البريد ، فإن فولتير كان يتفق أحيانا مائة جنيه على البريد الذى يتسلمه فى يوم واحد . وكان ألف معجب ، وألف عذو ، ومائة مؤلف شاب ، ومائة هاو للفلسفة ، يبعثون إليه بالهدايا وباقات الزهور ، والشتائم ، واللاعنات ، والأسئلة ، والمخطوطات ، ولم يكن من غير المؤلف أن يرجوه سائل متلهف أن ينبئه برجوع البريد هل وجد إله ، أو هل للإنسان نفس خالدة . وأخيرا نشر تحذيرا فى « المركيز دفرانس » جاء فيه :

« نظرا إلى أن أشخاصا عديدين شكوا من عدم تسلمهم ما يفيد وصول طرود أرسلوها إلى فرنيه ، أو تورنيه ، أو ليدليس ، لزم التنبيه إلى أنه بسبب ضخامة عدد تلك الطرود ، أصبح من الضرورى رفض تسلم كل ما لا يأتى من أشخاص تشرف المالك بمعرفتهم . » (٤٢)

وفى طبعة تيودور بسترمان الكاملة تملأ رسائل فولتير ثمانية وتسعين مجلداً . وفى رأى برونثير أنها « أخلد قسم من إنتاجه كله » (٤٣) . والحق أننا لا نجد صفحة مملئة فى هذا الحشد برمته ، لأننا فى هذه الرسائل ما زال فى إمكاننا أن نسمع ألمع محدث فى زمانه يتكلم بكل ألفة الصديق . وما من كاتب من قبل ولا من بعد حشد على قلمه المتدفق كل هذا التأذب ، والحيوية ، والسحر ، والرشاقة الكثيرة . إنها ليست وليمة للذكاء والبلاغة فحسب ، بل للصدقة الحارة ، والشعور الرقيق ، والفكر البتار ، ولو قورنت بها رسائل مدام دسفينيه على ما فيها من دواعى البهجة . لبدت ترف رفا خفيفاً عارضاً على سطح توافه عابرة . لقد كان فى زخارف أسلوب رسائله ولا ريب بعض التمسك بالعرف ، ولكن يبدو أنه يتعمده حين يكتب إلى دالامبير قائلاً « أعانقك بكل قوتى ، ويؤسفنى أنه حتم أن يكون العناق على هذا البعد السحيق » ، وهو مارد عليه دالامبير بقوله : « وداعا يا صديقى العزيز الشهير ، إلى أعانقك فى حنان ، وأنا أكثر منى فى أى وقت مضى ، ملكك بالروح » . (٤٤) ثم استمع إلى كلمات فولتير لمدام دودفان : « وداعا يا سيدتى إن أوثق الحقائق التى التمسها هى أن لك نفسا توافقنى ، وسأكون شديد التعلق بها طوال الأجل القصير الذى أفسح لى » (٤٥) .

وكانت رسائله لمعارفه في باريس موضع تقديرهم ، تتداولها الأيدي تداول نفائس الأخبار ودرر الأسلوب . ذلك أن رسائل فولثير هي التي بلغ فيها أسلوبه أروع تألقه . فهذا الأسلوب لم يبلغ قصارى إبداعه في تواريقه ، حيث يستحب السرد الناعم المتدفق أكثر من البلاغة أو النكتة ، وفي تمثيلياته شط إلى حد الخطابة الرنانة الطنانة ؛ أما في رسائله فقد استطاع أن يدع سن قلمه الماسي يسطع بالابجرام أو ينير موضوعا بدقة وإيجاز لا مثيل لهما . وقد جمع بين علم بيل وأناقة فونتينيل ، واستعار مسحة تهكم وسخرية من رسائل بسكال الإقليمية ، وقد ناقض نفسه خلال سني كتابته السبعين ، واكته لم يكن قط غامضا ؛ ونحن لا نكاد نصدق أنه كان فليسوبا ، فهو في غاية الوضوح ، يقصد مباشرة إلى هدفه الأهم ، إلى النقطة الحيوية في الفكرة . وهو يتوخى القصد في النعوت والتشبيهات مخافة أن يعقد الفكرة ، وفي كل جملتين تقريبا ومضة من نور . وقد تتكاثر الومضات أحيانا ، وتتزاحم نفحات الذكاء ؛ فيتعب القارئ بين الحين والحين من هذا التألق ، وتضيق عليه بعض السهام المريشة من ذهن فولثير السريع الحركة . وقد أدرك أن فرط تألقه هذا خطأ ، كوضع الجواهر على العباءة . واعترف في تواضع بأن « اللغة الفرنسية بلغت وج كمالها في عصر لويس الرابع عشر . »^(٤٧)

وكان بين مراسليه نصف وجوه ذلك العهد — لا كل جماعة الفلاسفة فحسب ، ولا جميع كبار مؤلفي فرنسا وإنجلترا فحسب ، بل الكرادلة ، والبابوات ، والملوك ، والملكات ، واعتذر له كرستيان السابع عن عدم تنفيذ كل الإصلاحات الفولثيرية في وقت واحد في الدنمرك ؛ وأسف ستانسلاس يونياتوفسكى ملك بولندة على أنه سيق على عجل لاعتلاء العرش وهو في طريقه إلى فرنیه ؛ وشكره جوستاف الثالث ملك السويد لأنه ألقى بين الحين والحين نظرة عجيلى على الشمال البارد ، وتوسل « أن يطيل الله في أيامك الغالية القيمة للإنسانية »^(٤٨) . ومع أن فردريك الأكبر ونحه لأنه قسا على موبرتوى ، وأساء أدبه مع الملوك^(٤٩) ، إلا أنه كتب بعد شهر يقول « الصحة والرفاهية لأشد من عاش أو سيعيش من العباقرة على هذه الأرض خبثا وإغراء »^(٥٠) وفي ١٢ مايو ١٧٦٠ أضاف :

« أما أنا فسأذهب إلى هناك (الجحيم) وأخبر قرجل بأن فرنسا بزه في
فنه . وسأقول مثل هذا لسوفوكليس ويوربيديس ، وسأحدث ثيوسيديديس
عن تواريخك ، وكوييتوس كورتويوس عن كتابك « شارل الثاني عشر » ،
وربما رجمني هؤلاء الموتى الفيورون لأن رجلا واحدا جمع في شخصه شتى
فضائلهم . »^(٥١)

وفي ١٩ سبتمبر ١٧٧٤ واصل فردريك مدانحه : « لن يكون هناك بديل
لك بعد موتك ، وسيكون نهاية الآداب الجيدة في فرنسا . »^(٥٢) (وهذه
غلطة بالطبع لأنه ليس للأدب الجيد نهاية في فرنسا) . وأخيرا ، في ٢٤ يوليو
١٧٧٥ ، أحنى فردريك صولجانه أمام قلم فولتير : « وأما أنا فيعزني أنني
عشت في عصر فولتر ، وحسبي هذا . »^(٥٣)

وكانت كاترين الكبرى تكتب إلى فولتير كما يكتب رأس متوج إلى
آخر — لا بل كما يكتب التلميذ إلى معلمه . فلقد قرأته بشغف ولذة ستة عشر
عاما قبل أن تشق طريقها إلى عرش روسيا ، ثم بدأ تراسلهما في أكتوبر ١٧٦٣
بجوابها بضمير المتكلم على رسالة منظومة بعث بها إلى عضو في هيئتها
الدبلوماسية^(٥٤) . ولقبها فولتير سميراميس الشمال ، وأنغمض في لباقة عن
جرائمها ، وأصبح المدافع عنها أمام فرنسا . ورجته أن يعفيا من مدانحه ،
ولكنه أفاض فيها . وكانت تقدر انخيازه لها ، لأنها علمت أن بفضلها — ثم
بفضل جريم وديدرو — نالت « مساندة طيبة من الكتاب » في فرنسا . وأصبحت
الفلسفة الفرنسية أداة للدبلوماسية الروسية . وأوصى فولتير كاترين باستعمال
المركبات الحربية المدججة بالمناجل على الطريقة الأشورية في حربها مع الترك ،
واضطرت إلى أن تبين له أن الأتراك غير المتعاونين لن يهاجموا عدوهم
بتشكيلات مكثفة تكشيفا يتيح حصدهم بشكل مريح .^(٥٥) ونسى كراهيته للحرب
وسط تحمسه لإمكان قيام جيوش كاترين بتحرير بلاد اليونان من سلطان
العثمانيين ، وناشد « الفرنسيين ، والبريطانيين ، والإيطاليين » أن يناصروا
هذه الحرب الصليبية الجديدة ، وحزن حين قصرت سميراميس عن تحقيق
هدفه . ثم اضطلع بيرون بقضيته تلك .

وقد عنف الكثيرون من الفرنسيين فولتير على تملقه للملكية ، وشعروا أنه حط من قدره بالالف حول العروش والتشديق بمديح أصحابها . ولا ريب في أن هذا الف كان أحيانا يدير رأسه . ولكنه هو أيضا كان يلعب لعبة دبلوماسية . فهو لم يدع قط العواطف الجمهورية ، وقد ذهب غير مرة إلى أن قدرا من التقدم يمكن تحقيقه بفضل الملوك « المستنيرين » أكثر مما يتحقق بسيطرة الجماهير المتقلبة ، الجاهلة ، التي تتسلط عليها الخرافة . ولم يخض الحرب ضد الدواة بل ضد الكنيسة الكاثوليكية ، وكان تأييد الحكام في تلك المعركة عوناً قيماً . وقد رأينا قيمة ذلك التأييد في حملاته الظافرة دفاعاً عن أسرتي كالاس وسيرفنس . وكان أهم في نظره أن يكون فردريك وكاترين في صفه وهو يناضل في سبيل التسامح الديني . كذلك لم ييأس من كسب لويس الخامس عشر ، فقد كسب من قبل مدام دهمبادور وشوازيل ؛ ثم خطب ود مدام دي باري . ولم يكن يتورع عن شيء في استراتيجيته ، والواقع أنه قبل أن ينتهي العهد الظفر بتأييد نصف حكومة فرنسا ، وتكلفت معركة التسامح الديني .

٣ - فولتير السيامي

ما الذي أمل أن يحققه في ميدان السياسة والاقتصاد ؟ لقد ثبت بصره على هدفين ، هدف أعلى وآخر أدنى : الأعلى تحرير الناس من الخرافات اللاهوتية وساطان الكهنة - وهي مهمة عسيرة ولا ريب ، وفيما عدا ذلك طلب بعض الإصلاحات ، ولكنه لم يطمح في المجتمع المثالي . وكان يبتسم سخرية من « أولئك المشرعين الذين يحكمون الكون ومن أبراجهم يصدرون الأوامر للملوك »^(٥٦) . وكان معارضا للثورة شأن جماعة الفلاسفة كلهم تقريبا ، ولعله لو عمر حتى يشهدها لصدمته - وربما أعدمته بالجلوتين* . أضف إلى هذا أنه كان غنيا غنى فاحشا ، وما من شك في أن ثراءه لون آراءه .

(*) انظر وصف روبسبير للموسوعيين : « أما فيما يتصل بالسياسة ، فإن هذه الجماعة تتوقف عند حقوق الشعب وقد عارض زعمائها الاستبداد أحيانا ، وكان يغذيهم الطغاة ، كانوا أحيانا يكتبون المقالات عن الملوك ، وأحيانا الإهداءات تكريما لهم ، وكانوا يدبجون الخطاب للماشية ، والقصائد الغنائية للمحظيات (٥٧) .

ففي ١٧٥٨ نوى أن يستثمر ٥٠٠,٠٠٠ فرنك (٦٢٥,٠٠٠ دولار ؟) في اللورين .^(٥٨) وقد كتب إلى فردريك في ١٧ مارس ١٧٥٩ يقول « أننى أتلقى ستين ألف جنيه (٧٥,٠٠٠ دولار ؟) من دخلى (السنوى) من فرنسا ... وأننى أعترف بأننى غنى جدا . » وكان قد جمع ثروته بفضل « نصائح » من أصدقائه المالىين أمثال الأخوين بارى ، وبفضل فوزه بجوائز اليانصيب في فرنسا واللورين ، وبفضل نصيبه في شركة أبيه ، وبفضل شراء سندات الحكومة ، والمساهمة في مشروعات تجارية ، وإقراض المال للأفراد . وكان يقنع بعائد قدره ٦٪ ، وهو عائد معتدل إذا أخذنا في الاعتبار المخاطر والخسائر . وقد ضاع عليه ألف إيكو (٣,٧٥٠ دولار ؟) في تفليسة شركة جليار في قادس (١٧٦٧)^(٥٩) . وفي ١٧٦٨ علق جييون في معرض الإشارة إلى الثماتين ألف فرنك (١٠٠,٠٠٠ دولار ؟) التى أقرضها فولتير للدوق دريشليو : « لقد أفلس الدوق ، والضمان عديم القيمة ، واختفت النقود . »^(٦٠) وعند موت فولتير كان قد تسدد ربع السلفة . وكان دخل فولتير من معاشاته أربعة آلاف فرنك في العام . وفي عام ١٧٧٧ بلغت جملة دخله ٢٠٦,٠٠٠ فرنك (٢٥٧,٥٠٠ دولار ؟)^(٦١) وقد جمل هذه الثروة بما يتناسب معها من سخاء ، ولكنه أحس أنه مطالب بالدفاع عنها دفاعا ليس بالضرورة مما لا يليق بفيلسوف

« لقد رأيت الكثير جداً من الأدباء فقراء محتقرين ، بحيث قررت ألا أزيد عددهم . ولا مناص للمرء في فرنسا من أن يكون إما سندانا أو ، بطريقة ؛ وقد ولدت سندانا . والميراث الهزيل يتناقص كل يوم ، لأن كل شيء في المدى الطويل يزداد ثمنه ، وكثيرا ما تفرض الحكومة الضرائب على الدخل والنقود كليهما فعليك أن تكون مقصدا إبان شبابك ، وستجد نفسك في شيخوختك تملك رأس مال يدهشك ، وهذا هو الوقت الذى تشتد فيه حاجتنا للثروة . »^(٦٢)

وكان قد اعترف في فترة باكرة (عام ١٧٣٦) في قصيدته « رجل الدنيا » « إننى أحب الترف ، بل الحياة الناعمة ، وجميع اللذات ، وجميع الفنون . » وذهب إلى أن طلب الأغنياء لأسباب الترف يداول ما هم بين الصناعات المهرة

والغنائين ، وظن أنه لولا الثروة لما كان هناك فن عظيم .^(٦٤) ونحن نذكر « ميثاق » ميزلييه الملحد - الشيوعي ، حلف القسم المعارض للملكية . وقد آمن أنه ما من نظام اقتصادي يستطيع النجاح بغير حافز التملك . « إن روح التملك تضاعف من قوة الإنسان »^(٦٥) وكان يأمل أن يرى كل إنسان يملك ملكا ، وبينما كان روسو يبارك القنية في بولندة كتب فولتير يقول « إن بولندة يمكن أن يزداد سكانها وثروتها ثلاث مرات لو لم يكن فلاحوها أقنانا . »^(٦٥) على أنه لم يجبذ أن يصبح الفلاحون أغنياء ، فمن أذن يرفر للدولة جندها الأقوياء؟^(٦٦) .

ولم يشاطر روسو تحمسه للمساواة ؛ فهو يعلم أن الناس كلهم مخلقون غير أحرار ولا متساوين . ورفض فكرة هلفتسيوس القائلة بأنه لو أتيح للناس كلهم التعلم والفرص المتكافئة ، لأصبح الجميع بعد قليل متساوين في التعليم والقدرات . « يا لها من حماقة أن نتصور أن في اسنطاعة كل إنسان أن يصبح نيوتنا ! »^(٦٧) فسوف يكون هناك دائما الأقوياء والضعفاء ، والأذكياء والبسطاء ، وإذن الأغنياء والفقراء .

« يستحيل في دنيانا الكثيرة منع الناس الذين يعيشون في مجتمع من أن ينقسموا إلى طائفتين - الأغنياء والأميرين ، والفقراء الذين يأثمرون ولكل إنسان الحق في أن يكون له رأيه الخاص في مساواته مع غيره ، ولكن لا يستتبع هذا أن طباطخ الكردينال ينبغي أن يأخذ على عاتقه أن يأمر سيده بتجهيز طعامه . على أن للطباخ أن يقول « أني إنسان كسيدة سواء بسواء ، فقد ولدت مثله بالدموع ، وسأموت مثله في عذاب ... فكلانا يؤدي الوظائف الحيوانية نفسها . وإذا استولى العثمانيون على روما فأصبحت كردينا وأصبح سيدي طباطخا ، فأني سأدخله في خدمتي » وهذه اللغة معقولة ومنصفة جدا . ، ولكن ، إلى أن يستولى السلطان العثماني على روما لا بد للطباخ من أن يؤدي واجبه وإلا انهار المجتمع الإنساني كله . »^(٦٨)

ولما كان ابن موثق ، ولم يصبح سيدا إقطاعيا إلا مؤخرًا ، فقد كان له

في الارستقراطية آراء مختلطة ، وواضح أنه فضل نوعها الإنجليزي^(٦٩) . وقد قبل النظام الملكي باعتباره الشكل الطبيعي للحكومة « لم يحكم الملوك الأرض كلها تقريبا ؟ ... الجواب الأمين هو : لأن الناس نادرا ما يكونون جديرين بحكم أنفسهم . »^(٧٠) وقد سخر من حق الملوك الالهى وأرجعهم هم والدولة إلى الغزو « إن القبيلة تختار زعيما ليقود حملات السلب والنهب التي تشنها ، وهي تعود نفسها الطاعة ، وهو يعود نفسه إصدار الأوامر لها ، وفي اعتقادي أن هذا أصل الملكية . »^(٧١) فهل هذا طبيعي ؟ أنظر إلى حوش المزرعة :

« إن حوش المزرعة يرينا أكمل تمثيل للملكية . فما من ملك يضارع الديك . ذلك أنه إن مشى شامخا ضاريا وسط قطيعه فما ذلك لغروره ، لأنه إذا زحف العدو فهو لا يكتفى بإصدار الأمر لرعيته أن تخرج وتقتل فداءه إنما هو يذهب بشخصه ، وينظم جنده من خلفه ، ويقا تل إلى آخر نسمة . فإذا انتصر فهو الذي يترنم بمسبحة الشكر وإذا صبح أن النحل تحكمها ملكة يخطب ودها جميع رعاياها ، فتلك حكومة أعظم كمالا حتى من حكومة الديك . »^(٧٢)

واستطاع لعيشه في برلين ثم في جنيف أن يدرس الملكية و « اللاملكية » في ممارستهما الحية . وكان كغيره من جماعة الفلاسفة متحيزا لأن ملوكا عدة (فردريك الثاني ، وبطرس الثالث ، وكاترين الثانية) وبعض الوزراء (شوازيل ، وأراندا ، وتانوتشي ، وبومبال) استمعوا إلى نداءات الإصلاح ، أو منحوا المعاشات للفلاسفة . وقد بدا في عصر بلغ فيه الفلاح الروسى منتهى البدائية ، وغلبت الأمية على جماهير الشعب في كل بلد ، وأعجزها الإرهاب عن التفكير ، إن من السخف اقترح حكم الشعوب ، والواقع أن « الديمقراطية في سويسرة وهولندا كانت أولجاريكيات . والجماهير هي التي أحبت أساطير الدين ومراسمه القديمة ، ووقفت كأنها جيش عرمرم في طريق الحرية والتطور الفكريين . وليس هناك سوى قوة واحدة لها من القدرة ما يمكنها من مقاومة الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا ، كما قاومت بنجاح الكنائس البروتستنتية في إنجلترا وهولندا وألمانيا وتلك هي الدولة . وبفضل الحكومات الملكية القائمة في فرنسا وألمانيا وروسيا — بفضل هذه فقط يستطيع الفلاسفة أن يطمعوا في

القفوز في كفاحهم للخرافة ، والتعصب ، والاضطهاد ، واللاهوت الطفلي .
فهم لا يستطيعون توقع التأييد من « البرلمانات » لأنها تنافس الكنيسة وتبز
الملك في الظلامية ، والرقابة ، وعدم التسامح . ولكن انظر ما فعله هنري
الملاح لبرتغال ، وما فعله هنري الرابع لفرنسا ، أو بطرس الأكبر لروسيا
أو فردريك الأكبر لروسيا . « ما من عمل جليل تقريبا عمل في العالم إلا بفضل
عبقرية وحزم رجل فرد كافج أهواء الجماهير »^(٧٣) . ومن ثم كان جماعة
الفلاسفة يتمنون تربع الملوك المستنيرين على العروش . كتب فولتر في
« ميروب » يقول « إن الفضيلة المترتبة على العرش هي أروع أعمال السماء »^(٧٤) (*)
وسياسة فولتر يذبح بعضها من ظنه بأن من الناس عدداً كبيراً لا قدرة لهم
على هضم التعليم حتى إن قدم لهم . وقد أشار إلى « الشطر المفكر من النوع
الإنساني . — أي الجزء على مائة ألف منهم »^(٧٦) ، وكان يخشى من عدم النضج
العقلي وسرعة الانفعال العاطفي للناس عموماً . « حين تشارك الجماهير في
التفكير يضع كل شيء . »^(٧٧) وهكذا ظل حتى سني شيخوخته لا يتعاطف
تعاطفاً يذكر مع الديمقراطية . فلما سأله كازانوف « أتود أن ترى الشعب
سيد نفسه ؟ » أجابه « معاذ الله ! »^(٧٨) وكتب إلى فردريك « حين رجوتك
أن تكون الباعث لفنون اليونان الجميلة ، لم يبلغ رجائي الحد الذي أطلب إليك
فيه إعادة الديمقراطية الأثينية . فأنا لا أحب حكم الرعاع . »^(٧٩) وقد اتفق
وروسو على أن « الديمقراطية لا تناسب غير البلاد الصغيرة » ، ولكنه أضاف
قيوداً أخرى « وغير تلك التي تنعم بموقع ملائم ... والتي يكفل لها موقعها
الحرية ، والتي في مصلحة جيرانها المحافظة عليها . » (وكان يعجب بالجمهوريتين
الهولندية — والسويسرية ، ولكن خامرت إعجابه بغض الشكوك :

« إن تذكرتم أن الهولنديين أكلوا على السفود قلب الأخوين دي ويت ،

(*) حلق ميشيلة بفقرة ظريفة على هذا الدفاع عن الملكية فقال « إن من أحلام جماعة
الفلاسفة والاقتصاديين — رجال كفولتر وطورجو — أن يحدثوا الثورة — أن يحققوا سعادة
النوع الإنساني — على يد الملوك . وليس أغرب من رؤية هذا المعبود يتنازع الفريقان ،
تجذبه الفلاسفة يمنة ، والقساوسة يسرة . فن سيطفر به ؟ النساء » (٧٥) .

ولإن تذكرتم ... أن الجمهورى يوحنا كلفنى بعد أن كتب أننا ينبغي ألا نضطهد إنسانا ولو أنكر الثالث ، أمر بحرق أسباني خالفه فى رأى حول الثالث فأحرقه حيا على حطب أخضر (بطيء الاحتراق) ، خلصتم حقاً إلى أنه ليس فى الجمهوريات فضيلة أعظم مما فى الملكيات .^(٨١)

على أنه بعد كل هذه التصريحات المعارضة للديمقراطية ، نجده يؤيد الطبقة الوسطى الجنيقية تأييدا نشيطا ضد الاشراف (١٧٦٣) ووطنى جنىف المحرومين من الحقوق المدنية ضد الارستقراطية والبورجوازية (١٧٦٦) ، ولكن لرجىء هذه القصة إلى موضعها المناسب .

والواقع أن فولتير أخذ يتحول إلى مزيد من الراديكالية فيما يبدو كلما تقدم به العمر . فى ١٧٦٨ أصدر قصته « الرجل ذو الأربعين إيكو » فطبع الكتاب عشر طبعات فى مئة الأولى ، ولكن برلمان باريس أحرقه وزج بالطابع فى سفن تشغيل العبيد ، ولم يكن مرجع هذه الصراحة تلك السخرية التى سمعت بها القصة على جماعة الفزيوقراطيين ، بل تصويرها الحى للفلاحين الذين أفقرتهم الضرائب ، والرهبان الذين يحيون حياة التبطل والترف على أملاك يفلحها عبيد الأرض . وفى كتيب آخر نشره عام ١٧٦٨ وسماه الألف باء (وقد حرص فولتير أشد الحرص على إنكاره) أجرى هذه العبارات على لسان « مسيوب » .

فى وسعى أن أتكيف بسهولة مع الحكومة الديمقراطية فكل الملاك على نفس الأرض لهم نفس الحق فى حفظ النظام على تلك الأرض . إني أحب أن أرى رجالا أحرارا يضعون القوانين التى يعيشون فى ظلها ويطيب لى أن يرفع بنائى ، ونجارى ، وحدادى ، أولئك الذين أعانونى على بناء مسكنى ، وجارى المزارع ، وصديقى الصانع — أن يرفعوا أنفسهم فوق حرفهم ، ويعرفوا الصالح العام خيراً مما يعرفه الموظف التركى الشديد الوقاحة . فليس فى الديمقراطية ما يدعو عاملاً أو صانعاً إلى الخوف من الإزعاج أو الإحتقار ... فأن يكون المرء حراً ، بين أنداد لا أكثر ، هو الحياة الطبيعية الصادقة للإنسان ،

وما عدا ذلك من أساليب الحياة فهو خدع جقية ، وهزليات رديئة يلعب فيها فرد دور السيد ، وآخر دور العبد ، فرد دور الطفيل ، وآخر دور القواد. (٨٢)

وفي عام ١٧٦٩ أو بعده بقليل (وكان في الخامسة والسبعين) في طبعة جديدة للقاموس الفلسفي ، ساق فولتير وصفا مرا لألوان الطغيان والفساد الحكومية في فرنسا (٨٣) ، وامتدح انجلترا بالقياس إليها :

« لقد بلغ الدستور الإنجليزي في الواقع نقطة التفوق التي فيها يرد جميع الناس إلى الحقوق الطبيعية التي حرّموا منها في جميع النظم الملكية تقريبا ، وهي : الحرية الكاملة للأشخاص والأموال ؛ حرية النشر ؛ حرية المحاكمة في جميع الجرائم على يد هيئة محلفين من أعضاء مستقلين ؛ حق المحاكمة طبقاً لنص القانون فقط ؛ وحق كل إنسان في أن يجهر دون مضايقة بأي دين يختاره ويرفض المناصب التي لا يجوز تقليدها إلا لأتباع الكنيسة الرسمية . هذه إمتيازات لا تقدر بقيمة ... أن تكون آمنا مطمئنا وأنت ماض إلى فراشك إلى أنك ستستيقظ وأنت تملك نفس الثروة التي كانت لك حين ذهبت لتنام ، وأنت لن تنتزع من أحضان زوجتك وأطفالك في جوف الليل ليزج بك في سجن مظلم أو لتدفن في منى في الصحراء ... وأن يكون لك القدرة على نشر جميع أفكارك ... هذه الإمتيازات يتمتع بها كل من تطلأ قدمه أرض انجلترا ... ولا مفر من أن يعتقد أن الدول التي لا تقوم على هذه المبادئ ستجتاحتها الثورات (٨٤)

وتنبأ بالثورة في فرنسا كما تنبأ بها الكثيرون . ففي ٢ أبريل ١٧٦٤ كتب إلى الماركيز دشرفلان :

« إنى لأرى في كل مكان بذور ثورة لا مناص منها ، ثورة لن تتاح لي للذة مشاهدتها . فالفرنسيون يصلون متأخرين في كل شيء ، ولكنهم يصلون في النهاية ما في ذلك شك . وقد اتسع انتشار التنوير اتساعا سيعينه على التفجر في أول فرصة ، وعندها ستحدث فرقة عنيفة ... إن الشباب محظوظون ، لأنهم سيرون أشياء عظيمة . »

ومع ذلك حين تذكر أنه يعيش في فرنسا بفضل تسامح ملك أساء إليه بإقامته في بوتسدام ، وحين رأى بومبادور وشوازيل ومالزيرب وطورجو يوجهون الحكومة الفرنسية صوب التسامح الديني والإصلاح السياسي — وربما لأنه تاق إلى الإذن له بالعودة إلى باريس — اتخذ على العموم نغمة أكثر وطنية ، واستنكر الثورة العنيفة :

« إذا اشتد شعور الفقراء بفقرهم أعقبت ذلك حروب كحروب حزب الشعب ضد مجلس الشيوخ في روما ، وحروب الفلاحين في ألمانيا ، وانجلترا ، وفرنسا . وقد انتهت هذه الحروب كلها ، إن عاجلا أو آجلا ، بانخضاع الشعب ، لأن الكبار يملكون المال ، والمال في الدولة هو صاحب الأمر والنهي في كل شيء . » (٨٥)

إذن ، فبدلا من إنقلاب من أسفل ، حيث القدرة على التدمير لا تتبعها القدرة على التعمير ، وحيث تعود الكثرة الساذجة بعد قليل للخضوع مرة أخرى لقلة ماهرة ، أثر فولتير أن يعمل على قيام ثورة غير عنيفة عن طريق إنتقال التنوير من المفكرين إلى الحكام ، والوزراء ، والقضاة ، وإلى التجار ورجال الصناعة ، وإلى الصناع والفلاحين . « أن العقل يجب إقراره أولا في أذهان القادة ، ثم ينزل شيئا فشيئا وفي النهاية يحكم أفراد الشعب ، الذين لا يعون وجوده ، ولكنهم حين يرون اعتدال رؤسائهم يتعلمون أن يقلدوهم . » (٨٦) ورأى أن التحرير الحقيقي الوحيد ، في المدى الطويل ، هو التعليم ، وأن الحرية الحقيقية الوحيدة هي الذكاء . « كلما استنار الناس تحرروا . » (٨٧) وليس هناك ثورات حقيقية غير تلك التي تغير العقل والقلب ، ولا ثوار حقيقيون غير الحكماء والقديس .

٤ — المصلح

وبدلا من أن يدعو فولتير لثورة سياسية راديكالية ، جاهد في سبيل إصلاح معتدل تدريجي في إطار هيكل المجتمع الفرنسي القائم ، وفي نطاق هذه الدائرة المنكرة للذات حقق أكثر مما حققه أي رجل آخر في جيله .

وكان أهم نداء له هو طلب تنقيح القانون الفرنسى تنقيحا شاملا ، ولم يكن قد روجع منذ ١٦٧٠ . وفى ١٧٦٥ قرأ بالإيطالية كتاب الجيلسمى « رسالة فى الجنايات والعقوبات » — من تأليف الفقيه الميلانى بيكاريا ، الذى كان بدوره قد استلهم جماعة الفلاسفة . وفى ١٧٦٦ أصدر فولتير كتابه « تعليق على كتاب الجنايات والعقوبات » وفيه اعترف صراحة بفضل السبق لبيكاريا ، ثم واصل مهاجمة مظالم القانون الفرنسى ووظائفه إلى عام ١٧٧٧ حين نشر وهو فى الثانية والثمانين كتابه « ثمن العدالة والإنسانية . »

وقد طالب ، بادية ذى بدء ، بإخضاع القانون الكنسى للقانون المدنى ، وبكبح سلطان الكهنوت فى اشتراط العقوبات التكفيرية المذلة أو فرض التبطل على الناس فى عطلات دينية كثيرة ؛ وطلب تخفيف العقوبات على إنتهاك المقدسات ، وإلغاء القانون الذى يهين جسد المنتحر ويصادر ثروته . وأصر على التفرقة بين الخطيئة والجريمة ، والقضاء على الفكرة التى تقول إن عقاب الجريمة ينبغى أن يدعى أنه يثار لإله مهان .

« يجب ألا يكون لأى قانون كنسى قوة إلى أن يحصل على موافقة الحكومة الصريحة عليه ... وكل ما يتصل بالزواج لا يفصل فيه غير القضاة ، وينبغى أن يقصر القساوسة على وظيفته مباركة الزواج الجليلة ... وإقراض المال بالفائدة من إختصاصات القانون المدنى وحده ... ويجب أن يكون جميع الكهنة ، فى جميع الحالات أيا كانت ، خاضعين لرقابة الحكومة المطلقة لأنهم رعايا للدولة ... ويجب ألا يكون لأى قسيس سلطة حرمان مواطن ولو من أبسط الحقوق بحجة أنه خاطيء ... ويجب أن يسهم القضاة ، والزراع ، والكهنة على السواء فى نفقات الدولة . » (٨٨)

وقد شبه قانون فرنسا بمدينة باريس — فهو حصيلة بناء تدريجى ، ونتاج المصادفات والظروف ، وخليط من المتناقضات ؛ وقال إن المسافر فى فرنسا يغير قوانينه مرارا كما يغير خيول مركبته ، (٨٩) فالواجب توحيد قوانين جميع الأقاليم والتنسيق العام فيما بينها . وينبغى أن يكون كل قانون واضحا ،

دقيقاً ، ومحصنا على قدر الإمكان من التلاعب بحرفيته . ويجب أن يكون جميع المواطنين سواء أمام القانون ، وإلغاء عقوبة الإعدام لأنها عقوبة همجية مبددة . فلا شك أن من الهمجية عقاب الزوير ، أو السرقة ، أو التهريب ، أو الحرق المتعمد بالموت . وإذا كانت السرقة تعاقب بالإعدام ، فلن يكون هناك ما يمنع اللص من القتل ، ومن ثم فإن كثيرا من جرائم قطع الطريق في إيطاليا مصحوبة بالاغتيال . « إذا علقتم على مشنقة الدولة (كما حدث في برلين عام ١٧٧٢) الخادمة التي سرقت دسته فوط من سيدتها ... فلنأخذ لن تستطيع إضافة دسته من الأطفال إلى مواطنيكم ... وشتان بين دسته فوط وبين حياة إنسان . »^(٩٠) ومصادرة ثروة إنسان محكوم عليه بالإعدام سرقة صريحة تقرها الدولة ضد الأبرياء . وإذا كان فولتير يجادل أحيانا من وجهة نظر نفعية فقط فما ذلك إلا لأنه عرف أن حججه هذه سترجح أى نداء إنسانى في نظر معظم المشرعين .

على أنه حين تناول موضحر التعذيب القضائى أفصححت روحه الإنسانية عن نفسها فى قوة وتأكيد . ذلك أن القانون الفرنسى أباح للقضاة أن يستخدموا التعذيب وسيلة لاستئلال الاعترافات قبل المحاكمة إذا كانت هناك من المؤشرات المريبة ما يلمح إلى أن المتهم مذنب . وقد حاول فولتير أن يخزى فرنسا بإشارته إلى مرسوم كاترين الثانية الذى ألغى التعذيب فى روسيا التى زعم الفرنسيون أنها قطر همجى . « أن الفرنسيين ، الذين يعتبرون — ولا أدري لماذا — شعبا عظيم الإنسانية ، يدهشهم أن الانجليز الذين دفعهم تجردهم من الإنسانية إلى انتزاع كندا كلها من أيدينا ، قد أقبلوا عن لذة استخدام التعذيب . »^(٩١)

واتهم بعض القضاة بأنهم « فتوات » يتصرفون كأنهم مدعون لا قضاة ، مفترضين بشكل واضح أن المتهم مذنب حتى تثبت براءته . واحتج على حبس المتهم فى سجون قذرة ، وأحيانا فى أغلال عدة شهور قبل تقديمه للمحاكمة . ولاحظ أن المتهم بجريمة كبرى يمنع من الاتصال بأى إنسان حتى بمحام . وروى مرارا وتكرارا معاملة آل كالاس وسيرفيس مثالا على التعجل فى

إدانة الأبرياء . وقال إن شهادة شخصين فقط ، حتى إذا كانا شاهدي عيان ، ينبغي ألا تعتبر بعد اليوم كافية لإدانة رجل بالقتل ، وساق أمثلة على شهادة الزور ، وألح في إلغاء عقوبة الإعدام ولو للعلولة دون إعدام برىء واحد في كل ألف متهم . وكان في الإمكان إصدار أحكام الإعدام في فرنسا بأغلبية اثنين من القضاة ، وقد حكم على كالاس بالموت بأغلبية ثمانية ضد خمسة . وطالب فولتير بأن يشترط لإصدار حكم الإعدام توافر أغلبية ساحقة ، ويفضل أن تكون إجماعا . « يالها من فظاعة سخيفة أن يعذب بحياة مواطن وموته في لعبة ستة إلى أربعة ، أو خمسة إلى ثلاثة ، أو أربعة إلى اثنين ، أو ثلاثة إلى واحد . » (٩٢)

وكانت الإصلاحات التي اقترحها فولتير على الجملة توفيقا بين ميراثه الثقافي الوسيط وكراهيته للكنيسة ، وخبرته واستثماراته بوصفه رجل أعمال ومالك أرض ، ومشاعره الصادقة شخصا بارا بالإنسانية ، وكانت مطالبه معتدلة ، ولكنها كانت في كثير من الحالات ذات أثر فعال . شن حملة لتحقيق حرية النشر ، فوسعت هذه الحرية توسيعا هائلا — ولو بفضل إغضاء الحكومة فقط — قبل أن يموت . وطلب إنهاء الاضطهاد الديني ، فأنهى في فرنسا من الناحية العملية في ١٧٨٧ . واقترح الإذن للبروتستنت ببناء الكنائس ونقل الملكية أو وراثتها ، والتمتع بكامل حماية القوانين ؛ فتم هذا قبل اندلاع الثورة . وطلب إباحة الزواج قانونا بين أشخاص من ديانات مختلفة ، فأبيح . وندد ببيع المناصب ، وفرض الضرائب على الضروريات ، والقيود على التجارة الداخلية ، وبقاء القنية والوقف ؛ وأشار على الدولة بأن تسترد من الكنيسة تنفيذ الوصايا وتعليم الصغار ؛ وفي هذه الأمور جميعها كان لصوته تأثير على الأحداث . وقاد الحملة لإجلاء المتفرجين عن خشبة مسرح التياتر — فرانسيه ، فتم هذا في ١٧٥٩ . وأوصى بفرض الضرائب على جميع الطبقات ، وبنسبة ثروتهم ، وكان على هذه التوصية أن تنتظر حتى تنشب الثورة . وطلب تنقيح القانون الفرنسي ، فتم هذا في مجموعة قوانين نابليون (١٨٠٧) ؛ وهكذا يسر الفقهاء والفلاسفة لرجل الحرب والسياسة ، الذي قرر الهيكل التشريعي لفرنسا حتى يومنا هذا ، أن يحقق أعظم ما أثره بقاءه على الزمن .

• — فولتير الصميم

كيف نجمل القول في شخصية هذا الرجل المذهل جدا من رجال القرن الثامن عشر ؟ لم يعد بنا حاجة للحديث عن عقله — فقد أفصح عن نفسه في مائة صفحة من هذه المجلدات . ولم يبارِه أحد في سرعة الخاطر ووضوح الفكر ، ولا في حدة النكتة ووفرتها ، وقد عرف النكتة الذكية بعناية بالغة فقال .

« إن ما يسمى النكتة الذكية هو أحيانا مقارنة مجللة ، وأحيانا كناية رقيقة ، أو قد يكون لعبا بالألفاظ — فأنت تستعمل لفظا بمعنى ، علما أن محدثك سيأخذه (لأول وهلة) بمعنى آخر . أو هو طريقة ماهرة للمقارنة بين أفكار لا يقرن الناس بينها عادة ... إنه فن إيجاد صلة بين نقيضين ، أو خلاف بين شبيهين ؛ إنه فن قول نصف ما تعنى وترك الباقي للخيال . ولو أوتيت المزيد منه شخصيا لزدت القول فيه كثيرا . » (٩٣)

ولم يؤت إنسان آخر مزيدا من هذه النكتة الذكية ، ولعل حظه هو منها كان كما قلنا مفرطا . فقد كان زمام حبه للدعابة يفلت منه أحيانا ، وكثيرا ما غلظت دعابته وأشرفت على التهريج أحيانا .

ولم تترك له سرعة إدراكاته ، وربطاته ، ومقارناته ، وقفة تتيح له الاتساق والتماسك ، ولم يسمح له تعاقب أفكاره السريع دائما وهو يتناول موضوعا بالتغلغل فيه إلى أعماقه المتاحة للبشر . ولعله تسرع في الحكم على الجماهير بأنهم رعاع ؛ وليس في وسعنا أن نتوقع منه التنبؤ بزمان سيكون فيه التعليم للجميع ضروريا لاقتصاد تقضى من الناحية التكنولوجية . ولم يطبق صبرا على نظريات بوفون الجيولوجية ، أو فروض ديدرو البيولوجية . وقد اعترف بقصوره ، ولم يخل من لحظات تواضع . قال لصديق مرة « إنك تظنني أعبر عن نفسي بوضوح كاف . ولكنني أشبه بالجدول الصغيرة — فهي صافية شفافة لأنها ليست عميقة . » (٩٤) وكتب إلى داكأن في ١٧٦٦ :

« منذ كنت في الثانية عشرة اعتدت أن أتكهن بعدد هائل من الأشياء التي لم أوت الموهبة لفهمها . فأنا عليم بأن أعضائي لم تهباً لتعمق الرياضة . وقد أثبت أنني لا أميل إلى الموسيقى . اعتمد على تقدير فيلسوف عجوز فيه من الحماسة ما يحمله على الاعتقاد بأنه مزارع قدير جدا ، ولكن ليس فيه من الحماسة ما يحمله على الاعتقاد بأنه وهب جميع المواهب . »^(٩٥)

وليس من الإنصاف أن نطلب من رجل كثرت الموضوعات التي عاجلها هذه الكثرة أن يكون قد أستوعب كل المعلومات المتاحة عن كل موضوع قبل أن يجري عليه قلمه . فلم يكن كله عالماً ؛ لقد كان مقاتلاً ، أديباً جعل الأدب ضرباً من العمل ، وسلاحاً للتغيير . ومع ذلك تستطيع أن ترى من مكتبته التي حوت ٢٠٢١٠ مجلداً ، وما تركه على الكتب من هوامش ، أنه درس في شغف وعناية موضوعات فيها تنوع مذهل ، وأنه كان رجلاً واسع العلم جداً بالسياسة ، والتاريخ ، والفلسفة ، واللاهوت ، ونقد الكتاب المقدس ، وكانت رقعة حبه للاستطلاع واهتماماته شاسعة ؛ وكذلك كان غني أفكاره وقدرة ذاكرته على التذكر . ولم يأخذ أى تقليد موروث على أنه قضية مسلمة ، بل فحص كل شيء بنفسه . وكان فيه نزوع إلى التشكك لا يتردد في أن يعارض بالفطرة السليمة تخافات العلم وأساطير إيمان العوام سواء بسواء . وقد وصفه عالم نزيه بأنه « مفكر جمع من المعلومات الدقيقة عن العالم في جميع نواحيه أكثر مما جمعه أى إنسان منذ أرسطو . »^(٩٦) ولم يوفق عقل واحد في أى بلد آخر في أن ينقل إلى دنيا الأدب ودنيا العمل هذا الحشد الهائل من المواد من مثل هذه الميادين المتنوعة .

ولابد لنا من أن نصوره أعجب مزيج من عدم الاستقرار العاطفي ، والرؤية والقدرة العقليتين . فقد جعلته أعصابه دائماً متوتراً قلقاً ، فما كان في استطاعته الجلوس ساكناً إلا إذا استغرقته الكتابة الأدبية . وحين سألت السيدة ذات الردف الواحد « أيهما أسوأ للمرأة — أن تهتك عرضها قرصان من الزوج مائة مرة ، أو أن يجرح ردفها جرحاً بليغاً ... أو أن تقطع أرباً ، أو أن تجذف في سفن تشغيل العبيد ، ... أو أن تقعد ولا تعمل شيئاً ؟ » أجابها كانديد

وهي تنعم الفكر « ذلك سؤال كبير . »^(٩٧) لقد كان لفولتير أيام حفلت بالسعادة ، ولكنه قل أن عرف سلام العقل أو الجسد . كان عليه أن يكون مشغولا ، نشيطا ، يبيع ويشترى ، ويزرع ، ويكتب ، ويمثل ، ويتلو ، وكان يخشى الملل أكثر مما يخشى الموت ، وفي لحظة سأم ذم الحياة لأنها « إما ضجر أو قسدة مخفوقة . »^(٩٨)

ولعلنا نرسم صورة قبيحة لفولتير أن وصفنا طلعتة دون أن نلاحظ عينيه ، أو عددنا أخطائه وحماقاته دون فضائله وظرفه . لقد كان « البورجوازي منتحل النبالة » الذي شعر بأن له من الحق في لقب الشرف ما لمدينه المماطلين . ولقد بارى أعظم السادة الإقطاعيين كياسة في السلوك والحديث ، ولكنه كان قادرا على المساومة في المبالغ التافهة ، وانهاك على المشرف على الآجام بأقزع الشتائم بسبب أربعة عشر قدما مكعبا من الخشب — أصر على قبولها هدية دون ثمن . وأحب المال أساسا لأمنه . وقد اتهمته مدام دنيس بالبخل بعبارات فيها غلو شديد : « إن محبة المال تعذبك ... وأنت في صميمك أحط الرجال . وسأخفي ما استطعت رذائل قلبك » .^(٩٩) ولكنها حين كتبت هذا (١٧٥٤) كانت تعيش عيشة التبذير في باريس على مال كان عبثا باهظا على جيبه ، وفي باقي السنين التي قضتها معه كانت تحيا حياة الأبهة والفخفة بفرنيه .

وقبل أن يصبح مليونيرا وبعده كان يسعى لمصادقة الأقوياء إجتماعيا أو سياسيا بتعلق يقرب أحيانا من التذلل . وفي « رسالة إلى الكردينال دموا » وصف معدن الرذائل ذاك بأنه أعظم من الكردينال ريشليو^(١٠٠) . وحين كان يسعى لقبوله في الأكاديمية الفرنسية واحتاج إلى تأييد رجال الدين أكد للأب دلاتو الكبير النفوذ أنه يود أن يعيش ويموت في كنف الكنيسة الكاثوليكية المقدسة .^(١٠١) وأكاذيبه المطبوعة تؤلف كتابا لو جمعت ، والكثير منها لم يطبع ، وبعضها كان غير قابل للنشر ، وقد ذهب إلى أن هذا الإجراء مبرر في الحرب ، وأحس أن حرب السنين السبع لم تكن غير هو الملوك إذا قيس بتجرب الثلاثين عاما التي خاضها ضد الكنيسة ، والحكومة التي تستطيع أن تخرج برجل في السجن لقوله الصدق ليس في وسعها أن تشكو بحق إذا كذب .

وفي ١٩ سبتمبر ١٧٦٤ عندما حمى وطيس معركة ، كتب إلى دالامبير يقول « حالما يبدو أدنى خطر تفضل بإبلاغى لكى أنكر كتاباتى فى الصحف العامة بما عهد فى من صراحة وبراعة . » وقد أنكر كل أعماله تقريبا باستثناء ملحمة « الهنريادة » وقصيدته فى معركة فونتنوا . « على المرء أن يظهر الحق للأجيال القادمة بجرأة ، ولعاصريه بحذر . ومن العسير جسدا التوفيق بين الواجبين . » (١٠٢)

وما من شك فى أنه كان مغرورا : فالغرور مهماز التقدم ، وسر الكتابة والتأليف . وكان فولتير يتحكم فى غروره عادة ، فكثير ما نقح كتاباته استجابة لما يوجه إليه من مقترحات ونقد بروح طيبة . وكان سخيا فى ثنائه على المؤلفين الذين لا ينافسونه — كما رمونتيل ، ولا هارب ، وبومارشيه ، ولكنه قد يغدو غيورا غيرة صبيانية من مزاحميه ، كما نرى فى . « مديح كريبيون » (الأب) المفعم بالنقد الخبيث ؛ ويرى ديدرو أنه « يحمل ضغينة لكل قاعدة تمثال » (١٠٣) وقد دفعته غيرته إلى شتم روسو شتما مقذعا ، فوصفه بأنه « صبي الساعاتى » و « يهوذا خائن الفلسفة » و « كلب مسعور يعقر كل إنسان » و « مجنون وليد زواج صدفه بين كلبي ديوجين وايراستراتوس . » (١٠٤) وذهب إلى أن النصف الأول من « جولى أو هلويز الجديدة » قد أُلِف فى ماخور ، والآخر فى مستشفى للمجاذيب ، وتنبا بأن « إميل » سينسى بعد شهر . (١٠٥) وأحس أن روسو ولى ظهره لتلك الحضارة الفرنسية التى كانت رغم كل ذنوبها وجرائمها فى نظر فولتير خمر التاريخ ذاته .

وإذا كان فولتير مجرد أعصاب وعظام دون لحم يذكر ، كان أرهف حسا حتى من روسو . ولما كان حتما أن نحس بالآمنا حساسا أحد من إحساسنا بلداتنا ، فإنه كان يأخذ المديح والاطراء قضية مسلمة ؛ ولكنه « يصاب باليأس » إذا وجه إليه نقد معاد . (١٠٦) وقلما أوتى من الحكمة والتعقل ما يضبط قلمه ؛ فكان يرد على كل معارض مهما صغر شأنه . وقد وصف هيوم بأنه إنسان « لا يغفر أبدا (؟) ، ولا يرى عدوا لا يستحق إهتامه . » (١٠٧) وقد حارب خصومه اللداء كديفونتين وفريرون حربا لا هوادة فيها ؛ ولجأ إلى كل أسلوب فى الهجاء ، والسخرية ، والشتم ، وحتى لوى الحق بمكر . (١٠٨)

وكان غله يصلح أصدقاءه القدامى ويخلق له أعداء جدد . قال « إني أعرف كيف أكره لأنني أعرف كيف أحب . » (١٠٩) « إني بحكم طالعي أميل قليلا إلى الأذى » (١١٠) ؛ وهكذا حرك كل كتابه بنجاح ليهزم ترشيح دي روس للأكاديمية (١٧٧٠) . وقد لخص الأمر بمزيج من خلق دارتنيان ورابليه :

« أما عن شخصي الضعيف ، فإني أخوض الحرب حتى آخر لحظة — ضد الجانسينيين ، والمولنيين ، والفريرونيين ، والبومبنيانيين ، اليمينيين واليساريين ، والوعاظ ، وجان — جاك روسو . أتلقى مائة طعنة وأردّها مائتين ، وأضحك .. حمداً لله ! إني أنظر إلى العالم كله كأنه مهزلة (فارص) تستحيل مأساة أحيانا ، يستوى كل شيء آخر النهار ، وسيظل كل شيء سواء في نهاية الأيام . » (١١١)

وفي عدائه للسامية حول على شعب بأسره ذلك الغيظ الذي ولدته خصوماته مع بعض أفرادهم . ومن زاوية تلك الذكريات فسر فولتير تاريخ اليهود ، فسجل عليهم أخطاءهم بتدقيق وتفصيل ، ونذر أن برأهم لعدم كفاية الأدلة على إدانتهم . ولم يستطيع أن يغتفر لليهود إنجابهم المسيحية . « حين أرى المسيحيين يلعنون اليهود ينخل إلى أني أرى أبناء يضربون آباءهم . » (١١٢) ولم يكذبين في العهد القديم شيئا سوى سجل للقتل ، والفسق ، والاغتيا بالجملة ، ورأى في سفر الأمثال « مجموعة من الحكم التافهة ، القلرة ، المهلهلة ، المجردة من الذوق ، أو الاختيار ، أو الهدف » ، أما نشيد الإنشاد فهو في نظره « قصيدة حماسية سخيفة » . (١١٣) على أنه أثنى على اليهود لإنكارهم القديم للخلود ، ولامتناعهم عن التبشير بعقائدهم ، ولتساعهم النسبي ؛ فالصدوقيون أنكروا وجود الملائكة ، ولكنهم لم يعانون من أي اضطهاد بسبب هرطقتهم .

أكانت فضائله ترجح رذائله ؛ أجل ، حتى ولو لم نضع في الميزان صفاته العقلية مع صفاته الخلقية . فأمام شحه يجب أن نضع سخاءه ، وأمام محبته للمال تقبله البشوش للفسائر واستعداداه لاقتسام مكاسبه مع غيره . استمع إلى كولاني ، الذي لا بد قد عرف عيوبه لأنه عمل سكرتيراً له سنين كثيرة :

« ما من دعوى أكذب من تهمة البخل التي يرى بها ... فلم يكن للبخل مكان في بيته . وما عرفت رجلا يستطيع خدعه أن يسرقوه بسهولة أكثر . لقد كان ضنينا بوقته فقط ... وكان له في أمر المال المبادئ التي يهتدى بها في أمر الوقت ؛ فمن الضروري في رأيه أن تقتصد لكي تسخو فيه . » (١١٤)

وتكشف رسائله عن بعض الهبات الكثيرة التي وزعها ، دون أن يعلن عن اسمه عادة ، لا على أصدقائه ومعارفه فحسب ، بل حتى على أشخاص لم يره قط . (١١٥) وسمح لباعة الكتب أن يحتفظوا بالربح الذي يجنونه من كتبه . وقد رأيناه يسدي العون للآنسة كورني ؛ وسنراه يساعد الآنسة فاريكور . ورأيناه يعين فوفنارج ومارمونتيل ؛ كذلك فعل مع لاهارب ، الذي فشل مسرحيا قبل أن يغدو أقوى نقاد فرنسا أثرا ، فطلب فولتير أن يعطى نصف معاشه الحكومي البالغ ألفي فرنك للاهارب دون أن ينبئه بحقيقة المعطى . (١١٦) كتب مارمونتيل « يعلم الجميع مبلغ العطف الذي كان يحبو به الشبان الذين يبلون أي موهبة للشعر . » (١١٧)

وإذا كان فولتير الواعي بضالة جسيمة ، لم يؤث شجاعة بدنية تذكر (إذ ترك الكابيتين بورجار يضربه بالعصا عام ١٧٢٢) ، (١١٨) فإنه أوتي من الشجاعة الأدبية قدرا مذهلا (فقد هاجم أقوى مؤسسة في التاريخ ، وهي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية) . وإذا كان عنيفا في الخصومة ، فإنه كان سريع العفو عن خصومه الذين يسعون إلى الصلح معه ، « فكان غضبه يزول لأول رجاء . » (١١٩) وكان يغدق الحب على كل من طلبه ، وكان وفيا لأصدقائه . فلما افرق عن فاجنيير بعد عشرة أربعة وعشرين عاما « بكى كالأطفال . » (١٢٠) أما عن فضيلته في أمور الجنس فقد كانت فوق مستوى جيله مع مدام دوشاتليه ، ودون ذلك المستوى مع ابنة أخته . وكان متسامحا مع الفوضى الجنسية ، ولكنه يغضب غضبة مضرية على الظلم . والتعصب ، والاطهاد ، والنفاق ، وفظاعات قانون العقوبات . وقد عرف الفضيلة بأنها « البر بالبشر . » أما فيما عدا ذلك فكان يسخر من المحظورات ، ويستمتع بالخمير ، والنساء ، والغناء ، في قصد فلسفي . وفي أقصوصة سماها « باباييك »

رفض الزهد بما هو معهود فيه من تهكم موجه . فترى أومنى يسأل البرهمي « أهناك أمل في أن يبلغ في النهاية السماء التاسعة عشرة ؟ »

ويجيب البرهمي « هذا يتوقف على نوع الحياة التي تحياها . إني أحاول أن أكون مواطناً صالحاً ، وزوجاً صالحاً ، وأباً صالحاً ، وصديقاً صالحاً ، وأحياناً أقرض المال بغير ربا للأغنياء ، وأتصدق على الفقراء ، وأحفظ السلام بين جيرانى . » فيسأل البرهمي « ولكن أتغرز المسامير أحياناً في عجزك ؟ .

« أبدأ يا أبى المبجل »

ويجيب البرهمي « إذن فأنا آسف ، لأنك لن تبلغ السماء التاسعة عشر ، ما في ذلك ريب . » (١٢١)

أما فضيلة فولتير المتوجة لفضائله المكفرة عن سيئاته ، فهي إنسانيته . لقد حرك ضمير أوربا بحملاته دفاعاً عن آل كالايس وسيرفانس . وشهر بالحرب باعتبارها « الوهم الكبير » . « فالأمة الغالبة لا تفيد إطلاقاً من أسلاب الأمة المغلوبة ؛ وهى تدفع ثمن كل شيء ، وتعانى حين تنتصر جيوشها قدر معاناتها حين تنهزم . » (١٢٢) وأياً كان الفريق المنتصر ، فإن الإنسانية خاسرة على الحالين . وقد ناشد الناس فى شتى الظروف والأقطار أن يتذكروا أنهم أخوة ؛ واستمع الناس إلى ذلك النداء بشكر وعرفان فى مجاهل أفريقيا . (١٢٣) كذلك لم تصدق عليه التهمة التى وجهها روسو للذين بشروا بحب البشر ووسعوا هذا الحب توسيعاً لم يترك فيه مكاناً لجيرانهم ؛ فكل الذين عرفوه تذكروا عطفه ومجاملته لأقل الأشخاص المحيطين به شأنًا . كان يحترم كل نفس ، عارفاً حساسيتها لأنه يعرف حساسيتها . (١٢٤) وقد واصل كرم ضيافته رغم ما فرض عليها من مطالب باهظة . كتبت مدام دجرافينى « كم تأثرت حين وجدت فيك من الطيبة ما لا يقل عما فيك من العظمة ، ورأيتك تفعل لكل من يحيطون بك الخير الذى كنت تود أن تفعله للبشرية جمعاء . » (١٢٥) وكان أحياناً

نرقا يتفجر غضبا ، ولكن « لا يمكن أن تتصور أبدا مبلغ ما في قلب هذا الرجل من طيبة كما كتب عنه زائر آخر (٢٦)

وإذ ذاع صيت العون الذى يسديه للمضطهدين فى أوربا ، وانتشرت الأنباء فى فرنسا عن بره وإحساناته المستورة ، تشكلت صورة جديدة لفولتير فى ذهن الجماهير . فلم يعد عدو المسيح ، ولا المحارب لدين يحبه الفقراء ؛ بل أصبح منقذ آل كالاس ، وسيد فرنيه الطيب ، والمدافع عن عشرات من ضحايا العقائد المتزمتة والقوانين الظالمة . وقال قساوسة جنيف إنهم حائرون فى موقفهم وإياه فى يوم الحساب ، فهل إيمانهم يعدل أعمال هذا الزنديق . (١٢٧) وغفر له المثقفون رجالا ونساء زندقته ، ومشاجراته ، وغروره ، لا بل خبثه . ورأوه يتحول من الحصومة إلى السماحة ، فنظروا إليه الآن نظرتهم إلى الأب الجليل للأدب الفرنسية ، وفخر فرنسا أمام العالم المثقف . ذلك هو الرجل الذى رحبت حتى جماهير العامة بمقدمه حين جاء إلى باريس لموت .



الفصل السادس

رو-و الرومانى

١٧٥٦ - ١٧٦٢

١ - فى « الايرميتاج » : ١٧٥٦ - ١٧٥٧

كان روسو قد انتقل إلى كوخ مدام دينيه فى ٩ أبريل ١٧٥٦ مصطحباً زوجته غير الشرعية تريز لافاسير وأمها . وسعد بالعيش هناك حيناً ، إذ أحب غناء الطيور وزقزقتها ، وحفيف الأشجار وعبيرها ، وهبوب الجولات المنفردة فى الغابات . وكان فى جولاته يحمل قلماً وكراسة ليقتنص الأفكار وهى تمرق منه .

ولكنه لم يخلق للراحة والسلام . ذلك أن حساسيته ضاعفت كل عناء ، وخلقت مزيداً من المتاعب . لقد كانت تريز زوجة وفية ، ولكنها لا تستطيع أن تكون رفيقاً لذهنه ، كتب فى إميل يقول « ينبغى ألا يقترن الرجل الذى يفكر بزوجة لا تستطيع مشاطرته أفكاره .^(١) ولم يكن بتريز المسكينة حاجة تذكر للأفكار ، ولا كبير حاجة للكلمات المكتوبة . لقد بذلت له جسدها وروحها ، واحتملت غضباته ، وأغلب الظن أنها ردت عليها بمثلها ، وسمحت له بأن يقترب من حافة الحياة مع مدام دودتو ، وكانت هى على قدر ما تعلم وفية فى تواضع باستثناء حادث لا سند لنا فيه إلا رواية بوزويل . ولكن أنى لهذه المرأة الساذجة أن تستجيب لذلك الاتساع والتنوع الجامع فى عقل قدر له أن يزلزل نصف القارة ؟ استمع إلى تفسير روسو :

« ماذا يظن القارىء إذا قلت له ... إننى منذ اللحظة الأولى التى وقع عليها بصرى حتى اللحظة التى أكتب الآن فيها لم أشعر قط بأقل حب لها ، ولم أشته قط أن أملكها ... وأن الحاجات البدنية التى أشبعت بشخصها كانت بالنسبة لى

حاجات الجنس فقط ، دون أن تنبعث إطلاقاً من شخصيتها ؟ ... لقد كانت أولى حاجاتي ، وأعظمها ، وأقواها ، وأشهرها ، كلها في قلبي : الحاجة إلى رباط (روحي) حميم ، حميم ما أمكن . وكانت هذه الحاجة الفريدة بحيث لا يشبعها أوثق الاتصال البدني ، ولم يكن بد لها من وجود روحيين .^(٢)

ولعل تريز كانت ترد على هذه الشكاوى بضدها ، لأن روسو كان قد كف الآن عن القيام بوظائفه الزوجية . ففي ١٧٥٤ قرر لطبيب جنيفي : « لقد تعرضت طويلاً لأقصى الآلام ، لعدة حصر البول التي لا شفاء لي منها ، والتي نجمت عن احتقان في مجرى البول يسد القناة سدا يستحيل معه أن يدخل فيها حتى قسطرات الدكتور داران المشهور .^(٣) وزعم أنه أفلح عن كل اتصال جنسي مع تريز بعد ١٧٥٥^(٤) ثم أضاف « حتى ذلك التاريخ كنت صالحاً ، ومن تلك اللحظة أصبحت طاهراً ، أو على الأقل متياً بالطهارة .

وجعل وجود حماته معهما هذا المثلث حاداً إلى درجة مؤلمة . وقد عاها هي وزوجته ما استطاع من دخله الذي جاءه من نسخ الموسيقى ومن بيع كتبه . غير أن مدام لافاسير كان لها بنات أخريات يحتجن إلى مهور ويعشن في ضنك مقيم . وجمع جريم وديدرو ودولباخ فيما بينهم للمرايتين معاشاً سنوياً قدره أربعمائة جنيه ، وأخذوا عليهما العهد بكتمان الأمر على روسو مخافة جرح كبريائه . واختصت الأم نفسها وبناتها بمعظم المال (على رواية روسو)^(٥) ، واستدانته باسم تريز ، ودفعت تريز الديون ، وأخفت أمر المعاش طويلاً ، وأخيراً كشف روسو سره ، فاستشاط غضباً على أصدقائه لاذلالة على هذا النحو . وقد زادوه غضباً بالإلحاح عليه في أن ينتقل من الإيرمتاج قبل حلول الشتاء ، فالكوخ (في رأيهم) لم يعد للجو البارد . وحتى لو احتملت زوجته برد الشتاء فيه فهل في طاقة الأم احتمالاه ؟ وكان ديدرو قد كتب في تمثيلية « الابن الطبيعي »^(٦) : « إن الرجل الصالح يحيا في مجتمع ؛ ولا يعيش وحيداً غير الطالح » . وخيل لروسو أنه المقصود بهذا القول ، وبدأ الآن نزاع طويل لم تكن المصالحات التي تخللته إلا مهادات . وشعر روسو أن جريم وديدرو يحاولان إغرائه بالعودة إلى مدينة فاسدة لأنهما يحسدانه على السلام الذي وجدته بين

الغابات . وقد كشف في خطاب أرسله إلى صاحبة الفضل عليه ، مدام ديينيه ،
(وكانت في باريس) عن خلقه بصراحة ونفاذ بصر . قال :

« أريد أن يكون أصدقائي أصدقاء لا سادة على ؛ أريدهم أن ينصحوني
لا أن يحاولوا التسلط على ؛ وأن يكون لهم كل المطالب على قلبي دون مطلب
واحد يقيد حريتي . أنى لأراها غريبة تلك الطريقة التي يتدخل بها الناس باسم
الصداقة في شئوني دون أن يطلعوني على شئونهم ... وحرصهم الشديد على أن
يؤدوا لي ألف خدمة يرهقني ، ففيه لمسة من الاستعلاء تضمنني ؛ ثم إن كل
إنسان في وسعه أن يفعل مثل ما يفعلون ... »

« وإني لتوحدى وانعزالي على الناس أشد حساسية من غيري . قلو فرضنا
أنني تشاجرت مع إنسان يعيش وسط الزحام ، فإنه يفكر في الأمر لحظة ثم
تنسيه إياه عشرات الشواغل بقية النهار . أما أنا فلا يصرف أفكاري عنه شيء
ولا أفتأ أقلبه في ذهني طوال الليل وأنا مؤرق ، وأفكر فيه وأنا أتمشي وحدي
من شروق الشمس إلى غروبها ، وقلبي لا يهدأ لحظة واحدة ، واساءة من
صديق كفيله بأن تجعلني أعاني في يوم واحد سنوات من الحزن . وإن لي أنا
العليل حقا في التسامح الواجب من إخوتي البشر نحو هفوات رجل مريض
وغضباته ... وأنا فقير ، وفقرى ينحول لي بعض الرعاية (أو كذلك ينحيل إلى) . »

« لا يدهشك إذن إن أنا أبغضت باريس أكثر فأكثر . ليس لي شيء
أنشده من باريس سوى رسائلك . ولن يراني أحد هناك ثانية أبدا . وإذا شئت
أن تنبئني بآرائك حول هذا الموضوع ، وبكل ما تبغين من قوة وعنف ،
فلك الحق في ذلك . فستلقى مني قيولا حسنا ، وستكون — عديمة الجدوى » .^(٧)
وقد أجابته بما يكنى من العنف فقالت « أوه ، دع هذه الشكاوى التافهة
لمن خات قلوبهم ورؤسهم .^(٨) ولكنها استفسرت مرارا عن صحته وراحته ،
واشترت له حاجياته ، وأرسلت له الهدايا الصغيرة . »

« ذات يوم والحرارة بلغت من التجمد درجة قصوى ، وجدت وأنا افتح
طرذا به عدة أشياء طلبت إليها أن تبتاعها لي جرنلة داخلية من الفانللا الإنجليزية

قالت إنها كانت تلبسها ، ورغبت إلى في أن الهبها صدرية داخلية ، ورأيت في هذه الرعاية البالغة الود حنانا شديدا — وكأنها تعرت لتكسوفى — حتى رحت في انفعالى أقبل الخطاب والجونلة جميعا غير مرة وأنا أزرف الدمع . وخالتنى تريز قد جننت .^(٩)

وخلال عامه الأول في الارميتاج صنف « قاموس الموسيقى » ونلخص بلغته المجلدات التى ألفها الأبیه دسان — بدير عن الحرب ، والسلام ، والتعليم ، والإصلاح السياسى . وفى صيف ١٧٥٦ تلقى من المؤلف نسخة من قصيدة فولتير في الزلزال الذى أهلك خمسة عشر ألف شخص ، وبخرج خمسة عشر ألف آخرين في لشبونة في عيد جميع القديسين أول نوفمبر ١٧٥٥ ، وقد تساءل فولتير كما تساءل نصف العالم لم اختارت العناية ، المفترض فيها أنها خيرة ، لهذه المذبحة العمياء عاصمة قطر كله كاثوليكي ، وساعة — ٩،٤٠ صباحا — كل الاتقياء يصلون فيها في الكنيسة . وفى نعمة من التشاؤم المطلق رسم فولتير صورة للحياة والطبيعة محايدتين حيادا قاسيا بين الشر والخير . وفى الفقرة التالية من الاعترافات نقرأ رد فعل روسو لهذه القصيدة القوية :

« حين ادهشنى أن أرى هذا المسكين ، الغارق (إن جاز القول) فى أسباب الثراء والتشريف ، يشكو بمرارة أرزاء هذه الحياة ، ويجد كل شيء خطأ ، فكرت فى مشروع جنونى هو أن أجبره على تحويل اهتمامه إلى نفسه ، وعلى إثبات أن كل شيء صواب . إن فولتير وهو يبدو مؤمنا بالله لم يؤمن قط فى الواقع بشيء غير الشيطان ، لأن إلهه المزعوم كائن خبيث لا يلتذ إلا بالشر ، كما يقول . وسخف هذه القصيدة الصارخ بشر أشد الثموز من رجل ينعم بثناء فاحش ، رجل يحاول من حضن السعادة أن يشيع اليأس فى قلوب إخوته البشر بما يصور من صورة رهيبة قاسية لكل الكوارث التى أعنى منها ، أما أنا الذى يحق لى أكثر منه أن أعدد وأزن كل شرور الحياة البشرية ، فقد فحصتها فى غير تحيز ، وأثبت له أنه ما من شر من جميع الشرور الممكنة يجب أن ننسبه للعناية ، وألا نرده بالأحرى إلى إساءة استعمال الإنسان لقدراته لا إلى الطبيعة »^(١٠) .

وعليه ففي ١٨ أغسطس ١٧٥٦ أرسل روسو إلى فولتير « رسالة في العناية الإلهية من خمس وعشرين صفحة ، بدأها باقرار لطيف بفضل فولتير . قال :

« جاءتنى قصائدك الأخيرة يا سيدى فى عزلى ، ومع أن جميع أصدقائى يعرفون محبتى لكتاباتك ، فلست أدري من كان ممكنا أن يرسل لى هذا الكتاب سواك . فقد وجدت المتعة والفائدة جميعا ، وتبينت فيه يد الأستاذ ... ولزام على أن أشكرك على المحلد وعلى صنيعك . » (١١)

ثم ناشد فولتير ألا يلوم العناية الإلهية على مصائب البشر . فعظم الشرور راجع لحماقتنا ، أو خطيئتنا ، أو إجرامنا :

« لاحظ أن الطبيعة لم تحشد عشرين ألف بيت من ستة طوابق أو سبعة ، وأنه لو كان سكان تلك المدينة الكبرى موزعين توزيعا أكثر توازنا فى مساكن أقل تكاثفا ، لكانت الخسارة أقل كثيرا ، أو ربما انعدمت ، ولكان كل اهلها قد هربوا عند أول هزة ، ولرأيناهم فى الغد على بعد عشرين فرسحا ، مرجحين كأن شيئا لم يصهم . » (١٢)

وكان فولتير قد كتب أن قلة من الناس من يودون أن يولدوا من جديد فى نفس الظروف ؛ فرد روسو بأن هذا لا يصدق إلا على الأثرياء الذين أتخمو بالذات ، وملوا الحياة ، وأعوزهم الإيمان ؛ أو على الأدباء القاعدين ، غير الأصحاء ، الغارقين فى تأملاتهم ، الساخطين ؛ ولكنه لا يصدق على بسطاء الناس كالطبقة الوسطى الفرنسية أو القرويين السويسريين . والذى يجعل من الحياة معضلة لنا هو إساءة استعمالها . (١٣) ثم إن شر الجزء قد يكون خير الكل ؛ فموت الفرد يتيح الحياة المتجددة للنوع . والعناية الإلهية عامة لا خاصة ؛ فهى تسهر على الكل ، ولكنها تترك أحداثا نوعية للأسباب الثانوية والقوانين الطبيعية . (١٤) وقد يكون الموت المبكر نعمة كذلك الذى أصاب أطفال لشبونة ، وهو على أية حال غير ذى بال ما دام هناك إله ، لأنه تعالى سيكافىء الجميع على ما أصابهم من معاناة لا يستحقونها . (١٥) ومسألة وجود الله تجاوز

الحل بالعقل . ولنا أن نختار بين الإيمان والكفر ، فلم نرفض إيماننا ملهما معزيا ؟
أما عن نفسى « فقد عانيت فى هذه الحياة كثيراً ، لهذا يملؤنى الرجاء فى حياة
أخرى . وكل دقائق الميتافيزيقا لن تشككنى لحظة فى وجود عناية خيرة وفى
خلود النفس . أننى أحس هذا ، وأؤمن به ، وأتمناه ... وسأدافع عن هذه
المعتقدات إلى آخر نسمة من حياتى . »^(١٦)

واختتم روسو خطابه ختاماً لطيفاً ، فقال إنه متفق مع فولتير على
التسامح الدينى ، وأكد له « إننى أؤثر أن أكون مسيحياً على طريقتك لا على
طريقة الصوروبون . »^(١٧) . ورجا فولتير أن ينظم بكل ما فى شعره من قوة
وفتنة « كتاب تعليم مسيحى للمواطن » يتضمن قاموساً أخلاقياً يهدى الناس فى
فوضى العصر . وكتب فولتير إقراراً مهذباً بوصول رسالة روسو ، ودعاه
للزول ضيفاً عليه فى الدليس^(١٨) ، ولم يبذل محاولة منظمة لتنفيذ حجج
روسو ، ولكنه رد عليها بطريق غير مباشر بروايته « كانديد » (١٧٥٩) .

٢ - العاشق

حفل شتاء ١٧٥٦ - ١٧٥٧ بالأحداث لروسو . فى فترة ما خلال تلك
الشهور بدأ يكتب أشهر رواية فى القرن الثامن عشر « جولى ، أو هلويز الجديدة »
وقد تصورهما أول الأمر دراسة فى الصداقة والحب . فابنتا العم جولى وكثير
تجبان سان - برو ، ولكنه حين يغوى جولى تظل كثير الصديقة الوفية لكليهما .
فلما أنحجله أن يكون الكتاب مجرد رواية غرامية ، عمد إلى رفع القصة إلى
مقام الفلسفة بتحويل جولى إلى التدين ، والعيش فى ولاء مثالى لزوجها فولمار
وهو سيد شكاك استسلم لتعاليم فولتير وديدرو . يقول روسو فى اعترافاته :

« كانت العاصفة التى أطلقته الموسوعة .. فى ذلك الحين على أشدها .
فلم يلبث الفريقان ، اللذان بلغ سخطهما بعضهما على بعض نهايته ، أن أصبحا
أشبه بذئاب غاضبة ... لا مسيحين وفلاسفة يرغب كل منهما فى إثارة الآخر
وإقناعه وهداية إخوانهم إلى طريق الحق . وكنت قد جهرت بالحقائق الصارمة
للفريقين لأننى بطبعى علو لكل أنواع التخريب ، ولكنهم لم يستمعوا إلى »

ففكرت في طريقة أخرى ، بدت لي في بساطتي جديدة بالإعجاب ، وهي التخفيف من كراهتهما المتبادلة بأن أحطم تعصبهما ، وأظهر لكل فريق ما للآخر من فضائل وحسنات تستحق تقدير الجميع واحترامهم . وأحرزت الفكرة ... للنجاح المرتقب ، فقد قرهت ووجدت الحزبين المتنافسين على هدف واحد هو سحق الكاتب ... ولما رضيت .. عن خطتي ، عدت إلى الموقعين تفصيلاً ... فأسفر هذا عن الجزئين الأول والثاني من « هلويز » .^(١٩)

وكان يقرأ على تريز ومدام ليفاسير كل مساء صفحات من القصة عند المداغة . وشجعتة اللومع التي كانت تلدفها تريز ، فدفع بالخطوطة إلى مدام ديبينيه حين عادت إلى قصرها الرهني ، لاشتريت ، على ميل من الإرميتاج . وفي مذكراتها استعادة للحدث : « حين وصلنا هنا ... وجدنا روسو في إنتظارنا . وكان هادئاً رائع المزاج للغاية . وأحضر لي رواية (جانباً منها) قد بدأها ... وقد قفل إلى الإرميتاج أمس ليستأنف هذا العمل ، الذي يزعم أنه قوام سعادة حياته . »^(٢٠) وبعد قليل كتبت إلى جرم :

« بعد العشاء قرأنا مخطوطة روسو . ولست أدري هل أنا متحيزة ضدها ، ولكني غير راضية عنها ، إنها مكتوبة بأسلوب في غاية الروعة ، ولكنها مسرفة في التفصيل ، وتبدو غير واقعية ومفتقرة إلى الحرارة . ولا تقول شخصاً كلمة واحدة مما ينبغي أن تقوله ، فالمؤلف هو الذي يتكلم دائماً . ولا أدري كيف أخرج من هذا المأزق ، فلست أحب أن أخدع روسو ، ولا أستطيع أن أستقر على إدخال الحزن على قلبه . »^(٢١)

على أن روسو ، على نحو ما ، بث الحرارة في جولي خلال الشتاء ، أكان ذلك لأن قصة حب حية دنجلت حياته ؟ ذلك أنه في ٣٠ يناير ١٧٥٧ زارته سيدة كان قد لقها في باريس باعتبارها أخت زوج مدام ديبينيه . وكانت هذه السيدة ، واسمها اليزابث - صوفي ديبلجارد ، قد تزوجت الكونت دودتو ، ثم تركته ، وأصبحت الآن خلية عدة سنوات للمركيز دسان - لامير ، الذي كان يوماً ما مزاحماً لفولتر على مدام دناتليه . وكان زوجها وعشيقها كلاهما

قد انطلق إلى ساحة القتال . وفي صيف ١٧٥٦ كانت الكونتيسة قد استأجرت قصر أوبون الريفي ، على نحو ميلين ونصف من الإيرميتاج . وكتب لها سان — لامبير أن روسو على رحلة جواد قصيرة منها ، واقترح عليها أن تسرى عن وحدتها بزيارة الكاتب الشهير الذي أوقف الحضارة كلها موقف الدفاع عن نفسها . فذهبت في مركبة ، فلما انغرزت في الوحل واصلت الرحلة سيرا ، فوصلت وحداتها وثوبها ملطخا . « وجعلت المكان يدوى بضحكها الذي شاركها فيه من كل قلبي »^(٢٢) . وأعطتها تريز تغييرة ملابس . ومكثت المركيزة لتناول « وجبة ريفية خفيفة » وكانت في السابعة والعشرين ، وروسو في الخامسة والأربعين . ولم تكن باهرة الجمال سواء في طلعتها أو قوامها ، ولكن رقتها ، ردمائة طبعها ، وروحها المرحية أثارت حياته المظلمة . وفي العصر التالي أرسلت إليه رسالة لطيفة ، مخاطبة إياه باللقب الذي اتخذته بعد أن استوطن جنيف ثانية :

« أيها المواطن العزيز ، أعيد إليك الثياب التي تفضلت بأعاريق إياها . وقد وجدت عند رجوعي طريقا أفضل كثيرا ، ويجب أن أخبرك بمبلغ سروري بهذا ، لأنه ييسر لي العودة إلى زيارتك . ويؤسفني أنني لم أمكث إلا قليلا ... وسيكون أسنى أقل إذا كنت أكثر حرية ، واثقة دائما من أنني لا أزعجك . وداعا يا مواطني العزيز ، وأرجوك أن تشكر للآنسة ليفاسر كل ما أبدته نحوي من عطف . »^(٢٣)

وبعد أيام عاد سان — لامبير من الجهة . وفي أبريل استدعى من جديد للخدمة العسكرية ، وما لبثت الكونتيسة المرحلة أن خطرت إلى الإيرميتاج على صهرة جوادها مرتدية ثياب الرجال . وصدم زيارتها روسو ، ولكنه ما لبث أن أحس بأنه يحتوى امرأة فاتنة . فانطلق مع ضيفته سيرا في الغابات تاركاً تريز لواجباتها المنزلية وأخبرته مدام دودتو عن شدة محبتها لسان لامبير ، وفي مايو رد زيارتها ، فذهب إلى أوبون في الوقت الذي تكون فيه « وحيدة تماما » كما قالت له . يقول « كنت أحيانا في رحلاتي المتكررة لأوبون أنام هناك ...

وكنت أراها كل يوم تقريبا طوال ثلاثة أشهر . ورأيت شخصية جولى متمثلة في مدام دودتو ، ثم لم أعد أرى غير مدام دودتو (في جولى) ، ولكن بكل أسباب الكمال التى جملت بها معبودة قلبى . «^(٢٤)

وأسلم نفسه زمنا لهذا الهذيان المحموم حتى لقد كف عن كتابة قصته ، وراح بدلا من هذا يكتب الخطابات الغرامية التى حرص على أن تعثر عليها فى كوى أشجار أوبون . فقال لها أنه يحب ، ولم يقل من محبوبته ؛ ولكنها عرفت بالطبع . فوبخته ، وأكدت له أنها ملك سان — لامبير جسدا وروحا ، ولكنها سمحت له بمواصلة زيارته وتودده الحار ؛ والمرأة على أى حال تحيا حياة واحدة فقط حين تحب ، وحياة مضاعفة حين يحبها إثنان . « لم تنكر على شيئا يمكن أن تمنحه أرق الصداقات . ولكنها لم تمنحني شيئا يجعلها خائنة . » وهو يروى أنباء ما كانا نخوضان فيه من « أحاديث مستفيضة متكررة ... خلال الشهور الأربعة التى انفقاها فى صلة حميدة لا تكاد تضارعها صلة بين صديقين من الجنسين يحصران نفسيهما داخل الحدود التى لم نتجاوزها قط . »^(٢٥) وفى روايته لهذه العلاقة نجد الحركة الرومانسية على أشدها : فلا شيء فى قصته يمكن أن يضارع هذه النشوات :

« لقد سكرنا كلانا بنحمر الحب — حبها لحبيبها ، وحبى لها ؛ وامتزجت تهيداتنا ودموعنا ... ولم تنس نفسها قط لحظة واحدة فى حميا هذا السكر اللذيذ ، وأؤكد تأكيدا قاطعا إننى أن كنت مرة ، وأنا منساق بحواسى ، قد حاولت حملها على الخيانة ، فإنه لم يكن لى رغبة حقيقية فى النجاح .. ذلك أن واجب نكران الذات تسامى بعقلى ... لقد كان من الممكن أن أقارف الجريمة ، وقد قورفت مائة مرة فى قلبى ؛ ولكن أن الوث شرف حبيبتي صوفى ! أواه ، أممكن هذا ؟ كلا ! لقد قلت لها مائة مرة إنه محال ... فإن حبى لها أعظم من أن يغرينى بتملكها ... تلك كانت اللذة الوحيدة لرجل أوتى مزاجا من أكثر الأمزجة تأججا ، ولكنه ربما كان فى الوقت ذاته من أجبن من أنجبتهم الطبيعة من البشر . »^(٢٦)

ولاحظت مدام ديينيه أن « دها » لم يعد يزورها الآن إلا لاما ، ومرعان

ما علمت نبأ رحلاته لأخت زوجها . فألمها النبأ . وكتبت إلى جريم في يونيو تقول « من القسوة على أى حال أن يهرب منك فيلسوف في أقل اللحظات توقعا لهروبه . »^(٢٧) وذات يوم في أوبون وجد روسو « صوفى » تبكى . ذلك أن سان — لامبير نى إليه خبر عبثها هذا ، وقد أبلغ بالخبر (كما قالت لجان — جاك) « بطريقة سيئة . إنه ينصفنى ، ولكنه مغيظ ... وأنخسى ما أخشاه أن تكلفنى حماقاتك الراحة والهدوء بقية أيامى »^(٢٨) . واتفقا على أن الذى باح بالسر لسان — لامبير لابد هو مدام دينيه ، لأننا « كنا نعلم أنها تراسله . » أو لعلها باحت به لجريم ، الذى كان يلتق سان — لامبير بين الحين والحين في وستفاليا . وقد حاولت مدام دينيه — في رواية روسو — أن تحصل من تريز على خطاباتہ التي تلقاها من مدام دودتو ، واتهم مضيفته بخيانته في خطاب عنيف :

« هناك عاشقان (صوفى وسان — لامبير) عزيزان على ، وهما وثيقا الارتباط جديران بحب الواحد لصاحبه ... وأحسب أن محاولات بذلت للتفريق بينهما ، وأننى استعملت لبث الغيرة في صدر أحدهما . ولم يكن الاختيار سديدا ، ولكنه بدا محققا لأغراض الحق ؛ وأنت التي أشتبته في أنها مذنبه بهذا الحق .. وهكذا كان يمكن أن يلصق بالمرأة التي أكن لها أعظم تقدير ... عار قسمة قلبها وشخصها بين حبيبين ، ويلصق بي أنا عار كونى أحد هذين التعيسين . ولو علمت أنك فكرت في هذا إطلاقا ولو لحظة واحدة في حياتك ، سواء عنها أو عني ، لأبغضتك حتى آخر نسمة من حياتي ، ولكني لا أتهمك بالتفكير في هذا فحسب ، بل بقوله أيضا .

« أتعلمن كيف أكفر عن أخطائي في الفترة القصيرة التي أنا مضطر للمكث فيها بقربك ، بفعل ما لا يفعله أحد سواي : تمصارتك برأى الناس فيك ، وبالصدوع التي عليك أن ترأبها في سمعتك »^(٢٩) .

وأحزن عنف هذه التهم مدام دينيه ، سواء أكانت مذنبه أم بريئة (ولا علم لنا بالحقيقة) ، فأبلغتها إلى حبيبها البعيد جريم . وأجاب بأنه قد حذرهما من « المآذق الشيطانية » ، التي ستورط فيها بإنزال روسو النزق الغريب الأطوار

في الإيرميتاج (٣٠) . ودعت جان — جاك إلى شفريت ، وحيته بالعناق والدموع ، وأجاب على الدموع بمثلها ، ولم تدل له بأى تفسير وصل إلينا علمه ، وتعشى معها ، ونام في بيتها ، ورحل في الغد مودعا بعبارات الصداقة .

وزاد ديدور الطين بلة . فقد أشار على روسو بأن يكتب إلى سان — لامبير معترفا بميله لصوفي ، مؤكدا له رغم ذلك وفاءها . ووعد روسو بأن يكتب (في رواية ديدرو) ولكن مدام دودتو رجته ألا يفعل ، وأن يدعها تنقذ نفسها بطريقتها الخاصة من المآزق التي ورطها فيها هيامه وعشها . فلما عاد سان — لامبير من الجهة حدثه ديدرو بالعلاقة ، مفترضا أن روسو قد اعترف بها ، ولام روسو ديدرو ورماه بخيائنه ؛ ولام ديدرو روسو ورماه بخديعته . ولم يتصرف تصرف الفلاسفة غير سان — لامبير . فقد جاء وصوفي إلى الإيرميتاج ، و « دعا نفسه إلى العشاء معي ... وعاملني بصرامة ولكن بروح الصداقة . » ولم يوقع عليه عقوبة أشد من النرم والشخير بينما كان جان — حاك يقرأ عاليا خطابه المطول إلى فولتير . على أن مدام دودتو لم تشجع المزيد من اللقاءات بروسو . وأعاد لها الخطابات التي كتبتها له بناء على طلبها ، ولكن حين طلب خطابه إليها قالت إنها أحرقتها . يقول « جرؤت على الشك في زعمها هذا ... وما زلت أشك . فلم تلق في النار قط خطابات كخطاباتي . لقد رأى الناس أن خطابات هلويز (لأبيلا) حارة ! فيا للسماء ! ، فماذا كانوا يقوون في خطاباتي هذه ؟ » (٣١) وأنكفأ إلى عالمه الخيالي مجروحا شاعرا بالخزي ، واستأنف كتابة « هلويز الجديدة » ، وسكب فيه عواطف رسائله المشوبة لمدام دودتو .

على أن صنوفا جديدة من الدل كانت في انتظاره حين عاد جريم من الحرب (سبتمبر ١٧٥٧) « لم أكد اتبين فيه جريم القديم » الذي كان فيما مضى « يعده شرفا له أن ألقى عليه نظرة » (٣٢) ولم يستطع روسو أن يفهم العلة في فتور جريم ، ولم يعرف أن جريم عرف بأمر الخطاب المهين الذي أرسله إلى مدام دينيه . وكان جريم يقرب من جان — جاك أنانية ، ولكنه فيما عدا ذلك نقيضه عقلا وخلقا — فهو شكاك ، واقعي ، فظ ، قاس . (٣٣) وهكذا فقد روسو صديقين بخطاب واحد .

٣ - لفظ كبير

وحدثت أزمة جديدة حين قررت مدام دينيه في أكتوبر ١٧٥٧ أن تزور جنيف . وإليك قصة روسو :

« كتبت إلى تقول « يا صديقي ، سأقوم فوراً بالرحلة إلى جنيف ، لأن صدرى ساءت حالته ، وصحيتى أعتلت كثيراً ، بحيث يتعين على أن أذهب لاستشارة ترونشان . » وزادت دهشتي لهذا القرار الذى اتخذته هكذا فجأة ، وفى بداية أسوأ طقس فى السنة ... وسألتها من سيصحبها ، فأجابت بأنه إنها ومعلمه ميسيو دليفان ، ثم أردفت بغير اكتراث « وأنت يا عزيزى ، ألا تذهب أنت أيضاً ؟ » ولم يخطر لى أنها جادة فيما تقول ، لأننى فى هذا الفصل كنت لا أكاد أقوى على المضى إلى حجرتى (أى السفر بين لاشفريت والإيرميتاج) فقد رحلت أمزح حول الفائدة التى يسديها مريض لآخر . ولم تكن هى ذاتها ، فيما بدا لى ، جادة فى اقتراحها ، وإلى هنا انتهى الأمر » (٣٤) .

وكان له مبررات وجيهة للزهد فى مصاحبة المدام ، فقد حالت دون ذلك آلامه وأوصابه ، ثم كيف يستطيع أن يترك تريز ؟ أضف إلى ذلك أن الشائعات أرجفت بأن مضيفته حبلى ، من جريم على الأرجح ، وصدق روسو القصة حيناً وهنا نفسه على النجاة من موقف مشير للسخرية . ولكن المرأة المسكينة كانت صادقة ، فهى تعاني من السل ، ويبدو أنها كانت مخلصه فى رغبتها فى أن يرافقها روسو ، ولم لا يهجه أن يعود ، على نفقتها ، لزيارة المدينة التى كان يفخر كثيراً بأنه مواطن فيها ؟ وكتب ديدرو ، العالم بشعورها ، إلى روسو يناشده أن يأخذ طلبها مأخذ الجد ويستجيب له ، ولو لما فى ذلك من بعض الرد على إحساناتها . وأجاب روسو بأسلوبه المعهود :

« أحس أن الرأى الذى تراه مصادره غيرك . وفضلاً عن عدم ميلى لأن أدع نفسى أساق على غير إرادتى تحت ستار اسمك من شخص ثالث أو رابع ، فلأننى ألاحظ فى هذه النصيحة الثانوية نوعاً من الغدر لا يتفق وصراحتك ، ويحسن بك أن تكف عنه مستقبلاً لأجلك ولأجلى . » (٣٥)

وفى ٢٢ أكتوبر أخذ خطاب ديدرو وجوابه عليه إلى لاشفريت وقرأهما « بصوت عال واضح » على جريم ومدام دينيه . وفى الخامس والعشرين من الشهر رحلت قاصدة باريس . وذهب روسو ليوذعها وداعا مخرجاً ، يقول « ولحسن الحظ قامت فى الصباح ، وبقي لى من الوقت متسع للذهاب والغداء مع أخت زوجها » فى أوبون .^(٣٦) وفى التاسع والعشرين (كما جاء فى مذكرات مدام دينيه) كتب إلى جريم :

« قل لى يا جريم لم يعلن جسيـع أصدقاى أن من واجـبى أن أصـحب مدام دينيه ؟ أخطئ أنا ، أم أنهم كلهم مسحورون ؟ ... إن مدام دينيه مسافرة فى مركبة أجرة لطيفة ، ويصحبها زوجها ، ومعلم ولدها ، وخمسة خدام أو ستة ... فهل أحتـمل أنا السفر فى مركبة أجرة ؟ وهل أطمع فى القيام برحلة طويلة كهذه وبهذه السرعة الكبيرة دون أن يقع لى حادث ؟ وهل على أن أطلب وقوفها فى كل لحظة لأنزل ، أم على أن أعجل بعذاباى وساعاتى الأخيرة باضطرارى إلى فرض القيود على نفسى ؟ (يلوح) أن أصدقاى المخلصين ... مصممون على إرهابى حتى الموت »^(٣٧) .

وفى ٣٠ أكتوبر غادرت مدام دينيه باريس قاصدة جنيف ، وفى ٥ نوفمبر (فى رواية المذكرات) رد جريم على روسو :

« لقد بذلت ما وسعنى من جهد لأتجنب الرد القاطع على الدفاع الرهيب الذى وجهته لى . وأنت تلح على أن أرد ... إنه لم يدر بخلقى قط أنه كان من واجبك أن تصحب مدام دينيه إلى جنيف . وحتى لو كان دافعك الأول هو أن تعرض عليها صحبتك لها ، لكان من واجبها أن ترفض عرضك ، وأن تذكرك بما يجب عليك نحو مركزك ، وصحتك ، والمرأتين اللتين جررتها إلى معتكفك ؛ هذا رأى ... وأنت تجسر على أن تحدثنى بعبوديتك ، أنا الذى كنت طوال أكثر من عامين الشاهد اليومى على كل دلائل الصداقة البالغة الحنان والكرم ، التى منحتها لياك هذه المرأة ، ولو استطعت أن أصفح عنك لرأيتنى غير جدير بصداقة إنسان . أنى لا أريد أن أراك ما حييت ، وسأحسب نفسى

سعيدا إن استطعت أن أطرده من عقلي ذكرى سلوكك . سأطلب إليك أن تنساني ، وأن تكف عن إزعاجي .» (٣٨)

ومن جنيف كتبت مدام ديبييه إلى جريم : « لقد تلقيت شكر الجمهورية على الطريقة التي عاملت بها روسو واستقبلت وفدا رسميا من صانعي الساعات للغرض ذاته ... إن القوم هنا ينظرون إلى نظرة الإجلال من أجله . » (٣٩) ونهبها ترونيشان إلى ضرورة بقائها عاما تحت رعايته الطبية . وكانت تختلف مرارا إلى بيتي فولير في جنيف ولوزان . وبعد حين لحق بها جريم ، وقضيا معا ثمانية أشهر في عيشة سعيدة . (*)

وفي ٢٣ نوفمبر ١٧٥٧ كتب إليها روسو (كما يروى) يقول :

إن كان ممكنا لإنسان أن يموت حزنا لما كنت الآن على قيد الحياة إن الصداقة قد انطفأت بيننا يا سيدتي ، ولكن ذلك الذي مضى وانقضى ما زالت له حقوق ، وأنا أحترمها . فأننا لم أنس كرمك معي ، ولك أن تنتظري مني ما يمكن من عرفان بالجميل لشخص لا أستطيع أن أحبه بعد ...

« أردت أن أغادر الإيرميتاج . وكان ينبغي لي أن أفعل ، ويزعم أصدقائي أنه لا بد من بقائي هناك إلى الربيع ، وما دام أصدقائي يريدون هذا فسأبقى هناك إن وافقت . » (٤١)

وفي أوائل ديسمبر جاء ديدرو لزيارة روسو ، فوجده ساخطا باكيا لما حل به من « استبداد » أصدقائه . وقد وردت رواية ديدرو لهذه الزيارة في خطابه المؤرخ ٥ ديسمبر إلى جريم :

« إن الرجل مسعور forcen ... لقد زرتة ، ولمته على شناعة سلوكه بكل القوة التي منحني إياها الصراحة والأمانة . وقد دافع عن نفسه في ثورة

(*) عاددا إلى باريس في أكتوبر ١٧٥٩ ، وأصبح أيتها هناك أحد الصالونات الصغيرة وقد فاز كتابها في التربة بجائزة من الأكاديمية .

غضب أحزنتنى ... إن هذا الرجل يقف خائلاً بينى وبين عملى ، ويربك عقلى ؛ وكأن بجوارى أحد المحكوم عليهم بالهلاك الأبدى ... أى منظر هذا — منظر رجل شرير ضار ! لا تدعنى أراه ثانية ، فهو يحملنى على الإيمان بالشياطين والجحيم . » (٤١)

وتلقى روسو رداً من مدام دينيه فى ١٠ ديسمبر . والظاهر أن جريم كان قد نقل إليها ملاحظات روسو عن « عبوديته » فى الإيرميتاج ، لأنها كتبت إليه بمرارة غير معهودة فيها :

« كل ما يسعنى عمله الآن أن أرثى لك ، بعد أن بذلت لك طوال سنوات عديدة كل أمارات الصداقة الممكنة . فأنت شقى جداً ... »

« وما دمت مصمماً على مغادرة الإيرميتاج ، ومقتنعاً بأنه ينبغى لك أن تفعل ، فإنه يدهشنى أن يقنعك أصدقاؤك بعد إلحاح بالبقاء فيه . أما أنا فلا أستشير أصدقاؤى أبداً فى أمر واجبى ، وليس عندى ما أزيد فى أمر واجبك . » (٤٢)

وفى ١٥ ديسمبر ، ورغم حلول الشتاء ، غادر روسو الإيرميتاج ومعه تريز وكل متعلقاتهما . أما أمها فقد أرسلها لتعيش فى باريس مع بناتها الأخرى ولكنه وعد بأن يسهم فى نفقاتها . وانتقل إلى كوخ فى مونمورنس أجره له وكيل للوى — فرانسو دبوربون ، أمير كونتى . هناك ، وقد ولى ظهره لأصدقائه السابقين ، أنتج فى خمس سنوات ثلاثة من أعظم كتب القرن تأثيراً .

٤ — خصامه مع جماعة الفلاسفة

كان مسكنه الجديد يقع فيما سماه « حديقة مون — لوى » وهو « حجرة واحدة » أمامها مرجة ، وفى طرف الحديقة حصن قديم فيه « طاقة خالصة على الهواء . » وكان عليه أن يستقبل زواره حين يجيئون « وسط أطباق القدرة وقدورى المحطمة » ويرتعد مخافة أن ينخسف « أرض الحجرة التى تهدمت » تحت أقدام ضيوفه . ولم يكثر لفقره ، فقد كان يكسب ما يكفيه

بنسخ الموسيقى ، اغتبط بكونه حرفيا كفتا (٤٣) ، وبأنه لم يعد تابعا لامرأة غنية . وكان يرد هدايا جيرانه اللطفاء حين يرسلونها إليه ، فقد أحس أن من الدل أن يأخذ المرء أكثر مما يغطي . وأرسل له الأمير دكونتي الدجاج مرتين ، فأخبر الكونتيسة دبوليه أنه سيرد الهدية الثالثة إن جاءت .

ونلاحظ عرضا كثرة الأرستقراطيين الذين ساعدوا ثوار التنوير . لا لموافقهم على آرائهم بقدر تعاطفهم الكريم مع العبقريّة المحتاجة . لقد كان في نبلاء النظام القديم الكثير من عناصر النبل ، وقد خصت الأرستقراطية روسو بصداقتها رغم تنديده بها . وكان الحرفي المعتر بنفسه ينسى نفسه أحيانا ويفخر بأصدقائه حملة الألقاب ، قال في معرض حديثه عن مرجته :

« كانت تلك الشرفة قاعة الجلوس التي استقبلت فيها مسيو ومدام لكسمبورج ، والدوق دفيروا ، وأمير تنجري ، ومركيز أرمنتير ، ودوقة مونمررنسي ، ودوقة بوفليه (*) ، والكونتيسة دفانتنوا ، والكونتيسة دبوليه ، وغيرهم من نفس الرتبة ... الذين تنازلوا بأن يحجوا إلى مون -- لوى » (٤٤)

وكان منزل المرشال والمرشالة دلكسمبرج غير بعيد من كرخ روسو . وما لبثا عقب وصوله أن دعواه إلى العشاء فرفض الدعوة . ثم كرراها في صيف ١٧٥٨ فرفضها ثانية . ثم أتيا حوالى عيد القيامة في ١٧٥٩ ومعهما ستة من أصدقائهم النبلاء يتحدونه في معقفه . وراعه الأمر فقد اكتسبت المرشالة يوم كانت الدوقة دبوليه سمعة بأنها فتنت عددا هائلا من الرجال . ولكنها خلفت خطاياها وراءها وغدت في نضجها امرأة فيها فتنة الأمومة لا مجرد فتنة الجنس ؛ وسرعان ما أذابت تحفظه الحجول وهزته ليشارك في حديث حتى . وتساءل الزوار لم يعيش رجل أوتى هذه المواهب في هذا الضنك . ودعا المرشال روسو وتريز ليذهبا ويعيشا معه حتى يمكن إصلاح كونهما ؛ ولكن

(*) نستطيع في زحمة أفراد آل بوفليه الذين دخلوا التاريخ في القرن الثامن عشر أن نميز (١) دوقة بوفليه ، التي أصبحت مرشالة اكسمبورج . (٢) مركيزة بوفليه ، خليعة ستانلاس لسكزنسكى (٣) كونتيسة بوفليه ، صديقة ديفد هيوم وهوارس ولبول .

جان — جاك ظل على مقاومته ؛ وأخيرا اقتنع هو وتريز بأن يسكننا حيناً « القصر الرينى الصغير » الواقع فى ضبعة لكسمبورج . فانتقلا إليه فى مايو ١٧٥٦ . وكان روسو أحيانا يزور لكسمبورج وزوجته فى بيتهما الفخم ، هناك كان يغرى بسهولة بأن يقرأ عليهما وعلى ضيوفهما بعض فصول الرواية التى كان يكملها . وبعد بضعة أسابيع عاد هو وتريز إلى كوخهما ولكنه واصل زيارته لآل لكسمبورج ، وظلا هما على وفائهما له طوال تقلبات مزاجه . وشكا جريم من أن روسو « هجر أصدقائه القدامى واستبدل بنا قوما من أعلى الطبقات »^(٤٥) ولكن جريم هو الذى نبذ روسو ، وفى خطاب كتبه جان « جاك إلى مالزيرب فى ٢٨ يناير ١٧٦٢ رد على من اتهموه بالتنايد بالنبلاء ، وبالتودد إليهم :

« سيدى ، إننى أكره كرها شديدا تلك الطبقات الاجتماعية التى تتسلط على غيرها ... ولا يضايقنى أن أعترف لك بهذا وأنت سليل أسرة مشهورة بعراقتها ... إننى أبغض العظماء ، أبغض وضعهم ، وقسوتهم ، وأهواءهم ... ورذائلهم ... بمثل هذا المزاج ذهبت كإنسان يجر جرا إلى قصر (آل لكسمبورج) الرينى فى مونمورنس . ثم رأيت سادته ؛ وقد أحببته ، وأحببتهم يا سيدى ، وسأظل أحبهم ما حييت ... وإنى لأبذل لهم ، لا أقول حياتى فتلك عطية هزيلة .. بل الفخر الوحيد الذى مس قلبى — وهو ذلك التشريف الذى أتوقعه من الحلف ، والذى سيمنحنيهِ ما فى ذلك شك ، لأنه حتى ، ولأن الحلف منصفون دائما . »

وكان يود أن يحتفظ بصديقة سابقة — هى مدام دودتو ، ولكن سان . . . لا مير لامها على الشائعات التى ربطت فيها باريس اسمها باسم روسو ، فاخبرت روسو بأن يكف عن الكتابة لها . وتذكر أنه اعترف لديدرو بحبه لها ، فخلص الآن إلى أن ديدرو هو الذى ثرثر به فى الصالونات و « عقدت النية على مقاطعته إلى الأبد . »^(٤٦)

ولكنه اختار أسوأ اللحظات والوسائل فى ٢٧ يوليو ١٧٥٨ كان هلفتيوس قد نشر فى كتابه « فى العقل » هجوما عنيفا على الكهنوت الكاثوليكي . وأفضت

الضجة المترتبة على هذا الهجوم إلى المطالبة المتصاعدة بحظر « الموسوعة » (التي كان قد صدر منها سبعة مجلدات) وكل الكتابات التي تنتقد الكنيسة أو الدولة . وكان المجلد السابع ينضمّن مقال دالامبير المتهور عن جنيف ، الذي امتدح فيه القساوسة الكلفنيين على عقيدة التوحيد التي يتكتمونها وناشد السلطات الجنيقية أن تسمح بإقامة مسرح . وفي أكتوبر ١٧٥٨ نشر روسو « خطابا إلى ميسو دالامبير عن المسرح » وكان على اعتدال لهجته أشهر حرب على عصر العقل ، وعلى زندقة فرنسة منتصف القرن الثامن عشر وفساد خلقها ، وقد بذل روسو في مقدمته قصارى جهده في التبرؤ من ديدرو ، دون أن يذكر اسمه صراحة : « كان من بين أصحابي أرسنارخوس » رجل صارم ، عادل ولكنه لم يعد صاحبا لي واستأريد مزيدا من صحبته ، على أنني لن أكف عن الأسف عليه وأن قلبي ليفتقده أكثر حتى من كتاباتي ، « وأضاف في هامش معتقدا أن ديدرو قد أفشى سره لسان — لامبير :

« إن كنت قد امتشقت حساما على صديق فلا تيأس لأن هناك سبيلا لرد الحسام إليه وإن كنت قد اشقيته بكلامك فلا تخف لأن في الإمكان مصالحته . أما الإهانة واللوم المؤذي وافشاء السر وجرح قلبه بالخيانة فهذه كلها تسخطه عليك وهو تاركك إلى غير عودة (٤٧) .

أما الخطاب الذي تبلغ صفحاته في الترجمة ١٣٥ فكان بعضه دفاعا عن الدين كما يبشر به علانية في جنيف . وكان روسو نفسه موحدا — أي رافضا للاهوت المسيح كما سيدل على ذلك كتاب « إميل » بعد قليل ، ولكنه حين تقدم طالبا المواطنة الجنيقية كان قد أقر بالعقيدة الكلفية الكاملة ، وفي هذا الخطاب دافع عن الدين القديم ، وعن الإيمان بالوحي الإلهي ، باعتبارهما أمرين لا غنى عنهما لاختلاق الشعب . « أن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس إلا الحساب ، إن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس الحساب النفعي للمصلحة الشخصية » ومن ثم كان مجرد (الدين الطبيعي) سيهبط بالأخلاق إلى مستوى لا يزيد على تجنب اكتشاف الذنوب .

ولكن اللاهوت كان مشارا صغيرا للجدل في حجة روسو ، أما هجمته
الأمامية فكانت على اقتراح دلامبير بأن يصرح باقامة مسرح في جنيف . هنا
لم يكن العدو الخفى هو دالامبير ، بل فولتير . فولتير الذى حجب سناء شهريته
نزىلا بجنيف ، فخر روسو بمواطنته الجنيقية ، حجباً أثار حنقه ، فولتير الذى
جرؤ على تقديم التمثيليات في جنيف أو قربها ، والذى حث لامبير بلا شك على
أن يضمن مقالا في الموسوعة نداء بإنشاء مسرح جنيفى . فماذا ؟ أتدخل في مدينة
اشتهرت بأخلاقها البيورتانية ضربا من اللهو . كان في كل مكان تقريبا بمجد
الفساد الخلقى ؟ أن الدرامات المحزنة تصور الجريمة دائما ، وهى لا تظهر العراطف
كما ظن أرسطو ، بل تلهبها ، لاسيما عواطف الجنس والعنف . وأما التمثيليات
الهزلية فنادرا ما تعرض الحب الزوجى النقى ، وكثيرا ما تهزأ بالفضيلة ، كما فعل
حتى مولير في مسرحيته « مبهض البشر » . وكل الناس عليهم بأن الممثلين
يحجون حياة العريضة والفساد ، وأن معظم ممثلات المسرح الفرنسى الفاتنات
هن مضرب الأمثال في فوضى الجنس ، وبؤر ومصادر الفساد في مجتمع
يعبدهن . وربما كانت شرور المسرح هذه في المدن الكبيرة مثل باريس ولندن
لا تؤثر إلا في شطر صغير من السكان ، أما في مدينة صغيرة كجنيف (لا
يسكنها أكثر من ١٤,٠٠٠ نسمة) فإن سمومها تتغلغل في جميع الطبقات ،
وتثير العروض أفكارا مولعة بالجديد وحربا بين الأحزاب .^(٤٨)

وإلى هنا كان روسو يردد الرأى البيورتانى أو الكلفنى في المسرح ،
ويقول في فرنسا عام ١٧٥٨ ما قاله من قبل ستيفن جوسون في انجلترا عام
١٥٧٩ ، ووليم يرين عام ١٦٣٢ ، وجرمى كوليار عام ١٦٩٨ . ولكن روسو
لم يقتصر على التنديد . فهو لم يكن بيورتانيا ؛ ومن ثم دعا إلى الرقص والمراقص
تحت رعاية الدولة وإشرافها . وقال إنه ينبغي أن ته فر أسباب الترفيه العامة
ولكن من نوع لاجتماعى وصحى ، كالرحلات الخلوية ، والألعاب في الهواء
الطلق ، والمهرجانات ، والاستعراضات (هنا أضاف روسو وصفا نابضا
بالحياة لسباق زوارق على بحيرة جنيف .^(٤٩)

ويقول لنا روسو أن الخطاب « أصاب نجاحا كبيرا » فقد بدأت باريس

تمل حياة الفساد ؛ ولم يعد هناك لذه في الانحرافات الخارجية على العرف التي أصبحت هي ذاتها عرفا . فلقد أُنخمت المدينة برجال يسلكون مسلك النساء ، ونساء يتحرقن شوقا إلى أن يكن كالرجال . لقد شيعت من الدراما الكلاسيكية وأشكالها الطنانة المتكلفة ورأت حقارة قواد مدام دبومبادور وجنودها أمام جند فرديريك الاسبرطين . وكان الاستماع إلى فياسوف يمجّد الفضيلة تجربة منعشة وسيزداد تأثير « الخطاب » الأخلاقي حتى يشارك هو وكتابات روسو الأخرى في إحداث عودة للباقة تكاد تكون ثورية في عهد لويس السادس عشر .

ولم يكن في وسع الفلاسفة أن يتوقعوا هذا . فالذي أحسوا به في إعلان روسو هو أنه عمل من أعمال الخيانة ، لأنه هاجمهم في لحظة خطرهم الأكبر . ففي يناير ١٧٥٩ حظرت الحكومة نهائيا نشر الموسوعة أو بيعها . وحين ندد روسو بأخلاق باريس رماه أخصائه القدامى بالنفاق . وقد تذكروا مطارذته لمدام دودتو ، وحين ندد بالمرسح نوهاوا بأنه كتب « كاهن القرية » و « نارسيس » للمسرح ، وأنه كان يختلف إلى المسرح . ورفض بسان — لامبير برسالة جافية (١٠ أكتوبر ١٧٦٨) نسخة « الخطاب » التي أرسلها إليه روسو :

« لا أستطيع قبول هديتك ، ولعل لك عذرا — على غير ما أعلم — في الشكوى من ديدرو ، ولكن هذا لا يعطيك حق إهانته علنا . فأنت لا تجهل طبيعة الاضطهادات التي يعانها ولست أملك يا سيدى إلا أن أقول لك إن هذا العمل الشائن الذي اقترفته صدمنى كثيرا ... كلانا يختلف في مبادئنا اختلافا أشد من أن يتيح لنا أن ننسجم . فانس أننى موجود ... وأنى أعدك بأن أنسى شخصك ، ولا أذكر عنك شيئا إلا مواهبك . » (٥١)

على أن مدام دينيه حين عادت من جنيف شكرت روسو على النسخة التي بعث بها إليها ، ودعته للعشاء فذهب ، والتقى بسان — لامبير ومدام دودتو آخر لقاء .

ووافاه من جنيف أكثر من عشرة خطابات ثناء . وحظر قضاه جنيف على فولتير عرض أى مسرحيات على أرض جنيف بعد أن شجعهم موقف روسو . ونقل فولتير مواهبه المسرحية إلى تورنيه ، وانتقل هو إلى فرنيه . وأحس

بوجع الهزيمة ، فاتهم روسو بأنه هارب مارق ، وأسف على تردى قطيع « الفلاسفة » الصغير إلى هوة صراع يفنون فيه أنفسهم . وكتب يقول « إن جان — جاك السيبيء السمعة هو يهوذا الجماعة »^(٥١) ورد روسو بخطاب (٢٩ يناير ١٧٦٠) إلى الراعي الجنيتى بول مولتو :

« أتحدثنى عن ذلك الرجل فولتير ؛ لم يارث اسم ذلك المهرج رسائلك ؟ لقد دمر ذلك التعس وطنى (جنيف) . ولو كان احتقارى له أقل لكرهته أكثر . وأنا لا أرى فى مواهبه العظيمة إلا شيئاً مخزياً يضاف إلى خزيه ، ويحط من قدره بسبب الطريقة التى يسخر بها ... إيه أيها المواطنون الجنيفيون ، إنه يكلفكم غاليا جزاء إيوائكم له ! »^(٥٢)

وأحزن روسو أن يعلم أن فولتير يخرج التمثيليات فى تورنييه ، وأن كثيراً من المواطنين الجنيفيين يعبرون الحدود إلى فرنسا ليشهدوا هذه الحفلات . لا بل ليشارك بعضهم فيها . ووجد استيائوه مبرراً آخر للحرب حين طبع خطابه الذى أرسله إلى فولتير عن زلزال لشبونة فى مجلة برلين (١٧٦٠) ، لأن فولتير فيما يبدو أعار المخطوطة فى غير مبالاة لأحد الأصدقاء . فأرسل روسو الآن (١٧ يونيو) إلى فولتير خطاباً من أعجب الخطابات فى رسائل هذا العصر الصاخب . قال بعد أن لام فولتير على نشر الخطاب دون إذنه :

« إننى لا أحبك يا سيدى . فلقد آذيتنى أنا تلميذك المتحمس لك أبلغ الأذى . لقد دورت جنيف جزاء على الملجأ الذى قدمت لك . ولقد نفرت مواطنى من جراء المديح الذى مدحتك به بينهم . وأنت الذى تجعل مقامى فى وطنى شيئاً لا أطيعه ، أنت الذى ستضطرني للموت على أرض غريبة ، محروماً من كل تعزيات المحتضرين ، ملقى على كوم من أكوام المهملات فى ازدراء ، بينما يحيط بك كل ما يستطيع إنسان أن يطمع فيه من أسباب التكريم فى وطنى . فأنا باختصار أكرهك ، لأنك هكذا شئت ، ولكنى أكرهك بمشاعر إنسان ما زال فى وسعه أن يحبك لو كنت قد رغبت فى حبنى . ولم يبق من جميع المشاعر التى امتلأ بها قلبى نحوك سوى الإعجاب بعقريتك الرائعة ، وحب

كتاباتك . وإذا كنت لا أكرم فيك غير مواهبك فليس للذنب ذنبى . ولن يوجد قصور أو نقص أبداً في الاحترام الواجب لها ، ولا فى المسلك الذى يقتضيه ذلك الاحترام . » (٥٣)

ولم يحب فولتير ، ولكنه كان يدعو روسو سرا « المشعوذ » و « المنجون » (٥٤) و « الناس الصغير » وقد كشف فى رسائله للامير عن نفس لا تقل حساسية وتأججا عن نفس جان - جاك :

« تلقيت رسالة طويلة من روسو . لقد جن جنونا مطبقا ... فهو يهاجم المسرح بعد أن كتب هو نفسه تمثيلية هزيلة رديئة ؛ هو يهاجم فرنسا التى تطعمه ؛ وهو يجد خمسة أضرلاع متعفنة أو ستة من برميل ديوجين ويتسلقها لينبحنا ؛ وهو يتخلى عن أصدقائه . ويكتب إلى - إلى ! - أشد ما سود به متعصب الصحائف إهانة ... ولولا أنه قزم حقير لا أهمية له ، انتفخت أوداجه غرورا ، لما كان فى الأمر أذى يذكر ؛ ولكنه أضاف إلى وقاحة خطابه عار التآمر مع متنطعى السوسنيين هنا للجيلولة بينى وبين إقامة مسرح لى فى تورنيه ، أو على الأقل لمنع المواطنين من التثيل فيه معى . وإذا كان قصده من هذه الحيلة الوضيعة أن يعد لنفسه عودة ظافرة إلى الأزقة الحقيمة التى نشأ فيها ، فذلك فعل وغد ، ولن أصفح عنه ما حييت . ولو أن أفلاطون لعب على لعبة من هذا النوع لانتقمت منه ، فما بالك بتابع خانع لديوجين . إن مؤلف « ألويزا الجديدة » ليس إلا وغدا شريرا . » (٥٥)

فى هذين الخطابين اللذين كتبهما أشهر كاتبين فى القرن الثامن عشر نستشف من وراء تيارات العصر التى يحسبها الناس غير شخصية ، الأعصاب التى اشتد إحساسها بكل لطمة فى الصراع ، والغرور البشرى المشترك الذى تضطرب به أفئدة الفلاسفة والقديسين .

٥ - هلويز الجديدة

إن الكتاب الذى أخطأ فولتير فى تسميته كان طوال ثلاث سنين ملاذا لروسو من أعدائه ، وأصدقائه ، والعالم . بدأه عام ١٧٥٦ وفرغ منه فى

سبتمبر ١٧٥٨ ، وأرسله إلى ناشر في هولندية ، وظهر في فبراير ١٧٦١ باسم « جولى ، أو هلويز الجديدة ، رسائل عاشقين جمعها ونشرها ج.ج روسو » . وصياغة الرواية في شكل رسائل كانت عادة قديمة ، ولكن لعل الذى دعا روسو إلى التصميم عليها هو محاكاته رواية رتشر دسن « كلاريسا » .

والقصة بعيدة الاحتمال ولكنها نسيج وحدها . فجولى هى ابنة بارون ديتانج ، وهى فى السابعة عشرة أو نحوها . وتدعو أمها الشاب الوسيم سان - بـرو ليكون معلمها الخاص . ويقع أيلار الجديد هذا فى غرام هلويز الجديدة ، كما كان يمكن أن نتوقعه أى أم فى دنيا الواقع . ولا يلبث أن يرسل إلى تلميذته رسائل حب حددت اللحن لقرن من القصص الرومانسى :

« لى لأرتعد كلما تصافحت أيدينا ، ولا أدرى كيف يحدث هذا ، ولكنها تصافح دوما . ولى أجفل حالما أحس لمسة أصبعك ، وتأخذنى حمى أو قولى حمى مصحوبة بهذيان فى هذه المتع ؛ وتتخلى عني حواسى شيئاً فشيئاً ، فإذا خرجت هكذا عن طورى فماذا أستطيع أن أقول ، أو أفعل ، وأين أختبئ ، وكيف أكون مسئولاً عن سلوكى ؟ » ^(٥٦) ثم يقترح أن يرحل ولكنه يكتفى بالكلام دون الفعل :

« وداعاً أذن يا جولى ، المفرطة الفتنة . . . غداً سأكون رحلت إلى الأبد . ولكن ثقى أن غرامى العنيف الطاهر بك لن ينتهى إلا بانتهاء حياتى ، وأن قلبى المفعم بهذا المخلوق الملائكى ، لن يهبط بنفسه إلى إفساح مكان فيه لحب ثان ، وأنه سيوزع كل ولائه المستقبل بينك وبين العفة ، وأنه لن يدنس لهيب آخر المذبح الذى عبدت عليه جولى ^(٥٧) » .

وقد تبسم جولى لهذا التعبد ، ولكن فيها من الأنوثة ما تمنعها من إقصاء مثل هذا الكاهن المبهج عن المذبح . فتطلب إليه أن يؤجل قراره . فالاتصال الكهربى بين الذكر والأنثى قد أحدث بها على أى حال اضطراباً مماثلاً ، وسرعان ما تعترف بأنها هى أيضاً قد أحست باللذغة الغامضة : « منذ أول يوم التقينا فيه تشربت السم الذى يسرى الآن فى حواسى

وعقلي ، شعرت به فوراً وعيناك ، وعواطفك ، وحديثك ، وقلمك المذنب — كلها تزيد كل يوم أذاه (٥٨) . « ومع ذلك يتعهد ألا يطلب مطلباً أشد إثمًا من قبلة » كوني عفيفة وإلا احتقرت ، وسأكون نجديراً بالإحترام وإلا عدت كما كنت ، ذلك هو الأمل الوحيد الباقي لي ، والذي يفضل الأمل في الموت . ويوافق سان — برو على أن يجمع بين الهديان والعفة ، ولكنه يعتقد أن هذا يتطلب معونة خارقة من السماء .

« أيتها القرى السماوية ، . . . انفضي في روحا تطيق السعادة العظمى ! أيها الحب الإلهي ! يا روح وجودي ، أواه ، اسندني لأنني أوشكت على السقوط تحت وطأة الوجد . . . أواه كيف أحتمل سيل السعادة المتدفق الذي يفيض به قلبي ؟ كيف أطرد هواجس عاشقة خائفة ؟ (٥٩) . وهكذا طوال ٦٥٧ صفحة . فإذا بلغنا صفحة ٩١ قبلته . والكلمات تقصر عن وصف « حالي بعد ذلك بلحظة ، حين شعرت — إذ ارتعشت يداي — برعدة زقيقة — وشفتك المعطرتان — شفتا جولي حبيبتى — تضغطان شفتي ، وأنا بين ذراعيها ! وبأسرع من البرق انطلقت من كياني نار مباغتة (٦٠) . فإذا وصلنا الرسالة التاسعة والعشرين وجدنا أنه أغواها ، أو أنها أغوته . ويهيم هو في عوالم من النشوة ، ولكنها تحسب كل شيء قد ضاع . « إن لحظة غفلة واحدة قد أسلمتني إلى تعاسة أبدية . لقد سقطت في وهدة العار التي لاخرج منها (٦١) .

وتموت أم جولي كمدا حين تعلم بأن بكارتها فضت . ويقسم البارون أن يقتل سان — برو ، فيخرج هذا في رحلة بحرية حول الأرض . وتتزوج جولي فولمار ، وهو روسي كريم المولد . متقدم السن ، تكفيرا عن ذنبها وطاعة لأبيها ، ولكنها تظل تراسل سان — برو خفية ، وتشعر نحوه بعاطفة أقوى من حبها الواجب عليها لزوجها . ويدهشها أن تجد فولمار إنساناً طيباً ، وفيها ، حريصاً على راحتها ، منصفاً كريماً

مع الجميع ، وذلك رغم إلحاده . وفي رسالة كتبها لسان — برو تؤكد له أن الرجل والمرأة قد يجدان الرضى في « زواج المصلحة » ولكنها لن تعرف السعادة الكاملة أبدا . فاتحرافها قبل زواجها يثقل ذاكرتها وأخيرا تعترف لزوجها بلحظة الإثم تلك . ويقول أنه علم بها ، وصمم على ألا يذكرها أبدا . ويخبرها بأنه لم يكن إثمًا قط ، وتأكيدها لغفرانه لها يدعو لسان — برو للحضور والإقامة مع الأسرة معلما خاصا لطفلهما ، ويحضر لسان — برو ، ويؤكد لنا المؤلف أن الثلاثة يعيشون معاً في وفاق حتى يفرق بينهم الموت . ويغيب الزوج العجيب أياما . وتخرج جولى وسان — برو للتجديف على بحيرة جنيف ، ويعبران إلى سافوى ، ويريتها الصخور التي كتب عليها اسمها في منفاه ، ويبكى ، وتمسك بيده المرتعشة ، ولكنهما يعودان بريئين من الإثم إلى بيتها في كلارنس في إقليم فو (٦٢) .

ويعجبان كيف يمكن لفولمار أن يكون بهذه الطبيعة دون إيمان ديني . ويفسر لسان — برو هذه الظاهرة الشاذة ، وهو كجولى بروتستنتي متمسك بدينه :

« ان فولمار الذى أقام فى أقطار كاثوليكية رومانسية لم يغره ما خبره من إيمان أهلها . بأن يرى فى المسيحية رأياً أفضل . فقد رأى أن مذهبهم لا يتجه إلا لمصلحة كهنتهم ، وهويتألف بجملته من حركات مثيرة للسخرية وورطانة بألفاظ لا معنى لها . ولاحظ أن ذوى الفطرة السليمة والأمانة مجمعون على رأيه ، وأنهم لا يتخرجون من الجهر برأيهم ، لا بل أن القساوسة أنفسهم فى الخفاء كانوا يهزأون سرّاً بما يعلمون ويثبتون فى الأذهان علانية ، ومن ثم فكثيراً ما أكد لنا أنه بعد أن أنفق كثيراً من الوقت والجهد فى البحث ، لم يلتقى قط بأكثر من ثلاثة قساوسة يؤمنون بالله^(٦٣) » . ويضيف رسو فى حاشية ، معاذ الله أن أوافق على هذه التأكيدات القاسية الطائشة ! ومع ذلك يذهب فولمار بانتظام إلى

الخدمات الدينية البروتستنتية مع جولى ، بدافع من احترامه لها ولخيراته .
وترى جولى وسان — برو فيه « أغرب اللامعقول » — إنسانا يفكر تفكير
ملحد ويسلك مسلك مسيحي^(٦٤) .

وهو لا يستحق اللطمة الأخيرة ، ذلك أن جولى تعهد إلى فولمار
وهى على وشك الموت بحمى أصابتها وهى تنقذ ابنها من الغرق — بخطاب
غير مختوم يعلن لسان — برو أنه كان على الدوام حبا الوحيد . وفى
وسعنا أن نفهم دوام ذلك الحب الأول ، ولكن لم تجزى طول وفاء
زوجها وثقته بها بمثل هذا الرفض القاسى وهى على فراش الموت ؟ أن
هذا لا يكاد يتفق والنبيل الذى اضفاه المؤلف على خلق جولى .

ومع ذاك فهى من أعظم اللوحات فى القصص الحديث . وقد استلهمها
روسو من وحي ذكرياته الخاصة رغم أن (كلاريسا) رتشر دسن أوحى
بها فى أغلب الظن ، الفاتتان اللتان قادا جواديهما عبر النهر فى آنسى ،
والذكريات التى احتفظ بها فى اعزاز لمدام دفاران حين كانت تبسط
عليه حمايتها فى سنوات صباه ، ثم لمدام دودتو ، التى أشعرته بفيض
الحب حين وقفت سداً أمام شهوته ، وبالطبع ليست جولى واحدة من
هاتين المرأتين ، ولعلها ليست أى امرأة التقى بها روسو طيلة حياته ، بل
مثالاً مخلقاً من أحلامه . وقد أفسد الصورة اصرار روسو على جعل
شخصه كإياها تقريباً تتكلم كروسو ، فجولى حين تزيدها الأمومة عمقا
تغدو حكيمة من الحكماء ، فتطيل الحديث فى كل شىء من التدبير
المنزلى إلى الاتحاد الصوفى بالله . وهى تقول لابد أن نفحص صحة هذه
الحجة ، ولكن أى امرأة جديرة بالحب نزلت يوما ما إلى مثل
هذه التفاهة .

أما سان — برو فهو بالطبع أشبه الشخص بروسو ، حساس لكل
مفاتن النساء ، تواق للركوع عند أقدامهن التى يحلم بها ، ويسكب عبارات
الولاء والحب البليغة التى ردها فى وحدته . ويصفه روسو بأنه لا يفتأ

يأتي عملاً مجنوناً ثم يحاول أن يثوب إلى رشده^(٦٥). وسان — برو إنسان متزمت أشد التزمت باليقاس إلى لفليس الوجد السافر كما صورته رتشر دسن. وهو الآخر لأبد أن ينطق بلسان روسو ، فهو يصف باريس بأنها دوامة من الشرور — غنى فاحش ، وفقير مدقع ، وحكومة عاجزة ، وهواء فاسد ، وموسيقى رديئة ، وأحاديث تافهة ، وفلسفة باطلة ، وأنهار كامل تقريباً للدين ، والفضيلة ، والزواج ، وهو يردد مقال روسو الأول عن صلاح الإنسان الفطري وتأثيرات الحضارة المفسدة المحطة ، ويهنيء جولى وفولمار على إثارهما حياة الريف الهادئة الصحية في كلارنس .

أما فولمار فأكثر الأشخاص أصالة في معرض روسو . فمن كان النموذج الذى حاكه المؤلف على غرارهِ ؟ لعله دولباخ ، « الملحد اللطيف » ، والبارون الفليسوف ، والمادى الفاضل ، والزوج الوفى لزوجته واحدة ومن بعدها لأختها . أو لعله سان — لامبير ، الذى صدم روسو بتبشيرهِ بالإلحاد، ولكنه صفح عنه لمغازلته خليلته . ويعترف روسو صراحة باستخدامه النماذج الأصلية الحية والذكريات الشخصية :

« إن قلبي المفعم بما وقع لى ، والذى لم يزل جياشاً بالكثير من الأنفعالات العنيفة ، أضاف الشعور بآلامه إلى الأفكار التى أوحى لى بها التأمل ... وعلى غير وعى منى وصفت المواقف التى كنت فيها آنئذ ، ورسمت صوراً لحريم ، ومدام دينيه ، ومدام دودتو ، وسان — لامبير ، ولشخصى^(٦٦) .

وخلال لوحات الأشخاص هذه عرض روسو جوانب فلسفته كلها تقريباً . فأعطانا صورة مثالية للزواج السعيد ، ولضبعة تدار بكفاية ، وعدالة ، ورحمة ، ولأطفال يربون ليكونوا مزيجاً مثالياً من الحرية والطاعة ، ومن ضبط النفس والذكاء . وأستبق الحجب التى سيوردها فى كتابه « إميل » : أن يوجه التعليم أولاً لتربية البدن ليكون صحيحاً ، ثم لتربية الخلق ليعود النظام الصارم ، وبعد ذلك فقط لتربية الذهن ليعود الجدل العقلى . تقول جولى

« إن السبيل الوحيد لجعل الأطفال طيعين ليس سبيل الحدل العقلى معهم ، بل إقناعهم بأن الحدل العقلى فوق سنهم^(٦٧) . وينبغى ألا نلجأ إطلاقاً للحدل العقلى ، أو ألا يكون هناك أى تعليم عقلى ، قبل سن البلوغ . وحرصت القصة حرصاً شديداً على مناقشة الدين . فترى إيمان جولى يغدو الأداة لخلاصها ، وقد ألهمها الاحتفال الدينى الذى قدس زواجها إحساساً بالتطهر والوفاء . ولكنه إيمان بروتستنتى خالص ذلك الذى يشيع فى الكتاب . فسان — برو يسخر مما يبدو له من نفاق القساوسة الكاثوليك فى باريس ؛ ويندد فولمار بعزوبة الكهنة لأنها قناع يخفى وراءه الفجور ، ويضيف روسو بشخصه هذه العبارة : « إن فرض العزوبة على جماعة كبيرة مثل قساوسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليس لمنعمهم من أن يكون لهم زوجات ، بقدر ما هو لأمرهم بأن يقنعوا بزوجات غيرهم من الرجال^(٦٨) » . ويصرح روسو بهذه المناسبة بتأييده للتسامح الدينى ، ويبسطه حتى على الملحدين ، « أن المؤمن الحقيقى لا يتعصب ولا يضطهد غيره . ولو كنت قاضياً ؛ ولو قضى القانون بعقوبة الموت على الملحدين ؛ لبدأت بحرق كل مبلغ يشى بإنسان آخر ، لأنه هو نفسه ملحد^(٦٩) » .

وكان للقصة تأثير بالغ فى تنبيه أوروبا لمفاتن الطبيعة وروائعها . ففى فولثير ؛ وديدرو ، ودالامبير ، لم تشجع حمى الفلسفة وحياة الحضر الأحساس المرهف بجلال الحبال وجمال ألوان السماء . أما روسو فقد تميز بولادته فى أحضان أزوع مناظر أوروبا وقعا فى النفوس . وكان قد مشى من جنيف متجولاً فى سافوى عبر الألب إلى تورين ، ومن تورين إلى فرنسا ؛ وأستمتع بمشاهد الريف وأصواته وعبيره ؛ وأحس بكل شروق شمس كأنه إنتصار الأله على الشر والشك . وقد تصور توافقا صوفياً بين حالات مزاجه والمزاج المتغير للأرض والهواء ؛ وعانقت نشوة حبه كل شجرة وزهرة ، وكل ورقة عشب . وتسلق الألب إلى نصف ارتفاعها ، ووجد نقاء فى الهواء ، خيل إليه أنه يطهر أفكاره ويجلوها . وقد وصف هذه التجارب بأحاساس وحيوية جعلاً من تسلق الحبال ، لاسيما فى سويسرة ، رياضة من أكبر رياضات أوروبا .

ولم يحدث من قبل في الأدب الحديث أن ظفر الوجدان ، والعاطفة المشبوية، والحب الرومانسى ، يمثل هذا العرض والدفاع المستفيضين البليغين. فلقد أعلن روسو ، في تمرده على عبادة العقل من بوالو إلى فولتير ، مكانة الوجدان العليا وحقه في أن يسمع في ترجمة الحياة وتقييم القصائد ، وبرواية « هلويز الجديدة » أعلنت الحركة الرومانسية تحديها للعصر الكلاسيكى . وقد سبقها بالطبع لحظات رومانسية حتى في عز الكلاسيكية ، مثال ذلك أن أوتوريه دورفيه داعب الحب الريفى في قصته « لاستريه » (١٦١٠ — ١٦٢٧) ، وأن الآنسة سكوديرى أسهبت في وصف الغراميات في قصتها « أرطمين ، أو قورش العظيم » (١٦٤٩ — ١٦٥٣) ، كذلك زاوجت مدام دلا فييت بين الحب والموت في قصتها « أميرة كليف » (١٦٧٨) ، وأدخل راسين هذا الموضوع في مسرحيته « فيدر » (١٦٧٧) ، وهى قمة العصر الكلاسيكى ، ونحن نذكر كيف ورث روسو الروايات الغرامية القديمة عن أمه ، وقرأها مع أبيه . أما جبال الألب فان البرشت فون هالمر كان قد تغنى بجلالها (١٧٢٩) ، كذلك تغنى جيمس طومسن بجبال الفصول ورهبته (١٧٢٦ — ١٧٣٠) . ولا بد أن جان — جاك قرأ قصة بريفوست « مانون لسكو » (١٧٣١) ، وأحاط علما برواية رتشرد سن « كلاريسا » في ترجمة بريفوست (١٧٤٧ — ١٧٤٨) (لأنه كان يقرأ الإنجليزية بصعوبة) . ومن قصة الإغواء تلك التى طالت إلى ألفى صفحة (ولم تكتمل بعد) إقتبس شكل الرسائل في الرواية لصلاحيته للتحليل النفسى ، وكما دبر رتشرد سن لكلاريسا نجية تدعى الآنسة هاو ، كذلك دبر روسو لحولى نجية هى ابنة عمها كلير . ولاحظ روسو في غيظ أن ديدرو نشر تقریظا حماسيا لرتشردسن (١٧٦١) عقب نشر جولى ، فحجب بذلك سناء قصته جولى .

ولا تقل رواية جولى عن كلاريسا أصالة ومآخذ ، وهى تسمو عنها كثيراً في أسلوبها والروايتان غنيتان في شطحات الخيال مثقلتان بالمواعظ . ولكن فرنسا ، التى تبرز العالم أسلوبا ، لم تر قط اللغة الفرنسية تتخذ مثل هذا اللون ، والحرارة ، والنعومة ، والإيقاع ، فروسو لم يكن مجرد مبشر

بالوجدان ، إنما كان يملكه ، فكل ما يمسّه مشرب بالحساسية والعاطفة . وقد نبتم لنشواته ولكننا نجد أن ناره تدفئنا . وقد ننكر الخطب المقحمة ونمر بها مرور الكرام ، ولكننا نمضى فى القراءة ، وبين الحين والحين تتجدد حياة القصة بمشهد شعر به المؤلف شعورا حادا . كان فولتير يفكر بالآراء ويكتب بالأبجرامات ، أما روسو فكان يبصر بالصور ويؤلف بالأحاسيس . ولم تكن عباراته ووقفاته بريئة من الصنعة ، فقد اعترف بأنه كان يقلبها وهو فى فراشه حين تقصى النوم عن جفنيه عاطفة الفنان المشبوبة^(٧٠) . يقول كانط « لأبد من أن أقرأ روسو إلى أن يكف جمال عبارته عن فتنى ، وعندها فقط أستطيع أن أفحصه فى روية وتعقل^(٧١) » .

ولقيت جولى النجاح فى أعين الجميع إلا الفلاسفة . فوصفها جريم بأنها تقليد هزيل لككلاريسا ، وتنبا بأن النسيان سيطويها سريعا^(٧٢) . وقال فولتير وهو يهدر غضبا (٢١ يناير ١٧٦١) لا تزدنى حديثا عن رواية جان — جاك من فضلك ، فلقد قرأتها لشدة أسفى ، ولشدة أسفه . لو كان لدى من الوقت ما يتسع لأبداء رأيى فى هذا الكتاب السخيف^(٧٣) . وبعد شهر أفصح عن رأيه فى كتابه « رسائل حول هلويز الجديدة » الذى نشر بأسم مستعار . فنبه إلى الأخطاء اللغوية ، ولم تبدر منه أى إشارة تدل على تقديره لوصف روسر للطبيعة — وأن كان سيقلد جان — جاك بعد حين بتسلفه ربوة ليتعبد للشمس المشرقة . وتبينت باريس قلم فولتير ، وحكمت بأن « الشيخ » عضته الغيرة بأنياها .

ولإذا ضربنا صفحا عن هذه الوخزات ، فإن روسو إبتهج بالاستقبال الذى لقيه أول عمل مطول له . يقول ميشليه « لم يعهد فى تاريخ الأدب كله نجاح عظيم كهذا^(٧٤) . » وظهرت الطبعة تلو الطبعة ، ولكن المطبوع كان أقل كثيرا من الطلب ووقف الجمهور فى طوابير أمام المكتبات لشراء الكتاب ، وكان القراء الملهوفون يدفعون أثنى عشر سوآ فى الساعة ليستعبروه ، وقراء النهار يؤجرونه لغيرهم يقرؤنه فى الليل^(٧٥) . وروى روسو فى أغتباط أن نبيلة طلبت مركبتها وقد تهيأت للذهاب إلى مرقص فى الأوبرا ، وشرعت تقرأ

جولى خلال ذلك ، وشوقها القصة تشويقاً أغراها بالمضى فيها حتى الرابعة صباحاً بينما الخادمة والجياذ فى انتظارها (٧٦) . وقد عزا أنتصاره إلى اللذة التى يجدها النساء فى قراءة قصص الغرام ، ولكن كان هناك أيضاً نساء ملئن حياتهن خليلات ، وتقن إلى أن يكن زوجات ، وأن يكون لطفاهن آباء . وتلقى روسو مئات الخطابات فى مونتورنسى يشكره فيها أصحابها على كتابه ، وكثر عدد النساء اللاتى عرضن عليه حبهن حتى أنهى به خياله إلى أنه « ما من امرأة فى المجتمع الراقى لم أكن لألقى التوفيق فى الاتصال بها لو حاولته (٧٧) » .

وكان من الطريف أن يكشف إنسان عن سريره كشفاً كاملاً كما فعل روسو خلال سان — برو وجزلى ، وليس هناك أكثر طرافة وإمتاعاً من نفس إنسان تتجرد أمام الناظرين ولو تجرداً جزئياً أو لاشعورياً . تقول مدام دستال « هنا مزقت كل أقنعة القلب (٧٨) » . وبدأ الآن سلطان الأدب الذاتى ، تلك السلسلة الطويلة الممتدة إلى زماننا ، من أفشاءات الذات ، من القلوب المحطمة فى صفحات مطبوعة ، من « النفوس الحمية » التى تسبح فى المأساه جهاراً نهراً . وفشا بين الناس الإفصاح عن حرارة العاطفة ، والأعراب عن الأنفعال والشعور ، لا فى فرنسا وحدها بل فى إنجلترا وألمانيا أيضاً . وبدأ يتلاشى الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب ضبط النفس ، والنظام ، والعقل ، والشكل ، وأوشكت دولة « الفلاسفة » أن تدول . لقد أصبح القرن الثامن عشر بعد عام ١٧٦٠ ملكاً لروسو (٧٩) .



الفصل السابع

روسو الفيلسوف

١ - العقد الاجتماعي

قبل نشر « هلويز الجديدة » بشهرين كتب روسو إلى ماسيو لينبس (١١ ديسمبر ١٧٦٠) يقول :

« لقد طلقت حرفة الكاتب إلى الأبد . وبقيت خطئية قديمة يجب التكفير عنها في كتاب مطبوع ، وبعدها لن يسمع الجمهور مني أبداً . ولست أعرف حظاً أسعد من أن يكون الإنسان مجهولاً إلا من أصدقائه ومنذ الآن سيكون نسخ الموسيقى شاغلي الوحيد ^(١) » .

ثم كتب ثانية في ٢٥ يوليو ١٧٦١ :

« ظللت عاقلاً إلى الأربعين . ثم تناولت القلم ، وهأنذا أضعه قبل أن أبلغ الخمسين ، وأنا العن في كل يوم من أيام حياتي ذلك اليوم الذي دفعني فيه غروري الأحمق إلى تناوله ، والذي رأيت فيه سعادتي ، وراحتي ، وصحتي ، كلها تتطاير هباء دون أمل في استعادتها ثانية ^(٢) » .

أكان هذا منه تظاهراً ؟ ليس بالضبط . صحيح إنه في ١٧٦٢ نشر كتابيه « في العقد الاجتماعي » و « إميل » ، ولكنهما كانا قد اكتملا قبيل ١٧٦١ ، وكانا « الخطئية القديمة التي يجب التكفير عنها في كتاب مطبوع » ، وصحيح إنه بعد ذلك كتب ردوداً على رئيس أساقفة باريس ، وعلى مجمع الكنائس الحنيفي ، وعلى طلبات من كورسيكا وبولندة بأن يقترح عليهما دستورين ، ولكن هذه المؤلفات كانت مؤلفات مناسبات ، دعت إليها أحداث غير

متوقعة . وقد نشرت « الاعترافات » و « الحوارات » و « أحلام جوال منفرد » بعد موته . وهكذا التزم أساسا بتعهده الجديد . ولا عجب أن يشعر في ١٧٦١ أنه قد أرهق ونضب ، لأنه كان قد ألف في خمس سنوات ثلاثة أعمال كبرى ، كان كل منها حدثا في تاريخ الأفكار .

ومنذ عام ١٧٤٣ يوم كان سكرتيرا للسفير الفرنسي في البندقية ، هدته ملاحظة لحكومة البندقية بالقياس إلى الحكومتين الحنيفية والفرنسية إلى تخطيط رسالة هامة في المؤسسات السياسية . وكان « المقالان » شرارتين بعثتهما تلك النار ، ولكنهما كانا محاولين متعجلتين لإثارة الانتباه بالمبالغة ، ولم تنصف واحدة منهما فكره المتطور . وراح خلال ذلك يدرس أفلاطون ، وجروتيوس ، ولوك ، وبوفندورف . ولم تكتمل قط الرائعة الأدبية التي حلم بها . فروسو لم يوهب الذهن المنظم ، والإرادة الصابرة ، والطبع الهادئ الذي يتطلبه مشروع كهذا يقتضيه الاستدلال العقلي لا الوجدان فقط ، وإخفاء العاطفة لا إعلانها ، وكان مثل هذا الإنكار للنفس فوق طاقته . لقد كان هجرانه للتأليف اعترافا منه بالهزيمة . ولكنه أعطى العالم عام ١٧٦٢ قطعة رائعة من مخطوطه في ١٢٥ صفحة نشرت بأمر دامت تحت عنوان « في العقد الاجتماعي ، أو مبادئ القانون السياسي » .

وكلنا يعرف الصيحة الحرية التي استهل بها الفصل الأول « ولد الإنسان حرا وهو في كل مكان مكبل بالأغلال » وقد افتتح روسو كتابه بمبالغة مقصودة ، لأنه عليم بأن للمنطق سلطانا منوما قويا ، وقد أصاب في ضربه على هذه النعمة العالية ، لأن هذه العبارة أصبحت شعار قرن بأكمله . وافترض روسو هنا — شأنه في « المقالين » — وجود « حالة طبيعية » بدائية لم تكن فيها قوانين ، واتهم الدولة القائمة بتدمير تلك الحرية ، واقترح بديلا عنها « إيجاد شكل من المجتمع يدافع عن شخص كل عضويه وعن متاعه ويحميها بكل ما أوتي ذلك المجتمع من قوة مجموعته ، مجتمع يظل الإنسان فيه رغم اتجاذه مع الجميع يطيع نفسه فقط ، ويبقى حرا كما كان من قبل ... تلك هي المعضلة الأساسية التي يقدم لها العقد الاجتماعي الحل (٣) » .

يقول روسو أن هناك عقدا اجتماعياً ، لا كتعهد من المحكومين باطاعة الحاكم ، كما جاء في كتاب هوبز (اللويثان) « الوحش » ، بل كاتفاق الأفراد على أن يخضعوا رأيهم ؛ وحقوقهم ، وسلطاتهم لحاجات ورأي مجتمعهم ككل . وكل شخص يدخل ضمناً في مثل هذا العقد بقبوله حماية القوانين العامة . والسلطة العليا في أى دولة لا تستقر في أى حاكم — فرداً كان أو جماعة — بل في « الإرادة العامة » للمجتمع ، وتلك السيادة لا يمكن التخلي عنها أبداً وإن جاز تفويضها جزئياً إلى حين .

ولكن ما هذه « الإرادة العامة » ؟ أمى إرادة جميع المواطنين ؛ أم إرادة الأغلبية فقط ؟ ومن الذين يعتبرون مواطنين ؟ أنها ليست إرادة الجميع ، لأنها قد تناقض كثيراً من الإرادات الفردية . ولا هى دائماً إرادة الأغلبية الذين يعيشون (أو يصوتون) في لحظة بعينها ، بل هى إرادة المجتمع باعتباره صاحب حياة وواقع مضافين إلى حيوات وإرادات الأعضاء الأفراد . (وروسو ، كمفكر واقعى من العصر الوسيط ، ينسب للجماعة مجتمعة ، أو للفكرة العامة ، واقعا بالإضافة إلى واقع أعضائها الأفراد . فالإرادة العامة أو « روح الجماعة » يجب أن تكون الصوت المعبر لا عن المواطنين الأحياء فحسب ، بل الأموات أو الذين لم يولدوا بعد ، ومن ثم فالذى يعطيها طابعها ليس هو الإرادات الراهنة فحسب ، بل تاريخ الجماعة الماضى وأهدافها المستقبلية . وما أشبهها بأسرة عريقة تفكر في نفسها على أنها واحدة على مر الأجيال ، وتكرم أسلافها ، وتحمى أخلاقها — (بمعنى أن أباً من الآباء قد يدفعه التزامه قبل حفدته الذين لم يولدوا بعد إلى مناقضة رغبات أبنائه الأحياء ، وأن سياسياً ما قد يشعر بأنه ملتزم بالتفكير لابلغة انتخاب واحد بل أجيال (*) كثيرة .) ومع ذلك فإن (صوت الأغلبية ملزم دائماً للباقيين جميعاً^(٤)) . ومن له حق التصويت ؟ كل مواطن^(٥) . ومن المواطن ؟ واضح أنه ليس كل بالغ ذكر . وروسو غامض جداً في هذه النقطة ، ولكنه يمتدح دالامبير لتفريقه بين

(*) العبارة المقتواة بين القوسين تفسير اجتهدى وليست واردة صراحة في روسو .

« طبقات الناس الأربعة ٠٠٠ الذين يسكنون مدينتنا (جنيف) ، وطبقتان من هؤلاء فقط تؤلفان الشعب . ولم يفهم كاتب فرنسى آخر ٠٠٠ المعنى الحقيقى لكلمة المواطن (٦) .

يقول روسو أن القانون ، فى الحالة المثالية ، ينبغى أن يكون التعبير عن الإرادة العامة . فالإنسان بفطرته يغلب عليه الخير ، ولكن له غرائز يجب التحكم فيها ليصبح المجتمع أمراً ممكناً . وليس العقد الاجتماعى تمجيد « حالة الطبيعة » فرسو يتكلم لحظة كما يتكلم لوك أو مونتسكيو لابل فولتير :

« ان الانتقال من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية يتمخض عن تغير ملحوظ جداً فى الإنسان ، لأنه يحل القانرن محل الغريزة فى سلوكه ، ويضيق على أفعاله ، الفضيلة التى كانت تعوزها من قبل ، ومع أنه فى هذه الحالة (المدنية) يحرم نفسه من بعض المنافع التى تلقاها من الطبيعة . إلا أنه يكسب نظير ذلك منافع أخرى عظيمة جداً ، فقدراته تحفر حفراً شديداً وتطور تطويراً كبيراً ، وأفكاره توسع كثيراً وروحه كلها تسمو سمو عظيم . ولولا أن مساوىء حالته الجديدة كثيراً ما تهبط به إلى مستوى أدنى من ذلك الذى تركه ، لكان عليه أن يبارك على الدوام تلك اللحظة السعيدة التى نقلته من حالته الأولى إلى غير رجعه ، والتى جعلته كائناً ذكياً وإنساناً بدلاً من أن يظل حيواناً غيباً عديم الخيال (٧) .

وهكذا نجد روسو (الذى تكلم يوماً ما كما بتكلم فوضوى لا يفلسف كلامه تماماً) يناصر بكلية قداسة القانون ، إذا عبر القانون عن الإرادة العامة . فإذا لم يتفق فرد ما كما يحدث فى حالات كثيرة . مع تلك الإرادة كما يعبر عنها فى القانون ، حق للدولة إكراهه على الخضوع (٨) . وليس هذا انتهاكاً للحرية بل صيانة لها ، حتى للفرد المقاوم ، لأنه بفضل القانون وحده يستطيع الفرد فى الدولة المدنية أن يتمتع بتحرره من العدوان ، والسرقة ، والاضطهاد ، وتشويه السمعة ، وعشرات الشرور الأخرى . ومن ثم فإن المجتمع بإكراهه الفرد على طاعة القانون إنما « يكرهه على أن يكون حراً » .

الواقع ^(٩) . وهذه هي الحالة على الأخص في الجمهوريات ، لأن طاعة القانون الذى نضعه لأنفسنا هي الجزية ^(١٠) .

والحكومة جهاز تنفيذى تفوض فيه الإرادة العامة مؤقتا بعض سلطاتها . وينبغي أن تكون فكرتنا عن الدولة لا على أنها الحكومة فقط ، بل الحكومة ، والمواطنون ، والإرادة العامة أو روح الجماعة . والدولة تكون جمهورية إذا حكمها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى اعتبار الملكية جمهورية إذا حكمها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى اعتبار الملكية جمهورية . أما إذا كانت الملكية مستبدة — أى إذا كان الملك يضع القوانين وينفذها — فليست هناك جمهورية أو دولة ، بل طاغية يحكم عبدا . ومن ثم رفض روسو الانضمام إلى أولئك الفلاسفة الذين امتدحوا « الاستبداد المستنير » — استبداد فردريك الثانى أو كاترين الثانية سيلا لدفع الحضارة والإصلاح قدما . وكان رأيه إن الشعوب التى تعيش فى أجواء قطبية أو مدارية قد تحتاج إلى الحكم المطلق حفاظا على الحياة والنظام ، ^(١١) أما فى المناطق المعتدلة فيحسن المزج بين الارستقراطية والديمقراطية . والارستقراطية الوراثية « أسوأ الحكومات قاطبة » ، والارستقراطية الانتخابية أفضلها ^(١٢) ، أى أن أفضل حكومة هي تلك التى تضع القوانين وتنفذها فيها أقلية من الرجال ينتخبون دوريا لتفوقهم الفكرى والخلقى .

أما الديمقراطية بوصفها حكما مباشرا بواسطة الشعب كله فقد بدت لروسو مستحيلة .

« لو أخذنا هذا اللفظ بمعناه الدقيق لم نجد قط ديمقراطية حقيقية ، ولن توجد أبداً هذه الديمقراطية . فما يناقض النظام الطبيعى أن تكون الكثرة حاكمة والقلة محكومة . وما لا يمكن تصوره أن يظل الناس مجتمعين بصفة مستمرة ليتفرغوا للشئون العامة ، وواضح أنهم لا يستطيعون إنشاء لجان لهذا الغرض دون تغيير فى شكل الحكومة » .

ثم كم من الظروف التى يصعب الجمع بينها تفترض لهذه الحكومة ؟

أولاً دولة صغيرة جداً يمكن جمع الشعب فيها عاجلاً ، ويمكن لكل مواطن فيها أن يعرف سائر المواطنين بسهولة ؛ ثانياً ، البساطة التامة في العادات ، منعاً لتكاثر الأعمال وإثارة المشاكل الشائكة ، ثم قدر كبير من المساواة في الرتب والثروات بدون أن تستطيع المساواة في الحقوق والسلطة البقاء طويلاً ؛ وأخيراً قلة الترف أو انعدامه ، لأن الترف مفسدة الأغنياء والفقراء جميعاً . للأغنياء بالاقتناء ، وللفقراء بالاشتراء . . وهذا هو ما حدا كاتباً شهيراً (مونتسكيو) إلى اعتبار الفضيلة المبدأ الأساسي للجمهوريات ، لأن هذه الظروف كلها لا يمكن توافرها بغير الفضيلة . . ولو كان هناك شعب من الآلهة لكانت حكومة ديمقراطية أما البشر فليست هذه الحكومة البالغة الكمال مما يناسبهم (١٣) .

وقد تغرى هذه الفقرات بسوء التفسير . فروسو يستخدم لفظ «الديمقراطية» بمعنى نادر أن ينسب له في السياسة أو التاريخ ، وهو أنها حكومة تشرع فيها كل القوانين بواسطة الشعب كله المجتمع في مجالس قومية . والواقع أن «الارستقراطية الانتخابية» التي فضلها هي ما يجب أن نسميه الديمقراطية النيابية . . أى الحكومة التي يتولاها موظفون يختارهم الشعب لما يفترض فيهم من صلاحية عليا . على أن روسو يرفض الديمقراطية النيابية على أساس أن الممثلين أو النواب سرعان ما يشرعون لمصلحتهم لا للخير العام . « أن الشعب الإنجليزى يعتبر نفسه حراً ولكنه يخطئ بذلك خطأ فاحشاً ؛ فهو حر فقط خلال انتخاب أعضاء البرلمان ؛ وما إن يتم انتخابهم حتى تسيطر العبودية على الشعب فلا يعود له وزن » (١٤) . فالممثلون يجب أن ينتخبوا ليشغلوا المناصب الإدارية والقضائية لا يشرعوا ، ويجب أن تشرع جميع القوانين بواسطة الشعب في جمعية عامة ، وأن يكون لتلك الجمعية سلطة إقالة الموظفين المنتخبين (١٥) . ومن ثم يجب أن تكون الدولة المثالية من الصغر بحيث تسمح لجميع المواطنين بالإجماع مراراً كثيرة . « وكلما اتسعت الدولة تقلصت الحرية » (١٦) .

أكان روسو اشتراكياً ؟ إن «المقال» الثانى نسب جميع رذائل الحضارة إلى إقرار الملكية الخاصة ، ولكن حتى ذلك المقال رأى أن هذا النظام أعمق

جدورا في البنيان الاجتماعي من أن يتيح القضاء عليه دون ثورة فوضوية مدمرة .
 « والعقد الاجتماعي » يسمح بالملكية الخاصة بشرط رقابة الجماعة ، فيجب أن
 تحتفظ الجماعة بكل الحقوق الأساسية ، ولها أن تستولي على الأملاك الخاصة
 لخير المجتمع ، ويجب أن تحدد أقصى مايسمح للأسرة الواحدة بتملكه (١٧) .
 ولها أن تؤمن على توريث الملكية ، ولكن إذا رأت الثورة تنحو إلى تركيز
 ممزق فلها أن تستخدم ضرائب التركات لإعادة توزيع الثروة والتخفيف من
 عدم المساواة الاجتماعي والاقتصادي . « يجب أن يتجه التشريع دائماً إلى
 الحفاظ على المساواة بالضبط لأن قوة الأشياء تتجه دائماً إلى القضاء عليها (١٨) .
 ومن أهداف « العقد الاجتماعي » أن يصبح الأفراد الذين قد يكونون مختلفين
 قوة أو ذكاء متساوين في الحقوق الاجتماعية والقانونية (١٩) . ويجب أن
 تفرض الضرائب العالية على الكماليات . « ان الحالة الاجتماعية لاتقيد الناس
 إلا إذا ملك كل فرد شيئاً ولم يملك أحد فوق ما ينبغي (٢٠) » . ولم يورط
 روسو نفسه في القول بالجماعية ، ولا خطرت بباله قط (دكتاتورية
 البرولتاريا) ، وكان يحقر البرولتاريا الوليدة في المدن ، واتفق مع فولتير
 على تسميتها (الرعاع أوحشالة المجتمع) (٢١) . وكان مثله الأعلى
 طبقة فلاحين تعيش مستقلة رخية الحال ، وطبقة وسطى فاضلة تتألف من
 أسركأسرة فولمار في « هلويز الحديدية » وسيتهمه بير - جوزف برودون
 بتمجيد البورجوازية (٢٢) »

ترى أى مكان للدين في الدولة ؟ لقد شعر روسو أن دينا ما لاغنى
 عنه للفضيلة ، « ما قامت دولة قط دون أساس ديني » (٢٣) .

« ان الحكماء أن حاولوا الكلام بلغتهم إلى القطيع العام بدلا من لغته
 لن يستطيعوا ايصال ما يريدون إلى أفهامهم . . . ولكي يمكن شعب
 ناشئ من ايثار الأصول السليمة للنظرية السياسية . . . يجب أن تصبح
 النتيجة سبباً : فالروح الاجتماعية التي ينبغي أن تخلقها هذه المؤسسات يجب
 أن تسود أساسها نفسه ، ويجب أن يكون الناس أمام القانون ما يجب أن
 يصبحوه بالقانون . إذن فالمرشع لعجزه عن الالتجاء إلى القوة أو للعقل

يجب أن يلجأ إلى سلطة من نوع مختلف ، قادرة على الكبح دون عنف . .
هذا ما دعا آباء الأمم في جميع العصور إلى الإلتجاء للتدخل الإلهي ،
ونسبة حكمهم هم لآلهم ، حتى ، تطيع الشعوب بخضوعها لقوانين الدولة
كما تخضع لقوانين الطبيعة ، . . دون عائق ، وتحتمل نير الخير العام
عن طيب خاطر » (٢٤) .

ولين بتشبه روسو دائماً بهذا الرأي السياسي القديم في الدين ، ولكنه
في « العقد الاجتماعي » جعل من الإيمان فوق الطبيعي أداة للدولة ، واعتبر
القساوسة على أفضل تقدير ضرباً من الشرطة السماوية . على أنه رفض اعتبار
الكنيسة الكاثوليك الرومان كذلك ، لأن كنيستها زعمت أنها فوق الدولة ،
فهى إذن قوة مفسحة ، تقسم ولاء المواطن (٢٥) . وفضلاً عن ذلك فإن
المسيحي — كما زعم — إذا أخذ لاهوته مأخذ الجدل ، يركز إهتمامه على الحياة
الآخرة ، ولا يقيم وزناً يذكر لهذه الحياة الدنيا ، فهو إلى هذا الحد مواطن
ضعيف . ومثل هذا المسيحي يكون جندياً وسطاً ؛ قد يقاتل دفاعاً عن
وطنه ، ولكنه لا يفعل إلا تحت إكراه وأشراف مستعمرين ، وهو لا يؤمن
بشن الحرب دفاعاً عن الدولة ؛ لأن له وطناً واحداً فقط — هو الكنيسة .
والمسيحية تبشر بالعبودية والتبعية الطبيعة ؛ ومن ثم كانت روحها موالية جداً
للاستبداد بحيث أن الطغاة يرحبون بتعاونها . « أن المسيحيين الحقيقيين خلقوا
ليكونوا عبيداً » (٢٦) . وهكذا أتفق ورسو مع ديدرو ، وأستبق جيون ؛
وكان في تلك الفترة أشد عنفاً في عداوته للكاثوليكية من فولتير ؛ ومع ذلك
شعر بأن ديناً ما لا غنى عنه ؛ « ديناً مدنياً » تصيغه الدولة وتفرضه قرضاً على
جميع سكانها . أما عن العقيدة :

« فأن عقائد الدين المدنى يجب أن تكون قليلة ؛ بسيطة ؛ دقيقة العبارة ؛
دون شروح أو تعليقات . فوجود إله قادر ؛ ذكى ؛ خبير ؛ ذى بصيرة
وتدبر ؛ ثم حياة آخرة ؛ وسعادة الأبرار ؛ وعقاب الأشرار ؛ وقداسة
العقد الاجتماعى والقوانين ؛ تلك هى عقائد الدين الإيجابية » (٢٧) .

وهكذا اعترف روسو بعقائد المسيحية الأساسية ؛ على الأقل لأغراض

سياسية ؛ على حين رفض أخلاقياتها لغلوها في المسألة والدولية . — على العكس تماماً ومما درج عليه الفلاسفة من الاحتفاظ بأخلاقيات المسيحية مع رفض لاهوتها . وقد سمح بأديان أخرى في دولته الوهمية ؛ بشرط عدم تعارضها مع العقيدة الرسمية . وهو يتسامح مع الأديان « التي تتسامح مع غيرها » ؛ أما من يجسر على القول « بأنه لاخلاص خارج الكنيسة » فيجب طرده من الدولة ، إلا أن تكون الدولة هي الكنيسة ، والملك هو حبرها الأعظم (٢٨) . « ولا يسمح بانكار البنود الواردة في ديانة الدولة .

« وإذا كانت الدولة لا تستطيع أكراه أحد على الإيمان بهذه البنود ، فإن في استطاعتها أن تنفيه ، لا لنزديقه ، بل بوصفه كائناً أرسقراطياً ، عاجزاً عن محبة القوانين والعدالة محبة صادقة ، وعن بذل حياته عند الحاجة في سبيل الواجب . وإذا سلك إنسان — بعد إقراره بهذه العقائد علانية — مسلك من لا يؤمن بها ، كان عقابه الموت (٢٩) » .

وهذه الجملة الأخيرة هي أشهر الجمل في « العقد الاجتماعي » بعد « ولد الإنسان حراً وهو في كل مكان مكبل بالأغلال » وإذا أخذت بمنطوقها الحرفي كان معناها إعدام كل من يسلك مسلك من لا يؤمن بالله ، أو الجنة أو النار ، ولو طبقت على باريس ذلك الزمان لأنضبت تلك العاصمة من أهلها . ولعل حب روسو للعبارات المسرفة التي تهز القراء طوح به إلى أن يقول أكثر مما يعني . ولعله تذكر مجمع أوجزنورج (١٥٥٥) الذي وافق فيه كل الأمراء الموقعين على قراراته على أن يكون لكل منهم الحق في أن ينفي من أملاكة أي شخص لا يقبل مذهب الأمير . وفي قوانين جنيف إذا أخذت حرفياً (كما حدث في حالة سرفيتوس) سابقة لوحشية روسو المفاجئة . وقد اعتبرت أثينا القديمة « رفض الأعراف بالآلهة الرسميين » جريمة كبرى ، كما حدث في نفي أناكساجوراس وقتل سقراط بالسم ، وكان هذا بالمثل القدر الذي بررت به روما الامبراطورية لضطهادها للمسيحيين ، وأخذاً برأى روسو هذا في معاملة المجرمين يمكن أن يوصف الأمر باعتقاله بأنه من أفعال المحبة المسيحية .

أكان « العقد الاجتماعي » كتابا ثوريا ؟ لا ونعم . فهنا وهناك ، وسط مطالبة روسو بحكومة مسئولة أمام الإرادة العامة ، تهديء تأثيرته لحظات من الحذر ، كما في قوله : « لا شيء يمكن أن يعدل خطر تغيير النظام العام غير الأخطار الكبرى ، ويجب ألا تعطل السلطة المقدسة للقوانين إطلاقا ما لم تكن حياة الوطن في خطر »^(٣٠) . ومع أنه حمل الملكية الخاصة اللوم على كل الشرور تقريبا ، إلا أنه دعا إلى صيانتها لأنها ضرورة يدعو إليها ما آت إليه الإنسان من فساد لا صلاح له . وتساءل ألا تعيد طبيعة الإنسان ، بعد أن يقوم بثورة ، نظاما وعبوديات قديمة تحت أسماء جديدة ؟ « إن قوما تعودوا الخضوع لسادة لن يدعوا السيادة تتوقف . . . فهم إذ يحسبون الاباحية حرية ، تسلمهم ثوراتهم إلى أيدي ماضلين لا يزيدونهم إلا رسوفا في إغلاهم^(٣١) » .

ومع ذلك كان صوت روسو أكثر أصوات العهد ثورية . ففي هذا الكتاب كان خطابه موجها لكثرة الشعب ، وإن غض من شأن الجماهير ولم يثق بها في غيره من كتبه . لقد كان يعلم أنه لا مناص من عدم المساواة ، ولكنه أدانه بقوة وبلاغة . وأعلن في غير لبس أو غموض أن من حق الشعب أن يطيح بحكومة تصر على مخالفة الإرادة العامة . وبينما كان فولتير ، وديدرو ود الامبير ، ينحنون للملوك أو الأمبراطورات ، أطلق روسو على الحكومات القائمة صرخة احتجاج قدر لها أن تسمع من أقصى أوربا إلى إقصاها . وبينما إقتصر جماعة الفلاسفة ، الغارقين في « الحالة الراهنة » على الدعوة لإصلاح تدريجي لشرور معينة ، هاجم جان — جاك النظام الاقتصادي ، والاجتماعي ، والسياسي بجملته ، وبشمول بدا معه كل علاج مستحيلا إلا علاج الثورة . ثم أعلن أنها آتية : « محال أن تعمر ممالك أوربا الكبرى أكثر مما عمرت . لقد كان لكل منها فترة مجدها ، ومآلها بعدها إلى الأضمحلال . . . إن الأزمة تقترب ، ونحن على شفا ثورة^(٣٢) » . وتنبأ بوقوع تغييرات بعيدة المدى بعد أن تنشب هذه الثورة : « ستتطلع إمبراطورية روسيا إلى غزو أوربا ، وستغزي هي نفسها . وسيصبح التتار — رعاياها أو جيرانها — ساداتها وسادتنا ، بثرة أراها آتية لا ريب فيها^(٣٣) » .

على أن « العقد الاجتماعي » الذي نرى في نظرة مؤخره أنه كان أكثر كتب روسو ثورية ، أثار ضجة أقل كثيراً مما أثارته « هلويز الجديدة » . فلقد كانت فرنسا مهياة للانفراج العاطفي والحب الرومانسي ، ولكنها لم تنهأ لمناقشة الأطاحة بالملكية . وكان هذا الكتاب أكثر ما أنتج روسو إلى ذلك الحين من حجج مدعمة ، ولم يكن تتبعه سهلاً كتتبع دعايات فولتير المتألقة . ونحن الذين راعنا مالقى من ذبوع متأخر ، يدهشنا أن نعلم أن شعبيته وتأثيره بدأ بعد الثورة لا قبلها^(٣٤) . ومع ذلك نرى دالامبير يكتب لفولتير في ١٧٦٢ قائلاً : « لا جدوى من مهاجمة جان — جاك أو كتابه بصوت عال جداً ، فهو أشبه بملك في السوق (« ليزال »)^(٣٥) — أي بين العمال الغلاظ في سوق باريس المركزيه ، و — بالتضمن — بين جماهير الشعب) . ولعل هذا كان غلوا في القول ، ولكن لنا أن نعتبر عام ١٧٦٢ تاريخاً لتحول الفلسفه من مهاجمة المسيحية إلى نقد الدولة .

وقل من الكتب ما أثار مثل هذا النقد الكثير . وقد أشر فولتير على نسخه من « العقد الاجتماعي » بردود على الهامش ، فرداً على ما أشار به روسو من إعدام من يذنب بالكفر الأيجابي كتب « كل إكراه في العقيدة مردول »^(٣٦) . ويذكرنا العلماء بقدم الدعوى بأن السيادة مسنقره في الشعب ، فقد قدم ما رسيليوس البادواوى ، ووليم أوكم ، وحتى اللاهوتيون الكاثوليك أمثال بيللارمين ، وماريانا ، وسواريز ، هذه الدعوى كأنها الضربة خلف ركب الملوك . وقد ظهرت من قبل في كتابات جورج بوكانان وجروتيوس ، وملتن ، والجرنون سلتى ، ولوك ، وبوفندورف . . . إن « العقد الاجتماعي » شأنه شأن فلسفه روسو السياسية والأخلاقية كلها تقريباً ، هو صدى وأنعكاس لجنيف بقلم مواطن على بعد كاف يتيح له تمجيده دون أن يحس بمخالها . لقد كان الكتاب مزيجاً من جنيف وأسبرطة ، من « قواعد » كلفن و « قوانين » إفلاطون .

وبين عشرات النقاد ذلك التناقض بين النزعه الفردية في مقال « روسو وحرفية القانونية في « العقد الاجتماعي » . لقد رفض فيلمر في كتابه Patriarcha

(١٦٤٢) قبل مولد روسو بزمن طويل الفكرة التي تزعم أن الناس ولدوا متساوين ، فهم في ميلادهم خاضعون للسلطان الأبوي ولقوانين الجماعة وعاداتها . وروسو نفسه ، بعد الصرخة الأولى للدفاع عن الحرية ، أخذ يبتعد عن الحرية أكثر فأكثر متجها إلى النظام — إلى خضوع الفرد للارادة العامة . والتناقضات التي تلاحظها في مؤلفاته هي أساساً بين خلقه وفكره ، فلقد كان فردياً متمرداً بحكم مزاجه ، وعلته ، وأفتقاره إلى الانضباط ، وكان بيثياً (لاشيوعياً إطلاقاً ، ولا حتى جماعياً) بحكم إدراكه المتأخر لا استحالة تكوين المجتمع الفعال من الحوارج . وعلينا أن نحسب حساً للتطور ، فأفكار إنسان ما هي دالة خبرته وعمره ، ومن الطبيعي للمفكر أن يكون فردى النزعة في شبابه — فيحب الحرية ويبحث عن المثل العليا — وأن يكون معتدلاً حين ينضج ، فيحب النظام ويرتضى الممكن . وقد ظل روسو من الناحية العاطفية طفلاً طوال حياته ، ينكر العرف ، والمحظورات ، والقوانين ، ولكنه حين فكر تفكيراً منطقياً أدرك أن في الأماكن بقاء الكثير من الحريات في نطاق القيود الضرورية للنظام الاجتماعي ، وانتهى إلى أن يدرك أن الحرية في مجتمع ما ليست ضحية القانون بل ثمرته — وأنها تتسع ولا تضيق بطاعة الجميع لقيود يفرضونها على أنفسهم جماعة . وفي وسع الفوضويين الفلاسفة والشموليين السياسيين جميعاً أن يستشهدوا بروسو تأييداً لدعواهم (٣٧) ، وكلا الفريقين لاحق له في الاستشهاد ، لأنه اعترف بأن النظام أول قوانين الحرية ، والنظام الذي دافع عنه يجب أن يكون التعبير عن الإرادة العامة .

وقد نفى روسو أى تناقضات حقيقية في فلسفته فقال « كل أفكارى متسعة ، ولكنى لا أستطيع عرضها كلها مرة واحدة (٣٨) » . وسلم بأن كتابه « في حاجه إلى أن يكتب من جديد ، ولكنى لست أملك من العافية ولا الوقت ما يسمح لى بذلك (٣٩) » ، فحين كانت العافية متاحة له سلبه الأضطهاد وقته ، وحين كف الأضطهاد وأتيح له الفراغ ، كانت العافية قد تضاءلت . وفي تلك السنوات الأخيرة بات يتشكك في حججه ، « أن الذين يفاخرون بأنهم فهموا « العقد الاجتماعي » فهما تاماً أذكى منى » . وقد أغفل تماماً ، من الناحية العملية ، المبادئ التي وضعها فيه ، ولم يخطر بباله قط أن

يطبقها حين طلب إليه وضع دستور لبولندة أو كورسيكا . ولو أنه مضى في خط التغير الذي اتبعه بعد عام ١٧٦٢ لانتهى به المطاف إلى حضن الأرستقراطية ، والكنيسة ، وربما تحت سكين الجيلوتين .

٢ - اميل

(أ) تربيته

في وسعنا أن نفتقر الكثير لكاتب استطاع في خمسة عشر شهراً أن يصدر « هلويز الحديدية » (فبراير ١٧٦١) و « العقد الاجتماعي » (إبريل ١٧٦٢) ، « واميل » (مايو ١٧٦٢) . وقد نشر ثلاثها في أمستردام ، ولكن « اميل » نشر في باريس أيضاً ، بذن من الحكومة حصل عليه ماالزيرب العطوف بمخاطرة كبيرة . ومن حق مارك - ميشيل راى ، الناشر الأمستردامى ، علينا أن نحياه نحيه عابرة ، ذلك أنه بعد أن كسب أرباحاً لم يتوقعها من هلويز أوقف على ترينز معاشاً سنوياً مدى الحياة قدره ٣٠٠ جنيه ، وإذ تنبأ لاميل برواج أعظم من « العقد الاجتماعي » (الذى كان قد اشتراه بألف جنيه) دفع لجان - جاك ستة آلاف جنيه نظير المخطوطة الحديدية الأطول من سابقتها .

أما الكتاب فكان بعضه ثمرة مناقشاته مع مدام دبينيه عن تربية ولدها ، واتخذ أول شكل له في مقال صغير كتب - ليسر أمأ طيبة قادرة على أن تفكر - وهى مدام دشنونسو ، أبنة مدام دويان . وقد قصد به روسو أن يكون تذييلاً لقصته « هلويز الحديدية » : فكيف ينبغي أن ينشأ أبناء جولى ؟ وخامره الشك لحظه في صلاحية رجل أودع كل إطفاله في ملجأ للقطاع ، وفشل معلماً خاصاً في أسرة مابليه ، للكلام في موضوع الأبوة والتربية . ولكنه كعادته وجد لذة في إطلاق حبل خياله على غاربه دون أن يعوقه معوق من التجربة . ودرس مقالات « مونتاني » و « تليماك فنيلون » ، ورسالة في الدراسات لرولان ، وكتاب لوك « خواطر في التربية » . وكان « مقاله » الأول تحدياً له ، لأنه صور الإنسان خيراً بفطرته ولكن أفسدته الحضارة بما فيها التربية . فهل في الأمكان الاحتفاظ بهذا الخير الفطرى وتنميته بالتربية

الصحيحة ؟ لقد أجاب هلفتيوس قبيل ذلك بأن هذا ممكن ، وذلك في كتابه « عن العقل » (١٧٥٨) ، ولكنه قدم حجة لا مخطط .

أما روسو فقد استهل كتابه برفض الطرق القائمة لأنها تلقن ، بالصم عادة ، أفكارا بالية فاسدة ، وتحاول جعل الطفل آلة طيعة في مجتمع منحل ، وتمنع الطفل من التفكير والحكم لنفسه ، وتشوّهه فتهبط بمستوى قدراته ، وتلوح بملاحظات تافهة وأقوال قديمة مبتذلة . وقد أحمّد هذا التعليم المدرسي ككل الحوافز الفطرية ، وجعل ، التربية عذابا يتوق كل طفل إلى تجنبه . ولكن التعليم يجب أن يكون عملية سعيّذة فيها تفتح طبيعي ، وتعلم من الطبيعة والتجربة ، وتنمية حرة لقدرات الطفل نحو حياة فياضة لذيدة . يجب أن تكون « فن تدريب الناس »^(٤١) « والارشاد الواعي للجسم النامي ليبلغ الصحة ، وللخلق ليبلغ الفضيلة ، وللذهن ليبلغ الذكاء ، وللوجدان ليبلغ ضبط النفس وحب العشرة والسعادة .

وكان روسو يؤثر أن يكون هناك نظام تعليم عام تقوم عليه الدولة ، ولكن بما أن التعليم العام كان يومها في يد الكنيسة فقد أوصى بتعليم خاص يضطلع به معلم خاص أعزب ينقد أجراً نظير تكريس سنين كثيرة من حياته لتلميذه . وعلى هذا المعلم أن يبعد الطفل ما أمكن عن أبويه وأقاربه مخافة أن تصل إليه العدوى من رذائل الحضارة المتراكمة . وأضاف روسو على بحثه صبغة إنسانية بتخيله أنه قد فوض بكامل السلطة تقريرا ليربي غلاماً طيباً جداً يدعى إميل . وهي فكرة لا يمكن تصديقها ، ولكن روسو وفق في أن يجعل هذه الصفحات — وعددها ٤٥٠ — أمتع كتاب ألف في التربية إطلاقاً . وقد تناول كانط « إميل » ليقرأه فاستغرق في قراءته استغراقاً أنساه الخروج للتمشي في نزهته اليومية^(٤٢) .

ومادامت الطبيعة ستكون الهادي والمرشد للمعلم ، فسيعطى الطفل كل الحرية التي تسمح بها سلامته . وسيبدأ باقناع مربيته بأن تحرر الرضيع من أقمظته لأنها تعوق نموه وتطور أطرافه تطورا سليما . ثم يقنع أمه بارضاع طفلها بدلا من أن تعهد به لرضعته ، لأن المرضعة قد تؤذيه بالقسوة أو الإهمال ،

أو قد تظفر منه - بفضل عنايتها الصادقة به - بتلك المحبة التي يجب بالطبيعة أن توجه للأم باعتبارها أول مصدر ورباط لوحدة الأسرة والنظام الأخلاقي . وهنا ساق روسو عبارات كان لها تأثير جدير بالاعجاب على الأمهات الشابات في الجيل الجديد :

« أتريدون أن تردوا الناس جميعاً إلى واجباتهم الفطرية ؟ إبدأوا بالأم إذن ، وسوف تدهشكم النتائج . فكل الشرور تأتي في أعقاب هذه الخطيئة الأولى ... والأم التي يغيب أطفالها عن بصرها لا تكتسب الاحترام الكثير ، فليس هنا حياة أسرية ، وروابط الطبقة لا تتقوى بروابط العادة ، وليس هناك وجود بعد للآباء والأمهات والأخوة والأخوات . فهم أغراب تقريباً ، فكيف يحب بعضهم بعضاً ؟ ان كلا منهم يفكر في نفسه .

« أما إذا تنازلت الأمهات بإرضاع أطفالهن ، فسيكون هناك إصلاح في الخلق سينتعش الشعور الفطري في كل قلب ، ولن تشكو الدولة فقراً في عدد المواطنين . وهذه الخطوة الأولى وحدها ستعيد المحبة المتبادلة ومباهج البيت خير ترياق للرديلة . عندها يغدو لعب الأطفال الصاخب متعة بعد أن كنا نحسبه شديد الازهاق لنا ، ويزداد اعزاز الأم والأب بهما لبعض . ويقوى رباط الزواج . . . وهكذا يأتي الشفاء من هذا الشر الواحد باصلاح شامل ، فتستعيد الطبيعة حقوقها . وإذا أصبحت النساء أمهات صالحات أصبح الرجال أزواجاً وآباء صالحين (٤٣) .

هذه الفقرات المأثورة جعلت إرضاع الأمهات لأطفالهن شطراً من تغير العادات الذي بدأ في العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر . وكان بوفون قد أذاع مثل هذا النداء في العقد السابق ولكنه لم يصل إلى نساء فرنسا . وبدأ الآن ظهور أجمل الصدور في باريس أعضاء للأمومة فضلاً عن كونها مفاتن جنسية ساحرة .

وقسم روسو حياة تلميذه التعليمية إلى ثلاث ، فترات إثنتي عشرة سنة طفولة ، وثمانى سنوات صبي ، وعمر غير محدود للإعداد للزواج والأبوة ، وللحياة

الاقتصادية والاجتماعية . ففي الفترة الأولى يكون التعليم كله تقريباً بدنياً وحلقياً ، وعلى الكتب والتعلم من الكتب ، وحتى الديانة أن تنتظر نمو العقل ، فإلى أن يبلغ اميل الثانية عشرة لن يعرف كلمة في التاريخ ، ولا يكاد يسمع ذكر الله ^(٤٤) . فترية الجسم يجب أن يشرع فيها أولاً . ومن ثم يربى لميل في الريف لأنه المكان الوحيد الذي يمكن أن تكون الحياة فيه صحية طبيعته :

لم يخلق البشر ليتكبدوا في كثران نمل ، بل لينتشروا على الأرض ليفلحوها . وكلما حشدوا معاً فسدوا . والمرضى والذيلة هما النيجتان المحتومتان للمدن المكتظة . فأنفاس الإنسان تفتك باخوانه البشر . . . والإنسان تفرسه مدنا ، ولن تنقضى اجيال قليلة حتى ينقرض النوع الإنساني أو ينحط ، فهو في حاجة إلى التجديد ، وتجديده يكون دائماً من الريف . فأرسلوا أطفالكم إلى الحلاء ليجدوا أنفسهم . أرسلوهم ليستعيدوا في الحقل المكشوف تلك العافية التي فقدوها في الهواء الفاسد الذي يملأ مدنا المزدهمة ^(٤٥) .

شجعوا الصبي على حب الطبيعة والحلاء ، وعلى تربية عادات البساطة وعلى العيش على الأطعمة الطبيعية . وأى طعام ألد من ذلك الذي زرعه المرء في حديقته ؟ أن الغذاء النباتي أصبح الأغذية ومن شأنه أن يقلل كثيراً من الأمراض والعلل ^(٤٦) .

ان عدم اكتراث الأطفال باللحم من الأدلة على أن الميل لأكل اللحم غير طبيعي . وهم يؤثرون الأطعمة النباتية واللبن والفاكهة الخ . . فحذار أن تغيروا هذا الميل الفطري وتجعلوا أطفالكم أكلة للحوم . افعلوا هذا من أجل أخلاقهم أن لم تفعلوه من أجل صحتهم ، إذ كيف نعال ان كبار أكلة اللحوم هم في العادة أشد ضراوة وقسوة من غيرهم من البشر ^(٤٧) .

وبعد الغذاء الصحيح ، والعادات الطيبة يعلم لميل البكور في الاستيقاظ . وأرأينا الشمس تشرق في منتصف الصيف وسراها تشرق في عيد الميلاد ..

لستنا تؤومى الضحى ، فنحن نلتذ بالبرد^(٤٨) . وإميل يكبر من الاستحمام
وكلما اشتد عوده قلل من حرارة الماء إلى أن يستحم أخيراً بالماء البارد ،
بل الثلج ، صيف شتاء . وتفاديا للخطر يكون هذا التغير بطيئاً ، تدريجياً ،
غير محسوس^(٤٩) . ونادراً ما يلبس على رأسه أى غطاء ، وهو عشى حافياً
طوال السنة إلا إذا خرج من بيته وحديقته . « يجب أن يعود الأطفال على
البرد لا على الحر ، فالبرد الشديد لا يضرهم إطلاقاً إذا تعرضوا له فى بواكير
حياتهم^(٥٠) » . وشجعوا محبة الطفل الطبيعية للنشاط والحركة « فلا تركوه على
السكون إن أراد الجرى ، ولا على الجرى أن أراد القعود . . . فليجر ،
وليقفز ، وليزعق ما شاء^(٥١) » . وأبعدوا عنه الأطباء ما أستطعم^(٥٢) .
ودعوه يتعلم بالممارسة لا بالكتب ولا حتى بالتعليم ، دعوه يصنع الأشياء
بنفسه ، وأكثفوا باعطائه المواد والأدوات . والمعلم الذكى يرتب المسائل
والواجبات ، ويدع تلميذه يتعلم من ضربة تصيب لإبهامة أو صدمة تصيب
قدمه . وهو يحميه من الأذى البالغ لا من الآلام التى تربيته .

إن الطبيعة خير هاد ، ويجب أن تتبع فى أمر الأذى الذى نعرفه فى
هذه الحياة :

« فلتكن قاعدتنا التى لانزاع عليها أن الدوافع الأولى للطبيعة صواب دائماً .
ليس فى القلب البشرى خطيئة أصاياه . . فلا تعاقب تلميذك أبداً ، لأنه
لا يعرف معنى الخطأ . ولا تجعاه يقول « سامحنى » . . . فهو فى أفعاله التى
لا صبة أخلاقية لها كلها لا يمكن أن يأتى خطأ من الناحية الأخلاقية ، ولا يستحق
عقاباً ولا تقريراً . . فابدأ بترك بذرة شخصيته حرة فى الإفصاح عن
نفسها ، ولا تقسره على شيء ، وبهذا يتكشف لك على حقيقته^(٥٣) » .

على أنه سيحتاج إلى التربية الخلقية ، فغيرها يصبح إنساناً خطراً تعساً .
ولكن لا تعظه . فإن أردت لتلميذك أن يتعلم العدل والرحمة كن أنت عادلاً
رحيماً فيقادك . « القدوة القدوة ! فبدونها لن تنجح فى تعليم أى شيء
للأطفال^(٥٤) » . وهنا أيضاً قد تجد أساساً طبيعياً . فالخير والشر (من وجهة
نظر المجتمع) كلاهما فطرى فى الإنسان ، وعلى التربية أن تشجع الخير

وتثبط الشر . ومحبة الذات عامة ، ولكن في الأماكن تعديلها حتى لتدفع الإنسان إلى إقحام الأخطار الداهية حفاظاً على أسرته ، أو وطنه ، أو عرضه . فهناك غرائز اجتماعية تحفظ الأسرة والجماعة كما أن هناك غرائز أنانية تحفظ الفرد^(٥٥) . والرحمة قد تنبع من محبة الذات (كما يحدث حين نحب الأبوين اللذين يغذواننا ويحمياننا) ، ولكنها قد تؤتى ثماراً شتى من السلوك الاجتماعي والمعونة المتبادلة . ومن ثم فإن نوعاً من الضمير يبدو أنه عام وغريزي .

« ألق ببصرك إلى كل أمة في الأرض ، واقرأ كل سفر من أسفار تاريخها ، ففي جميع ألوان العبادة العجيبة القاسية هذه ، وفي هذا التنوع المذهل من العادات والتقاليد ، ستجد في كل مكان نفس الأفكار (الأساسية) أفكار الخير والشر . . . ففي أعماق قلوبنا مبدأ فطري للعدل والفضيلة نحكم بمقتضاه — رغم قواعدها — على أفعالنا ، أو أفعال غيرنا ، أخير هي أم شر ، وهذا المبدأ هو الذي نسميه الضمير^(٥٦) » .

ومن ثم ينطق روسو في مناجاة سنجدتها تردد حرفياً تقريباً في كانط :
« إيه أيها الضمير ! أيها الضمير ! أيها الفطرة المقدسة ، والصوت الخالد الآتي من السماء ، الهادي الأمين لإنسان هو جاهل بمحدود حقاً ، ولكنه ذكي حر ، أيها القاضي المعصوم والفيصل بين الخير والشر ، الذي يجعل الإنسان شبيهاً بالله ، فيك يكمن سمو طبيعة الإنسان وفضيلة أفعاله ، لست أجد في نفسي إذا انفصلت عنك شيئاً يرغني فوق الهائم — لا شيء إلا إمتياز مؤسف — هو قدرته على أن يهيم من خطأ إلى خطأ بمعونة ذكاء طليق من كل قيد وعقل لا يعرف له مبدأ^(٥٧) » .

إذن فالتربية العقلية يجب ألا تبدأ إلا بعد تكوين الخلق الفاضل . ويسخر روسو من نصيحة لوك بمناقشة الأطفال منطقياً :

« أن الأطفال الذين كانوا يناقشون عقلياً باستمرار يبدوون لي غاية في البلاهة . فالعقل هو آخر ما ينمو من قدرات الإنسان وأسمائها . . . وأنت تريد أن تستخدمه لتدريب الطفل المبكر ؟ وجعل الإنسان منطقياً هو الحجر الأعلى

في التربية الحسنة ، ومع ذلك تريد أن تربي الطفل عن طريق عقله . إنك إذن تبدأ من الطرف الخطأ^(٥٨) .

كلا ، بل يجب أن تؤجل التربية العقلية . « أبق ذهن الطفل (فكره) عاطلاً أطول ما تستطيع^(٥٩) » ، فإذا كانت له آراء قبل أن يبلغ الثانية عشرة فثق أنها ستكون سقيمة . ولا تزعجه في هذه السن بالعلم ، فهذا سباق لأنها له ، كل ما نكتشفه فيه إنما يزيدنا جهلاً وحروراً أحرق^(٦٠) . فدع تلميذك يتعلم حياة الطبيعة وأساليبها بالتجربة ، دعه يستمتع بالنجوم دون الزعم بأنه يتتبع تاريخها .

ويمكن أن تبدأ التربية العقلية في الثانية عشرة ، ويجوز لإميل أن يقرأ بعض الكتب . ويستطيع أن ينتقل من الطبيعة إلى الأدب بقراءة روينسن كروزو ، لأنها قصة رجل جاز - على جزيرة - بمختلف المراحل التي جاز بها الناس من الهمجية إلى المدنية . ولكن إميل لا يكون قد قرأ كتباً كثيرة حين يبلغ الثانية عشرة ، وسيضرب صفحاً عن الصالونات والفلاسفة ، ولن يكثر للفنون ، لأن الجمال الحق الوحيد كائن في الطبيعة^(٦١) : ولن يصبح أبداً « موسيقياً ، أو ممثلاً ، أو مؤلفاً^(٦٢) » ، بل سيكون قد اكتسب مهارة كافية في حرفة ما ليكسب قوته بعمل يديه أن اقتضته الظروف يوماً ما (وبعد ثلاثين عاماً سيندم الكثير من المهاجرين الذين لا حرفة لهم على أنهم سخرُوا كما سخر فولتير من النجار النبيل)^(٦٣) . على أية حال يجب أن يخدم إميل المجتمع بيده أو بعقله (رغم أنه وارث لثروة متواضعة) ، « فالرجل الذي يأكل وهو عاطل ما لم يكسبه بجهده ليس إلا لصاً^(٦٤) » .

(ب) ديانتـه

وأخيراً نستطيع أن نحدث إميل عن الله إذا بلغ الثامنة عشرة :

« إنى أعلم أن الكثير من قرأى سيد هشهم أن يجدوني متبعاً سير تلميذى خلال سنه الأولى دون أن أحدثه في الدين . إنه وهو في الخامسة عشرة لن يعرف حتى أن له نفساً ، وقد لا يكون في الثامنة عشرة مهياً بعد للإمام

بهذه الحقيقة ولو كان على أن أصور الغباوة في أفجع أشكالها لصورت معلما متحذقا يلقي التعليم الديني للأطفال ، ولو أردت أن أخرج طفل عن طوره لطلبت إايه أن يشرح ما تعلمه في دروسه الدينية . . . لاشك أننا يجب ألا نضيع لحظة واحدة إن وجب أن نكون مستحقين للخلاص الأبدي ، ولكن إذا كان تكرار الفاظ معينه يكفي للحصول على هذا الخلاص فلست أرى لم لا نملأ السماء بالزراير والعقاق كما نملؤها بالأطفال (٦٥) » .

ثم جرد روسو أمضى سهامه على جماعة الفلاسفة ، رغم إعلانه هذا الذي أثار غضب رئيس أساقفة باريس . وليتصور القارئ فولتير أو ديدرو يقرءان هذا الكلام :

« لقد استشرت جماعة الفلاسفة ، فوجدتهم كلهم سواء في الغرور ، والجزم ، والدجماطية ، يتظاهرون — حتى في شكوكيتهم المزعومة — بأنهم عليهمون بكل شيء ، لا يثبتون شيئا ، ويهزأ بعضهم ببعض . وقد بدت لي . . . هذه الخاصة الأخيرة ، النقطة الوحيدة التي أصابوا فيها . فهم ضعاف في الدفاع رغم تبجحهم في الهجوم . زن حججهم تجدها كلها مدمرة ، وأحص أصواتهم تجد كلا منهم يتحدث عن نفسه وحده . . . وما من واحد فيهم — إن تصادف واكتشف الفرق بين الباطل والحق — لا يؤثر باطله على الحق الذي اكتشفه غيره من قبله . فأين الفيلسوف الذي يعف عن خداع الدنيا بأسرها في سبيل مجده (٦٦) » .

ومع أن روسو واصل تنديده بالتعصب ، فإنه على نقيض بيل أدان الكفر لأنه أشد خطرا من التعصب . وقدم لقراءه « إعلانا بالإيمان » رجا به أن يحول التيار من إلحاد دوالباخ ، وهلفتيوس ، وديدرو ، عوداً إلى الإيمان بالله ، وحرية الإرادة ، والخلود . وقد تذكر الرئيسين الدينيين — جيم وجاتييه — اللذين التقى بهما في صباه ، فمزج بينهما وأخرج من المزيج كاهنا وهما في سافوى ، وأنطق هذا الكاهن الريفى بالمشاعر والحجج التي بررت (في نظر روسو) العودة إلى الدين .

ويعصور روبرو كاهن سافوي قسيساً على أبرشية صغيرة في الألب الإيطالية . وهو يعترف سرا بشيء من الشكوكية ، ويرتاب في الوحي الإلهي للأنبياء ، وفي معجزات الرسل والقديسين ، وفي صحة الأناجيل^(٦٧) ، ثم يتساءل كما تساءل هيوم « من يجرؤ على أن يخبرني كم شاهد عيان يقتضيهام إقناعنا بتصديق معجزة ما ؟ »^(٦٨) وهو يرفض صلاة التضرع ، فصلواتنا يجب أن تكون ترانيم لمجد الله ، وتعبيرات عن امتثالنا لمشيئته^(٦٩) . وهو يرى الكثير من مواد العقيدة الكاثوليكية حديث خرافة أو أساطير الأولين^(٧٠) . ومع ذلك يشعر بأنه يحسن خدمة شعبه بكتمان شكوكه ، وممارسة العطف على الجميع والبر بهم (مؤمنين وغير مؤمنين على السواء) . وأداء طقوس الكنيسة الرومانية كلها بأمانة . فالفضيلة ضرورية للسعادة ، والإيمان بالله ، وبحرية الإرادة ، وبالجنة ، وبالنار ، ضروري للفضيلة ، والأديان رغم ما قارفت من جرائم جعلت الرجال والنساء أكثر فضيلة ، أو على الأقل أقل قسوة ولؤماً مما كان يمكن أن يكونوا . فإذا بشرت هذه الأديان بعقائد تبدو لنا غير معقولة ، أو إذا ارهقنا بطقوسها ومراسمها ، وجب أن نسكت شكوكنا في سبيل الجماعة .

والدين صواب في جوهره حتى من وجهة نظر الفلسفة . ويستهل الكاهن الكتاب كديكارت بقوله « إنني موجود ولي حواس أتلقي من خلالها الانطباعات ، هذه أولى الحقائق التي تسترعى انتباهي ، وأنا مضطر إلى قبولها^(٧١) » . وهو يرفض رأى باركلي : « إن سبب أحاسيسي خارج عني ، لأنها تؤثر في سواء كان عندي داع لها أو لم يكن ، وهي تخلق وتهدم مستقلة عني . إذن توجد كيانات أخرى فضلاً عني » . ونقطة ثالثة ترد على هيوم وتسبق كانط : انني أجد لدى القدرة على المقارنة بين أحاسيسي ، إذن فقد وهبت قوة إيجابية للتعامل مع التجربة^(٧٢) . وهذا العقل لا يمكن تفسيره على أنه شكل من أشكال المادة ، فليس في فعل التفكير أمانة على عملية مادية أو ميكانيكية . أما كيف يستطيع عقل غير مادي أن يؤثر في جسم مادي . فذلك أمر يتجاوز فهمنا ، ولكنه حقيقة تدرك للتو ، ويجب ألا ننكرها لأجل الاستدلال

المجرد . وعلى الفلاسفة أن يتعلموا الاعتراف بأن شيئاً ما قد يكون حقيقياً ولو عجزوا عن فهمه - خصوصاً إذا كان يدرك بأسرع من جميع الحقائق .

والخطوة التالية (كما يسلم الكاهن) هي الاستدلال العقلي الخالص * فأننا لا أدرك الله بحسى ، ولكن استدلال عقلا على أنه كما أن في أفعال الارادية عقلا هو السبب المدرك للحركة ، كذلك هناك على الأرجح عقل كوني وراء تحركات الكون . إن الله لا يمكن معرفته ، ولكنى أشعر أنه تعالى موجود وفي كل مكان . وأبصر قصداً في مئات الحالات ، من تكوين عيني إلى حركات النجوم ، وينبغي ألا أفكر في أن أنسب إلى الصدفة (مهما ازداد تكاثرها « على طريقة ديدرو ») تكييف الوسائل وفق الغايات في الكائنات الحية ونظام العالم ، أكثر مما أنسب إلى الصدفة بجميع الحروف جميعاً لذيذا في طبع الانبياء (٧٣) .

فاذا كان هناك إله ذكى وراء عجائب الكون ، فبحال أنه سيسمح بأن يهزم الحق هزيمة دائمة . ولا بد لي من الإيمان بإله خير يؤكد انتصار الخير ، ولو لأتمشى ذلك الإيمان الكثيب بانتصار الشر . إذن يجب أن أومن بحياة آخرة ، بجنة تجزى فيها الفضيلة . ومع أن فكرة الجحيم تقززني ، وأوثر عليها الاعتقاد بأن الأشرار يصلون نار جهنم في قلوبهم ، فأنى متقبل حتى تلك العقيدة الرهيبة إذا اقتضاها ضبط الدوافع الشريرة في الإنسان . وفي تلك الحالة أتوسل إلى الله ألا يجعل آلام الجحيم خالدة (٧٤) . ومن ثم كانت فكرة المطهر باعتباره مكاناً للعقوبة الممكن اختزالها للخطاة جميعاً إلا أشدهم عناداً وعصياً أكثر انسانية من تقسيم الموتى كلهم إلى فريقين المباركين إلى الأبد ، والهابسين إلى الأبد . وهبنا عاجزين عن البرهان على وجود الجنة ، فبالها من قسوة أن ننزع من الناس هذا الرجاء الذى يعزيهم في أحزانهم ويشدد عزائمهم في هزائمهم (٧٥) . ولو انعدم الإيمان بالله وبالأخرة ، لتعرضت الفضيلة للخطر وتجردت الحياة من معناها ، لأن الحياة في الفلسفة الملحدة صدفة آليه تمر بمئات الآلام إلى موت أليم أبدي .

وعليه وجب أن نتقبل الدين على أنه في مجموعه عطية كبرى للبشر ولا حاجة بنا إلى أن نعلق أهمية كبيرة على شتى المذاهب التي مزقت المسيحية ، فكلها خسر إذا حسنت السلوك وغذت الرجاء . ومن السخف أن نفترض أن أصحاب العقائد والآلهة والأسفار المقدسة الأخرى سوف يحكم عليهم بالهلاك ، « فلولم يكن على الأرض سوى دين واحد ؛ ولو حكم على كل الخارجين عنه بالعقاب الأبدى . . . لكان إله ذلك الدين أظلم الطغاة وأقساهم »^(٧٦) . وعليه فلن يعلم إميل لونا بعينه من المسيحية ، ولكننا سنعطيه الوسيلة لأن يختار لنفسه حسبما يرثيه عقله صوابا^(٧٧) . ونخير الطرق أن نمضى في الدين الذي ورثناه عن آبائنا أو مجتمعنا . ونصيحة كاهن روسو الوهمي له هي « عد إلى وطنك ؛ وارجع إلى دين آبائك ، واتبعه بكل قلبك ولا تتخل عنه أبدا فهو بسيط جداً ومقدس جداً ، وما من دين آخر تجدد فيه الفضيلة أشد نقاء ، ولا العقيدة أكثر اشباعا للعقل »^(٧٨) .

وكان روسو عام ١٧٥٤ قد سبق إلى هذه النصيحة ، وعاد إلى جنيف وعقيدتها ، على أنه لم يف بوعده الذهاب إليها والإقامة فيها بعد أن يسوى أموره في فرنسا . وفي « رسائل من الجليل » التي كتبها بعد عشر سنوات تنكر لمعظم دين آبائه كما سئرى . وفي العقد الأخير من حياته سنجده يوصي غيره بالدين ، ولكنه لا يكاد يبدى أماراة على الإيمان الدينى أو الممارسة الدينية في حياته اليومية . واجمع الكاثوليك والكالفينيون واليسوعيون على مهاجمته هو « وعلان الإيمان » الذي ناب عن عقيدته لأنهما أساسا غير مسيحيين^(٧٩) . وصددم التعليم الذي اقترحه لإميل قراءه المسيحيين لأنهم رأوه في حقيقة تعلما لا دينيا ، وخامرهم الظن في أن قتي من أواسط الشباب ، نشأ على غير دين ، لن يعتنق ديننا بعد حين ، إلا لداعى المصلحة الاجتماعية . وقد رفض روسو عقيدة الخطيئة الأصلية والدور الفدائى الذى يؤديه موت المسيح وذلك برغم قبوله الرسمى للكلفةنية . وأبى قبول العهد القديم بوصفه كلمة الله ، وذهب إلى أن العهد الجديد « يحفل بأشياء لا يمكن تصديقها ، أشياء ينفر منها العقل »^(٨٠) . ولكنه أحب الأناجيل لأنها أعظم الأسفار تأثيرا وإلهاما للنفس .

أمكن أن يكون كتاب اجتمع له كل هذا الجلال والبساطة في وقت
معاً من عمل إنسان ؟ أيمكن أن يكون ذلك الذي احتوى تاريخه فيها مجرد
إنسان ؟ . . . أي رقة وطهر في أفعاله ، وأي نعمة تمس القلوب في تعاليمه ،
وما اسمى أقواله ، وما أعمق حكمة مواعظه ، وما أعظم إجاباته سداداً
وتميزاً وأي إنسان ، وأي حكيم يستطيع أن يحيا ويتألم ويموت دون ضعف
أو تباه ؟ . . . إذا كانت حياة سقراط وموته هما حياة فيلسوف وموته ،
فحياة المسيح وموته هما حياة إله وموته^(٨١) .

ج - حبه وزواجه

حين اختتم روسو صفحات كاهن سافوا الخمسين وعاد إلى إميل
تصدى لمشاكل الجنس والزواج .

فهل يحدث تلميذه عن الجنس ؟ لاتفعل حتى يسألك . فإذا سألك
فأخبره بالحقيقة^(٨٢) . ولكن افعل كل ما يتفق والصدق والصحة لكي تؤجل
وعيه بالجنس . على أي حال لاتنبه هذا الوعي : « إذا اقتربت السن
الحرجة فقدم للشباب من المشاهد ما هو كفيل بالحد من رغباتهم الجنسية
لا بإثارتها . . . أبعدهم عن المدن الكبيرة حيث يعجل لباس النساء
اللاتي يعرضنه في زهو وتباه ، وتعجل جراتهن دوافع الطبيعة وتستبقها ،
وحيث يعرض كل شيء على أبصارهم ، للذات يجب ألا يعرفوا عنها شيئاً
حتى يبلغوا من العمر ما يمكنهم من أن يختاروا بأنفسهم . . . وإذا أبقاهم
ميلهم للفنون في المدينة فابعدهم عن . . . حياة التبطل الخطرة . واختر
بعناية عشراءهم ، وشواغلهم وملاهيهم ، ولا تتركهم شيئاً غير الصور المحتشمة
المثيرة للشفقة . . . وغير حسهم المرهف دون أن تثبر حواسهم^(٨٣) . »

وأقلقت روسو العواقب الوخيمة لعادة يبدو أنه عرفها معرفة خبير :
« حذار أن تترك الفتى ليلاً ولا نهارة ، وعليك على الأقل أن تقاسمه
حجرتة . وإياك أن تسمح له بالذهاب إلى فراشه حتى يأخذ الكرى بجفونه ،
ثم اجعله ينهض بمجرد استيقاظه . . . فلو أنه اعتاد هذه العادة الخطرة

تلك . فسيتنبه جسمه ونفسه من تلك اللحظة فصاعداً ، وسيحمل إلى الغير آثار أضر عادة يكتسبها شاب .

ثم يضع هذا القانون لتلميذه .

« إن عجزت عن التحكم في شهواتك يا عزيزي إميل فلن أرى لك ، ولكن لن أتردد لحظة ، فلن أسمح بالروغان من مقاصد الطبيعة . وإذا كان حتماً عليك أن تكون عبداً فلن أؤثر أن أسلمك إلى طاغية قد أنقذك منه ، فهما حدث ، فلن أقدر على تحريرك من العبودية للنساء بسهولة أكثر من عبوديتك لنفسك^(٨٤) .

ولكن لا تدع رفاقك يغرونك بالذهاب إلى ما جور ! « فلم يريد هؤلاء الفتيان أغراءك ؟ لأنهم يرغبون في إفسادك فحافظهم الوحيد هو غل دفين لأنهم يرونك خيراً منهم ، فهم يريدون أن يجروك إلى الهوة التي تردوا فيها . »

والزواج خير من هذا . ولكن ممن ؟ يصف المعلم المثل الأعلى للفتاة ، والمرأة ، والزوجة ، ويحاول أن يطبع ذلك المثل على ذهن إميل هادياً له . وهدفاً في البحث عن زوجة . وكان روسو يخاف النساء المسترجلات ، المسيطرات ، الوقحات ، ويرى سقوط الحضارة في تسلط النساء المسترجلات استرجالا متزايداً على الرجال المخنثين تخنثاً متزايداً « في كل بلد تجد أن الرجال من النوع الذي تصنعه النساء فردوا النساء إلى الأنوثة ، نعد رجالا مرة أخرى^(٨٥) ، أن نساء باريس يغتصبن حقوق جنس دون أن يردن التخلي عن حقوق الآخر ، وهن لذلك لا يملكن هذه ولا تلك مكتمله^(٨٦) » . والقوم يتصرفون بطريقه أفضل في الأقطار البروتستنتية حيث الحشمة ليست أضحوكة بين المسفسطين بل وعدا يبشر بأمومة أمينة^(٨٧) . أن مكان المرأة في البيت ، كما كانت الحال عند قدماء اليونان ، ويجب أن تقبل زوجها سيداً ولكن يجب أن تكون صاحبة الكلمة العليا في البيت^(٨٨) . وبهذه الطريقة تصان صحة النوع .

ويجب أن تهدف تربية الفتيات إلى أخراج أمثال هؤلاء النساء . يجب أن يربين في البيت على أيدي أمهاتهن ، وأن يتعلمن كل فنون البيت ، من الطهو إلى التطريز ، وأن يحصلن الكثير من الدين ، بأسرع ما يمكن ، لأن من شأن هذا أن يعينهن على الحشمة ، والعفة ، والطاعة . وعلى البنت أن تقبل دين أمها دون جدل ، ولكن على الزوجة أن ترتضى دين زوجها^(٨٩) على أية حال لتجنب الفلسفة وتحتقر حياة الصالونات^(٩٠) . على أنه يجب ألا تكره الفتاة على الإحجام الغبي ، فينبغي أن تكون خفيفة الروح ، مرحة ، تواقة ، وأن تغنى وترقص كما تشهى ، وتستمتع بكل لذات الشباب البريئة ، ولتذهب إلى المراقص والألعاب الرياضية ، وحتى إلى المسارح - تحت الملاحظة الواجبة وفي صحبة طيبة^(٩١) . ويجب العمل على أن يظل ذهنها نشيطا يقظا إن أريد بها أن تكون زوجة صالحة لرجل مفكر « ولا بأس بأن يسمع لها بقدر من التذلل » باعتبار هذا جزءا من اللعبة المعقدة التي تختبر بها خطابها وتختار زوجها^(٩٢) . ان الرجل هو موضوع الدراسة الصحيحة لجنس النساء^(٩٣) .

فإذا ثبت هذا المثل الأعلى للفتاة والمرأة في آمال إميل جاز له أن يخرج ويبحث عن زوجته . وهو الذي يختار ، لأبواه ولامعلمه . ولكن من واجبه نحوهم ونحو خدبهم عليه سنين طوالا ، أن يستشيرهم في احترام . أتريد أن تذهب إلى المدينة وتتطلع إلى الفتيات اللاتي يعرضن هناك ؟ حسنا جداً ، سنذهب إلى باريس وسترى بنفسك حقيقة هؤلاء الأوانس المثيرات . وهكذا يعيش إميل برهة في باريس ويختلط بـ « المجتمع الراقى » . ولكنه لا يجد فيه فتاة من النوع الذي وصفه له معلمه الماكر « إذن وداعاً يا باريس الدائعة الصيت ، بكل ما فيك من ضجيج ودخان وقذارة ، حيث كفت النساء عن الإيمان بالشرف ، والرجال عن الإيمان بالفضيلة ، إننا نبحث عن الحب والسعادة والبراءة ، وكلما بعدنا عن باريس كان خيراً لنا^(٩٤) .

وعليه يقفل المعلم وتلميذه إلى الريف ، وإذا هما يصادفان صوفي في قرية هادئة نائية عن الزحام المجنون . هنا (الكتاب الخامس) تتحول

رسالة روسو إلى قصة حب مثالية التصوير ولكنها مبهجة ، تروى ببراعة كاتب قدير . فبعد تلك الأحاديث المسببة في التعليم والسياسة والدين ، يعود إلى الشاعرية والخيال ، وبينما تنكب تيريز على أشغال بيتها ، يعاود أحلامه بتلك المرأة الرقيقة التي لم يجدها إلا في لحظات متفرقة من جولاته ، ويطلق عليها اسماً اشتقه من آخر غرام اشتعل في قلبه .

وصوفى الجديدة هذه ابنة سيد كان يوماً ما ثرياً ، يعيش الآن في عزلة وبساطة قانتين . فتاة صحيحة الجسم ، جميلة ، محتشمة ، رقيقة - ونافعة وتعين أمها بكفايتها السريعة الهائلة في كل شيء « ما من شيء لا تستطيع عمله بأبرتها »^(٩٥) . ويجد إميل المبرر المعادة لقاتها ، وتجد هي المبرر لمزيد من زياراته . شيئاً فشيئاً يتضح له أن صوفى حائزة لكل الفضائل التي صورها له معلمه في صورة مثالية . فيا للصدفة الإلهية ! وبعد أسابيع يصل إلى القمة التي تدبر رأسه ، قمة لثم هدب ثوبها . وما هي إلا أسابيع أخرى حتى يخطبها . ويصر روسو على أن تكون الخطبة احتفالاً رسمياً مهيباً فيجب أن تتخذ كل التدابير - بالطقوس وسواها - للتسامى بقدسية رباط الزوجية وإقرارها في الذاكرة ، وبينما يرتعش إميل وهو على حافة النعيم ، يحمله معلمه العجيب الذي يضرب بالحرية والطبيعة عرض الحائط على ترك خطيبته والغياب عنها عامين والسفر لمتحاناً لمحبتهم ووفائهم . ويبكى إميل ويصدع للأمر « فإذا عاد وهو محتفظ بعذريته كأنما بمعجزة وجد صوفى عفيفة في وفاء ، فيزوجان ، ويرشدهما المعلم إلى واجبات الواحد نحو صاحبه ، فيطلب إلى صوفى أن تطيع زوجها إلا فيما يتصل بالفراش والمأكل » سيمنين عليه طويلاً بالحب إذا جعلت وصالك له نادراً غالياً . . . وليكرم إميل عفة زوجته دون أن يشكو من برود عاطفتها^(٩٦) . وينتخم الكتاب بنصر ثلاثي :

« ذات صباح » يدخل إميل حجرتي ويعانقني قائلاً : « هنيء ابنسك يا أستاذي فهو يأمل أن يحظى بعد قليل بشرف الأبوة . ما أعظم المسئولية التي متحملها بما أشد حاجتنا إليك ! ولكن معاذ الله أن أدعك تربي

الولد كما ربيت الولد ، معاذ الله أن يقوم لإنسان غيري بهذه المهمة اللذيذة المقدسة . . . ولكن واصل مهمة تعليم المعلمين الشابين ، أبذل لنا النصيح وأشرف علينا . وسيسلس قيادنا لك وسأحتاج إليك ما حييت . . . لقد أديت واجبك فعلمتني كيف اقتدى بك ، بينما تستمتع أنت بالفراغ الذي تستحقه جزاء جهودك (٩٧) .

لقد اتفق العالم عموماً بعد قرنين من الثناء ، والسخرية ، والتجربة على أن « اميل » كتاب جميل موح ، ومستحيل . فالتربية موضوع ثقيل ، لأننا نتذكرها في ألم ، ولأنحب أن نسمع المزيد عنها ، ونكره أن تفرض علينا من جديد بعد أن أتممنا مدة الخدمة التي فرضت علينا في المدرسة . ومع ذلك فقد صنع روسو من هذا الموضوع المنفر رواية تسحر قارئها . فالأسلوب البسيط ، المباشر الشخصي يأسرنا برغم ما شابه من تمجيد بليغ ، ونحن ننساق للرواية ونسلم أنفسنا لذلك المعلم الكلي العلم ، وأن ترددنا في إسلام أبنائنا له . ذلك أن روسو ، بعد أن امتدح حذب الأم وحياة الأسرة ، يأخذ إميل من أبويه وينشئه في عزلة مضادة للفساد عن المجتمع الذي لابد له من العيش فيه بعد حين . وروسو لم يرب أطفالاً قط ، لذلك لا يعلم أن الطفل المتوسط هو : « الطبيعة » لص صغير ، غيور ، جشع ، مسيطر ، ولوانتظرنا حتى يتعلم الانضباط دون أوامر ، والاجتهاد دون تعليم ، لشب إنساناً سيئ التكييف ، بليداً قليل الحيلة ، فوضوياً ، قذر الجسم أشعث الشعر ، لا يطاق . وأنى لنا هؤلاء المعلمون الخصوصيون الراغبون في تكريس عشرين عاماً من حياتهم لتربية طفل واحد ؟ تقول مدام دستال (١٨١٠) أن هذا الضرب من العناية والاهتمام . . . يضطر كل رجل إلى تكريس حياته كلها لتربية مخلوق آخر ، ولا تتاح الحرية في النهاية إلا للأجداد ليهتموا بمصالحهم (٩٨) .

وأكبر الظن أن روسو أدرك هذه الصعوبات وغيرها بعد أن أفاق من نشوة تأليف كتابه . فقد جاءه في ستراسبورج عام ١٧٦٥ أحد المتحمسين له وهو يتدفق ثناء وقال له « سيدي انك ترى رجلاً ينشئ أبناءه على المبادئ التي أسعده أن يتعلمها من كتابك اميل » . وقال روسو

غاضباً « هذا أسوأ لك ولأبنك »^(٩٩) . وفي الرسالة الخامسة من « رسائل من الجيل » بين أنه لم يؤلف إميل للآباء العاديين بل للحكام « لقد أوضحت في المقدمة أن اهتمامي كان بتقديم خطة نظام جديد للتربية لينظر فيه الحكماء ، لا طريقة يستخدمها الآباء والأمهات »^(١٠٠) . فهو كعلمه افلاطون انتزع الطفل من أذى أبويه مؤملاً أن يصبح صالحاً لتربية أطفاله بعد أن اكتملت له التربية المنقذة . وكأفلاطون « ذخر في السماء أنموذجاً لحالة أو طريقة مثالية ، حتى « يشهدا كل راغب ، فإذا شهدا استطاع أن يوجه نفسه وفقها »^(١٠١) . وقد اذاع على الناس حلمه هذا ، عسى أن يحمل الإلهام في بلد ما ، لبعض الرجال والنساء ، ويعين على صلاح الحال . ولقد فعل .



الفصل الثامن

روسو المنبوذ

١٧٦٢ - ٦٧

١ - الهروب

عجيب أن يفلت من الرقيب كتاب يحوى ما حوى لإميل من هجوم صريح على كل شيء إلا أسس المسيحية ، وأن يطبع في فرنسا . ولكن الرقيب كان مالزيرب المتسامح العطوف . وقبل أن يأذن بالنشر حث روسو على أن يحوذف فقرات من المؤكد أنها تدفع الكنيسة إلى العداء للشيطان . ولكن روسو رفض . ولقد نجح زنادقة آخرون من الاضطهاد لأشخاصهم بالتخفى وراء أسماء مستعارة ، أما روسو فقد ذكر اسمه بشجاعة على صفحات غلاف كتبه .

وبينما ندد جماعة الفلاسفة بإميل باعتباره خيانة أخرى للفلسفة ، أدانه أحبار فرنسا وقضاة باريس وجنيف باعتباره مروجاً من المسيحية . وأعد رئيس أساقفة باريس ، عدو الجنسنيين ، للنشر في أغسطس ١٧٦٢ رسالة قوية تهاجم الكتاب . وكان برلمان باريس المناصر للجنسنيين مشغولاً بطرد اليسوعيين ، ولكنه أراد رغم ذلك أن يبدى غيرته على الكاثوليكية ، وأتاح له ظهور إميل فرصة ليضرب ضربته دفاعاً عن الكنيسة . واقترح مجلس الدولة الذى كان يخوض حرباً مع البرلمان . ويكره أن يكون دونه غيرة على سلامة العقيدة ، أن يلتقى القبض على روسو . فلما نمت الخبر إلى أصدقاء روسو من النبلاء نصحوه بالرحيل فوراً عن فرنسا . وفي ٨ يونيو بعثت إليه مدام دكريكى رسالة تشي بانفعالها . قالت : لا ريب في أن أمراً صدر بالقبض عليك . فاستحلفك بالله أن تهرب . . . إن حرق كتابك ان يضيرك أما شخصك فلا يطيق السجن . فاستشر جيرانك ^(١) .

أما الجيران فكانا مرشال ومرشالة لكسمبورج . وقد خشيا أن يتورطا في الأمر لو قبض على روسو ^(٢) ، فحشاهما وأمير كونتى على الهروب إلى سويسرة ، وأعطوه مبلغا من المال وعربة ليحبر بها الطريق الطويل من فرنسا إلى سويسره . وأذعن روسو على مضض . وترك تيريز في رعاية المرشالة . وبرز مونمورنى في ٩ يونيو . في ذلك اليوم حضر مرسوم بالقبض عليه ولكنه نفذ ببطء رحيم ، لأن الكثيرين من رجال الحكومة سرهم أن يتركوه يهرب . وفي ذلك اليوم قال الأستاذ أومير جولى دفلورى لبرلمان باريس وهو يلوح بنسخة من إميل :

« يبدو أن هذا العمل ألف لهدف واحد هو رد كل شيء إلى الدين الطبيعي ، وتطوير ذلك النظام الإجرامى فى خطة المؤلف لتربية تلميذه ... »

وأنه ينظر إلى جميع الأديان على أنها تستوى فى الخير ، وعلى أنها كلها منبعثة من مناخ الناس ، وحكومتهم وطبعم . . وأنه بناء على هذا يجرؤ على هدم صحة الكتاب المقدس والنبؤات ، ويقينية المعجزات الواردة فى الأسفار المقدسة . وعصمة الوحي ، وسلطان الكنيسة . . وهو يسخر من الدين المسيحى ويهدف عليه . ذلك الدين الذى هو وحده من صنع الله .

ومؤلف هذا الكتاب الذى جرؤ على وضع اسمه عليه يجب القبض عليه بأسرع ما يمكن . ومن الأهمية بمكان ، أن تجعل العدالة - من المؤلف وأولئك الذين . . . شاركوا فى طبع هذا الكتاب وتوزيعه - مثلا وعبرة للناس بكل صرامة . »

ومن ثم فقد أمر البرلمان :

بأن يمزق الكتاب المذكور ويحرق فى فناء القصر (قصر العدالة) أسفل السلم الكبير ، بيد كبير الجلادين ، وعلى كل الذين يملكون نسخا من الكتاب أن يساموها إلى المسجل لإبادتها ، ومحظور على الناشرين طبع هذا الكتاب أو توزيعه ، وسيقبض على جميع بائعيه وموزعيه ويعاقبون طبقا لنص القانون الصارم ، ويجب القبض على ج - ج روسو وزجه فى سجن الكونسيرجرى فى قصر العدالة ^(٣) .

وفي ١١ يونيو مزق وحرق إميل كما نص الأمر، ولكن روسو كان قد وصل إلى سويسرة . أمرت الحدود أن يقف لحظة دخولي لإقليم برن وخرجت من مركبتي، وخررت على وجهي، وقبلت الأرض وصحمت في غمرة فرحي: « حمدا لك أيتها السماء، حامية الفضيلة، إنني ألمس أرضاً للحرية (٤) . »

ولم يكن مطمئناً كل الاطمئنان . فواصل ركوبه إلى إيفردون ، قرب الطرف الجنوبي لبحيرة نوشاتل ، في مقاطعة برن ، وهناك مكث شهرا مع صديقه القديم روجان . أبحث عن منزل في جنيف ؟ ولكن في ١٩ يونيو أذان مجلس الخمسة والعشرين الذي يحكم جنيف كلا من « إميل » و « العقد الاجتماعي » لأنهما خارجان على التقوى ، فاضحان ، وقحان ، مفعمان بالتجديف والافتراءات على الدين . وقد جمع المؤلف تحت ستار الشك كل ما من شأنه أن يضعف المقومات الرئيسية للدين المسيحي المنزل ، ويهزها ويهدمها . . . ويتعاضم خطر الكتابين ووجوب شجبهما لأنهما مكتوبان بالفرنسية (لا باللاتينية التي لا تعرفها غير القلة) بأسلوب شديد الإغراء ، منشوران باسم مواطن جنيفي (٥) .

وعليه فقد أمر المجلس بحرق الكتابين ، وحرّم بيعهما ، وأصدر مرسوماً بالقبض على روسو إذا دخل يوما ما أرض الجمهورية . ولم يعترض قساوسة جنيف على هذا التبرؤ من أشهر أبناء جنيف الأحياء . ولا ريب في أنهم شعروا بأن أي عطف يبدونه لمؤلف « إعلان بإيمان كاهن سافوي » ، سيؤكد ما كشفه دالامبير عما يبطنونه من ميول للتوحيد ، وانقلب عليه يعقوب فيرن الذي ظل صديقا له سنين كثيرة ، وطالب بأن يسحب روسو أقواله . يقول روسو وهو يذكر ذلك الموقف « لو سرت بين الجماهير أي شائعة عني لأضرت بي ، وقد عاملني كل مروجي الشائعات والمتفقيهن كأنني تلميذ يهدد بالجلد لأنه لم يحسن حفظ درسه الديني (٦) . »

وتأثر فولتير من موقف غريمه ، فلقد قرأ إميل ، وتعليقاته مازالت ترى على نسخته المحفوظة بمكتبة جنيف . وفي خطاب مؤرخ ١٥ يونيو كتب عن الكتاب « إنه خليط شهرف به مرضعة بلهاء في أربعة مجلدات بها أربعون

صفحة ضد المسيحية من أجراً ما عرفنا . . . وهو يقول في الفلاسفة من الأشياء المؤذية قدر ما يقوله في المسيح ، ولكن الفلاسفة سيكونون أكثر تسامحاً من القساوسة^(٧) . على أية حال أعجبه « إعلان الإيمان » فقال عنه خمسون صفحة كاملة ، ولكنه أضاف « من المؤسف أن يكون كتابها . . . وغداً كهذا^(٨) . وكتب إلى مدام دودفان صاحب مؤلف كاهن سافوى ، مهما فعل ومهما يفعل^(٩) . . . ولما سمع أن جاك طريد لا مأوى له صاح « فليأت إلى هنا (إلى قريته) . . . يجب أن يأتى . سأستقبله بذراعين مفتوحتين . سيكون هنا سيداً أكثر منى . سأعامله كأنه ابنى^(١٠) » . وبعث بدعوته إلى خمسة عناوين مختلفة ، ولا بد أنها وصلت إلى أحدها ، لأن روسو أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يرد عليها^(١١) . وفي ١٧٦٣ جدد فولتير الدعوة ، فرفضها روسو ، واتهم فولتير بأنه حرض مجلس الخمسة والعشرين على إدانة « العقد الاجتماعى » و « إميل » . . . ولكن فولتير أنكر التهمة ، وبحق فيما يبلو .

وفي بواكير يوليو ١٧٦٢ أخطر مجلس شيوخ برن روسو بأنه لا يستطيع السماح بوجوده في إقليم برن ، وأن عليه أن يرحل عنه في بحر خمسة عشر يوماً وإلا واجه السجن . وتلقى خلال ذلك خطاباً رقيقاً من دالامبير ينصحه بأن يحاول الإقامة في إمارة نوشاتل ، وكانت تقع في قضاء فردريك الأكبر ، ويحكمها إيرل ماريشال جورج كيث ، الذى قال عنه دالامبير إنه سيستقبله ويعامله كما كان الآباء في العهد القديم يستقبلون ويعاملون الفضيلة المضطهدة^(١٢) . وتردد روسو ، لأنه كان قد انتقد فردريك زاعماً أنه طاغية في ثياب فيلسوف^(١٣) . ومع ذلك قبل في ١٠ يوليو ١٧٦٢ دعوة ابنة أخى روجان ، مدام دلاتور ، بأن ينزل بيتاً تملكه موتيه — ترافير ، على خمسة عشر ميلاً جنوب شرق مدينة نوشاتل في بقعة سيصفها بوزويل بأنها واد برى بديع تحيط به الجبال الشاهقة^(١٤) . وحوالى ١١ يوليو تقدم جان — جاك بالتماس إلى الحاكم ، وبما تميز به من تواضع وإباء . كتب إلى : (ملك بروسيا) .

« لقد قلت فيك الكثير من السوء ، وأغلب الظن أنى قاتل فيك المزيد منه ؛ ولكنى وأنا مطازد من فرنسا ومن جنيف ، ومن مقاطعة برن ، جئت الشمس ملجأ فى ولاياتك . . . سبدي ، لم أستحق منك فضلاً ، ولا أطلب فضلاً ، ولكنى أحسست بأن من واجبي أن أصرح لجلالتك بأننى فى قبضتك ، واننى شئت أن أكون كذلك ، لجلالتك أن تتصرف معى كما تشاء » .

وكتب فردريك إلى كيث فى تاريخ غير مؤكد ، وهو لم يفرع بعد من حرب السنين السبع :

« يجب أن نفقد هذا الشقى المسكين . فذنبه الوحيد أن له آراء غريبة نحسبها سديدة ، سأرسل إليك مائة كروان ، فتفضل باعطائه منها ما يحتاج إليه . وأظنه سيقبأها عينا بأسهل مما يقبلها نقداً ، ولولا أننا نخوض حرباً ، ولولا أننا أفلسنا ، لبنيت له كوخاً بخديفة حيث يستطيع العيش كما عاش فى ظنى أباؤنا الأولون أظن أن روسو المسكين قد اختار المهنة الخطأ ، فواضح أنه ولد ليكون ناسكاً مشهوراً ، وأبا من آباء البرية يشتهر بنفسه وجلده لجسده . ختاماً أقول أن نقاء أخلاقيات صاحبك المتوحش يعدل عدم منطقية عقاه^(١٥) » .

أما المريشال ، الذى يقول روسو إنه قديس بنخيل ، عجوز ، شارد الدهن ، فقد أرسل إليه الزاد والفحم والخشب ، واقترح أن يبنى له بيتاً صغيراً . وفسر جان - جاك هذا العرض بأنه آت من فردريك ، فرفضه ، « ولكن منذ تلك اللحظة تعلقت به تعلقاً صادقاً حتى أصبحت أهم الآن بمجده قدر ما كنت أرى انتصاراته إلى ذلك الحين ظالمة^(١٦) . وفى أول نوفمبر ، والحرب قاب قوسين من نهايتها ، كتب إلى فردريك يصف مهام السلم :

« مولاي :

أنت حامى وولى نعمتى ، وإن لى قلبا خاق ليعرف الجميل ، وأريد أن أبرىء نفسى معك ، ان استطعت . تريد أن تعطينى الخبز ، أفليس بين رعاياك من يعوزه الخبز؟ أبعد عن غيبنى ذلك السيف الذى يومض ويخرجنى ... أن سيرة الملوك الذين أوتوا همتك عظيمة ، وأنت لا تزال بعيدا عن ساعة منيتك ، ولكن الوقت كالسيف ، وليس أمامك لحظة واحدة تضيعها . أو تستطيع ان تعزم الموت دون أن تكون أعظم الرجال قاطبة .

ولوأتيح لى يوما أن أرى فردريك العادل المرهوب يملأ بلاده فى نهاية المطاف بشعب سعيد سيكون أيا له ، إذن لذهب جان — جاك روسو علو الملوك ، ليموت فرحا فى أسفل عرشه^(١٧) .

ولم يرد فردريك ردا وصل إلينا علمه ، ولكن حين ذهب كيث إلى برلين أخبره الملك بأنه تلقى توبيخاً من روسو^(١٨) .

وحين خيل لجان — جاك أنه ضمن بيتاً يقيم فيه ، أرسل إلى تريز لتلحق به . ولم يكن واثقا من أنها ستأتى ، لأنه أحس قبل ذلك بزمن طويل بفتور محبتها له ، وعزا هذا إلى توقفه عن الاتصال الجفسى بها ، لأن «الاتصال بالنساء كان يؤذى صحتى»^(١٩) . فلعلها الآن تؤثر بباريس على سويسرة . ولكنها حضرت . وكان لقاء ذرفا فيه الدموع ، وتطلعا أخيرا إلى بضع سنين ينعمان فيها بالسلام .

٢ — روسو ورئيس الأساقفة

ولكن السنوات الأربع التالية كانت أشقى مالمقيا . ذلك أن قساوسة نوشاتل الكلفنين أدانوا روسو علانية بالهرطقة ، وحظر القضاة بيع إميل . ، واستأذن روسو راعى الكنيسة فى موتبيه فى أن ينضم إلى شعب كنيسته ، ربما ليهدىء ثائرة القساوسة ، أو مدفوعا برغبة صادقة فى اتباع مبادئ كاهن سافوى ، (أما تريز فظلت كاثوليكية) ، فقبل . واختلف إلى الكنيسة للصلاة ، وتناول القربان « بعاطفة من القلب ، وعينائى تملؤهما دموع الحنان »^(٢٠) . وأعطى الساخرين منه سلاحا باتخاذ الزى الأرمنى — قلنسوة من فراء ،

وقفطان ، وحزام . وأتاح له الروب الطويل أن يستر آثار حصر البول الذى ابتلى به . وكان يختلف إلى الكنيسة فى هذا الزى ، وارتداه وهو يزور اللورد كيث ، الذى لم يعلق عليه إلا بتحيته بعبارة (السلام عليكم) . وواصل الإضافة إلى دخله بنسخ الموسيقى ، ثم أضاف إليها الآن أشغال الأبرة ، وتعلم صناعة الدنتلا . كنت أحمل كالنساء مخدتي فى زياراتي ، أو اجلس لأشتغل بالأبرة عند باب بيتى . . وأتاح لى هذا أن انفق وقته مع جاراتي دون أن أحس مالا . . (٢١)

وأغلب الظن أن الناشرين أقنعوه فى هذه الفترة (أواخر ١٧٦٢) بأن يبدأ كتابه « اعترافات » وكان قد أقسم أن يعتزل التأليف ، ولكن هذا لن يكون تأليفاً بقدر ما هو دفاع عن خلقه وسلوكه ضد عالم من الخصوم ، لا سيما ضد تهم جماعة الفلاسفة وشائعات الصالونات . أضف إلى ذلك أنه كان مضطراً إلى الرد على عدد كبير من مختلف الرسائل . وقدم له النساء على الأخص بخوراً معزباً من إعجابهم الشديد ، لا لتعاطفهن فحسب مع المؤلف المطارد لرواية مشهورة ، بل لأن نفوسهن كانت تهفو للرجوع إلى الدين ، ولم يرين فى « كاهن سافوى » وصانعه عدواً حقيقياً للدين ، بل المدافع الشجاع عنه ضد إلحاد يشيع الكتابة فى النفوس . لمثل هؤلاء النساء ولرجال عديدين ، غدا اب الاعتراف ، ومرشداً للنفوس والضائير . وقد نصحهم بأن يقيموا على دين شبابهم أو يعودوا إليه ، ضاربين صفحاً عن كل الصعوبات التى يوحى بها العلم والفلسفة . فتلك العجائب البعيدة التصديق ليست هى الجوهر ، ولا ضير فى تنحيتهما فى صمت ، إنما العبرة بالإيمان بالله وبالخلود ، فهذا الإيمان والرجاء يستطيع الإنسان أن يتسامى فوق كل كوارث الطبيعة التى لا تفهم ، وكل آلام الحياة وأحزانها . وطلب كاثوليكي شاب متمرّد على دينه تعاطف روسو ، فأجابه روسو ناسياً تمرّداته ألا يهتم كثيراً بالتوافه العارضة . « لو أننى ولدت كاثوليكيًا لظللت كاثوليكيًا ، علماً بأن كنيسة كاثوليكية توضع قيداً صحياً على شطحات العقل البشرى الذى لا يجد قراراً ولا شاطئاً حين يريد سير أعماق الأشياء السحيقة » (٢٢) . وأشار على جل طلاب الحكمة هؤلاء

بالهروب من المدينة إلى الريف ، ومن التكلف والتعقد إلى البساطة الطبيعية للحياة ، والرضا الهادىء بالزواج والأبوة .

وأحببت النساء اللاتي صدمهن القساوسة المتعلقون بالحياة الدنيا ورؤساء الدين المتشككون ، هذا المهرطق الزاهد الذى نددت به جميع الكنائس ، وإن اقتصر هذا الحب على الرسائل . فقالت مدام دبلو ، النبيلة المحترمة ، لجماعة من النبلاء والنبيلات ، « مامن شيء يمنع امرأة ذات حسن مرهف صادق من تكريس حياتها لروسو إلا أسمى ضروب العفة ، لو كانت واثقة من أنه سيحبها حبا حارا ^(٢٣) . وحسبت مدام دلاتور بعض ما جاء فى خطاباتهما من مجاملات اعترافاً بالحب ، فاستجابت ورقة وحرارة وتدفق وبعثت إليه بصورتها ، مؤكدة أنها لا تنصفها . وابتأست حين أجاب بهدوء رجل لم يرها قط ^(٢٤) . إلا أن معجبات أخريات تمنين لو قبلن الأرض التى يمشى عليها ، وأقامت بعضهن مذابح له فى قلوبهن ، ودعاه بعضهن المسيح المولود من جديد . وكان يصدقهن أحيانا ، ورأى فى نفسه المؤسس المطلوب لدين جديد ^(٢٥) .

وسط هذا التمجيد كله ، أثار الشعب عليه كاهن أعلى من كهنة التمويل (الهيكل) — كأنما لتأكيد القياس — ليدينوّه ثائر خطرا . فى ٢٠ أغسطس ١٧٦٢ أصدر كرسنوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، رسالة لجميع الكهنة فى أسقفيته ليقرءوا على شعبهم ، ويعلنوا على الملأ ، اتهامه لإميل ذا التسع والعشرين صفحة . وكان رجلا صارم العقيدة طاهر السمعة ، حارب الجانسينيين والموسوعية والفلاسفة ؛ وبدا له الآن أن روسو ، بعد ما ظهر من انفصاله عن الملحدين ، قد انضم إليهم فى مهاجمة الإيمان الذى يركز عليه ، رأى رئيس الأساقفة نظام فرنسا الاجتماعى كله وحياتها الأخلاقية بأسرها .

واستهل اتهامه بالاستشهاد بما جاء فى رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس :

« ستأتى أزمئة صعبة لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم . . . متعظمين ،

مستكبرين ، مجدفين ، غير طائعين لوالديهم متضلفين ، محبين للذات ، دون محبة الله ... أناس فاسدة أذهانهم ومن وجهة الإيمان مرفوضون (٢٦) .

وهاهى قد جاءت تلك الأزمنة مافى ذلك شك :

« إن الكفر الذى تشجعه جميع الشهوات يلبس كل لبوس ليكيف نفسه على نحو ما وفق جميع الأعمار ، والأشخاص والطبقات ... فقد يستعير أسلوباً خفيفاً لطيفاً لعوبا ، ومن هنا الحكايات الكثيرة التى تستوى بداعة وزندقة (رويات فولتير) ، وترفه عن الخيال لأنها غواية للعقل ومفسدة للقلب . وقد يدعى الرجوع إلى الأصول الأولى للمعرفة متظاهراً بعمق آرائه وسموها ، ويزعم له سنداً إليها ، لكنى يخلع نيراً يقولون إنه يجلل البشر بالعار . وقد يعلو صوته كأنه امرأة غضبي فيهاجم الغيرة الدينية ، ومع ذلك يبشر بالتسامح الشامل بحماسة . وقد يمزج الجدل بالهزل فى جمعه بين هذه الأساليب الكلامية المختلفة ، ويخلط الحكم بالفحش ، والحقائق الكبيرة بالأخطاء الكبيرة ، والإيمان بالتجديف ، ويأخذ على عاتقه — باختصار — التوفيق بين النور والظلمة ، وبين المسيح وبليعال » (٢٧) .

وقال رئيس الأساقفة أن هذه الطريقة لجأ إليها إميل بصفة خاصة ، فهو كتاب حفل بلغة الفلسفة دون أن يكون فلسفة حقاً ، وطفح بنتف من المعرفة لم تثر المؤلف ، وكل ما تفعله أنها تربك قراءه لاهالة . أنه رجل مولع بمفارقات الآراء والسلوك ، يجمع بين بساطة العادات وخيلاء الفكر ، بين الحكم القديمة وجنون التجديد ؛ وبين احتجاج عزلته وورغبته فى أن تعرفه الدنيا بأسرها . إنه يندد بالعلوم ، ثم يصادقها . إنه يمتدح روعة الانجيل ، ثم يدمر تعاليمه . لقد أقام نفسه معلماً للنوع الإنسانى ليخدعه ، ومرشداً للشعب ليضل العالم ، ونبياً للقرن ليهدمه ، فياها من مغامرة (٢٨) .

وهال رئيس الأساقفة ما اقترحه روسو من إغفال ذكر الله أو الدين لإميل حتى يبلغ الثانية عشرة أو حتى الثامنة عشرة ، فعنى هذا أن « الطبيعة

كلها تكون قد تحدثت عبثاً بعظمة الخالق . . وأن كل تعليم خلق سيفقد مساندة الإيمان الديني . ولكن الإنسان ليس بطبيعته خيراً كنا زعم المؤلف . فهو يولد ملوثاً بالخطيئة الأصلية ، وهو يشارك في افساد البشرية العام . والمعلم الحكيم — وخير المعلمين كاهن ترشده النعمة الإلهية — ينوسل بكل وسيلة سليمة ليغذى دوافع الخير في الناس ، ويقتلع دوافع الشر ، ومن ثم فهو يطعم الطفل بلبن الدين الروحي ، لكي ينمو نحو الخلاص . . وبهذا التعليم وحده يمكن أن يغدو الطفل عابداً مخلصاً للإله الحق ، وواحداً من رعايا الملك الأوفياء (٢٩) . وأن الكثير من الخطايا والجرائم ليظل باقياً حتى بعد هذا التعليم المجتهد ، فما بالك بها إذا حرم الطفل منه . إن سيلاعرما من الشر يغرقا في هذه الحالة (٣٠) .

وقال رئيس الأساقفة في ختام كلامه إنه لهذه الأسباب :

« بعد استشارة عدة أشخاص عرفوا بورعهم وحكمتهم ، وبعد التضرع لإسم الله القدوس ، ندين هذا الكتاب لأنه يحوى تعليماً بغیضاً من شأنه أن يقلب القانون الطبيعي وأسس الدين المسيحي ، وأن يرسى مبادئ تناقض تعليم الأناجيل الخلقى ، وينحو إلى تكدير سلام الدول ، وتزعج الثورة على سلطان الملك ، ولأنه يتضمن الكثير جداً من الدعاوى الباطلة المفترية المفعمة بالهقد على الكنيسة ورعاتها . . لذلك نحظر صراحة على جميع الأشخاص في أسقفيتنا أن يقرأوا الكتاب المذكور أو يقتنوه ، وإلا وقعوا تحت طائلة العقاب (٣١) . »

وطبع هذه الرسالة « بامتياز الملك » وسرعان ما وصلت إلى موته — ترافير . وقرر روسو أن يرد عليها ، وهو الذي كان على الدوام مصمماً على الكف عن الكتابة . وقبل أن يضع قلمه (١٨ نوفمبر ١٧٦٢) كان قد أطلق له العنان حتى بلغ الرد ١٢٨ صفحة ، وطبع بامستردام في مارس ١٧٦٣ ، بهذا العنوان : « من جان — جاك روسو المواطن الجنيفي إلى كرسstof ديمومون رئيس أساقفة باريس » . وسرعان ما أدانه برلمان باريس ومجمع جنيف . ورد روسو على الهجوم الذي شنه عليه مذهبا أوربا الكبيران

بالمهجوم عليهما جميعا . وراح الرومانسي الججول الذي نبذ من قبل جماعة الفلاسفة يكرر الآن حججهم بجرأة مشتهرة .

واستهل رده بسؤال مازال يسأله جميع الخصوم بعضهم لبعض في هذا الجدل الذي لاينتهي . « لم يتحتم على أن أقول أى شيء لك يا صاحب النيافة ؟ وأنى لغة مشتركة يمكننا أن نتحدث بها ، وكيف نستطيع أن يفهم الواحد منا الآخر (٣٢) ؟ وأبدى أسفه لأنه ألف كتباً على الإطلاق ، وهو لم يفعل إلا حين بلغ الثامنة والثلاثين ، وقد جره إلى هذه الغلظة أنه لاحظ مصادفة ذلك « السؤال التعس » الذي وجهته أكاديمية دييجون ، ودفعه نقاد المقال إلى الرد عليهم ، ثم أفضى كل جدل إلى جدل جديد . . . فألقيتني ، إن جاز التعبير ، أغدو مؤلفاً في سن يهجر فيها المؤلفون التأليف عادة . . . ومنذ ذلك الحين إلى اليوم اختفت الراحة والأصدقاء (٣٣) . وزعم أنه في حياته كلها كان :

« أكثر حماسة مني استفادة . . . ولكنني كنت مخلصاً في كل شيء . . . بسيطاً طبعاً ، وإن كنت مرهف الحس ضعيفاً ، أفعل الشر كثيراً وأحب الخير دائماً . . . أتبع عواظي أكثر من مصالحى . . . أخشى الله دون أن أخشى الجحيم . . . أجادل في الدين ولكن دون إيحائية . لأحب الكفر ولا التعصب ، ولكنني أمقت المتعصبين أكثر مما أمقت الملحدين . . . وأعترف بأخطائي لأصدقائي وأعلن آرائي للعالم كله (٣٤) » .

وأحزنته إدانة الكاثوليك لإميل أقل مما أحزنته إدانة الكلفنين . فهو الذي كان يعتز بلقبه « مواطناً جنيفياً » هرب من فرنسا أملاً في أن يتنفس في مسقط رأسه نسيم الحرية ، وأن يجد فيه من الترحيب ما يعزیه عما لى من اذلال كثير . أما الآن ؟ فإذا أقول ؟ إن قلبي ينفلق ، ويدي ترتعد ، والقلم يسقط منها ، وعلى أن أصمت . . . ويجب أن اجتر في الحفاء أشد أحزاني مرارة (٣٥) . فهامو الرجل الذي اجتراً في قرن اشتهر بالفلسفة ، والعقل والإنسانية ، على أن يدافع عن قضية الله ، ها هو قد وسم ، وحرم وطورد من بلد إلى بلد ، ومن ملجأ إلى ملجأ ، دون اكتراث لفقره ، ولا راحة

لأمراضه ، ثم وجد ملاذا آخر الأمر عند « ملك مستنير ذائع الصيت » وأنزوى في قرية صغيرة رابضة بين جبال سويسرة ، ظاناً أنه في النهاية ، واجد العزلة والهدوء ، ولكن طارده حتى هناك لعنات الكهنة .. أن رئيس الأساقفة هذا ، « الرجل الفاضل ، النبيل النفس ، الكريم المعتقد » ، كان ينبغي أن يوبخ هؤلاء المضطهدين ، ولكنه بدلاً من هذا أصدر لهم الأذن في غير خجل ، « وهو الذي كان يجب أن يدافع عن قضية المظلومين » (٣٦) ..

وأحس روسو أن أشد مأساء رئيس الأساقفة هو تعليم روسو أن الناس يولدون اخيار ، أو غير أشرار على الأقل ، وقد أدرك بومون أنه لو كان هذا حقاً ، ولو لم يكن الإنسان ملوثاً منذ مولده بوراثته خطيئة آدم وحواء ، لسقط التعليم بكفارة المسيح ، وهذا التعليم لب العقيدة المسيحية . ورد روسو بأن تعليم الخطيئة الأصلية لم يذكر بوضوح في أى مكان من الكتاب المقدس . وقد إدرك أن رئيس الأساقفة قد صدمه الاقتراح بتأجيل تعليم الدين ، فرد بأن تربية الأطفال على أيدي الراهبات والقساوسة لم تقلل من الخطيئة أو الجريمة ، فهؤلاء الأطفال بعد أن يكبروا يفقدون خوفهم من الجحيم ، ويؤثرون لذة صغيرة حاضرة على الجنة التي وعدوا بها . ثم ما بال هؤلاء القساوسة انفسهم — أتراهم نماذج للفضيلة في فرنسا المعاصرة (٣٧) ؟ ومع ذلك « فأنا مسيحي ، مسيحي بأخلاص ، طبقاً لتعليم الإنجيل ، لا مسيحي متلمذ للقساوسة ، بل تلميذ للمسيح » . ثم أضاف روسو وعينه على جنيف « إننى في سعادتي بالولادة في أقدس وإعقل دين في الأرض ، مازلت متعلقاً تعاقماً لأنفهام فيه بأيمان آبائى . وأنا مثلهم أتخذ من الأسفار المقدسة والعقل القواعد الوحيدة لأيماني (٣٨) ... وأحس بلوم من أخبروه بأنه « مع أن كل أصحاب العقول الذكية يفكرون كما تفكر ، فإنه ليس من الخير أن يفكر العوام على هذا النحو » .

« ذلك ما يتصايحون به على من كل جانب ، ولعله ما كنت أنت نفسك قائله لى لو كنا وحيدين في مكتبك . هكذا الناس ، فهم يغيرون لغتهم مع ملابسهم ، ولا يقولون الحق إلا وهم في أروابهم ، أما في ثيابهم التي

يبدون فيها أمام الناس فلا يعرفون إلا أن يكذبوا . وهم ليسوا مخادعين غشاشين أمام وجوه البشر فحسب ، بل لأنهم لا ينجلون من أن يعاقبوا كل من يابون أن يكونوا غشاشين كذابين علانية مثاهم ، مخالفين في ذلك ضمائرهم^(٣٩) .

وهذا الخلاف بين ما تؤمن به وما نبشر به هو سر الفساد في الحضارة العصرية . أن هناك تحيزات ينبغي أن نحترمها ، على ألا تحيل التربية إلى خداع هائل وتقوض الأساس الخلقى للمجتمع^(٤٠) . فإذا أصبحت هذه التحيزات قتالة فهل نسكت على جرائمها ؟

« لست أقول ، ولا أرى ، أن الدين الحسن لا وجود له ... ولكن الذى أقوله أنه ما من دين من الأديان التى سادت لم يشحن الإنسانية بالجراح . وكل المذاهب عذب بعضها بعضاً ، وكلها قدم لله قربان الدم البشرى . وأيا كان مبعث هذه التناقضات فهى قائمة ، فهل من الأجرام الرغبة فى إزالتها^(٤١) ؟ »

وقبيل ختام رده دافع روسو عن إميل دفاع المحب المقيم بكتابه ، وتساءل لهم لم يقم لمؤلفه تمثال .

« هبنى أرتكبت بعض الأخطاء ، لا بل كنت دائماً مخطئاً ، أفلاشفاعة لكتاب يشعر المرء فى كل جزء فيه — حتى فى أغلاطه وحتى فى الضرر الذى قد يكون فيه — بالحب الصادق للخير وبالغيرة على الحق ؟ . . . كتاب لا يشع غير السلام ، واللاطف ، والصبر ، وحب النظام ، وطاعة القوانين فى كل شىء ، حتى فى أمر الدين . كتاب تؤكد فيه قضية الدين تأكيداً رائعاً ، وتحترم فيه مكارم الأخلاق احتراماً كبيراً ويصور الشر فيه على أنه حماقة ، والفضيلة على أنها شىء محبوب للنفوس أجل ، لأننى لا أخشى أن أقولها . . . فلو أن فى أوروبا حكومة واحدة مستنيرة حقاً . . . خلعت على مؤلف إميل أسباب التشريف العلنية ، ولأقامت له تمثالاً . . . ولكن خبرتى الكبيرة بالبشر تمنعنى من أن أتوقع تقديراً كهذا وأنا لم أعرفهم معرفة تكفى لأن أتوقع ذلك الذى أتوه . »

ولكنهم أقاموا له التماثيل .

٣ — روسو والكلفنيون

لم يتهج بخطاب روسو الذى وجهه إلى كرسstof بومون غير بعض أحرار الفكر فى فرنسا وبعض المتمردين السياسيين فى سويسرة . وجاءت من البروتستنت معظم الردود « المفندة » لدعاوى روسو والموجهة إلى المؤلف . ورأى قساوسة جنيف الكلفنيون فى الخطاب هجوما على المعجزات وتنزيل الكتاب المقدس ، والإغضاء عن هذه الهرطقات معناه التمهيد من جديد للخطر الذى عرضهم له دالامبير . وغضب روسو من إحجام الأحرار الجنييفيين عن الجهر بالدفاع عنه ، فأرسل (١٢ مايو ١٧٦٣) إلى مجلس جنيف الكبير يتخلى عن مواظبته .

وقد حظى عمله هذا ببعض التأييد المسموع . ففي ١٨ يونيو رفع أوفد إلى الرئيس الأول للجمهورية « احتجاجا غاية فى التواضع والاحترام من مواطني جنيف وسكان مدنها » شكا فيها شكا من مظالم ، من أن الحكم الصادر على روسو غير قانوني ، وأن مصادرة نسخ إميل من مكاتبات جنيف كانت عدوانا على حقوق الملكية . ورفض مجلس الخمسة والعشرين الاحتجاج . وفى سبتمبر أصدر المدعى العام ، جان روبر ترونشان (ابن عم طبيب فولتير) ، خطابات مكتوبة من الريف « للدفاع عن إجراءات المجلس المختلف عليها . وناشد « المحتجون » روسو الرد على ترونشاني . وإذ لم يكن بروسو أى نية فى البعد عن الشر ، فقد نشر (ديسمبر ١٧٦٤) تسعة « خطابات مكتوبة من الجبل » — وهى رد من بيته الجبل على أوليجاركية السهل الجنييفي . وكان ساخطاً أشد السخط على القساوسة والمجلس جميعا ، فهاجم الكلفنية كما هاجم الكاثوليكية ، واحرق بذلك معظ جسده من خلفه .

وقد وجه الخطابات من الناحية الشكلية لزعيم المحتجين . واستهلها بتناول الأذى الذى لحق به من جراء الإدانة المتعجلة لكتبه وشخصه ، دون أنه تتاح له أى فرصة للدفاع . واعترف بعبوب كتبه . « لقد وجدت أنا نفسى الأخطاء الكثيرة فيها . ولست أشك فى أن غيرى قد يرون فيها أخطاء أكثر .

وأنه مازالت هناك أخطاء أخرى لم أدركها وأنا ولا غيري . . . فبعد الاستماع إلى الطرفين سيحكم الجمهور . . . وسينجح الكتاب أو يسقط ، وتنتهي القضية عند هذا^(٤٣) . ولكن أكان الكتاب مؤذيا ؟ أم يمكن أن يقرأ انسان « هلويز الجديدة » « وإعلان إيمان كاهن سافوي » ثم يعتقد حقا أن مؤلفها قصد هدم الدين ؟ صحيح ان الكتابين حاولا تدمير الخرافة لأنها شر بلاء وزئبت به البشرية ، ولأتها محنة الحكماء وأداة الطغيان^(٤٤) . ولكن ألم يؤكد ضرورة الدين ؟ ان المؤلف يتهم بعدم ايمانه بالمسيح ، وهو مؤمن بالمسيح ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة متهميه .

اننا نعترف بسلطان المسيح ، لأن فكرنا يوافق على تعاليمه ولأننا نجدها تعاليم سامية . ونحن نسلم بالوحي منبثقا من روح الله ، دون أن نعرف كيف . . . وإذا نقر بسلطان إلهي في الانجيل ، فاننا نؤمن بأن المسيح بشر بهذا السلطان ، ونحن نقر بفضيلة في سلوكه تفوق فضيلة البشر ، وبمحكمة في تعليمه تفوق حكمة البشر . »

وأنكر الخطاب الثاني حق مجلس مدني في الحكم في قضايا الدين (ناسيا العقد الاجتماعي) . وفي إدانة إميل انتهاك المبدأ الأساسي من مبادئ حركة الإصلاح البروتستنتي ، وهو حق الفرد في أن يفسر الكتاب المقدس لنفسه^(٤٥) .

« لو برهنت لي اليوم انني في مسائل الدين مضطر للاذعان لقرارات غيري ، فسأتحول إلى الكاثوليكية غدا^(٤٦) » . وسلم روسو بأن دعاة الإصلاح البروتستنتي أصبحوا بدورهم مضطهدين للتفسير الفردي^(٤٧) . ولكن هذا لا يبطل المبدأ الذي لولاه لكانت ثورة البروتستنت على السلطة البابوية ظالمة . واتهم القساوسة الكالفنيين (باستثناء راعي) بأنهم اعتنقوا روح الكاثوليكية المتعصب ، ولو كانوا أوفياء لروح الإصلاح البروتستنتي لدافعوا عن حقه في نشر تفسيره الخاص للكتاب المقدس . وسجاد الآن بكلمة ثناء على رأي دالامبير في قساوسة جنيف :

« أن أحد الفلاسفة يلتقي عليهم نظرة عجيبي ، ثم يتغلغل إلى أعماقهم ،

فيرى أنهم أريوسيون ، سوسينيون ، فيقول هذا ، ويحسب أنه بهذا القول يشرفهم ولكنه لا يدرك أنه يعرض مصالحهم الدنيوية للمخطر ، وهو الأمر الوحيد الذى يقرر على العموم إيمان البشر فى هذه الدنيا (٤٨) .

وفى الخطاب الثالث تناول اتهامه برفض المعجزات . فنحن إن عرفنا المعجزة بأنها خرق لقوانين الطبيعة ، فلن نستطيع أبدا أن نعرف هل الشئ معجزة أم غير معجزة ، لأننا لانعرف كل قوانين الطبيعة (٤٩) . فحتى فى ذلك العصر كان كل يوم يشهد معجزة جديدة يحققها العلم ، لانخالفنا بذلك قوانين الطبيعة ، بل بفضل معرفته بها معرفة أعظم .

كافى الأنبياء فى قديم الزمان يستنزلون النار من السماء بكلماتهم ، أما اليوم فالأطفال يفعلون هذا بقطعة صغيرة من الزجاج (المشتعل) . ان يشوع أوقف الشمس ، وأى واضح للتقاويم يستطيع الوعد بمثل هذه النتيجة إذا حسب كسوف الشمس (٥٠) . وكما أن الأوربيين الذين يجرون عجائب كهذه بين الهمج يعدم هؤلاء آلهة ، فكذلك معجزات الماضى — حتى معجزات المسيح — ربما كانت نتائج طبيعية فسرتها الجماهير خطأ بأنها تعطيلات إلهية للقانون الطبيعى (٥١) . ولعل لعازر الذى أقامه المسيح من بين الأموات لم يكن فى حقيقة الأمر ميتا . ثم ، كيف يمكن أن تثبت معجزات معلم صدق تعليمه ، إذا كان معلمو التعاليم المعتبرة عموما تعاليم كاذبة قد أجرو معجزات قيل إنها أيضاً حقيقية ، كما حدث حين بارى سحرة مصر هارون فى تحويل العصى إلى حيات (٥٢) . ان المسيح حذر من « المسحاء الكذبة » الذين يعطون آيات عظيمة وعجائب (٥٣) .

كان روسر قد بدأ خطاباته بغرض مساعدة المحتجين من رجال الطبقة الوسطى ، ولم يطلب توسيعا لحق الانتخاب فى اتجاه ديمقراطى ، لا بل انه فى الخطاب الرابع يلترم بالرأى بأن الارستقراطية المنتخبة هى خير أشكال الحكم ، وأكد لحكام جنيف أن المثل الأعلى الذى رسمه فى «العقد الاجتماعى» كان فى صميمه متفقا مع الدستور الجنيفى (٥٤) . ولكن فى الخطاب السابع أخبر أصدقاءه من البورجوازية المحتجة أن الدستور لا يقر سيادة المواطنين

ذوى الحقوق الانتخابية إلا خلال الانتخابات للمجلس العام ومؤتمره السنوى ، أما فى باقى السنة فالمواطنون مجردون من السلطة . وفى تلك الفترة الطويلة كلها يكون مجلس الخمسة والعشرين الصغير هو الحكم الأعلى فى القوانين ، وفى مصير جميع الأفراد تبعاً لذلك ، والواقع أن المواطنين والبورجوازين الذين يبدون أصحاب سيادة فى المجلس العام ، يصبحون بعد فضه عبيداً لسلطة استبدادية اسلموا بغير دفاع لرحمة خمسة وعشرين مستبدًا^(٥٦) .

وكان هذا اقرب إلى الدعوة للثورة . ولكن روسو استنكر هذا الملجأ الأخير . ففى خطابه الأخير اثنى على البورجوازية باعتبارها اعقل طبقة فى الدولة ، وأكثرها حباً للسلام ، محصورة بين طبقة اشراف غنية ظالمة ، وجماهير متوحشة غبية^(٥٧) . ولكنه نصح المحتجين بالصبر والمصابرة ، وبأن يركنوا إلى العدالة والزمن لينصفاهم من مظالمهم .

واعضبت « خطابات الجبل » هذه اعداء روسو وساءت اصدقاؤه . . . وأفرغت هرطقاته القساوسة الجنيفيين ، وزادهم فزعاً لإدعاؤه أنهم يشاطرونه أياها . فانقلب الآن فى عنف على القساوسة الكلفنيين ورماهم بأنهم « رعاع غشاشون ، بطانة غبية ، وذئاب مسعورة » . « وأعرب عن إيمانه للكهنة الكاثوليك البسطاء فى القرى والمدن الفرنسية^(٥٨) . ولم يستعن « المحتجون » بالخطابات فى حملتهم الناجحة لنيل المزيد من السلطة السياسية ؛ واعتبروا روسو حليفاً خطراً لا يركن إليه ، فاعتزم ألا يشارك بعدها بأى نصيب فى السياسة الجنيمية .

٤ — روسو وفولتير

كان قد تساءل فى الخطاب الخامس ، لم لم يوح « المسيو فولتير » الذى « طالما زاره » أعضاء المجلس الجنيفيون ، لهم « بروح التسامح تلك التى لا ينبى عن التبشير بها ، والتى يحتاج هو إليها أحياناً ؟ وأجرى على لسان فولتير حديثاً خيالياً^(٥٩) يحيد فيه حرية الكلام للفلاسفة بحجة أن قلة لا تذكر

هى التى تقرأ لهم . وكان تقليده لأسلوب فولتير الخفيف الرشيق بارعا . ولكنه صور حكيم فرنية معترفا بتأليفه لكتاب نشر حديثا اسمه « عظة الخمسين » وكان فولتير أنكر أبوته غير مرة لأنه زخر بالهرطقات . ولاندرى أكان كشف روسو للسر متعمداً خبيثاً ؟ على أى حال هذا ما رآه فولتير ، وحنق منه أشد الحنق ، لأنه عرضه لإمكان طرده من فرنسا من جديد ، فى الوقت الذى كان مسقراً فيه فى فرنية .

وصاح حين قرأ الخطاب الواشى « يا للمجرم ! يا للوحش ! كان يجب أن أضربه بالنبوت - نعم ؛ سأمر بضربه بالنبوت فى جباله عند ركبتى مربيته ؛ » وقال متفرج « أرجو أن تهديء روعك ، لأنى أعلم أن روسو ينوى أن يزورك ، وسيكون فى فرنية قريباً جداً .. وصاح فولتير وقد بدت عليه نية الأذى « آه ، فليأت فقط . »

« ولكن كيف ستستقبله ؟ »

« سأقدم له العشاء ، وأعطيه فراشى ، وأقول له « هاك عشاء طيبا ، وها هو أفضل فراش فى البيت ؛ ففضل بقبول الأثنين وانعم بالسعادة هنا (٦١) » .

ولكن روسو لم يحضر . وثأر فولتير لنفسه بأصداره (٣١ ديسمبر ١٧٦٤) كتيباً بقلم مجهول ، سماه « عواطف المواطنين » هو لطفة من أشد اللطخ التى تلوث خلقه ومهنته سوادا . ولا بد من نقل ماجاء به ليصدق القارىء :

« أننا نرثى للأحقق ، ولكن حين تستحيل حمايته جنونا فأننا نوثق رباطه . ذلك أن التسامح - وهو فضيلة - يصبح عندها رذيلة لقد غفرنا لهذا الرجل رواياته ، التى آذى فيها اللياقة والحياء كما آذى المنطق السليم . وحين خلط الدين بقصصه ، أضطر قضائنا إلى محاكاة قضاة باريس وهرن واليوم ألا يفرغ الصبر حين ينشر كتابا جديداً يعتدى فيه لإعتداء مجنوننا على الدين المسيحى ، وعلى الإصلاح البروتستنتى الذى يدعيه ، وعلى كل خدام الأنجيل المقدس وكل هيئات الدولة ؟ - إنه يقول بجلاء ، وباسمه

صراحة ، ليس في الانجيل معجزات نستطيع أخذها حرفياً دون أن نطلق عقولنا

« أهو عالم يجادل العلماء ؟ لا . . . بل رجل مازال يحمل آثار فجوره الخزية . . . ويجر معه من بلد إلى بلد ، ومن جيل إلى جيل ، المرأة التعسة التي كان سبباً في موت أمها ، والتي ألقى باطفالها على باب مستشفى . . . جاحداً كل مشاعر الطبيعة ، كإنكاره لمشاعر الشرف والدين . . .

« أريد أن يطيح بدستورنا بتشويهه ، كما يريد أن يطيح بالمسيحية التي يدعيها ؟ يكفي أن ينذر بأن المدينة التي يزعمها تنكره فإذا ظن أنها تمتشق الحسام [أى تقوم بثورة] بسبب [إدانة] إميل ، فليضيف هذه الفكرة إلى سخافاتة وحماقاتة . . ولكن يجب أن نخبر بأننا إن ترفقنا في عقاب رواية فاجرة ، فإننا سننقسو في عقاب خائن لثيم^(٦١) .

وكان هذا الكلام فعلة مخزية لا يشفع لها غضب فولتير ولا أمراضه ولا شيخونته ، (وكان الآن في السبعين) .

لأعجب إذا كان روسو لم يصدق قط (وحتى في يومنا هذا لا نكاد نصدق) أن فولتير هو كاتبه ، بل نسبه إلى القس الجنيني فيرن ، الذي أكد عبثاً أنه ليس كاتبه . وأذاع روسو في لحظة من أجمل لحظاته رداً على « العواطف » (يناير ١٧٦٥) :

« أريد أن أدلى ببساطة بالتصريح الذي يبدو أنه مطلوب مني بهذا المقال . فما من علة صغيرة أو كبيرة ، كما يدعى المؤلف ، قد لوثت قط جسدي . والعلة التي أصابتنى ليس هناك أدنى شبه بينها وبين تلك المشار إليها فقد ولدت معي ، ويعرف ذلك الدين رعوني في طفولتي ، الباكون على قيد الحياة . وهي معروفة للسيدات مالوان ، وموران ، وتيرى ، وداران . . . فإذا وجدنا في هذه العلة أقل أماراة من أمارات الفجور ، فأنى أرجوهم أن يلغنى ويفضحنى . والمرأة العاقلة التي يقدرها العالم ، والتي تعنى بي في كوارثي . لا يشقيها إلا مشاطرتها لشقائي . أما أمها فهي في

الواقع فياضة بالحياة ، وفي صحة سابقة ، رغم شيخوختها [فقد عمرت إلى الثالثة والتسعين] . ولم ألق قط ، ولا تسببت في إلقاء أى أطفال على باب مستشفى ولا في أى مكان آخر . . . ولن أزيد . . اللهم إلا القول بأننى حين يحضرنى الموت أؤثر أن أكون قد ارتكبت ما يتهمنى به المؤلف ، عن أن أكون كاتب كتيب كهذا . (٦٢)

ومع أن تسليم روسو أطفاله للجبأ للقطاء (لا إلقاءهم في العراء بالضبط) كان موضوعاً يعرفه المقربون في باريس (فقد اعترف به للمرشالة لكسمبورج) ، فإن نشر فولتير كانت أول إفشاء علنى لهذا السر . ونخامر جان — جاك الظن في أن مدام دينيه أفشته عند زيارتها لجنيف ، واقتنع الآن بأنها هى وجريم وديرو كانوا يأتمرون لتشويه سمعته . وقد هاجم جريم روسو في هذه الفترة غير مرة في « الرسائل الأدبية » (٦٣) . وفي خطابه المؤرخ ١٥ يناير ١٧٦٥ في معرض الحديث عن « خطابات من الجبل » أنضم إلى فولتير في اتهام روسو بالخيانة : « إن وجد في أى مكان على الأرض جريمة تدعى الخيانة العظمى ، فهى ولاريب في مهاجمة الدستور الأساسى لدولة بالأسلحة التى استخدمها روسو ليطيح بدستور وطنه » .

والشجار الطويل الذى نشب بين فولتير وروسو من أفجع اللطخ التى لوثت وجه حركة التنوير . لقد باعد بينهما مولدهما ومركزهما . فولتير ، ابن الموثق الموسر ، تلقى تعليماً حسناً ، لاسيما في الدراسات القديمة ؛ أما روسو المولود في أسرة فقيرة وشبكة التفكك ، فلم يتلق أى تعليم نظامى ، ولم يرث أى تقليد كلاسيكى ، وقد قبل فولتير القواعد الأدبية التى وضعها بوالو — « أحب العقل ، ولتستق كل كتاباتك من العقل بهاءها وقيمتها » (٦٤) . أما في رأى روسو (كما في رأى فاوست وهو يغوى ما رجريت بروسو) فإن « الوجدان كل شئ » (٦٥) . وكان فولتير لا يقل عن جان — جاك حساسية وسرعة أنفعال ، ولكنه عادة كان يرى من سوء الأدب أن يترك الأنفعال يشوه فنه ، وقد اشم في دعوة روسو للوجدان والغريزة لاعقلية فوضوية فردية تبدأ بالثورة وتنتهى بالدين . وقد شجب فولتير بسكال ، أما روسو

فردده كالصدى . وكان فولتير يعيش كما يعيش أصحاب الملايين ، أما روسو فكان ينسخ الموسيقى ليكسب قوته . وكان فولتير خلاصة كل لطائف المجتمع ، أما روسو فكان يشعر بالقلق في المجتمعات ، وكان أقل صبرا وأضيق صدرا من أن يحتفظ بصداقة صديق . وكان فولتير ابن باريس ، وريبب مرحها وترفها ، أما روسو فكان طفل جنيف ، بورجوازيًا مكتئبا ، وبيورتانيا يكره تمييز الطبقات الذي يجرحه ، وألوان البذخ التي لا قدرة له على الاستمتاع بها ، ودافع فولتير عن الترف لأنه يداول مال الإغنياء بتشغيل الفقراء ، أما روسو فادانه لأنه « يطعم مائة فقير في مدنا ويسبب هلاك مائة ألف في قرانا » (٦٦) وذهب فولتير إلى أن آثام الحاضرة ترجحها فنونها وما توفره من أسباب الراحة ، أما روسو فكان لا يشعر بالراحة في أى مكان ، ويندد بكل شيء تقريباً . وأصغى المصلحون إلى فولتير ، واستمع الثوار إلى روسو .

إن هوراس وليلول حين قال إن « هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون ، ومأساة لمن يشعرون » (٦٧) . « أجمل في سطر واحد ، على غير قصد منه ، حياة أعظم عقليين من عقول القرن الثامن عشر تأثيرا في الناس .

٥ — بوزويل يلتقى بروسو

في وراية بوزويل لزيارات خمس قام بها لجان — جاك في ديسمبر ١٧٦٤ تصوير غاية في اللطف لروسو . فلقد أقسم ذلك المعجب الذي لامه رب منه عينا مغلظة (٢١ أكتوبر) أنه « لن يكلم ملحدًا ، ولن يتمتع بامرأة ؛ قبل أن يلتقى روسو » (٦٨) وفي ٣ ديسمبر شد رحاله من نوشاتل إلى موتيه — ترافير . وحين بلغ برو في منتصف الطريق وقف بنزل وسأل ابنة صاحبه ماذا تعرف عن فريسته . وكان جوابها مقلما :

« إن المسيو روسو يحضر هنا كثيرا ويمكنك أياما مع مدبرة بيته ؛ الأنسة ليفاسير . وهو رجل لطيف جدا ؛ له وجه جميل ؛ ولكنه لا يحب أن يأتي الناس ويحملقوا فيه كأنه رجل له رأسان . يا لله ! أن فضول

الناس لا يصدق ؛ أن كثيرين ؛ كثيرين يأتون لبروه ؛ وكثيراً ما يرفض لقاءهم . إنه مريض ؛ ويكره أن يزعيجه أحد (٦٩) » .

ولكن بوزويل واصل رحلته بالطبع . وفي موتييه نزل بفندق القرية .

« وأعددت خطاباً لمسيو روسو أخبرته فيه أن سيداً أسكتلنديا عتيق الطراز في الرابعة والعشرين قدم بأمل لقائه . وأكدت له أنني جدير باحترامة . . . وفي خاتم خطابي بينت له أن لي قلباً وروحاً . . . والخطاب آية في بابه حقاً . وسأحتفظ به ما حييت برهانا على أن في قدرة روحى أن تتسامى (٧٠) » .

وكان خطابه - الذى كتبه بالفرنسية - مزيجاً بارعاً من السذاجة المتعمدة والأعجاب الذى لا يرد :

« إن كتاباتك ياسيدى أذابت قلبي . ورفعت روحى . وألهبت خيالى . صدقتى سيميجك أن تلتقى بي . إيه ياسان - برو العزيز ! أيها المعلم المستنير ! أى روسو البليغ المحبوب ! يحدثنى قلبى بأن صداقة شريفة حقاً ستولد اليوم . . . لدى الكثير الذى أحدثك به . ومع أننى لست إلا شاباً فقد خبرت من ألوان الحياة ما سيدهشك . . . ولكنى أتوسل اليك أن تلتقانى وحدك . . . ولا أدري هلا أفضل أن ألقاك إطلاقاً من أن ألقاك أول مرة فى صحبة . وأنى مترقب ردك بفارغ الصبر (٧١) » .

وأرسل له روسو كلمة يقول إن فى استطاعته الحضور إذا تعهد بأن تكون زيارته قصيرة . وذهب بوزويل « مرتدياً سترة وصدريه قرمزية بدانتيللا مذهبة ، وبنطلون ركوب من جلد الغزال ، ومنتعلاً حذاء طويلاً . وفوق ذلك كله لبست معطفاً كبيراً من وبر الجمل الأخضر المبطن بفراء الثعلب » . وفتحت تريز الباب « فتاة فرنسية قصيرة رشيقة أنيقة » . وقادته صعداً إلى روسو - رجل ظريف أسمر اللون فى زى الأرمن . . . وسألته عن صحته فقال : « مريض جداً ولكنى طلقت الأطباء » . وأعرب روسو عن إعجابه

بفردريك وازدراثة للفرنسيين - « شعب جدير بالاحترار ، ولكنك ستجد نفوسا عظيمة في أسبانيا » . بوزويل : « وفي جبال اسكتلندة » . وقال روسو عن اللاهوتين أنهم « سادة يقدمون تفسيراً جديداً لشيء من الأشياء ويتركونه مغلقاً على الأفهام كما كان » . وناقشا أحوال كورسيكا ، وقال روسو أنه قد طلب إليه أن يشرع لها قوانين ، وبدأ بوزويل تحمسه الدائم لاستقلال كورسيكا . ثم صرفه روسو بعد قليل ، قائلاً أنه يود التمشي منفرداً .

وفي ٤ ديسمبر استأنف بوزويل الحصار . وتحدث معه روسو ملياً ، ثم صرفه : انك « تزعجني . هذا طبعي ولا حيلة لي فيه . » بوزويل : « ارفع الكلفة معي » . روسو « امضي » . وصحبت تيريزا بوزويل إلى الباب وقالت له « لقد عشت مع الميسوروسو اثنين وعشرين عاماً ، ولن أتخلي عن مكاني لأكون ملكة فرنسا . وأنا أحاول الانتفاع بالنصيحة الطيبة التي يسديها لي . وإذا مات سأضطر إلى دخول الدير^(٧١) »

وطرق بوزويل الباب مرة أخرى في ٥ ديسمبر . وتأوه روسو « يا سيدي العزيز ، يوسفني عجزى عن التحدث إليك كما أشتى » بوزويل : نحى هذه الأعذار وأثار الحديث بقوله : لقد اعتنقت الكاثوليكية وأنوى الاختفاء في دير روسو بالحماقة ! . . بوزويل : « أخبرني بحق أنت مسيحي ؟ » وقرع روسو صدره وأجاب : « نعم إنني أعتر بأنى مسيحي . » بوزويل (الذي كان مصاباً بالاكثاب) قل لي : هل تعاني من الاكثاب ؟ روسو : لقد ولدت هادئاً ، وليس بي ميل طبيعي للاكثاب . لقد أصابتنى به الكوارث التي حلت بي . بوزويل : ما رأيك في الأديار ، والكفارات ، والعلاجات التي من هذا النوع ؟ روسو : كلها سخافات . بوزويل : هل لك يا سيدي أن تضطلع بارشادي الروحي ؟ روسو : لا أستطيع . بوزويل : سأعود . روسو : لا أعد بلقائك . لأنني أعاني ألماً ، انني احتاج إلى مbole كل دقيقة^(٧٢) .

في عصر ذلك اليوم ، في بيت القرية كتب بوزويل في أربع عشرة

صفحة مجملاتى وبعث به إلى روسو . وقد اعترف فيه بحادث زنا أتاه ، وسأل روسو ألا يزال فى إمكانى أن أجعل نفسى رجلاً ؟ وعاد إلى نوشاتل ، ولكنه كان بباب روسو مرة أخرى فى ١٤ ديسمبر . وأخبرته تريز أن سيدها مريض جداً ، وأصر بوزويل ، واستقبله روسو « ووجدته جالساً وهو فى غاية الألم » . روسو : لقد غلبتى العلى ، وخيبات الأمل ، والحزن . إننى استعمل مجسماً . كل إنسان يعتقد أن من واجبه أن أصغى له . . . عد فى العصر . موزويل : وكم تظول زيارتى ؟ روسو : « ربع ساعة ، لا أكثر . بوزويل : عشرين دقيقة . روسو : هيا انصرف . ولكنه لم يمالك نفسه من الضحك .

وعاد موزويل فى الرابعة وهو يحلم بلويس الخامس عشر . « إن الأخلاق تبدو لى أمراً غير يقينى . فأنا مثلاً أحب أن يكون لى ثلاثون امرأة . ألا أستطيع أن أشبع تلك الرغبة ؟ لا . ولكن انظر ، لو كنت غنيا لاستطعت أن اتخذ عدداً من الفتيات ، وأحبهن ، وبهذا يزداد النسل . ثم أعطين مهوراً ، وأزوجهن لفلاحين طيبين سيسعدون جداً بالزواج منهن . وهكذا يصبحن زوجات فى نفس السن التى كن يتزوجن فيها لو ظلن أبكاراً ، وأكون أنا من ناحيتى قد أفدت بالاستمتاع بعدد كبير من مختلف النساء * فلما لم يقع من نفس روسو هذا الفرض الملكى ، سأله « أخبرنى من فضلك كيف أكفر عن الشر الذى ارتكبهته ؟ وأجاب روسو جواباً ذهبياً « ليس هناك تكفير عن الشر إلى الخير^(٧٤) . وطلب بوزويل إلى روسو أن يدعو للغداء ، وقال روسو « غداً » وعاد بوزويل إلى الفندق ممتعشاً غاية الانتعاش .

وفى ١٥ ديسمبر تناول الطعام مع جان — جاك وتريز فى المطبخ ، وقد وجده نظيفاً مشرقاً . وكان روسو رائق المزاج ، ولم تبد عاياه علامات الاضطرابات العقلية التى ستظهر فيما بعد . وكان كلبه وقطته على وفاق مع بعضهما البعض ومعه . « ووضع بعض الطعام على صينية خشبية ، وجعل كلبه يرقص حوله وغنى روسو .. لحنا مرحاً بصوت

رخيم وذوق رفيع . وتحدث بوزويل في الدين .. « ان الكنيسة الانجليكانية
أفضل المذاهب عندى . روسو : نعم ، ولكنها ليست الإنجيل . ألا تحب
القديس بولس ؟ اننى احترمة ، ولكنى أحسبه مستولا إلى حد ما عما فى
رأسك من اختلاط . لو عاش لكان قسيسا انجليكانيا .

الآنسة ليفاسير : أستلقى المسيو دفولتير يا سيدى ؟ بوزويل : بكل تأكيد .
ثم إلى روسو : ان المسيو دفولتير لا يحبك . روسو : أن المرء لا يحب من
أذاهم أذى شديداً . أن حديثه ممتع جداً ، لا بل إنه يفضل كتبه . وطال
وزويل المكث فوق ما تحتمله الضيافة ، ولكن حين ودع « قبلنى روسو
مرات ، وضمنى بين ذراعية بود رقيق » . فلما وصل بوزويل إلى
الفندق قالت ربه سيدى : أظنك كنت تبكى . ويضيف إننى احتفظ
بذكرى هذه الكلمات إطراء صادقاً لإنسانيتى (٧٥) .

٦ - دستور لكورسيكا

بعد أن زار بوزويل فولتير فى فرنیه ، مضى فى رحلته إلى ايطاليا
ونابلى وكورسيكا ، ربما بحث من روسو . وكانت كورسيكا بزعامة
باسكالى دى باولى قد حورت نفسها من سيطرة جنوه (١٧٥٥)
ورحب روسو فى « العقد الاجتماعى » من قبل بمولد الدولة الجديدة .

ما زال فى أوروبا بلد واحد مفتوح للمشروع ، انه جزيرة كورسيكا .
والبسالة والأصرار اللذان برهن بهما هذا الشعب الشجاع على قدرته على
استرداد حريته والدفاع عنها يستحقان المعونة من انسان حكيم يعلمهم
كيف يحتفظون بها . ونفسى تحدثنى بأن هذه الجزيرة الصغيرة سوف تدهش
أوروبا يوماً ما (٧٦) . «

ولو أخذ رأى فولتير لرأى أن روسو آخر رجل فى أوروبا يصح
دعوته للتشريع . ولكن الذى حدث أن جان - جاك تلقى فى ٣١
أغسطس ١٧٦٤ الخطاب الآتى من ماتيويوتا فوكو ، المبعوث الكورسيكى
لمدى فرنسا :

« لقد ذكرت كورسيكا ياسيدى فى « عقدك الاجتماعى » على نحو يتيه به وطننا . وهذا الثناء من قلم مخلص كل الإخلاص كقلمك . . أوحى بالرغبة القوية فى إنك يمكن أن تكون المشرع الحكيم الذى يعين الأمة على الحفاظ على الحريات التى إقتنتها بدم كثير . وإنى إدرك بالطبع أن المهمة التى أجرؤ على الالتحاح عليك فى الأضطلاع بها تحتاج إلى معرفة خاصة بالتفاصيل ... ولكنك إن تفضلت أن تقبل المهمة فسأزودك بكل المعرفة الضرورية لإنارتك . وسيدل المسيو باولى . . . قصاراه ليرسل اليك من كورسيكا كل المعلومات التى قد تحتاج إليها . ويشاطرني رغبتى هذا الزعيم المرموق ، لابل جميع اخوانى المواطنين الذين أتيح لهم الإطلاع على أعمالك ، ويشاركوننى مشاعر الاحترام التى تشعر بها أوربا كلها نحوك ، والتى أنت أهل لها لأسباب كثيرة جداً (٧٧) » .

ورد روسو (١٥ أكتوبر ١٧٦٤) بقبول المهمة ، وطلب تزويده بالمعلومات عن طبيعة الشعب الكورسيكى ، وتاريخه ، ومشاكله . واعترف بأن العمل قد يكون « فوق طاقتى وإن لم يكن فوق تمسسى » . ثم كتب إلى بوتافيوكو ، فى ٢٦ مايو ١٧٦٥ يقول : غير أنى أعدك أنه لن يكون لى إهتمام فيما بقى لى من أجل غير نفسى وكورسيكا ، وكل ماعدا ذلك من أمور ساقصية عن أفكارى (٧٨) . ثم عكف من فوره على وضع « مشروع دستور لكورسيكا » .

واقترح روسو فى مشروعه و « العقد الاجتماعى » فى ذاكرته ، أن يوقع كل مواطن على تعهد ملزم لا رجعة فيه بوضع نفسه — « جسدى وأملاكى وارادتى ، وكل قدراتى » — تحت تصرف الأمة الكورسيكية (٧٩) . وحيا « الكورسيكيين البواسل » الذين ظفروا باستقلالهم ، ولكنه نبههم إلى أن فيهم رزائل كثيرة — كالكسل ، وقطع الطريق ، والعداوات ، والوحشية — ومعظمها ناجم عن كراهيتهم لسادتهم الأجانب . ونخير علاج لهذه الرزائل أن يعيشوا عيشة زراعية خالصة . وينبغى أن توفر القوانين كل إغراء للشعب لينزىم الأرض بدلا من التجمع فى المدن ، فالزراعة تعين على الخلق الفردى

والصحة القومية ، أما التجارة بأنواعها والمالية فتفتح الأبواب لكل ضروب الغش والاحتيال ، ويجب على الدولة ألا تشجعها . ويجب أن يكون السفر كله على الأقدام أو على ظهور الدواب ، وأن يكافأ الزواج المبكر والأسرة الكبيرة ؛ وأن تسقط المواطنة عن الرجال الذين يظلون عزابا إلى الأربعين . ويجب خفض الملكية الخاصة وزيادة ملكية الدولة . « بودى أن أرى الدولة المالك الوحيد ؛ ولا يصيب الفرد من ملكية المشتركة إلا بنسبة خدماته (٨٠) » ، وينبغي إلزام السكان بفلاحة أراضي الدولة إذا إقتضى الأمر ، وأن تشرف الحكومة على التعليم كله ، وعلى الآداب العامة كلها ؛ وأن تشكل الحكومة نفسها على غرار الولايات السويسرية (الكنتونات) .

وفي ١٧٦٨ اشترت فرنسا كورسيكا من جنوه ؛ وجردت عليها جيشا ؛ وعزلت باولى ، وأخضعت الجزيرة للقانون الفرنسى . وكف روسو عن المضى فى مشروعه ؛ وندد بالغزوة الفرنسية لأنها إنتهاك « لكل عدل ؛ وإنسانية ؛ وحق سياسى ، وتفكير سليم (٨١) » .

٧ - الاجبىء

ظل روسو عامين يحيا حياة متواضعة هادئة فى موتية ؛ يقرأ ؛ ويكتب ويرعى مرضه ، ويعانى من إصابة بعرق النسا (أكتزبر ١٧٦٤) ؛ ويحتفى بالزوار الذين تجهزهم تريز بعد الفحص . وقد وصفه أحدهم وصف عارف بالجميل فقال :

« أنك لا تتصور أى سحر فى الاجتماع به ؛ ولا أى إدب صادق فى سلوكه ؛ ولا أى عمق من الهدوء والبشاشة فى حديثه . ألم تتوقع صورة مغايرة تماماً لهذه الصورة ؛ وألم تصور لنفسك مخلوقا غريب الأطوار ؛ جادا دائماً لا بل فظا أحيانا ؟ فيالها من غلطة ! إنه يجمع إلى سمات اللطف الكثير نظرة من نار ؛ وعينين لم ير قط مثل لحيويتهما . فأذا تناولت موضوعا يهتم به ، تكلمت عيناه ، وشفتهاه ، ويداه — وكل ما فيه . وأنت تخطىء كل الخطأ أن تصورته إنسانا لا يكف عن التذمر . فهو على النقض يضحك مع الضاحكين ويثرثر ويمزح مع الأطفال ؛ ويسخر من مديرة منزله (٨٢) » .

ولكن القساوسة المحليين كانوا قد اكتشفوا ما في « إميل » و« خطابات الجبل » من هرطقات ، ورأوها فضيحة أن يمضي هذا الوحش في تلوين سويسرة بوجوده فيها . ورغبة في تهديئة ثائرتهم عرض (١٠ مارس ١٧٦٥) أن يتعهد ، في وثيقة رسمية « بالا ينشر أبداً أى كتاب جديد في أى موضوع ديني ، لا بل أن يتناوله عرضاً في أى كتاب جديد آخر . . . وأكثر من ذلك أننى سأظل شاهداً ، بمشاعري وسلوكي ، بالقيمة العظمى التي أعلقها على سعادة الإتحاد بالكنيسة^(٨٣) . وإستدعاه مجمع كنيسة نه شاتل للمثول أمامه والرد على تهم الهرطقة الموجهة إليه ، فالتمس إعفائه : « يستحيل على رغم صدق نيتي أن أحتمل جلسة طويلة^(٨٤) وهو ما كان الحقيقة المؤلمة » . وانقلب عليه راعي كنيسته ، وندد به في مواعظ علنية متهماً أياه بأنه عدو المسيح^(٨٥) . وألهبت هجمات القساوسة شعب أيرشيلتهم ، فراح بعض القرويين يحصبون روسو إذا خرج للتمشي . وقرب نصف ليلة ٦ - ٧ سبتمبر أيقظته هو وتريز حجارة تقذف على جدرانها وتحطم نوافذها . وأحترق حجر كبير الزجاج وسقط عند قدمه . واستدعى جاره — وكان موظفاً في القرية — بعض الحراس لإنقاذه ، وتفرق الجمع ، ولكن لإصدقاء روسو الباقين في موتيه نصحوه بأن يرحل المدينة :

وأنته عدة عروض تقدم له الملجأ « ولكنى كنت متعلقاً بسويسرة تعلقاً منغى من أن أصمم على الرحيل عنها مادام في إستطاعتي العيش فيها^(٨٦) » . وكان قد زار قبل عام « الإيل دسان — بير » ، الجزيرة الصغيرة الواقعة في وسط بحيرة بين ، ولم يكن على الجزيرة سوى بيت واحد — هو بيت الوكيل ، وخيل لروسو أن المكان بقعة مثالية لعاشق للعزلة يكرهه الناس . وكان يقع في كانتون برن التي طردته قبل عامين ، ولكنه تلقى تأكيدات غير رسمية بأن في إستطاعته الانتقال إلى الجزيرة دون أن يخشى الاعتقال^(٨٧) .

وهكذا ، حوالى منتصف سبتمبر ١٧٦٥ ؛ بغد ستة وعشرين شهراً في موتيه ؛ ترك هو وتريز المنزل الذي أصبح عزيزاً عليهما ، وذهبا للأقامة مع (م ٢٢ قصة الحضارة ج ٣٩)

أسرة الوكيل في مكان لا يتيح إنعزاله « لا للجمهور ولا لرجال الكنيسة تكديره^(٨٨) ». « وخيل إلى أنني سأكون في تلك الجزيرة أشد إنعزالاً عن الناس وأن البشر سيكونون أسرع نسياناً لي^(٨٩) ». ورغبة في تغطية نفقاته أعطى الناشر دوبيرو حق نشر كل كتبه ؛ « وجعلته مستودع جميع أوراقى ؛ بشرط صريح هو ألا يستعملها إلا بعد موتى ؛ لأن غاية أمانى كانت أن اختتم حياتى في هدوء ؛ دون أن أفعل شيئاً يعيدنى مرة أخرى إلى ذاكرة الجماهير^(٩٠) ». وعرض عليه المريشال كيت معاشاً سنوياً قدره ألف ومائتا جنية ؛ فوافق أن يأخذ نصفه . ودبر معاشاً آخر لتريز . واستقر معها على الجزيرة وهو لا يتوقع من الحياة شيئاً آخر . وكان الآن في سنته الثالثة والخمسين .

وبعد ثلاثة عشر عاماً — في آخر سنة في عمره — ألف كتاباً من أروع كتبه اسمه « أحلام متجول وحيد » وصف في بلاغة مخففة معيشته على جزيرة سان — بيير « كانت أول وأهم متعة أتوق إلى تذوقها بكل حلاوتها هي حياة الدعة اللذيذة^(٩١) ». وقد رأينا في غير هذا الموضع مبلغ إعجابه بلينايوس ؛ أما الآن ، وفي يده أحد كتب عالم نبات سويدي ؛ فقد بدأ يعدد ويدرس النباتات التي وجدها على ملكه الصغير . أو كان إذا صحا الجو يفعل كما يفعل تورو على بركة فولدن :

« كنت أرتدى وحيداً في زورق أجدف به إلى وسط البحيرة حين يكون الماء هادئاً . هناك ؛ وأنا ممدد بطولى كله في الزورق ؛ وعيناي إلى السماء كنت أترك نفسى للماء يحملنى هونا كما يشاء ؛ ساعات عدة أحيانا ، وأنا غارق في مئات الأحلام المبهجة^(٩٢) » .

ولكن راحته لم تطل حتى على هذه المياه . ذلك أن مجلس شيوخ برن أمره في ١٧ أكتوبر ١٧٦٥ بأن يرحل عن الجزيرة والمقاطعة خلال خمسة عشر يوماً . وغلبته الحيرة والهزيمة « فالتدابير التي كنت قد اتخذتها تأميناً لموافقة الحكومة الضمنية ، والهدوء الذي تركت فيه لأستقر ، وزيارات العديدين

من أهل برن لي»، كل هذا حدا به إلى الاعتقاد بأنه الآن في مأمن من الازعاج والمطاردة . والتمس من مجلس الشيوخ شيئاً من التفسير والتأجيل ، واقترح بديلاً يائسا لحكم النفي :

« لست أرى لي غير سبيل واحد ، ومهما بدأ رهيباً ، فأني سأأخذ لا دون نفور فحسب ، بل برغبة شديدة إذا تفضل أصحاب السعادة بالموافقة . وذلك إنني إن طاب لهم سأقضي ما بقى لي من أجل سجيننا في إحدى قلاعهم ، أو في أي مكان آخر في ضياعهم يرون اختياره . وسأعيش فيه على نفقتي ، وسأقدم ضماناً بالا أكلفهم أي نفقة . وأقبل لإأحمل ورقاً أو قلماً ، أو أكون على اتصال بأي إنسان في الخارج . فقط اسمحوا لي ، مع بعض الكتب ، بالاحتفاظ بحرية المشي بين الحين والحين في حديقة ، وسيرضيني هذا .

أكان ذلك ايذاناً بأنهيأ عقله ؟ أنه يؤكد لنا عكس هذا :

« لا تظنوا أن وسيلة تبدو بهذا العنف هي ثمرة اليأس . فعقلي في تمام الهدوء في هذه اللحظة . وقد ترويت في إتخاذ قرارى ، ولم أنته إليه إلا بعد تفكير عميق . وأرجو أن تلاحظوا أنه إذا بدا هذا قراراً شاذاً فإن وضعى أكثر شذوذاً . فالحياة المضطربة التي أكرهت على أن أحيها سنوات عديدة دون انقطاع ، خليقة بتعذيب رجل موفور العافية ، فما بالكم بعليل تعس براه التعب وسؤ الحظ ، ولم يعد له الآن من أمنية إلا أن يموت في هدوء وسلام^(٩٣) » .

وكان رد برن أن أمرته بالرحيل عن الجزيرة وعن كل إقليم برن خلال أربع وعشرين ساعة^(٩٤) .

فلما أين يمضى ؟ كان لديه دعوات إلى بوتسدام من فردريك ، وإلى كورسيكا من باولي ، وإلى اللورين من سان — لا مير ، وإلى امستر دام من ناشره رى ، وإلى إنجلترا من ديفد هيوم . ففي ٢٢ أكتوبر كتب إليه هيوم الذى كان يومها سكرتيراً للسفارة البريطانية في باريس يقول :

« أن محنتك العجيبة التي لم يسمع بمثلها ، فضلاً عن فضيلتك وعبرتيتك

لا بد أن تثير عواطف كل إنسان فينحاز إليك ، ولكنني أجيل نفسي بذلك
واحد في إنجلترا أماناً مطلقاً من كل اضطهاد ، لا بفضل ما تمتاز به قوانيننا
من روح سمحة فحسب ، بل بفضل الاحترام الذي يكنه كل الناس هناك
لشخصيتك (٩٥) .

وفي ٢٦ أكتوبر غادر روسو جزيرة سان — بيير ورتب أن تظل تريز
حينما في سويسرة ، ورحل هو إلى ستراسبورج ، ومكث فيها شهراً كاملاً
دون أن يستقر على رأى . وأخيراً قرر أن يقبل دعوة هيوم إلى إنجلترا ،
ومنحته الحكومة الفرنسية جوازاً بالحضور إلى باريس . هناك التقى به هيوم
أول لقاء ، وما لبث أن شغف به ، وتحدثت باريس كلها عن عودة للنفي .
وكتب هيوم يقول « محال وصف أو تصور تحمس هذه الأمة لروسو . . .
فلم يظفر شخص قط بمثل ما ظفر به من اهتمام القوم . . . لقد حجب بهاء
فولتير وسواه حجباً تاماً (٩٦) » .

ولكن الصداقة الوليدة أصيبت بصدع في المهد ومن العسير هنا أن نحدد
الحقائق بدقة أو نرويها دون تحيز : ففي أول يناير ١٧٦٦ أرسل جريم إلى
قرائه التقرير الآتي :

دخل جان — جاك روسو باريس في ١٧ ديسمبر . وفي الغد تمشى في
حدائق اللكسومبرج وهو يرتدى زيه الأرمني ، ولما لم ينبه أحد إلى الأمر فإن
احداً لم ينتفع بالمشهد . وقد أسكنه الأمير كوثي في التامبل حيث يعقد الأرمني
المذكور بلاطه كل يوم . كذلك يتمشى يومياً في ساعة معينة في الشوارع الكبيرة
القريبة من مسكنه (*) . وها هو ذا خطاب تداولته الأيدي في باريس خلال
مكثه هنا ، وقد لقي نجاحاً كبيراً (٩٨) .

وهنا نقل جريم خطاباً زعم أن روسو تلقاه من فردريك الأكبر . وكان

(*) قارن خطاب روسو لصديقة دلوز : « وددت لو استطعت الخروج
وزيارتك ، ولكنني مضطر لرجائك أن تحضر أنت إلى تماشيا للإعلان عن
قلنسوتي الارمنية في الشوارع » .

قد زيفه على روسو هوراس وليول . ولندع وليول نفسه يتحدث عنه في خطاب له إلى ه . س كونيواي في ١٢ يناير ١٧٦٦ .

« أن الفضل في شهرتي الراهنة لتأليف تافه جداً ، ولكنه أثار ضجة لا تصدق . ذلك إنني كنت ذات مساء في بيت مدام جوفران أسخر من إدعاءات روسو وتناقضاته ، وقلت: إشيء أضحكهم . فلما عدت إلى البيت دونتها في خطاب ، وأريته في الغد لهلفيتيوس ودوق نفرنوا ، وقد سرا به كثيراً حتى إنهما ، بعد الإشارة على بعض الأخطاء اللغوية شجعاني على اطلاع الناس عليه . وأنا كما تعلم يطيب لي أن اهزأ بالدجالين سواء السياسيين منهم أو الأدباء مهما عظم قدر مواهبهم ، لذلك لم أنكر الفكرة . وسرت النسخ مسرى النار ، وهأنذا « أصبحت موضحة et me voici à la mode وإليك الخطاب (وهو مترجم حرفياً عن فرنسية وليول) :

ملك بروسيا إلى مسيو روسو عزيزي جان — جاك

لقد لفظت جنيف وطنك ، لقد جعلتهم يطاردونك من سويسرة ، البلد الذي أطرية كثيراً في كتاباتك ، وقد أصدرت فرنسا أمراً باعتقالك . فتعال إلى إذن ، فأنا معجب بمواهبك ، وتمتعي أحلامك ، وهي (بهذه المناسبة) تشغلك فوق ما ينبغي وأطول مما ينبغي . وعليك أن تكون في النهاية حكماً وسديداً . لقد أثرت ما يكفي من الاقاويل بسبب غرائب لاتليق برجل عظيم بحق . فأثبت لخصومك أن في استطاعتك أحياناً أن تكون معقولا ، فمن شأن هذا أن يغيظهم دون أن يؤذيك . إن بلادى تقدم لك معتكفا هادئا ، وإنني أرجو لك الحسرة ، وأحب أن أساعدك إذا استطعت أن تستطيع مقامك . أما إذا واصلت رفض معونتي ، فتأكد أنني لن أخبر أحدا بالأمر . وإذا اصررت على إجهاد نفسك لتجد نكبات جديدة ، فأختر ما يحلو لك منها ، فأنا ملك ، وفي استطاعتي أن أحصل لك منها على مايلبي رغباتك ، وسأكف عن اضطهادك حين تكف عن أن تجد فخرك في أن تضطهد — وهو بالتأكيد ما لن يحدث لك أبدا بين خصومك .

صديقك المخلص فردريك (٩٩)

أما وليول فلم يحدث له أن التقى بروسو قط . ولم يجد عقله الرفيع الثقافة ، وثورته الموروثة معنى في كتابات روسو . وقد عرف عيوب روسو وخماقته من حفلات عشاء مدام جوفران ، حيث كان يلتقى ديدرو وجريم . وأغلب الظن أنه لم يدرك أن روسو الحساس إلى درجة العصاب ، قد دفعته إلى مشارف الأنهيار العقلي سلسلة من الجدالات والضيقات . ولو كان وليول على علم بهذا حقا لكانت دعابته قاسية قسوة شائنة . على أننا ينبغي أن نضيف أنه حين طلب هيوم رأيه في إيجاد معتكف لروسو في إنجلترا ، تعهد وليول بأن يمد الطريق بكل ضروب المعونة^(١٠٠) .

أكان هيوم على علم بهذا الخطاب ؟ يبدو أنه كان موجودا ببית مدام جوفران حين لفق أول الأمر ، وقد لآتهم بأنه « شارك » في تحريره^(١٠١) . وقد كتب إلى المركيزة دبار بنتان في ١٦ فبراير ١٧٦٦ :

« إن الدعابة الوحيدة التي سمحت بها لنفسى في أمر خطاب ملك بروسيا المزعوم كانت على مائدة عشاء اللورد أوسورى^(١٠٢) » . وفي ٣ يناير ١٧٦٦ قام هيوم بزيارة وداع لضيوف البارون دولباخ وأخبرهم بآماله في إنقاذ « الرجل القصير القامة » من الأضطهاد وتوفير أسباب السعادة له في إنجلترا . أما دولباخ فتشكك قائلا يؤسفنى أن أبدد الأمال والأوهام التي تخدعك ، ولكنى أقول لك إنه لن يمضى طويل زمن حتى ينقشع عنك الوهم بصورة محزنة . إنك لا تعرف صاحبك ، وأصارك بأنك تحتضن ثعبانا في صدرك^(١٠٣) » .

وفي صباح الغد غادر باريس إلى كالية في مركبتى اجرة هيوم وروسو مع جان — بجاك دلوز وسلطان كلب روسو . ودفع روسو نفقاته بعد أن رفض عروض هيوم ومدام دبوغليه ، ومدام دفرديلان بمده بالمال . فلما بلغوا دوفر (١٠ يناير) عانتى روسو هيوم ، وشكره لأنه أتى به إلى بلد تسوده الحرية .

٨ - روسو في إنجلترا

وصلوا إلى لندن في ١٣ يناير ١٧٦٦ ولاحظ المارة زى روسو -
قلنسوته الفراء ، وروبه الارجواني ، وحزامه ، وأوضح لهيوم أنه يشكو
مرضاً يجعل سراويل الركوب القصيرة غير مريحة له^(١٠٤) . واقنع هيوم
صديقه كوفواي بأن يقترح معاشاً للغريب الكبير ، ووافق جورج الثالث
على منحه مائة جنيه في العام ، وأبدى رغبة في أن يلقي عليه نظرة سريعة
بصفة غير رسمية . وحجز جاريك لروسو وهيوم مقصورة في مسرح
درورى لين في مواجهة المقصورة الملكية في ليلة تقرر فيها حضور الملك
والملكة . ولكن حين زار هيوم روسو لقي عنتاً شديداً في اقناعه بأن يترك
كلبه الذى مزق ناباحه بسبب حبسه قلب الغريب المنفى . وأخيراً « إحتويت
روسو بين ذراعى و حملة على المسير فى شىء من الإكراه^(١٠٥) » .
وبعد الحفل دعى جاريك روسو إلى عشاء لتكريمة وهناك روسو على تمثيله :
« سيدى ، لقد جعلتنى اذرف الدموع على مأساتك ، وأبتسم للمهاتك ، مع
مع أننى لم أكد أفهم كلمة من لغتك » .

وإلى هنا كان هيوم على الجملة مسروراً غاية السرور بضيفه . وكتب إلى
مدام دبارنتان بعد وصوله إلى لندن بهابل يقول :

سألتنى رأيى فى جان - جاك روسو . وأنى بعد أن راقبته فى جميع
النواحي أصرح بأننى لم أعرف رجلاً أكثر منه لطفاً ولا أكرم
خلقاً . فهو رقيق ، متواضع ، ودود ، نزيه ، مرهف الحس ، فإذا بحثت
عن عيوب فيه لم أجد سوى قلة صبر مفرطة ، وميل لاحتضان شبهات ظالمة
فى خير أصدقائه أما عن نفسى فبودى لو أمضيت حياتى فى صحبته
دون أن يكدر علاقتنا مكدر . أن فى سلوكه بساطة عجيبة . وهو فى الأمور
العادية طفل بمعنى الكلمة . وهذا من شأنه أن يسهل . . . لمن يعيشون معه
أن يسوسوه^(١٠٦) » .

ثم يقول : « إن له قابلاً حاراً ممتازاً ، وفى الحديث كثيراً ما تشتد حماسه

إلى ما يشبه الإلهام . وإنى أحبه حباً جما وأرجو أن يكون لى فى وده نصيب . . . لقد تنبأ لى فلاسفة باريس إننى لن أستطيع اصطحابه إلى كاليه دون شجار ، ولكنى أحسبى قادراً على العيش معه طوال حياى فى صداقة وتقدير متبادلين . وأعتقد أن من أكبر أسباب انسجامنا أن كلينا لا يحب الجدل ، وهذا ليس حالهم . ويسؤهم منه أيضاً ظنهم إنه مغال فى الدين ؛ ومن الغريب حقاً أن يكون فيلسوف هذا الجيل ، الذى لقنى أشد اضطهاد أكثرهم تدبنا (١٠٧) . . . أن به شوقاً إلى الكتاب المقدس ، وهو فى الحق أفضل من المسيحيين قليلاً (١٠٨) » .

على أنه كان هناك صعوبات . ففى لندن ، كما فى باريس ، توافد النبلاء والنبيلات ، والمؤلفون والنواب على بيت السيدة آدمز فى شارع بكنجهام ، حيث أسكن هيوم روسو . وسرعان ما ضاق بهذه المجاملات ، ورجا هيوم أن يجد له بيتاً بعيداً عن لندن . وجاء عرض بالعناية به فى دير ولزى ، فأراد أن يقبله ، ولكن هيوم اقنعه بأن يسكن مع بدال فى تشيزيك على التيمز على ستة أميال من لندن . فانتقل إلى هذا المنزل روسو وسلطان فى ١٨ يناير وأرسل الآن فى طلب تريز ، وأزعج مضيفه وهيوم باصراره على وجوب السماح لها بالجلوس إلى المائدة معه . وشكا هيوم فى خطاب إلى مدام دبوفايه .

« إن مسيو دلوز . . يقول أن الناس يرونها شريرة محبة للشجار والثروة ، ويظنون أنها أهم سبب فى رحيله عن نوشاتيل (موتيه) . وهو نفسه يعترف أنها من الغباء بحيث لاتعرف فى أى سنة ميلادية نحن ولا فى أى شهر من السنة ، ولا فى أى يوم من الشهر أو الأسبوع ، وأنها لاتستطيع أن تتعلم أبدا القيم المختلفة للعملة فى أى بلد . ومع ذلك فهى تحكمه حكماً مطلقاً كما تحكم المربية طفلاً . وقد اكتسب كلبه هذه السيادة فى غيابها ، فحبه لهذا المخلوق يفوق كل تعبير أو تصور (١٠٩) .

ووصلت تريز خلال ذلك إلى باريس فاستقبلها بوزويل وتطوع باصطحابها إلى إنجلترا . وفى ١٢ فبراير كتب هيوم إلى مدام دبوفايه

يقول « جاءنى خطاب فهمت منه أن الأنسة مسافرة على جناح السرعة في صحبة صديق لي ، وهو شاب في غاية الطيبة ، وفي غاية اللطف ، وفي غاية الجنون . . . وبه من الولع بالأدب ما يجعلني أتوجس من حدث مؤذ لشرف صديقنا^(١١٠) . وقد ادعى بوزويل أنه برر هذا الإحساس السابق . وقد جاء في صفحات في يوميته ، تالفة الآن^(١١١) ، أنه شارك تريز فراشها في نزل ثاني ليلة بعد رحيلهما عن باريس . ثم ليالى عديدة بعدها . ووصلا إلى دوفر باكرا في ١١ فبراير . وتقول اليومية : « الأربعاء ١٢ فبراير . ذهبت صباح أمس إلى الفراش مبكرا جدا ، وفعلتها مرة ، والجملة ثلاث عشرة . كنت في الحق محبا لها . وفي الثانية بعد الظهر قمنا في رحلتنا . في ذلك المساء صحب تريز إلى هيوم بلندن ووعدنا بأنه « لن يذكر علاقتهما الغرامية حتى مماتها أو ممات الفيلسوف . »

وفي المرة الثالثة عشرة أسلمها إلى روسو . ولقيها بقبلات كثيرة . . . وقد بدا في حال من الشيخوخة والضعف حتى « إنك (بوزويل) لم يعد فيك حماسة له^(١١٣) طبعاً . »

وفي تشيزيك ، كما في موتيه ، تلقى روسو من البريد أكثر مما أراد ، وشكا من نفقات البريد التي كان عليه أن يدفعها . وذات يوم ، حين جاءه هيوم ؛ « شحنة » من لندن ، رفض تسلمها ، وطلب إليه أن يردها إلى مكتب البريد . ونبهه هيوم أن موظفي البريد في هذه الحالة سيفتحون الخطابات المرفوضة ويطلعون على أسرارهم . وتطوع الاسكتلندي الصبور بأن يفتح ما يرد من رسائل روسو إلى لندن وإلا يأتيه إلا بما يراه هاما منها . ووافق جان - جاك ، ولكنه سرعان ما توجس شرا من عبث هيوم ببريده .

وأنته دعوات للغداء ، شاملة للآنسة ليفاسير عادة ، من الأعيان في لندن فاعتذر روسو من قبولها بحجة مرضه ولكن السيب على الأرجح هو كرهه إظهار تريز أمام عليقة القوم . وكان يبدى رغبته في الانزواء في أعماق الريف . فلما سمع رتشر ديفنيورت برغبته هذه من جاريك ،

عرض عليه بيتا في ووتن بداربيشير على ١٥٠ ميلا من لندن . فقبله روسو مغتبطا . وأرسل ديفنبوت مركبة تنقله هو وتريز ، وشكا روسو من أنه يعامل معاملة المتسولين ، وأردف قائلا لهيوم « ان كانت هذه حقا حيلة من حيل ديفنبورت ، زانت عليم بها موافق عليها ، وما كان في امكانك أن تسيء إلى بأكثر من هذا » . وبعد ساعة (كما يقول هيوم) ، جلس فجأة على ركبتى ، وطوق عنقى بيديه ، وقبلنى بكل حرارة ثم قال وهو يبلى وجهى كله بالدموع : « أممكن أن تصفح عنى يا صديقى العزيز ؟ اننى بعد جميع دلائل الود التى تلقيتها منك ، أجازيك النهاية بهذه الحماقة وهذا المسلك السيء . ولكن لى رغم ذلك قلبا جديرا بصداقتك ، وأنا أحبك وأقدرك ، ولم تضع على سدى أقل مكرمة من مكرماتك » فقبلته وعانقته عشرين مرة بفيض من الدمع (١١٣) .

وفى الغد ٢٢ مارس انطلق جان - جاك وتريز قاصدين ووتن ، فلم يرها قط بعدها . ولم يلبث هيوم أن كتب إلى هيوبلير تحليلا بصيرا بحالة روسو وخلقه .

كان مصحما تصميم البائس على الاندفاع إلى هذه العزلة رغم كل اعتراضاتى ، وأنا أتوقع أنه سيكون تعسا في موقفه ذاك كما كان في الواقع تعسا في جميع المواقف . فسيكون محروما تماما من أى شغل يشغله ، ومن الأصحاب ومن أى تسلية من أى نوع تقريبا . لقد قرأ أقل القليل فى حياته ، وطلق الآن كل قراءاته طلاقا باثنا ، ولقد رأى أقل القليل من الدنيا وليس به أى فضول ليرى أو يلاحظ . والواقع أنه لا يملك الكثير من المعرفة ، وكل ما فعله طوال حياته أنه أحس فقط ، واحساسه فى هذه الناحية مرهف إلى حد لا أعرف له مثيلا ، ولكنه مع ذلك يشعره بالألم بأحد مما يشعره باللذة ، وما أشبهه برجل لم تنزع عنه ثيابه فحسب ، بل جلده أيضا . ثم دفع به فى ذلك الموقف ليصارع قوى الطبيعة الغاشمة الصاخبة التى تلم على الدوام بهذا العالم الأسفل (١١٤) .

ووصل روسو وتريز إلى روتن في ٢٩ مارس . وراقه البيت الجديد لأول وهلة . فوصفه في خطاب لصديق بنوشاتل : « بيت منزل . . . ليس واسعا جدا ولكنه مناسبا جدا ، شيد في منتصف الطريق على جانب واد ، وأمامه « أبداع مخضرة في الوجود » ومشهد طبيعي من مروج ، وأشجار ، ومزارع متفرقة ، وعلى مقربة منه طرق للتنزه على ضفاف غدير . وفي أسوأ الأجواء أنحرح في هدوء لجمع النباتات^(١١٥) . وكان آل ديفنبورت يشغلن قسما من البيت حين يلعبون به ، وبقي به خدمهم ليعنوا بالفيلسوف و « مديرة بيته » ، وأصر روسو على أن يؤدي لديفنبورت ثلاثين جنيا في العام نظير الأجرة والخدمة .

ولم تعمر سعادته أكثر من أسبوع . ففي ٣ إبريل نشرت مجلة لندنية تسمى « سانت جيمس كرونكل » بالفرنسية والإنجليزية خطاب فردريك الأكبر المزعوم إلى روسو ، دون إشارة إلى كاتبه الحقيقي . وحز الأمر في نفس جان . - جاك حين نعى إليه الخبر ، وزاد من ألمه أن محرر المجلة وهو وليم ستراهان كان صديقا قديما لهيوم . يضاف إلى هذا ان نعمة الصحف البريطانية في حديثها عن روسو تغيرت تغيرا واضحا منذ برح تشريك : فكثرت المقالات التي انتقدت الفيلسوف الغريب الأطوار ، واحتوى بعضها على أشياء اعتقد أن هيوم وحده هو الذي يعرفها ، ويمكن أن يزود بها الصحف . على أي حال شعر أن واجب هيوم كان يقتضيه أن يكتب شيئا للدفاع عن ضيفه الأسبق . وسمع أن الاسكتلندي كان يسكن بلندن البيت الذي يسكنه فرانسوا ترونشان : ابن عدو جان . - جاك في جنيف ، وأغلب الظن أن هيوم كان الآن على علم تام بنقائص روسو .

وفي ٢٤ إبريل كتب روسو إلى سانت جيمس كرونكل ما يأتي :

« لقد عدوت ياسيدي على الاحترام الذين يدين به كل فرد للملك بأن نسبت علنا إلى ملك بروسيا خطابا إمتلا مبالغة وغلا ، وكان يجب بناء عليه أن تعرف إنه ما كان يمكن أن يصدر عنه . لا بل إنك جرؤت على نقل

توقيعه كانك رأيته مكتوباً بيدد . وإني أخبرك يا سيدى أن هذا الخطاب زيف فى باريس ، ومما يحزننى ويمزق قلبى أن المحتال الذى كتبه له شركاء ضالعون معه فى انجترأ . وواجبك نحو ملك بروسيا ، ونحو الحقيقة ، ونحو أيضاً ، يقتضيك أن تنشر خطابى هذا ، الموقع بامضائى ، تصحيحاً لخطأ لا شك إنك كنت تلوم نفسك على ارتكابه لو علمت أى مؤامرة خبيثة سخرت لها . وأنى أقدم لك خالص تحيى .

جان — جاك روسو^(١١٦)

وفى وسعنا الآن أن نفهم لم ظن روسو أن هناك « مؤامرة » عليه . فمن غير خصومة القدامى ، فولتير ، وديدرو ، وجريم ، وغيرهم من نجوم التنوير ، يمكن أن يدبروا هذا التغير الفجائى فى لهجة الصحف البريطانية من الترحيب والتكريم إلى الهزم والتحقير ؟ وفى نحو هذه الفترة نشر فولتير « خطاباً إلى الدكتور ج . ج . يانسوف ، خفلاً من اسمه ، أعاد فيه ذكر الأشارات المؤذية للشعب الانجليزى فى كتابات جان — جاك — كقولهم ليسوا فى الحقيقة أحراراً ، وأنهم شديداً الولع بالمال ، وأنهم ليسوا بطبيعتهم طيبين . واعد نشر أكثر الفقرات ابداء فى كتيب فولتير فى دورية لندنية تسمى (للويدز ايڤننج نيوز^(١١٧)) .

وفى ٩ مايو كتب روسو إلى كونواى يطلب إليه وقف المعاش الذى يمنح له مؤقتاً . والح عليه هيوم فى قبوله ، فرد عليه روسو بأنه لا يستطيع قبول أى امتياز يأتى من وساطة هيوم . وطالبه هيوم بالتفسير . ويبدو أن روسو قد انتقل الآن إلى حالة من الشك والغىظ . وفى ١٠ يوليو بعث إلى هيوم بخطاب من ثمانى عشرة صفحة من القطع الكبير ، لا يسمح طوله المفرط بنقله هنا كاملاً ، ولكنه من الأهمية البالغة لهذا الشجار الأشهر بحيث يقتضينا الأمر أن نذكر بعض فقراته الرئيسية : « اننى مريض يا سيدى ، وليس بى كبير ميل للكتابة ، ولكن بما أنك طلبت التفسير ، فلا بد من تقديمه لك

«أنتى أعيش خارج العالم ، واجهل الكثير مما يدور فيه . . . ولا أعرف
إلا ما شعر به .»

« انك تسألنى فى جرأة من هو الذى يهتمك ؟ انه يا سيدى الرجل
الوحيد فى العالم كله الذى . . . أود تصديقه ، انه انت . . . وإذا اشير
إلى ديفد هيوم بشخص الغائب ، فأنى جاعلك الحكيم فيما ينبغى أن يكون
رأى فيه . »

واعترف روسو فى إسهاب بافضال هيوم ، ولكنه اردف :

«أما إذا تحررت عن الخير الحقيقى الذى صنعته لى ، فان هذه الخدمات
ظاهرية أكثر منها جوهرية ، . . . فأنا لم أكن نكرة تماما بحيث انى
لو وصلت وحيدا ، لما لقيت عوناً ولا مشورة . . وإذا كان مستر ديفنبورت
قد تفضل باعطائى هذا المسكن فهو لم يفعل ذلك لإرضاء مستمر هيوم الذى
لم يكن يعرفه . . وكل الخير الذى أصابنى هنا كان يصيبنى بالطريقة ذاتها
بدونه (هيوم) ولكل الشر الذى أصابنى ما كان يقع لى . إذ لم يكون لى
أعداء فى إنجلترا؟ وكيف هو علم عتق أن يكون هؤلاء الأعداء بالضبط أصدقاء
لمستر هيوم ؟

« وقد نمتى إلى أيضاً ان ابن المشعوذ ترونشان ، ألد خصومى ، لم
يكن فقط صديق مستر هيوم بل محسوبه أيضاً ، وانهما يسكنان معا . . .

« وكل هذه الحقائق مجتمعة تركت فى انطباعا جعلنى قلقاً . . . وفى
الوقت نفسه لم تصل الخطابات التى كتبها لى وجهتها ، وتلك التى تلقيتها
كانت مفتوحة ؟ وهذه كلها تناولتها يد مستر هيوم .

« ولكن ما الذى حدث لى حين رأيت خطاب ملك بروسيا المزعوم
منشورا فى الصحف العامة ؟ . . لقد كشف لى شعاع من النور ، سر ما طرأ
على اتجاه الشعب البريطانى نحوى من تغير فجائى إلى جد مذهل ؟ ورأيت
فى باريس مركز المؤامرة التى تنفذ فى لندن . . فحين نشر هذا الخطاب

المرعوم في لندن لم ينبس مستر هيوم ببنت شفة ، ولا كتب لي شيئاً ، وهو العليم ولا ريب بأنه خطاب زائف

« لم يبق لي غير كلمة واحدة أقولها لك . إن كنت مذنباً فلا تكتب إلي ، إذ لا جدوى من الكتابة ، وثق انك لن تخدعني . ولكن ان كنت برئياً فتفضل بتبرير نفسك . . وإلا فوداعاً إلى الأبد (١١٨) » .

وكان رد هيوم موجزاً (٢٢ يوليو ١٧٦٦) ولم يجب عن التهم ، لأنه خلص إلى أن روسو مشرف على الجنون . وكتب إلى ديفنبورت يقول ان جاز لي ان ابدل النصيح فهو أن تمضي فيما بدأت من حسنة حتى يحبس كلبه في مستشفى المجاذيب (١١٩) . . . فلما سمع ان روسو ندد به في خطابات أرسلها إلى باريس (كخطابه إلى الكونتيسة دبوغليه في ٩ ابريل ١٧٦٦) ، بعث إلى دبوغليه صورة من خطاب جان — جاك الطويل . فردت على هيوم بما يلي :

« ان خطاب روسو فظيع ، انه مبالغ جداً ولا عذر له فيه اطلاقاً . . . ولكن لا تحتسبه قادراً على الكذب أو الخداع ، ولا تتصور انه دجال أو وغد ، ان غضبه بلا مبرر حق ، ولكنه غضب مخلص ، وليس لدى في هذا أى شك . . .

« واليك ما اتصوره السبب فيه . لقد سمعتهم يقولون ، ولعله أخير ، انك صاحب عبارة من خير ما ورد في خطاب مستر ولبول — وانك قلت مازحاً وانت تتحدث باسم ملك بروسيا « ان شئت الاضطهاد ، فأنا ملك ، وأستطيع اضطهادهم نيابة عنك بأى نوع تريد » وأن مستر ولبول . . . قال انك صاحب هذه العبارة . فان صح هذا ، وعلم به روسو ، فهل تعجب ان يثور سخطه . . . وهو المرهف الحس ، الغضوب ، السوداوى المزاج ، المتكبر (١٢٠) .

وفي ٢٦ يوليو كتب ولبول إلى هيوم يحمل نفسه كل اللوم — دون الإعراب عن أى ندم — في أمر الخطاب المزيف ، ويدين « قلب روسو

البحرود الشرير^(١٢١) ، ولكنه لم ينكر ان هيوم كان له يد في الخطاب .
وكتب هيوم إلى دولباخ يقول « انك بحق تماماً ، فروسو وحش » . وسحب
الكلمات الرقيقة التي وصف بها من قبل خلق روسو^(١٢٢) . فلما سمع من
ديفنبورت ان جاك ... جاك يكتب « اعترافاته » افترض أن روسو سيديع رأيه
في الأمر على الملأ . ونصححه آدم سميث ، وطورجو والمرشال كيث ،
بأن يتحمل الهجوم صامتا ، ولكن جماعة الفلاسفة في باريس يقودهم
دالامبير ، حرضوه على أن ينشر روايته عن نزاع ذاع خبره في عاصمتين .
وعليه فقد أصدر (اكتوبر ١٧٦٦) عرضا موجزا للنزاع الذي ثار بين
السيدتين هيوم وروسو ، صاغه بالفرنسية دالامبير وسوار ، وبعد شهر ظهر
بالانجليزية . وأذاع جريم مضمونه على نطاق واسع « في خطاب الاشتراك »
الذي كتبه في ١٥ اكتوبر ، فتردد صدى المشاجرة في جنيف ، وامستردام ،
وبرلين ، وسانت بطرسبورج . وضاعفت الضجة أكثر من عشر نشرات ،
ونشر ولبول روايته للنزاع ، وهاجم بوزويل ولبول ، ورمت مدام
دلاتور في « مجمل عن مسيو روسو » ، هيوم بأنه خائن ، ووفاه فولتير بمزيد من
البيانات عن نقائص روسو وجرائمه ، وعن اختلاله إلى أماكن سيئة
السمة ، وعن أعماله التحريض التي أتاها في سويسره^(١٢٣) . أما جورج
الثالث فقد تابع المعركة بفضول شديد^(١٢٤) . وأرسل هيوم الوثائق المتعلقة
بها إلى المتحف البريطاني^(١٢٥)

ووسط هذه الضجة الكبرى لازم روسو الصمت الرهيب . ولكنه صمم
الآن على العودة إلى فرنسا أيا كان الخطر والثمن . فقد اكتب لوطوبة
مناخ إنجلترا وتحفظ الخلق الانجليزي ، وكانت العزلة التي نشدها فوق
ما يطبق ، ولم يكن قد بذل أي جهد في تعلم الانجليزية فوجد مشقة في
التفاهم مع الخدم . ولم يستطع الحديث إلا مع تريز - التي ما فتئت كل
يوم تلح عاياه في أن يأخذها إلى فرنسا . ودعماً لحططها أكدت له ان
الخدم يبيتون دس السم له . وعليه ففى ٣٠ ابريل كتب إلى مالك بيته
الغائب يقول :

« غدا أترك بيتك يا سيدى .. ولست اجهل الكائنات التى تدير لى ، ولا
عجزى عن حماية نفسى ، ولكننى عشت يا سيدى ، ولم يبق لى إلا أن أسئ
بشجاعة حياة قضيت بشرف .. وداعا سيدى . سأسف دوما على المسكن
الذى أبرحه الآن، ولكن أسئ سىكون أكثر لأننى وجدت فىك مضيئا غاية
فى اللطف ، ومع ذلك لم أستطيع أن اجعل منه صديقا (١٢٦) .

وفى أول ما يوفر مع تريتز على عجل وفى رعب . وتركنا خفائهما ومالا
لوفاء بإيجار ثلاثة عشر شهرا . . ولجهلهما بجغرافية إنجلترا استقلا مختلف
وسائل الانتقال غير المباشرة، وقطعا شظرا من الطريق على الإقدام ، وظلا
عشرة أيام تأهين لا يعرف أحد مستقرهما . وأعلنت الصحف عن اختفائهما،
ثم ظهرا فى ١١ مايو فى سبولدينج يلنكولنشير ، ومنها وجدا طريقهما إلى
دوفر، وهناك استقلا سفينة إلى كاليه فى ٢٢ مايو . بعد أن قضيا فى إنجلترا
سته عشر شهرا ، وكتب هيوام إلى طورجو وغيره من الأصدقاء طالبا اليهم
أن يمدوا يد المعونة للمنبوذ الذى عاد الآن وحيدا منهجوا إلى فرنسا،
وهو من الناحية القانونية لا يزال تحت طائلة الأمر باعتقاله .



المراجع

CHAPTER I

1. Rousseau, *The Confessions of Jean-Jacques Rousseau*, I, 21.
2. *Ibid.*, 4.
3. I, 156-57; II, 76, 321.
4. Saintsbury, *History of the French Novel*, I, 391.
5. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 174.
6. Lanson, G., *Histoire de la littérature française*, 801.
7. *Encyclopaedia Britannica*, XIX, 587a.
8. Rousseau, *The Confessions*, I, 3.
9. *Ibid.*, 8.
10. 9.
11. 11.
12. 13.
13. 9.
14. 16.
15. 21.
16. 41.
17. 44.
18. *Ibid.*; Lemaître, *Jean-Jacques Rousseau*, 190; Mann, Thomas, *Three Essays*, 156.
19. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, I, 51 f.
20. Rousseau, *The Confessions*, I, 69.
21. Rousseau, *Les Confessions*, I, 140.
22. *The Confessions*, I, 117-19.
23. *Ibid.*, 76.
24. 76.
25. 106.
26. 91.
27. 92.
28. 96.
29. 104.
30. 107.
31. 116.
32. 122.
33. 130.
34. 154.
35. 138.
36. 148.
37. 160.
38. 178.
39. *Les Confessions*, I, 138.
40. *Ibid.*; *The Confessions*, I, 178.
41. *Ibid.*, 124.
42. 195.
43. Josephson, J.-J. Rousseau, 111.
44. *Ibid.*, 113-14.
45. *The Confessions*, I, 247, 250.
46. *Ibid.*, 259.
47. 261.
48. 265.
49. *Ibid.*
50. 296.
51. 295.
52. 300.
53. Josephson, 132.
54. *Ibid.*, 133.
55. *The Confessions*, I, 305.
56. Letter of Frederick, 1762, in Gooch, *Frederick the Great*, 145.
57. *The Confessions*, I, 309.
58. *Ibid.*, 310.
59. *Ibid.*, II, 139.
60. Martin, Henri, *Histoire de France*, XVI, 83; Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 209.
61. Josephson, 140.
62. Morley, John, *Rousseau and His Era*, I, 127; Hendel, C. W., *Citizen of Geneva*, 208.
63. Diderot, *Essai sur les règnes de Claude et Néron*, Ch. 67.
64. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
65. *The Confessions*, II, 21.
66. *Ibid.*, 32.
67. Rousseau, *Discourse on Arts and Sciences*, in *Social Contract and Discourses*, 130.
68. *Ibid.*, 132.
69. 134.
70. 134.
71. 146.
72. 151.
73. 142.
74. 151.
75. 135.
76. 139.
77. 153.
78. 153.
79. Rousseau, preface to *Narcisse*.
80. Michelet, *Histoire de France*, V, 371.
81. Grimm, *Correspondance littéraire*, IX, 49.
82. Bayle, Pierre, *Réponse aux questions d'un provincial*.
83. Rousseau, *Reveries of a Solitary*, Book VI, pp. 127-32.
84. *The Confessions*, II, 21.
85. Lemaître, 92.
86. Letter of July 15, 1756, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 142.
87. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
88. *The Confessions*, II, 34.
89. *Ibid.*, 48.
90. 49.
91. 51.
92. 56; Goncourt, E. and J. de, *Madame de Pompadour*, 143.
93. Faguet, *Rousseau artiste*, 192.
94. Grimm, II, 307.

ROUSSEAU AND REVOLUTION

95. Rousseau, *Reveries*, 111.
96. In Faguet, *Rousseau artiste*, 193.
97. Musée, St.-Quentin.
98. Levey, Michael, *Painting in 18th-Century Venice*, 155.
99. Marmontel, *Memoirs*, I, 169.
100. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, II, 52.
101. *Ibid.*; Masson, *La Religion de Rousseau*, I, 184-85.
102. Preface to *Narcisse*.
103. Masson, I, 182.
104. Michelet, *Histoire de France*, V, 428.
105. *The Confessions*, II, 63.
106. *Ibid.*, 58.
107. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality*, in *Social Contract* . . . , 157.
108. *Ibid.*, 159.
109. 160.
110. 239.
111. Nietzsche, *Thus Spake Zarathustra*, 129.
112. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality*, *loc. cit.*, 181.
113. *Ibid.*, 169.
114. 175.
115. 222.
116. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. ii.
117. *Second Discourse*, in *Social Contract* . . . , 214.
118. *Ibid.*, 207.
119. 220-22.
120. 238.
121. 242-44.
122. Rousseau juge de Jean-Jacques, in Cassirer, *The Question of Rousseau*, 54.
123. *Second Discourse*, *loc. cit.*, 236.
124. End of *second Discourse*.
125. Mumford, Lewis, *The Condition of Man*, 275.
126. Helvétius, *Treatise on Man*, II, xx.
127. Duclos, *Considérations sur les mœurs*, 11.
128. Lemaître, 122.
129. *Second Discourse*, *loc. cit.*, 175, 246.
130. Voltaire, *Œuvres*, XXII, 227-30.
131. *Ibid.*
132. *The Confessions*, II, 65.
133. *Social Contract*, 271.
134. *Ibid.*, 272.
135. 281.
136. 269.
137. 262.
138. 253.
139. 260.
140. 256.
141. *The Confessions*, II, 40.
142. *Ibid.*
143. Masson, I, 181.
144. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 181.
145. *The Confessions*, II, 40.
146. Grimm, *Correspondance*, II, 239.
147. Sainte-Beuve, II, 195n.
148. *Ibid.*, 180.
149. 191.
150. 213.
151. Morley, *Rousseau*, I, 272.
152. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 83.
153. Source lost.
154. Toth, Karl, *Wonian and Rococo in France*.
155. Hobbes, *De Corpore*, Ch. xxv.
156. Toth, 194; Josephson, 194; Faguet (*Vie de Rousseau*, 214) thought Mme. d'Épinay had been infected by Dupin de Francueil.
157. Épinay, II, 85.
158. *Ibid.*, 130.
159. Josephson, 149.
160. *The Confessions*, II, 81.
161. *Ibid.*, 66.
162. Letter to Malesherbes, Jan. 26, 1762.
163. Épinay, II, 128; Sainte-Beuve, II, 187; Morley, *Rousseau*, I, 274.

CHAPTER II

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 4.
2. Frederick the Great, *Histoire de la guerre de Sept Ans*, 388.
3. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 306.
4. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 74.
5. Aldis, Janet, *Madame Geoffrin*, 200.
6. Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 113.
7. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 346.
8. Walpole, H., *Memoirs of . . . the Reign of George the Second*, II, 73; Marmontel, *Memoirs*, I, 175.
9. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, V, 72.
10. Levron, Jacques, *Pompadour*, 174.
11. Treitschke, H. von, *Life of Frederick the Great*, 149.
12. Mann, Thos., *Three Essays*, 163.
13. Dorn, *Competition for Empire*, 15.
14. Treitschke, *Frederick*, 181.
15. Carlyle, *Friedrich*, V, 263-69; Martin, H., *Histoire de France*, XV, 497; Reddaway, *Frederick the Great*, 198; Coxe, *History of . . . Austria*, III, 370.
16. Reddaway, 199.
17. Gooch, G. P., *Frederick the Great*, 334.
18. Reddaway, 201.
19. Dorn, 300; *Cambridge Modern History*, VI, 251.
20. Gooch, *Frederick*, 334.
21. CMH, VI, 402.
22. Coxe, *History of . . . Austria*, III, 369.
23. *Ibid.*
24. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 33.
25. Gooch, *Frederick*, 43.

16. Coxe, 379.
17. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 369; Carlyle, *Friedrich*, V, 479.
18. *Ibid.*, 523.
19. 527.
20. 534; Sainte-Beuve, II, 373.
21. *Ibid.*, I, 219; Brandes, *Voltaire*, II, 77.
22. Sainte-Beuve, II, 372.
23. Martin, H., *France*, XV, 522.
24. Micheler, *Histoire de France*, V, 402.
25. Dorn, 323.
26. Micheler, V, 402.
27. Carlyle, VI, 22.
28. *Ibid.*, V, 547.
29. Jahn, *Life of Mozart*, I, 47.
30. Carlyle, VI, 42; Robinson, J. H., *Readings in European History*, 395.
31. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II, 173.
32. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 297.
33. Carlyle, VI, 63.
34. Martin, XV, 527.
35. *Ibid.*, 528.
36. Carlyle, VI, 63.
37. Dorn, 338.
38. Carlyle, VI, 115.
39. CMH, VI, 290.
40. Wilhelmine, *Memoirs*, vii.
41. *Ibid.*, ix.
42. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 44.
43. Carlyle, VI, 265.
44. Coxe, *History*, III, 407.
45. Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 259.
46. Carlyle, VI, 322, 386.
47. Martin, XV, 533.
48. Dorn, 363.
49. Voltaire and Frederick, *Letters*, 262; Carlyle, VI, 399.
50. Martin, XV, 565.
51. Voltaire and Frederick, *Letters*, 271.
52. Coxe, III, 425.
53. Dec. 25, 1761, by the Russian calendar.
54. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 229.
55. *Ibid.*, 227.
56. 295.
57. Gooch, *Frederick*, 64.
58. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 305.
59. Macaulay, *Essays*, II, 185.
60. Voltaire and Frederick, *Letters*, 245; Mann, *Three Essays*, 210.
61. Gooch, *Frederick*, 64.
62. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 192.
4. Aldis, *Madame Geoffrin*, 129.
5. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 42.
6. Goncourts, *Mme. de Pompadour*, 317.
7. *Ibid.*, 319; Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 451.
8. Mitford, Nancy, *Madame de Pompadour*, 234.
9. Levron, Jacques, *Pompadour*, 260.
10. Bancroft, George, *Literary and Historical Miscellanies*, 91.
11. See Stryiński, *Eighteenth Century*, 189.
12. Mitford, *Pompadour*, 234.
13. Ercole, Lucienne, *Gay Court Life*, 236.
14. Mitford, 234-35.
15. Taine, H., *Ancient Regime*, 338.
16. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 181-82; Martin, H., *France*, XVI, 236.
17. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 253.
18. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 213.
19. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 54.
20. Mousnier and Labrousse, *Le Dix-huitième Siècle*, 135.
21. Du Hausser, *Memoirs*, 27.
22. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 351.
23. Rousseau, *La Nouvelle Héloïse*, in Ducros, Louis, *French Society in the 18th Century*, 193.
24. Parton, James, *Life of Voltaire*, II, 329.
25. Voltaire, *Works*, VIIb, 56.
26. Goldoni, *Memoirs*, 359.
27. Taine, *Ancient Regime*, 308.
28. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 61.
29. Ducros, *French Society*, 325.
30. Martin, H., *France*, XVI, 163; Acton, *Lectures on Modern History*, 326.
31. Higgs, Henry, *The Physiocrats*, 18.
32. Say, Léon, *Turgot*, 47, 67.
33. Turgot, *Éloge de Gournai*, in Martin, *France*, XVI, 165.
34. Mirabeau père in Higgs, 21.
35. Higgs, 24.
36. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the 18th Century*, 730.
37. Higgs, 37.
38. Warwick, C. F., *Mirabeau and the French Revolution*, 146.
39. Higgs, 68.
40. In Sée, Henri, *Les Idées politiques en France au XVIII^e siècle*, 161.
41. Pomeau, René, *La Religion de Voltaire*, 405.
42. Hume, letter to Morellet, July 10, 1769.
43. Voltaire, *Works*, Ib, 247-48, 265.
44. In Gay, Peter, *Voltaire's Politics*, 169n.
45. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, Book IV, Ch. ix.
46. Higgs, 135.

CHAPTER III

1. Du Hausser, *Memoirs of Mme. de Pompadour*, 97.
2. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 338-42.
3. *Ibid.*, 200.

ROUSSEAU AND REVOLUTION

4. Besterman in Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 9.
5. Chaponnière, 203.
6. Parton, II, 475.
7. Letter of July 4, 1782, in Desnoiresterres, Voltaire, VI, 288.
8. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 283.
9. *Ibid.*, 293.
10. 302.
11. Low, D. M., *Edward Gibbon*, 144.
12. Desnoiresterres, VI, 290; Chaponnière, 202.
13. Parton, *Life of Voltaire*, II, 481.
14. *Ibid.*
15. Desnoiresterres, I, 131.
16. Noyes, A., *Voltaire*, 550.
17. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 189.
18. Desnoiresterres, VII, 335.
19. *Ibid.*, 335.
20. Parton, II, 480.
21. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Malady—Medicine."
22. Molière, *Le Malade imaginaire*.
23. Chaponnière, 202; Parton, II, 480.
24. Voltaire, art. "Malady."
25. Parton, I, 529.
26. Chaponnière, 202.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 312.
28. Parton, II, 263.
29. Desnoiresterres, V, 324.
30. Parton, II, 471.
31. Chaponnière, 202.
32. Lanson, *Voltaire*, 197.
33. Desnoiresterres, VII, 482.
34. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 201.
35. Faguet, *Literary History of France*, 507.
36. Lanson, *Voltaire*, 197.
37. Torrey, 34.
38. Lanson, 197.
39. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXXIX, 546.
40. *Works*, VIIIb, 286.
41. *Philosophical Dictionary*, art. "Ancients and Moderns."
42. Michelet, *Histoire*, V, 426.
43. Parton, II, 489.
44. Brunetière, 361.
45. Torrey, 176.
46. Letter of Mar. 12, 1766.
47. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, Ch. xxxix.
48. Lanfrey, *L'Eglise et les philosophes*, 335.
49. Letter of Frederick to Voltaire, June 10, 1759.
50. Letter of July 2, 1759.
51. Voltaire and Frederick, *Letters*, 266.
52. *Ibid.*, 358.
53. 363.
54. Brandes, II, 241.
55. Desnoiresterres, VI, 391.
56. *Phil. Dict.*, art. "Peter the Great."
57. Robespierre, speech of 18 Floréal, Year II, in Hazard, *European Thought*, 265.
58. Parton, II, 260.
59. Chaponnière, 238.
60. Gibbon, *Memoirs*, 154n.
61. Parton, II, 556.
62. Voltaire, *Mémoires*, in Parton, I, 141.
63. Letter to Frederick, January, 1737, in Voltaire and Frederick, 41.
64. *Phil. Dict.*, art. "Property."
65. *Ibid.*
66. *Ibid.*
67. Letter to Dr. Daquir in Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 228.
68. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
69. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 47.
70. *Phil. Dict.*, art. "Country" ("Pays").
71. Voltaire, *L'A, B, C*, in Séc, *Les Idées politiques*, 84.
72. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
73. *Essai sur les mœurs*, xii, 161, in Gay, *Voltaire's Politics*, 181.
74. *Méropé*, Act. II, Sc. ii.
75. Michelet, *French Revolution*, 47.
76. In Parton, II, 544.
77. Desnoiresterres, VI, 240.
78. Casanova, *Memoirs*, II, 406-7.
79. Letter of Oct. 28, 1773.
80. *Phil. Dict.*, art. "Democracy."
81. Letter of Sept. 10, 1760.
82. In Gay, 236.
83. *Phil. Dict.*, art. "Government," Sec. 3.
84. *Ibid.*, Sec. 6, slightly transposed.
85. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
86. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 415.
87. Quoted in Black, *Art of History*, 48.
88. *Phil. Dict.*, art. "Law, Civil and Ecclesiastical."
89. In Hearnshaw, *Social . . . Ideas of Some Great French Thinkers*, 157.
90. Art. "Execution."
91. Art. "Torture."
92. In Gay, 307.
93. Art. "Wit."
94. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 146.
95. *Ibid.*, 228.
96. Black, 29.
97. *Candide*, last chapter.
98. In Pomeau, 261.
99. Desnoiresterres, V, 24.
100. Brandes, *Voltaire*, I, 118.
101. Torrey, 10.
102. Letter of Aug. 28, 1751.
103. Brandes, *Creative Spirits of the 19th Century*, 138.
104. *Ibid.*, 142; Höffding, H., *Jean Jacques Rousseau and His Philosophy*, 80; Desnoiresterres, VI, 310.
105. *Ibid.*
106. Mme. de Graffigny in Parton, I, 392.

NOTES

107. Hume, letter of Apr. 26, 1764, in Gay, 81.
108. Torrey, 131.
109. Letter to Thieriot, Dec. 10, 1738.
110. Torrey, 131.
111. *Ibid.*
112. Voltaire, *English Notebooks*, in Gay, 353.
113. *Phil. Diet.*, art. "Solomon."
114. Desnoiresterres, V, 157; Parton I, 106.
115. See letter of March, 1737, to Moussinot, in *Works*, XXIa, 190.
116. Parton, II, 520.
117. *Ibid.*, I, 507.
118. *Ibid.*, 144.
119. Morley, *Voltaire*, in *Voltaire, Works*, XXIIb, 96.
120. Parton, II, 600.
121. In Noyes, *Voltaire*, 536.
122. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 61.
123. Pomeau, 462.
124. Desnoiresterres, II, 239.
125. In Torrey, 197.
126. Desnoiresterres, VI, 287.
127. Torrey, 91.

CHAPTER VI

1. Rousseau, *Emile*, p. 371.
2. *The Confessions*, II, 84.
3. Josephson, 190.
4. *Ibid.*; *The Confessions*, II, 84.
5. *The Confessions*, II, 88.
6. Diderot, *Le Fils naturel*, Act. IV, Sc. iii.
7. Brockway, W., and Winer, B., *Second Treasury of the World's Great Letters*, 195.
8. *Ibid.*, 201.
9. *The Confessions*, II, 107.
10. *Ibid.*, 99.
11. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, I, 424.
12. *Ibid.*, I, 428.
13. 431.
14. 438.
15. 442.
16. 449.
17. 443.
18. Desnoiresterres, V, 141.
19. *The Confessions*, II, 105.
20. Lomay, Mme. d', *Memoirs*, II, 329.
21. *Ibid.*, 334.
22. *The Confessions*, II, 102.
23. Josephson, 213.
24. *The Confessions*, II, 114-15, 110.
25. *Ibid.*, 113.
26. 114-16.
27. Josephson, 220.
28. *The Confessions*, II, 118.
29. *Ibid.*, 121.
30. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 192.
31. *The Confessions*, II, 133. Several of Mme. d'Houdetot's letters to Rousseau survive,

- and a few of his to her; see Martin, H., *France*, XVI, 91n.
32. *The Confessions*, II, 136.
33. Sainte-Beuve, II, 213.
34. *The Confessions*, II, 144.
35. *Ibid.*, 146.
36. 147.
37. Epinay, III, 130-32; Josephson, 249.
38. Epinay, III, 140-42.
39. *Ibid.*, 186.
40. *The Confessions*, II, 154.
41. Josephson, 252.
42. *The Confessions*, II, 155.
43. Letter of Nov. 26, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 160.
44. Lemaître, *Rousseau*, 174.
45. Josephson, 308.
46. *The Confessions*, II, 165.
47. Rousseau, *Politics and the Arts*, 7.
48. *Ibid.*, 121.
49. 125-26.
50. *The Confessions*, II, 165.
51. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 97, 103.
52. Hendel, *Citizen of Geneva*, 169; Desnoiresterres, VI, 85.
53. Chaponnière, 169; Josephson, 278.
54. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
55. Josephson, 279.
56. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, Part I, Letter i.
57. Letter ii.
58. Letter iv.
59. Letter v.
60. Letter xiv.
61. *Rousseau juge*, p. 139.
62. *Ibid.*, Part IV, Letter xvii.
63. Part V, Letter v.
64. *Rousseau juge*, p. 186.
65. *Ibid.*, Part V, Letter x.
66. *The Confessions*, II, 163.
67. In Hendel, J.-J. Rousseau, *Moralist*, II, 47.
68. *Rousseau juge*, Part VI, Letter vi.
69. Part V, Letter v.
70. *The Confessions*, I, 101.
71. Kant, Fragment 618, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 6.
72. Texte, J., *Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 236.
73. Desnoiresterres, VI, 87.
74. Michelet, *Histoire*, V, 427.
75. *Ibid.*
76. *The Confessions*, II, 213.
77. *Ibid.*, 211.
78. Maritain, *Three Reformers: Luther, Descartes, Rousseau*, 119.
79. Taine, *Ancient Regime*, 271.

CHAPTER VII

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 179.
2. *Ibid.*, 195.

ROUSSEAU AND REVOLUTION

3. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. v.
4. *Ibid.*, IV, ii.
5. IV, i.
6. I, vii.
7. I, viii.
8. I, vii.
9. II, iv.
10. I, viii.
11. Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, I, 81.
12. *Social Contract*, Book III, Ch. v.
13. III, iv.
14. III, xv.
15. III, xviii.
16. III, i.
17. I, ix.
18. II, xi.
19. I, end.
20. II, i.
21. Letter to Mme. d'Étang, in Cobban, *Rousseau and the Modern State*, 193.
22. Cobban, *Rousseau*, 211.
23. *Social Contract*, IV, viii.
24. II, vii.
25. IV, viii.
26. *Ibid.*
27. *Ibid.*
28. *Ibid.*
29. *Ibid.*
30. IV, vi.
31. In Cobban, *Rousseau*, 55.
32. *Émile*, p. 157.
33. *Ibid.*
34. Cobban, *In Search of Humanity*, 168.
35. Voltaire, *Works*, XXII, 332.
36. Havens, *Voltaire's Marginalia*, 68, in Gay, *Voltaire's Politics*, 268.
37. Cf. *Social Contract*, II, iv; Talman, *Origins of Totalitarian Democracy*; Crocker, *Rousseau et la philosophie politique*, p. 111.
38. *Social Contract*, II, v.
39. Faguet, *Rousseau penseur*, 397.
40. *Ibid.*
41. *Émile*, preface.
42. Boyd, *Educational Theory of Jean Jacques Rousseau*, 297.
43. Rousseau, *Émile*, 13.
44. *Ibid.*, 216.
45. 26.
46. 256.
47. 118.
48. 133.
49. 27.
50. 92.
51. 50.
52. 21-22, 46.
53. 56-58.
54. 341.
55. 253.
56. 251.
57. 254.
58. 53.
59. 58.
60. 167.
61. 149, 306.
62. 160.
63. Martin, H., *France*, XVI, 98.
64. Rousseau, *Émile*, 158.
65. *Ibid.*, 220.
66. 230.
67. 261-62.
68. 263.
69. 257.
70. 272.
71. 232.
72. *Ibid.*
73. 238-49.
74. 245-47.
75. Letter of Oct. 5, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 152.
76. *Émile*, 261.
77. 223.
78. 275.
79. See Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 256.
80. *Émile*, 272.
81. 271-72.
82. 179.
83. 192.
84. 298-99.
85. Letter of Nov. 5, 1758, in Hendel, *Citizen*, 158.
86. In Faguet, *Rousseau penseur*, 111.
87. *Émile*, 351; Hendel, J.-J. *Rousseau*, II, 23.
88. *Émile*, 330, 370.
89. 340.
90. 341, 371.
91. 337, 350.
92. 350.
93. 349.
94. 320.
95. 357.
96. 443.
97. 444.
98. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 125.
99. Seillière, J. J. *Rousseau*, 132, in Maritain, *Three Reformers*, 125.
100. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, IXb, 157.
101. Plato, *Republic*, No. 592.

CHAPTER VIII

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 232.
2. *The Confessions*, II, 243.
3. *Collection complète*, IXa, pp. v-x.
4. *The Confessions*, II, 253.
5. *Collection*, IXb, 4.
6. *The Confessions*, II, 255.
7. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 110.
8. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
9. Voltaire, letter of July 26, 1764.

10. In Brandes, *Voltaire*, II, 97.
11. *Ibid.*, 98; Desnoiresterres, VI, 320-23.
12. Hendel, J.-J. *Rousseau*, II, 252.
13. *The Confessions*, II, 257.
14. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 226.
15. In Gooch, *Frederick the Great*, 138.
16. *The Confessions*, II, 264.
17. Hendel, *Citizen of Geneva*, 252.
18. *The Confessions*, II, 265.
19. *Ibid.*, 259.
20. 270.
21. 265-66.
22. Letter of July 22, 1764, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 171.
23. In Goncourts, *Women of the 18th Century*, 287.
24. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 138.
25. Masson, III, 73-75.
26. 2 Timothy iii, 1 f.
27. *Collection complète*, IXa, pp. xi-xiii.
28. *Ibid.*, p. xiii.
29. P. xiv.
30. P. xvi.
31. P. xxxix.
32. P. 1.
33. 2.
34. 4.
35. 7.
36. 8.
37. 26-28.
38. 55.
39. 63.
40. 65-66.
41. 70-71.
42. 121-22.
43. 8.
44. 15.
45. 42.
46. 44.
47. 47.
48. 50.
49. 83.
50. 86.
51. 87-89.
52. Exodus vii, 9-12.
53. Matthew xxiv, 24.
54. *Collection complète*, IXa, 201-2.
55. *Ibid.*, 210-12.
56. 244-45.
57. 334.
58. Letter of Mar. 8, 1765, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 206-7.
59. *Collection complète*, IXa, 184-85.
60. Morley, *Voltaire*. in *Voltaire, Works*, XXIb, 97.
61. In Faguet, *Vie de Rousseau*, 318-20.
62. *Rousseau juge de J.-J.*, I, ii-iv.
63. Grimm, *Correspondance*, May 15, 1763, Dec. 15, 1763, Jan. 15, 1765; see also Masson, P. M., II, 126-40.
64. Boileaux-Despréaux, Nicolas, *L'Art poétique*, lines 37-38.
65. Goethe, *Faust*, Part I, Everyman's Library translation, p. 116.
66. *Collection complète*, I, 196n.
67. Horace Walpole, letter of Dec. 31, 1769, to Horace Mann.
68. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switz.*, 150.
69. *Ibid.*, 215.
70. 217.
71. 219.
72. 229.
73. 230-31.
74. 254.
75. 258-68.
76. In Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, II, 293.
77. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 118.
78. Vaughn, II, 369n.
79. *Ibid.*, 350.
80. 338.
81. Letter of Feb. 26, 1770.
82. Morley, *Rousseau and His Era*, II, 94.
83. Letter of Mar. 10, 1765.
84. Letter of Mar. 29, 1765.
85. Macdonald, F., II, 123.
86. *The Confessions*, II, 301.
87. *Ibid.*
88. Letter of Oct. 1, 1765.
89. *The Confessions*, II, 302.
90. *Ibid.*
91. Rousseau, *Reveries*, 106.
92. *Ibid.*, 108; cf. *The Confessions*, 308.
93. Morley, *Rousseau*, II, 117.
94. *The Confessions*, II, 312.
95. Hendel, *Citizen of Geneva*, 326.
96. Burton, *Life of David Hume*, II, 299.
97. Macdonald, F., II, 166.
98. *Ibid.*, 213-14.
99. Walpole, Letter of Jan. 12, 1766.
100. Macdonald, II, 168.
101. Lemaître, 322; Macdonald, II, 172.
102. *Ibid.*, II, 171.
103. Morellet, *Mémoires*, in Mossner, *Life of Hume*, 575.
104. *Ibid.*, 517.
105. 518.
106. Faguet, *Vie de Rousseau*, 332.
107. In Burton, *Hume*, II, 304, 309.
108. Hume, letter to Lord Charlemont, in Mossner, 523.
109. Mossner, 519.
110. *Boswell on the Grand Tour: Italy, Corsica, France*, 279.
111. But summarized by Col. Robert Isham, who read them before their destruction by the executors.
112. *Boswell on the Grand Tour: Italy . . .*, 277-81.
113. Mossner, 521.

ROUSSEAU AND REVOLUTION

- 114. *Ibid.*, 513.
- 115. Letter of May 10, 1766, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 336.
- 116. Letter of Apr. 24, 1766, in Hendel.
- 117. Josephson, 460.
- 118. Macdonald, F., II, 186-209.
- 119. Mossner, 529.
- 120. Macdonald, II, 171.
- 121. *Ibid.*, 174.
- 122. Josephson, 464; Morley, *Rousseau*, II, 133.
- 123. Josephson, 467.
- 124. Morley, II, 135.
- 125. *Ibid.*
- 126. Josephson, 471.
- 127. Faguet, *Vie de Rousseau*, 361; Ségur, *Julie de Lespinasse*, 203.

فهرس

صفحة

إهداء	٦
الكتاب الأول : مقدمة	٩
الفصل الأول : روسو جواب الآفاق ١٧١٢ - ١٧٥٦	٩
١ - الاعترافات	٩
٢ - التقى الشريد	١٤
٣ - ماما : ١٧٢٩ - ١٧٤٠	٢٢
٤ - ليون ، والبندقية ، وباريس : ١٧٤٠ - ١٧٤٩	٣٠
٥ - هل الحضارة مرض ؟	٣٨
٦ - باريس وجنيف . ١٧٥٠ - ١٧٥٤	٤٧
٧ - جرائم الحضرة	٥٣
٨ - المحافظ	٦٠
٩ - الهروب من باريس : ١٧٥٦	٦٢
الفصل الثاني : حرب الدين البع ١٧٥٦ - ١٧٦٣	٦٩
١ - كيف تشعل نار الحرب	٦٩
٢ - طريد القانون : ١٧٥٦ - ١٧٥٧	٨٠
٣ - من براغ إلى روسباخ : ١٧٥٧	٨٣
٤ - الثعلب يكره على الدفاع : ١٧٥٧ - ١٧٦٠	٩١
٥ - بناء الإمبراطورية البريطانية	١٠١
٦ - الإعياء : ١٧٦٠ - ١٧٦٢	١٠٥
٧ - الصلح	١١٠
الكتاب الثاني : فرنسا قبل الطوفان	١١٤
الفصل الثالث : حياة الدولة	١١٤

الصفحة

١١٤	١ - رحيل الخليفة
١١٨	٢ - إنتعاش فرنسا
١٢٢	٣ - الفزيوقراطيون
١٣١	٤ - ظهور طورجو ١٧٢٧ - ١٧٧٤
١٣٦	٥ - الشيوعيون
١٤١	٦ - الملك
١٤٤	٧ - دوبارى
١٤٨	٨ - شوازيل
١٥٠	٩ - تمرد البرلمانات
١٥٩	١٠ - رحيل الملك
١٦١	الفصل الرابع : فن الحياة
١٦١	١ - الفضيلة والكمياسة
١٦٦	٢ - الموسيقى
١٦٨	٣ - المسرح
١٧٤	٤ - مارمونتيل
١٧٧	٥ - حياة الفن
١٧٧	أ - النحت
١٨٢	ب - العمارة
١٨٥	ج - جروز
١٩١	د - فراجونار
١٩٦	٦ - الصالونات الكبرى
١٩٦	أ - مدام جوفران
٢٠٢	ب - مدام دو دفان
٢٠٨	ج - الأنسة دلبسيناس
٢١٨	الفصل الخامس : فولتير الشيخ : ١٧٥٨ - ١٧٧٨
٢١٨	١ - الإقطاعى الطيب

الصفحة

٢٢٤	٢ - صولجان القلم
٢٣١	٣ - فولتير السياسى
٢٣٨	٤ - المصلح
٢٤٢	٥ - فولتير الصميم
٢٥٠	الفصل السادس : روسو الرومانسى : ١٧٥٦ - ١٧٦٢
٢٥٠	١ - فى الإبرميتاج
٢٥٥	٢ - العاشق
٢٦١	٣ - لفظ كثير
٢٦٤	٤ - خصامه مع جماعة الفلاسفة
٢٧١	٥ - هلويز الجديدة
٢٨١	الفصل السابع : روسو الفيلسوف
٢٨١	١ - العقد الاجتماعى
٢٩٣	٢ - إميل
٢٩٣	أ - تربيته
٢٩٩	ب - ديانته
٣٠٩	ج - حبه وزواجه
٣١٠	الفصل الثامن : روسو المنهوذ : ١٧٦٢ - ١٧٦٧
٣١٠	١ - الهروب
٣١٥	٢ - روسو ورئيس الأساقفة
٣٢٣	٣ - روسو والكلفنيون
٣٢٦	٤ - روسو وفولتير
٣٣٠	٥ - بوزويل يلتقى بروسو
٣٣٤	٦ - دستور الكورسيكا
٣٣٦	٧ - السلاجىء
٣٤٣	٨ - روسو فى إنجلترا
٣٥٣	المراجع
٣٦٣	الفهرس